الموسوعة العلمية والأدبية

لقط الدراري

من مقتطفات الأنصاري

الجزء الثاني

عبدالله بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة
إدارة إحياء التراث الإسلامي
بدولة قطر

الموسوعة العلمية والأدبية

لقط الدراري

من مقتطفات الأنصاري

الجزء الثاني

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبعت على نفقة
إدارة إحياء التراث الإسلامي
بدولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفرة، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً – ﷺ – عبده ورسوله. (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً).

أما بعد: فإن هذا الكتاب ليس لي فيه إلاَّ الاختيار مما قرأت وطالعت، فقد اخترت فيه ما اعتقدت بأن ناشئتنا المسلمة في حاجة ماسة إليه لتصحيح عقائدها، وتزويدها بسلسلة من الآداب الاجتماعية التي توثق صلة بعضها ببعض، وتقوي الأواصر بينها، وتجعلها كالبنيان يشد بعضها بعضاً، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى؛ وتقدم لها الزاد الذي يشكل لديها حصانة ثقافية، ويولد عندها ثقة لما لدى الأمة المسلمة من مبادئ إنسانية وتشريعات وقوانين ربانية المصدر تمنعها من الذوبان في الثقافات الأجنبية والسقوط في حمأة التقليد المذموم الذي يمكن على أصالتها وذاتيتها، ويجعلها أتباع كل ناعق.

ونظراً لما للعقيدة من أهمية في حياة المسلم، كانت أولى اختياراتي من كتاب ((التوحيد)) للإمام الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله، وما ذلك إلا لأن الإيمان هو الركن الأساسي الذي بدأ به في الإسلام في تكوين شخصية المسلم، لأنه هو الجذر الأول في بناء هذه الشخصية، والعنصر الأساسي المحرك لعواطفه والموجه لإرادته، ومتى صحت عناصر الإيمان في إنسان استقامت الأساسيات الكبرى لديه فسلك طريق الحق والخير والرشاد، واستطاع أن يتحكم بسلوكه وان يضبطه... ألم يبق رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة المكرمة يدعو الناس إلى نبذ عبادة الأوثان والشرك، وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة والطاعة؟

يريد بذلك تحرير أرضية النفوس من كل العقائد الباطلة، والمعتقدات الفاسدة التي ليس لها أي أساس من منطق أو عقل، ليغرس فيها بعد ذلك أوليات العقيدة الإسلامية التي تقوم على الإيمان بالله سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره..

وكيف أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنس والجن إلا ليعبدوه ويلتزموا أوامره، ويجتنبوا نواهيه...

وأتبعتها بعد ذلك بالبحث الذي كتبه الشيخ مُحَمَّد بن سالم البيحاني رحمه الله تحت عنوان ((كيف تعبد الله تعالى)) والذي بدأه ببيان العقيدة الصحيحة التي يجب على المسلم أن يعتقدها، وثنَّى بتوضيح الحقوق والواجبات، والآداب الإسلامية التي يجب أن يتحلى بها الفرد المسلم، والعبادات المفروضة من صلاة وصوم وزكاة وحج...

ونظراً للدور الذي يؤديه المسجد في حياة الأمة المسلمة بدليل أن رسول اللهﷺ كان أول عمل بدأ به بعد وصوله دار هجرته ((المدينة المنورة)) بناء المسجد، فقد اخترت البحث الذي كتبه الشيخ البيحاني رحمه الله أيضاً تحت عنوان: ((نحو المسجد)) والذي بين فيه هذا الدور وواجب المسلمين نحو عمارة المساجد الحسية والمعنوية، عمارتها بالطاعة والالتزام والتواصل؛ وببنائها وحسن رعايتها والسهر على نظافتها وترميمها.

ومع الصحوة الإسلامية التي بدأت بوادرها منذ بدايات هذا القرن، حيث ارتفعت الأصوات مطالبة بتحكيم شرع الله سبحانه وتعالى، وبضرورة وضع الشريعة الإسلامية موضع التطبيق، وهجر القوانين الوضعية والتخلص منها، إلا أن بعض أصحاب الأقلام الملوثة من ربائب المنصرين والملحدين، ومن صرعى الغزو الفكري اللغربي، وقد هالهم هذا الأمر وأرعبهم لأنه يهدم ما بنى أسيادهم، ويفسد عليهم مخططاتهم، ويبطل مكرهم، اندفعوا ينعقون متهمين الشريعة الإسلامية بالجمود وعدم التطور، وبالتالي عدم الصلاحية للتطبيق في هذا الزمان، لذلك كان اختياري للرسالة التي وضعها الشيخ مُحَمَّد علوي المالكي الحسني تحت عنوان ((مفهوم التطور والتجديد في الشريعة الإسلامية)) لإلقامهم حجراً، ولوضع الأمور في موضعها الصحيح.

ولما كان الإسلام دين العدالة الاجتماعية والتكامل بين أفراد المجتمع المسلم، وكان مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، ذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وقد ورد في ألأثر أنه ما جاع فقير ولا عري إلا بظلم الغني، من هنا جاء اختياري للرسالة التي وضعها الشيخ رشيد التادفي الحلبي وسماها ((ترغيب الأغنياء في فضل السخاء وذم البخل)) ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

ولما كانت المرأة هي المنفذ والسلاح الذي اتخذه المنصرون وأعداء الإسلام لتقويض دعائم المجتمع الإسلامي بمحاولة القضاء على أخلاقه وعفته وطهارته، ولا يخفي على عاقل أهمية

الأخلاق في بناء الأمم وفي تقويض أركانها على حدٍّ سواء؛ فالتاريخ يذكر أن الحضارة الرومانية واليونانية والفارسية لم تسقط إلا بسبب انتشار التهتك والخلاعة، واختلاط المرأة سافرة متبرجة بالرجال في المنتديات العامة والحفلات وحمامات السباحة وما إلى ذلك.. وما بالنا بعيداً، فقد كان لفساد الأخلاق وانتشار الخلاعة دور كبير في سقوط دولة المسلمين في الأندلس، وفي ضياع قوة المسلمين وذهاب ريحهم في المشرق والمغرب على سواء، وصدق الشاعر عندما قال:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

من هنا جاء اختياري لما كتبه الشيخ الدكتور مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي محذراً الفتاة المسلمة من مكر الماكرين، وفساد المبطلين الذين لا يريدون إلا غويتها وإسقاطها لتكون متعة سهلة في متناول أيديهم، تحت عنوان ((إلى كل فتاة تؤمن بالله)) ولما كتبه الشيخ الدكتور مُحَمَّد بن لطفي الصباغ حول ((تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية والاختلاط المستهتر)) ولما كتبه فضيلة الشيخ علي الطنطاوي تحت عنوان ((يا بنتي)) وللمحاضرة التي ألقاها الأستاذ حامد مُحَمَّد الشيال ((الحجاب والسفور)) ولما تركه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حول ((حجاب المرأة المسلمة في الصلاة وغيرها)) وما كتبه الأخ طارق مُحَمَّد صالح في رسالته الموجهة للفتاة الجامعية ((إليك أيتها الأخت المسلمة)) وجعلت مسك الختام ما كتبته البنت السعودية الفاضلة زهرة أحمد الألمعي حول ((التبرج والحجاب على ضوء الكتاب والسنة)).

وإني إذ أقدم هذه الاختيارات للجيل المسلم والناشئة المسلمة أضرع إلى الله العلي القدير أن ينفع بها، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. والله الهادي إلى سواء السبيل وهو وحده من وراء القصد، وسبحان ربك ربّ العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

خام العلم

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

مدير إدارة إحياء التراث الإسلامي

-1-

من كتاب التوحيد

للشيخ الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله

ترجمة المؤلف

هو الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب بن سليمان الوهيبي التميمي. ولد في العيينة سنة 1115 هجرية ونشأ فيها، وكان والده قاضيها، وجده الشيخ سليمان من كبار علماء نجد.

تلقى عن والده العلوم الأولية، ثم سافر في طلب العلم إلى الإحساء والحجاز والبصرة، ورجع إلى نجد فقام بدعوته الإصلاحية، حاثّاً الناس على التمسك بالكتاب والسنة، ونبذ الضلالات التي دسها المفسدون بين الناس باسم الدين فكانت سبب هلاكهم. ودعا الأمراء لتطبيق أحكام الشرع.

وكاتب علماء المسلمين في شتى بلادهم وحضهم، على نصح الأمراء وتعليم العامة، وتصحيح عقائد الجميع مما أصابهم؛ فتعرض لغضب بعض المستغلين من الأمراء والعلماء، واضطر لمغادرة العينة عام 1157هـ. إلى الدرعية حيث تحالف مع زعيمها الأمير مُحَمَّد بن سعود على الدفاع على الدين، والعمل بالكتاب والسنة، ومحاربة البدع، ودعوة المسلمين للجهاد.

فجد ونشط في تعليم الناس، وكتابة الرسائل، وتأليف الكتب، وقد تألبت عليه وعلى حليفه مُحَمَّد بن سعود وابنه عبد العزيز الأعداءُ، واشتعلت نار الحرب بينهم وبين خصومهم.

ولم يمض على دعوته إلا القليل حتى كانت شبه الجزيرة العربية وأكثر بلاد اليمن وعُمان تطبق الأحكام الشرعية تحت لواء حكومتهم.

التقت دعوته مع الدعوات الإصلاحية التي قام بها المخلصون في العالم الإسلامي، فكان من ذلك يقظة عامة بين المسلمين نرجو الله – سبحانه – أن يديم جذوتها حتى تعم العالم ويعود العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ويكون الدين كله لله.

ترك عدداً من المؤلفات القيمة، وقد وفّق الله إلى طبع أكثرها. وكانت وفاته – عليه رحمة الله – عام 1206 هجرية الموافقة لعام 1792 ميلادية.

((9))

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [1] وقوله: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)[2] الآية. وقوله: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)[3] (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) [4] (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) [5].

قال ابن مسعود ﷺ: من أراد أن ينظر إلى وصية مُحَمَّد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إلى قوله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً...)[6] الآية.

((10))

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: ((يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟)) فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: ((فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً))، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: ((لا تبشرهم فيتكلوا؛)) أخرجاه في ((الصحيحين)).

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله، ففيه معنى قوله: (وَلَا أَنتُمْ عابدوُن ما أَعْبُدُ) [7].

---

[1] – سورة الذاريات الآية:56.

[2] – سورة النحل الآية:36.

[3] – سورة الاسراء الآية: 23 .

[4] – سورة النساء الآية: 36.

[5] – سورة الأنعام الآية: 151.

[6] – سورة الأنعام الآيات 151-153.

[7] – سورة الكافرون الآيتان: 3-5.

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، ففيه معنى قوله: (۞مَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ)[1].

((11))

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل، أولها: النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً) [2]؛ وختما بقوله: (وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً) [3]، ونبههنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)[4].

الحادية عشرة: آية النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة بدأها الله تعال بقوله: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً)[5].

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله تعالى علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

((12))

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

---

[1] – سورة البقرة الآية: 256.

[2] – سورة الإسراء الآية:22.

[3] – سورة الإسراء الآية: 39.

[4] – سورة الإسراء الآية: 39.

[5] – سورة النساء الآية: 36.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسرُّه.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

الباب الثاني

التوحيد وما يكفّر من الذنوب

وقول الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...)[1] عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من شهد أن لا إله إلا وحده لا شريك له، وأن مُحَمَّداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم،

وروح منه، والجنة حق، والنار حق. أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)). أخرجاه. ولهما من حديث عتبان: ((فإن الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)).

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: ((قال موسى: يا رب، علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب، كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهن – غيري – والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله)). رواه ابن حبان، والحاكم وصححه.

---

[1] – سورة الأنعام الآية: 82.

وللترمذي – وحَسَّنَهُ – عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تعالى: يا بن آدم؛ لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة))[1].

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب الوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

((14))

الرابعة: تفسير الآية ((82)) التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده، تبين لك معنى قول: ((لا إله إلا الله)) وتبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل ((لا إله إلا الله)).

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

الحادية عشرة: أن لهن عماراً.

الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافاً للأشعرية.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: ((فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)) أنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجميع بين كون عيسى ومُحَمَّد عبدي الله ورسوليه صلى الله عليهما وسلم.

---

[1] – لذلك فإن من شروط قبول التوحيد: اجتناب الشرك، فلو قال: لا إله إلا الله، ثم دعا غير الله، أو نذر، ذبح لغيره لم يكن موحداً..

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

((15))

السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: ((على ما كان من العمل)).

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.

العشرون: معرفة ذكر الوجه.

الباب الثالث

من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[1]، وقال: (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ)[2].

عن حصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدُغت؛ قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدَّثكم؟ قلت: حدثنا عن

((16))

بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة. قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع؛ ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: ((عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط؛ والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع ل ي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)) ثم نهض فدخل منزله.

---

[1] - سورة النحل الآية:120.

[2] - سورة المؤمنون:59.

فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: ((هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)) فقام عكاشة بن محصن. فقال: ادع الله يجعلني منهم. قال: ((أنت منهم)) ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: ((سبقك بها عكاشة)).

فيه مسائل:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

((17))

الثالثة: ثناؤه سبحانه وتعالى على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين.

الرابعة: ثناءه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا يعمل.

الثامنة: حرصهم على الخبر.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه ﷺ.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلة من استحباب للأنبياء.

الرابعة عشرة: أن من لم يحبه أحد يأتي وحده.

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمية.

((18))

السابعة عشرة: عمق السلف، لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا كذا، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

الثامنة عشرة: يُعْدُ السلف عن مدح بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: ((أنت منهم)) علم من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

الثانية والعشرون: حسن خلقهﷺ.

الباب الرابع

الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)[1]، وقال الخليل عليه السلام: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)[2]، وفي الحديث: ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر))، فسئل عنه؟ فقال: ((الرياء)) وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((من مات وهو يدعو من

((19))

دون الله ندًّا دخل النار)) رواه البخاري. ولمسلم عن جابر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار)).

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

---

[1] – سورة النساء الآية: 48.

[2] – سورة إبراهيم: 35.

الخامسة: قرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة. ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبد الناس.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر، لقوله: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ)[1].

((20))

العاشرة: فيه تفسير ((لا إله إلا الله))، كما ذكره البخاري.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

الباب الخامس

الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقوله الله تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادة أن لا إله إلا الله – وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله – فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)) أخرجاه.

ولهما عن سهل بن ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال

((21))

---

[1] – سورة إبراهيم الآية: 36.

[2] – سورة يوسف الآية: 108، وتمامها: (وسبحان الله وما أنا من المشركين).

يوم خيبر: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه)) فبات الناس يدوكون – أي يخوضون – ليلتهم أيهم يعطاها. فلما أصبحوا غدوا على رسول اللهﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: ((أين علي بن طالب؟)).

فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، وقال: ((انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم)).

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ.

الثانية: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرئض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: كونه تنزيهاً لله تعالى عن المسبَّة.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبةً لله.

السادسة: وهي من أهمها – إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة.

التاسعة: أن معنى: ((أن يوحدوا الله)) معنى شهادة: أن لا إله إلا الله.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: ((لأُعطينَّ الراية.. إلخ)) علم من أعلام النبوة.

العشرون: تفله في عينيه... علم من أعلامها أيضاً.

الحادية والعشرون: فضيلة علي ﷺ.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم – خوضهم – تلك الليلة عن بشارة الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر، لحصولهم لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: ((على رسلك)).

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: ((أخبرهم بما يجب عليهم)).

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد.

الثلاثون: الحلف على الفتيا.

الباب السادس

تفسير التوحيد والشهادة

وقول الله تعالى:(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)[1] الآية. وقوله: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) [2] الآية. وقوله: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)[3] الآية.

وفي ((الصحيح)) عن النبيﷺ أنه قال: ((من قال: لا إله إلا الله؛ وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل)) وشرح هذه الترجمة، ما بعدها من الأبواب.

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة وبينها بأمور واضحة.

منها: آية الإسراء، بين فيها الرد على المشركين الذي يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

((25))

ومنها: آية براءة، بين فيها أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا
إلهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعة العلماء والعباد في المعصية، لا دعاؤهم إياهم.

ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: (إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي)[4] فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة: هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [5].

ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)[6] ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام،

---

[1] – سورة الإسراء الآية : 57.
[2] – سورة الزخرف:26-27.
[3] – سورة البقرة الآية: 165.
[4] – سورة الزخرف الآية: 26.
[5] – سورة الزخرف الآية:28.
[6] – سورة البقرة الآية: 167.

فكيف بمن أحب الندَّ حباً أكبر من حب الله؟! فكيف بمن لم يحب إلا الندَّ وحده، ولم يحب الله؟!

ومنها: قوله ﷺ: ((من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله)) وهذا من أعظم ما

((26))

يبين معنى ((لا إله إلا الله)) فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم، والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك: الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلّها، ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

الباب السابع

ما جاء في لبس الحلقة والخيط

وقول الله تعالى: (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ)[1] الآية.

عن عمران بن حصين ﷺ، أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر، فقال: ((ما هذا ؟)) قال: من الواهنة. فقال: ((انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبداً)) رواه أحمد بسند لا بأس به.

وله من عقبة بن عامر ﷺ مرفوعاً: ((من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له)) وفي رواية: ((من تعلق تميمة فقد أشرك)).

((27))

ولابن أبي حاتم عن حذيفة، أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) [2].

---

[1] – سورة الزمر الآية: 38.

[2] – سورة يوسف الآية:106.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. فيه شاهد لكلام الصحابة: إن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر – وفي بعض النسخ ((أكبر الكبائر)).

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر، لقوله ﷺ: ((لا تزيدك إلا وهناً)).

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلّق شيئاً وُكِّل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلّق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة، أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له، أي لا ترك الله له.

الباب الثامن

ما جاءَ في الرّقى والتمَائم

في ((الصحيح)) عن أبي بشير الأنصاري ﷺ، أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يبقينَّ في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قطعت.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الرقى والتمائم والتّولة شرك)) رواه أحمد وأبو داود.

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: ((من تعلق شيئاً وُكِّل إليه)). رواه أحمد والترمذي.

التمائم: شيء يعلق على الأولاد من العين، لكن إذا كان المعلق

((29))

من القرآن، فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم: ابن مسعود ﷺ.

الرقي: هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمى.

والتّولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وروى أحمد عن رويفع، قال: قال لي رسول ﷺ: ((يا رويفع لعل الحياة نطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن مُحَمَّداً برئ منه)).

وعن سعيد بن جبير ﷺ، قال: ((من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة)) رواه وكيع. وله عن إبراهيم بن يزيد النخعي، أبو عمران – قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقى والتمائم.

الثانية: تفسير التّولة.

الثالثة: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.

((30))

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمى، ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين، من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمةً من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم – النخعي – لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

الباب التاسع

من تبرّك بشجر أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى، تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى) [1].

عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها

((31))

وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط؛ فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: ((الله أكبر، إنها السنن، قلتم – والذي نفسي بيده – كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) [2] لتركبن سنن من كان قبلكم)). رواه الترمذي وصححه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهدوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

---

[1] – سورة النجم الآية: 19- 22.

[2] – سورة لأعراف الآية: 138.

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: ((الله أكبر، إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم) فغلَّط الأمر بهذه الثلاث.

((32))

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) [1].

التاسعة: أن نفي هذا، من معنى ((لا إله إلا الله)) مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفُتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا.

الثانية عشرة: قولهم: نحن حدثاء عهد بكفر؛ فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: ذكر التكبير عند التعجل، خلافاً لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية، لقوله: ((إنها السنن)).

الثامنة عشرة: أن هذا عَلم من أعلام النبوَّة، لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

((33))

العشرون: أنه متقرّرٌ عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أمَّا ((مَن ربك؟)) فواضح، وأما ((من نبيك ؟)) فمن إخباره بأنباء الغيب، وأمَّا ((ما دينك ؟)) فمن قولهم: ((اجعل لنا إلهاً)). إلخ.

الحادية والعشرون: أن سُنَّة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.

---

[1] – سورة الأعراف الآية: 138.

الباب العاشر

ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ)[1] الآية، وقوله: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)[2].

عن علي رضي الله تعالى عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: ((لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غيَّر منار الأرض)) رواه مسلم.

((34))

وعن طارق بن شهاب، أن رسول الله ﷺ، قال: ((دخل الجنة رجل في ذُباب، ودخل النار رجل في ذباب)). قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: ((مّر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزُه أحد حتى يقرَّب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرَّب . قال: ليس عندي شيء أقرَّب. قالوا له: قرب ولو ذباباً، فخلوا سبيله؛ فدخل النار. وقالوا للآخر: قرَّب. فقال: ما كنت لأُقرَّب لأحد شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة)) رواه أحمد.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير (إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي).

الثانية: تفسير (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ).

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه: أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامسة: لعن من آوى مُحدثاً، وهو الرجل يُحدث شيئاً يجب فيه لله فيلتجئ إلى من يجبره من ذلك.

السادسة: لعن من غَّير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك من الأرض وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير.

---

[1] – سورة الأنعام الآيتان: 163-164.

[2] – سورة الكوثر الآية: 2.

السابعة: الفرق بين لعن المعيَّن، ولعن أهل المعصية على سبيل العموم.

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده؛ بل فعله تخلصاً من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل، ولم يوافقهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر.

الحادية عشرة: أن الذي النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل: ((دخل النار في ذباب)).

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح ((الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك)).

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.

الباب الحادي عشر

لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً)[1] الآية.

عن ثابت بن الضَّحاك ﷺ، قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببُوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: ((هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟)) قالوا: لا. قال: ((فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟)) قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: ((أَوْفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدام)) رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً).

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينية ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدام فيما لا يملك.

---

[1] – سورة التوبة الآية: 107.

الباب الثاني عشر

من الشّرك: النّذر لغير الله

وقول الله تعالى: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)[1] وقوله تعالى: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ)[2].

وفي ((الصحيح)) عن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ قال: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه).

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

---

[1] – سورة الدهر الآية: 7.

[2] – سورة البقرة الآية: 270.

الباب الثالث عشر

من الشرك: الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)[1].

وعن خولة بنت حكيم ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرَّ ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك)). رواه مسلم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء استدلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به مصلحة دنيوية، من كَفَّ شر، أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك.

---

[1] – سورة الجن الآية:6.

الباب الرابع عشر

من الشرك: أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غير الله

وقول الله تعالى: (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ، إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)[1] الآية. وقوله: (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ)[2] الآية. وقوله: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[3] الآيتان. وقوله: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)[4].

وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. فقال النبي ﷺ : ((إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل)).

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) [5].

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً.

---

[1] – سورة يونس الآيتان: 106و 107.

[2] – سورة العنكبوت الآية: 17.

[3] – سورة الأحقاف الآية : 5.

[4] – سورة النمل لآية: 62.

[5] – سورة يونس الآية:106.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: أن هذه الأمور سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب هو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد والتأدب مع الله عز وجل.

الباب الخامس عشر

أنواع من الشرك

قول الله تعالى: (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً)[1] الآية. وقوله: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)[2]

وفي ((الصحيح)) عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أُحد وكسرت رباعيته، فقال: ((كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟)) فنزلت:(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)[3]

---

[1] – سورة الأعراف الآيتان: 191، 192

[2] – سورة فاطر الآية: 13

[3] – سورة آل عمران الآية: 128.

((42))

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إ ذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: ((اللهم العن فلاناً وفلاناً)) بعد ما يقول: ((سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد)) فأنزل الله: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)[1]، وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ).

وفيه عن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)[2]قال: ((يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت مُحَمَّد ﷺ، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً)).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

الثانية: قصة أُحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يُؤَمَّنون في الصلاة.

((43))

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجهم نبيهم، وحرصهم على قتله، ومنها: التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ).

السابعة: قوله: (أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)[3]. فتاب عليهم، فآمنوا.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

---

[1] – سورة آل عمران الآية: 128.

[2] – سورة الشعراء الآية:214.

[3] – سورة آل عمران الآية: 128.

العاشرة: لعنة المعين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [1].

الثانية عشرة: جدُّه ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة : قوله للأبعد والأقرب: ((لا أغني عنك من الله شيئاً)) حتى قال: ((يا فاطمة بنت مُحَمَّد لا أغني عنك من الله شيئاً))

((44))

فإذا صرح ﷺ وهو سيد المرسلين أنه لا يغني عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن، تبين له التوحيد وغربة الدين.

الباب السادس عشر

أنواع من الشرك

قول الله تعالى: (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)[2].

وفي ((الصحيح)) عن أ بي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إذا قضي الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير) فيسمعها مسترق السمع – ومسترق السمع، هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بكفه، فحرَّفها وبدَّد أصابعه – فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا: كذا وكذا، فيصدق تلك الكلمة التي سمعت من السماء)).

---

[1] – سورة الشعراء الآية:214.

[2] – سورة سبأ الآية: 23.

((45))

وعن النواس بن سمعان ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر، تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة – أو قال رعدة شديدة – خوفاً من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخرَّوا لله سجداً. فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكته: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: (قال الحق وهو العلي الكبير) فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل؛ فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل)).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: (قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)[1].

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

((46))

الخامسة: أن جبريل هو الذي يجيبهم بعد ذلك بقوله ((قال كذا وكذا)).

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل.

السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم، لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السمات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب.

---

[1] – سورة سبأ الآية: 23.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق في بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

((47))

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!

التاسعة عشرة: كونهم يلقي بعضهم إلى بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي كانا خوفاً من الله عز وجل.

الثانية والعشرون: أنهم يخرُّون لله سجداً.

الباب السابع عشر

الشفَّاعة

وقول الله تعالى: (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ)[1]؛ وقوله: (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً)[2]؛ وقوله: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)[3]؛ وقوله: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى)[4]؛

((48))

---

[1] – سورة الأنعام الآية: 51.

[2] – سورة الزمر الآية: 44.

[3] – سورة البقرة الآية: 255.

[4] – سورة النجم الآية:26.

وقوله (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ)[1].

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: (وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى)[2] .

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسَل تُعط، واشفع تُشفَّع.

وقال له أبو هريرة: مَن أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: ((من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)) فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله)).

وحقيقتة: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. انتهى كلامه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفيَّة.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأُ بالشفاعة أولاً، بل يسجد، فإذا أذن الله له شفع.

السادسة: من أسعد الناس بها؟

السابعة: بيان حقيقتها.

---

[1] – سورة سبأ الآية: 22.

[2] – سورة الأنبياء الآية: 28.

الباب الثامن عشر

إنكَ لا تهدي من أحبَبْت

قول الله تعالى: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)[1].

وفي ((الصحيح)) عن ابن المسيب عن أبيه قال: ((لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إ له إلا الله. فقال النبي ﷺ: ((لأستغفرنَّ لك ما لمْ أُنه عنك)) فأنزل الله عز وجل: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ)[2] الآية؛ وأنزل الله في أبي طالب : (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)[3].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ).

الثانية: تفسير قوله: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ).

الثالثة: وهي المسألة الكبرى – تفسير قوله ﷺ ((قل: لا إله إلا الله)) بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: ((قل لا إله إلا الله)) فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جدة ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.

---

[1] – سورة القصص الآية: 56.

[2] – سورة التوبة الآية: 113

[3] – سورة القصص الآية: 56.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك، لاستدلال أبي جهل بذلك.

الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم، اقتصروا عليها.

((52))

الباب التاسع عشر

الغلو في الصالحين وما يسبب من كفر

وقول الله عز وجل: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)[1]. وفي ((الصحيح)) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً)[2]؛ قال:((هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم؛ ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم، عُبدت)).

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم؛ ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)) أخرجاه.

ولمسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ((إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)).

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ((هلك المتنطّعون)) قالها ثلاثاً.

فيه مسائل:

---

[1] – سورة النساء الآية: 171.

[2] – سورة نوح الآية:23.

الأولى: أن مَنْ فهم هذا الباب وبابين بعده، تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غُير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردُّها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل: فالأول محبة الصالحين، والثاني فعل أُناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً، فظن مَن بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية في سورة نوح.

السابعة: جِبلَّة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

الثامنة: أن فيه شاهداً لم نُقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلوَّ، ومعرفة ما يؤول إليه.

الحادية عشرة: مضرَّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القص ة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه، فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم)) فصلوات الله وسلامه على من بلّغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

((55))

التاسعة عشرة: الصريح بأنها لم تُعبد حتى نُسخ – في الأصل نُسي – العلم، ففيها معرفة قدر وجوده ومضرَّة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

الباب العشرون

التغليظ على من عبد الله عند قبر رَجُل صالح

فكيف إذا عَبَدَهم

في ((الصحيح)) عن عائشة ﵂ أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض بالحبشة وما فيها من الصور، فقال: ((أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)) فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين، فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها قالت: ((لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها، فقال وهو كذلك: ((لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرز قبره، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً، أخرجاه.

((56))

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل موته بخمس وهو يقول: ((إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك)).

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن – وهو في السياق، سياق الموت: النزع – من فعله، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبين مسجد، وهو معنى وقولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصد الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود ﵁ مرفوعاً: ((إن شرار الناس من

تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد)) ورواه أبو حاتم في ((صحيحه)).

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

((57))

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك كيف بيَّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق – النزع – لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجداً.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مساجد وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم: الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

((58))

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

الباب الحادي والعشرون

الغُلو في قُبُور الصالحين يُصيِّره أوثاناً

روى مالك في ((الموطأ)): أن رسول الله ﷺ قال: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى)[1] قال: كان – اللات – يليت لهم السويق، فعكفوا على قبره. وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج. رواه أهل السنن [2].

((59))

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان.

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: وهي من أهمها: معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

---

[1] – سورة النجم الآية:19.

[2] – قال ناصر الدين الألباني: وإسناده ضعيف، لكن للجملة الأولى والثانية شواهد كثيرة ذكرتها في ((تحذير الساجد)).

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنة زوَّارات القبور.

العاشرة: لعنة من أسرجها[1].

((60))

الباب الثاني

حماية التوحيد، وسدّ طرق الشرك

وقول الله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)[2].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلّوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات.

وعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها، فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: ((لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلّو عليَّ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم)). رواه في ((المختارة)).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه ﷺ علينا ورأفته ورحمته.

((61))

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

---

[1] – لكن الحديث في ذلك ضعيف كما سبق آنفاً، وليس له شاهد يقويه، كما بينته في ((إرواء الغليل)) فيكفي في النهي عن ذلك أنه إضاعة للمال وت شبه بالكفار. (الألباني).

[2] – سورة التوبة الآية:128

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلي في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعُد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

الباب الثالث والعشرون

بَعض هذه الأمّة يَعبُدُ الأوثان

وقول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ)[1] وقوله تعالى: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) [2]؛ وقوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)[3].

((62))

عن أبي سعيد ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذَّة بالقذَّة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)). قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: ((فمن؟)) أخرجاه. ولمسلم عن ثوبان ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم. إن ربي قال: يا مُحَمَّد، إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً). رواه البرقاني في ((صحيحه)) وزاد ((وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي

---

[1] – سورة النساء الآية: 50.

[2] – سورة المائدة الآية 60.

[3] – سورة الكهف الآية: 21.

بالمشركين، وحتى يعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي, أنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى[1].

((63))

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: وهي أهمها – معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع: هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: وهي المقصود بالترجمة – أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أ بي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنة: العجب العجاب خروج من يدعي النبوة، مثل: المختار، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن ا لقرآن حق، وفيه أن مُحَمَّداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح؛ وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

((64))

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

---

[1] – رواه بهذه الزيادة أو داود بسند صحيح.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة، منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر، بخرف الجنوب والشمال، وإخباره بأنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره منع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحد منها من أبعد ما يكون في العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

– 2 –

كيف تعبد الله تعالى

للشيخ مُحَمَّد بن سالم البيحاني رحمه الله

((67))

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة في العقائد والواجبات الاجتماعية، وفي العبادات البدنية والآداب الإسلامية.

جمعها للعامة والمبتدئين من طلبة العلم العبد الفقير إلى ربه: مُحَمَّد بن سالم الكدادي البيحاني عفا الله عنه.

الحمد لله الذي لا إله غيره ولا معبود سواه، أمرنا بالطاعة، وجع ل الثواب عليها الجنة والرضوان، ونهانا عن المعصية، وجعل الجزاء عليها النار والحرمان؛ أحمده تعالى غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إ له إلا هو إليه المصير؛ والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى التابعيين لهم بإحسان، الذين حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون.

وبعد: فقد طلب إليّ أن أكتب للمسلم العامي الذي لا يجد فراغاً من الوقت للتفقه في الدين كما ينبغي، وليس أهلاً للتعلم

((68))

التام، والتوسع في معرفة العقائد والأحكام، طلب إليّ أن أعلم هذا النوع من الناس كيف يعبد الله، بكتابة سهلة، وأسلوب لا يبعد فهمه، ولا يحتاح معه القارئ إلى شرح ولا تعليق، ولا إلى معلم يوضح له العبارة، أو يظهر له خفي الإشارة، فأجبت الطلب، وأسأل الله أن يوفقني للعمل الصالح والإخلاص الذي هو سبب القبول، وأن ينفع بهذه المجموعة المطلعين عليها والمشتغلين بها.

العقائد والإيمان

من ربك يا أخي؟

ربي الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، عالم الغيب والشهادة، خالق كل شيء، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن؛ فيكون، له الملك وله الحمد، يحي ويميت وهو على كل شيء قدير. لا يضر ولا ينفع، ولا يخفض ولا يرفع، ولا يعطي ولا يمنع، إلا هو سبحانه وتعالى، لا تسأل الحاجات إلا منه، ولا يقضيها إلا هو، غني عن الخلق أجمعين، محتاج إليه كلّ مخلوق،

وأنا لا أعبد إلا الله عز وجل، ولا أستعين إلا به، ولا أرجو إلا فضله، ولا أخاف إلا منه، ولا أحلف بغيره، ولا أركع ولا أسجد

((69))

ولا أذبح، ولا أحلق، ولا أنذر إلا له تعالى، وإذا عبدته فكأني أراه [1]، وإن كنت أنا لا أراه فهو يراني، سبحانه: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) [2]. أخصه بالعبادة ولا أصرف منها شيئاً إلى غيره،

كيف لا، وهو الله الذي أوجدني من العدم، وملأ بالرحمة والشفقة عليَّ قلبَ أمي التي حملتني وربتني على خير ما يرام، وقلب أبي الذي كان يرعاني بعين عنايته، ويسعى عليَّ في طلب الرزق وما لابد منه في هذه الحياة، صغيراً وكبيراً. كيف لا أعبد الله وهو الذي يطعمني ويسقين، ويميتني ويحيين (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) [3] – وأطمع فيه تعالى أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين.

وأنا أعتقد أن الله جل شأنه وعظم سلطانه، قديم قبل كل شيء، وباقٍ بعد كل شيءٍ، موصوف بكل كمال، منزه عن كل نقص، وكل ما جاء في القرآن العظيم وكلام النبي ﷺ من صفات ربي تعالى، فأنا أ قرأه وأومن به، سواء فهمت معناه أو لم أفهمه؛ ولا أتقول على الله غير الحق، ولا أقول فيه بالباطل، ولكن إيماني به تعالى كإيمان الصحابة ﷺ، ومذهبي في التوحيد، مذهب السلف الأُول.

((70))

وأعلم أنه من مات لا يشرك شيئاً دخل الجنة على ما كان منه العمل. والمؤمن يخرج من النار، ولا يخلد فيها أبداً وإن كثرت ذنوبه وعظمت خطاياه، وع ذاب القبر ثابت بالسنة الصحيحة، والجنة والنار حق. و (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)[4].

وأعتقد أيضاً أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم؛ ومن أشرك مع الله أحداً في عمل يتقرب به إليه فعمله مردود عليه؛ والسمعة والرياء من الشرك الأصغر؛ ولله

---

[1] – الإحسان: أن تعبد الله كأنه يراك، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

[2] – سورة الأنعام الآية:103.

[3] – سورة الشعراء الآية:80.

[4] – سورة فصلت الآية:46.

وحده التدبير والخلق والأمر، (لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[1]. وهو حكيم لا يفعل إلا الأصلح، وهو العدل لا يؤاخذ إلا بذنب. وقد حرم الظلم على نفسه وجعله محرماً بين عباده، يهدي من يشاء؛ (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)[2]، ويضل من يشاء، (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)[2]. نعمه لا تعد، وفضله لا يحد، (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)[3].

وأعلم علم اليقين أن الله إذا دعي استجاب، وإذا رجع إليه عبده الآبق غفر له وتاب عليه. أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة،

((71))

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [4]. والقريب المجيب الذي هو أرحم بعبده من الوالدة بولدها، لا يحتاج أن أجعل بيني وبينه واسطة، ولا أدخل بيني وبينه أحداً. ولا أتوسل إليه إلا بترك المعصية وفعل ما أ قدر عليه من الطاعة، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [5].

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)[6].

وقضاء الله مبرم، وحكمه لا يتغير، وقدرته تعالى لا تتعلق إلا بالممكن، وبها تقوم السموات والأرض، وتجري الرياح وتنشأ السحب وينزل المطر، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، بسط الأرض وأجرى الماء وجعل منه كل شيء حي، (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)[7].

---

[1] – سورة الأنبياء الآية:23.

[2] – سورة الكهف الآية: 17.

[3] – سورة إبراهيم الآية: 34.

[4] – سورة غافر الآية: 60.

[5] – سورة المائدة الآية:35.

[6] – سورة البقرة الآية:186.

[7] – سورة هود الآية: 6.

ورفع السماء وزينها بالكواكب، وجعل الشمس سراجاً والقمر نوراً (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) [1]، وخلق الإنسان، وعلمه البيان، وفضله على سائر الحيوان بالعقل واللسان، وتعبده بالتكاليف وعرفه

((72))

أولاً بالعقل، وثابتاً بالرسل والكتب ما يطلب منه وما يحرم عليه، فالدين الصحيح لا يختلف مع العقل الصحيح. وإرادته سبحانه لا تتعلق إلا بالمقدور عليه، ولا مكره له ولا يعجزه شيء سبحانه يفعل ما يريد. وعلمه بالجزئيات كعلمه بالكليات، (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)[2]، لا تخفى عليه خافيه في سر ولا علانية، (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)[3].

((أحسنت يا أخي))، فلقد أوفيت وأشفيت، وعبدت الله الذي لا يستحق العبادة غيره. ولكن:

بأي شيء عرفته ؟ وما هي الأدلة التي تثبت لك وجوده تعالى، وأنه كما وصفته سابقاً؟

عرفته تعالى بآلائه وبما بسط علينا من نعمائه، وهذا الوجود وما فيه يدلنا تماماً على أنه مصنوع ومدبر بحكمة بالغة، والموجود لابد له من صانع وموجد، فمدبر الكون وصاحب الحول والقوة، إنما هو الله (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)[4].

((73))

ولما قرأت قوله تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)[5]. علمت علمت أيضاً أن الذي خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، والذي أحاطه بعنايته وهو في أظلم مكان، ورزقه وهو ضعيف لا يقدر على شيء جنيناً وطفلاً هو وحده لا شريك له، المستحق للربوبية والألوهية. والذي أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع

---

[1] – سورة النحل الآية:16.

[2] – سورة الأنعام الآية: 80.

[3] – سورة الرعد الآية:10.

[4] – سورة طه الآية: 50.

[5] – سورة الذاريات الآية:23.

في الأرض، وأخرج به نبات كل شيء، حباً، وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلباً. وفاكهة وأباً. متاعاً لكم ولأنعامكم، والذي أوجد سبحانه أصناف الحيوان وفيها منافع للناس، مذللة

يركبونها ويحملون عليها الأثقال، ويحلبون منها الألبان ويستخرجون منها الزيوت، وينتفعون منها باللحوم والجلود والصوف والشعر والوبر والريش وغير ذلك، والذي خلق البحر وأخرج منه لحماً طرياً وحلية تلبسونها، وعنبراً وملحاً وصدفاً وقسطاً، وسخر فيه الفُلك تجري بأمره، وجعل الرياح لواقح يثير بها السحاب ويدفعه به إلى حيث يشاءُ تعالى، هو الإله المعبود وحده.

وبنور شمسه وضياء قمره تنتعش الحيوانات ويحيا النبات

وتختلف الألوان، وتعرف الطرق، وتجفف الرطوبات، وينقى الهواء وتتوفر الصحة. وفي الإنسان من حواس الطعم والشم والسمع والبصر واللمس، ما يدرك به المحسوسات الكثيرة الدالة على حكمة صانعها وعظيم قدرته، وبذلك عرفته ولذلك عبدته كما أمرني بقوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)[1].

ملائكة الله

وهل تعتقد يا أخي بوجود الملائكة؟ وأي خلق يكونون؟ نعم: أعتقد أن الله عز وجل قد خلق أجساماً لطيفة نورانية ليست ذكوراً ولا إناثاً: لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتناكحون. مسكنهم السموات، ودأبهم العبادات، (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[2].

وهؤلاء هم الملائكة، ومنهم: الخزنة وملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولكثير منهم وظائف معروفة، فمثلاً: جبريل عليه السلام أمين الله على الوحي، وعلى يديه يعذب الله من خالف

[1] – سورة الذاريات الآية:58.

[2] – سورة التحريم الآية: 6.

أمره في الدنيا بالخسف والغرق والصيحة، وهو رسول الله وإلى الأنبياء والمتردد عليهم بأمر ربه. ونزوله أكثر ما يكون على سيدنا مُحَمَّد ﷺ. وهو الروح الأمين الذي وصفه الله تعالى بقوله: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [1].

وميكائيل: الذي يكيل الماء ويوزعه على السحب، ويفرق أرزاق العباد عليهم.

وإسرافيل: الموكل بنفخ الصور عند قيام الساعة.

وملك الموت: الموكل بقبض الأرواح.

واللذان يكتبان الحسنات والسيئات، رقيب وعتيد.

واللذان يسألان الميت في قبره، منكر ونكير.

ورئيس خزنة النار، مالك.

ورئيس خزنة الجنة، رضوان.

ومنهم الموكل بالمطر، والموكل بالنبات، وآخرون موكلون بالأرحام وحركات الفلك وتصريف الرياح، ومناصرة الحق وأهله ومحاربة الباطل وأهله، ولا يعتريهم الملل ولا السآمة، دائبون في أعمالهم يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، وهم

قادرون على التشكيل بالصور الطيبة. وخلقهم الأصلي عظيم ولا يطيق رؤيتهم كذلك إلا من أهله الله لذلك ويراهم الناس بعد الموت. وهم يقولون لأهل النار: (أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)[2]. ويقولون لأهل الجنة: (سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)[3].

وأنا أعتقد أنهم لا يملكون الشفاعة إلا بإذن الله، (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى)[4]. ومن قال: إنهم بنات الله فهو

---

[1] – سورة الشعراء الآية:195.

[2] – سورة غافر الآية: 50.

[3] – سورة الزمر الآية: 73.

[4] – سورة النجم الآية:26.

كافر، (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ)[1]. (وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلونَ)[2].

ولا أدري متى خلقهم الله تعالى، ولا كيف كان ابتداء خلقهم. ولكل إنسان ملك وشيطان، وبالطاعة والمعصية يتغلب عليه هذا أو هذا.

وأعتقد أن الله خلقاً آخر مثلنا بأصول الشريعة وفروعها: وهم ((الجن))، يروننا في الدنيا ولا نراهم، وفيهم المسلم والكافر، ومنهم الطائع والفاجر،

((77))

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً)[3] وأصلهم مخلوقون من مارج من نار، وبها يعذب العاصي منهم. وهم قادرون على التشكيل أيضاً بصور خبيثة مختلفة، ورئيسهم: إبليس، وهو الشيطان عدو البشرية والأرواح الإنسانية بالمس والأذى والإضلال عن سبيل الله، وإنما ترسل الشياطين على الكافرين فتؤزهم أزًّا (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)[4].

ولا أصدق بالأوهام والتخيلات والرزع الزار والأحلام المخيفة، وإنما ذلك نتيجة الغفلة عن ذكر الله وتحكم الشياطين في الجهال وأهل المعصية، (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)[5]. والتحصن باسم الله وآيات كتابه العزيز والأذكار والدعوات الثابتة عن النبي ﷺ، مطرودة للشيطان ونجاة منه ومن أتباعه وجنوده. وللناس أفضل من الجن. وخصوص البشر أفضل من عموم الملائكة. وكل ما ثبت بالدليل الصحيح في أخبار الملائكة والجن، فإنني مؤمن ومسلم به. وأنا إن شاء الله من (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)[6].

((78))

---

[1] – سورة المؤمنون الآية: 91.

[2] – سورة الزخرف الآية: 19.

[3] – سورة الجن الآية:1-2.

[4] – سورة الأنعام الآية: 112.

[5] – سورة الزخرف الآية:36.

[6] – سورة البقرة الآية:3.

كتب الله

وكذلك أعتقد أن الله موصوف بصفة الكلام، وبكلامه تعالى، أنزل كتبه المقدسة على أنبيائه ورسله، صلى الله وسلم عليهم أجمعين. وأشهر الكتب المنزلة من السماء: توراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، والقرآن الذي جاء به خاتم الرسل مُحَمَّد بن عبد الله، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام.

وجميع الشرائع السماوية مستمدة من هذه الكتب، ومن الوحي الذي يأتي به الملك إلى الأنبياء، والذي يكلم به الله من شاء من عباده من وراء حجاب أو يقذفه نوراً في قلبه مباشرة وبغير واسطة. وأفضل الكتب كلها: كتاب الله تعالى القرآن الذي (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[1]، سالم من التصحيف والتحريف، محفوظ من التغيير والتبديل، معجز بلفظه متعبد بتلاوته، وجميع ما فيه معمول به. وأنا ولله الحمد ممن يحل حلاله ويحرم حرامه، وهو شفاء ورحمة وهدى نور. ولا أمسه ولا أتلوه إلا طاهراً. وأعتقد أن أهل الأرض كلهم لو أخذوا بالقرآن لوسعهم. ولو جعلوه أ صلاً يرجعون إليه في شؤون دنياهم وآخرتهم لوجدوا فيه ما يكفيهم عن الأوضاع البشرية من الأحكام

والأخلاق الحدود والعقوبات التي يحفظ بها الحق، ويسلم الوطن وتهذب النفس، ويستقيم الدين. وتلاوة القرآن واجبة الاتباع لما يتلقاه خلف المسلمين عن سلفهم، لا لحن ولا تمطيط. ولحامله فضل على غيره. ولقارئه بكل حرف منه حسنة كاملة (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)[2].

رسل الله

ولله صفوة من خلقه وخيرة من الناس، اصطفاهم واجتباهم ليكونوا هم الدعاة إليه والأدلاء عليه، وأوحى إليهم بالشرائع المناسبة للأزمنة والأمكنة التي يعيشون فيها، (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

---

[1] – سورة فصلت الآية:42.

[2] – سورة القمر الآيات: 17، 22، 32، 40.

رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)[1]. ومن أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه فهو نبيّ، وعدد الأنبياء كثير، ويقال: إنهم أربعة وعشرون ومائة ألف، من لدن آدم إلى مُحَمَّد عليهم الصلاة والسلام.

ومن أمره الله بتبليغ ما قال له وأوحى به إليه، فهو رسول. وشرطة أن يكون إنساناً حراً ذكراً ل يس بذي خسة ولا دناءة، شريف الأصل، كامل المروءة، يبعثه الله غالباً في تمام أربعين سنة من عمره، وربما كان نبياً وما يزال صبياً، (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً)[2]. وقال عيسى عليه السلام وهو في المهد:

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً)[3]. ويجب في الرسول أن يكون مشهوراً بصدقه وأمانته وقوة حجته وفصاحة منطقه وبلاغة أسلوبه، ثم هو لا يكتم مما أمره الله بتبليغه، (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)[4]. وعدد الرسل كثير، وقيل: إنهم ثلاث مائة وثلاثة عشر أو أربعة أو خمسة عشر، وأفضلهم الذين ذكروا في القرآن الكريم: آدم، وإدريس، ونوح، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، واليسع، وذو الكفل، وإلياس، يونس، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمدٌ، صلى الله عليهم أجمعين. وأفضلهم أولو العزم المذكورين في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)[5].

وأفضل الجميع بل الخلق على الإطلاق هو سيدنا مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي العربي، من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. وأمة آمنه بنت وهب الزهرية. ولد بمكة ونشأ بها وبعث فيها، وأقام هنالك بعد البعثة قريباً من ثلاث عشرة سنة، وهاجر إلى المدينة وأقام فيها عشر سنين ثم مات بها، وقبره مشهور معروف في الحرم

---

[1] – سورة إبراهيم الآية: 4.

[2] – سورة مريم الآية:12.

[3] – سورة مريم الآية:30.

[4] – سورة المائدة الآية: 67.

[5] – سورة الأحزاب الآية: 7.

المدني زاده الله شرفاً وتعظيماً، وكان معترفاً له بين أتباعه وأعدائه على السواء، بالصدق والأمانة، والصبر والشجاعة، والحلم والأناة، والرفق في موضعه والشدة في موضعها، كريماً سخياً يهب الكثير ويعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، ويصل الرحم ويقري الضيف، ويحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الحق، صبيح الوجه، فصيح اللسان، مليح المعاشرة، ينزل الناس منازلهم ولا يضع الشيء إلا في محله اللائق به، ولا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا من الحلال.

وكان يشتغل قبل النبوة بالتجارة ورعي الغنم. وتزوج أولاً بالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وسنه حينئذ خمس وعشرون سنة، وعاشت معه سبعاً وعشرين سنة. وتزوج بعدها بعدة نساء، ومات عن تسع منهن في عصمة نكاحه: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وسودة بنت زمعة، وزينب بنت جحش، وأم سلمة هند بنت أبي أمية، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وصفية بنت حييّ بن أخطب، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية.

وأولاده سبعة: ثلاثة ذكور وأربع إناث. وهم: القاسم، وعبد الله ويلقب بالطيب والطاهر، وإبراهيم، وزينب، ورقية، وأم كلثوم

وفاطمة الزهراء عليهم السلام. وكلهم من خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية سرية النبي ﷺ. وأعمامه اثنا عشر، والمسلم منهم الحمزة والعباس، فقط. وعماته ست، وأشهرهن في الإسلام صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام.

والكتاب المنزل عليه ﷺ، هو القرآن كما تقدم. والدين الذي جاء به هو الإسلام. وكان يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط، حتى أذن الله له في الجهاد للدفاع عن النفس والدين والشرف، فكانت له غزوات وسرايا وبعوث. وأشهر الغزوات غزوة بدر، وأحد والأحزاب، وبني قريظة، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة، والطائف، ويوم حنين، وغزوة تبوك جهة الشام وكان ينزل عليه القرآن منجماً: فإما سورة كاملة وإما بعض سورة حسب الحوادث من بعثته إلى وفاته.

وأول ما نزل عليه: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[1]. وفي آخر ما نزل عليه (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

[1] - سورة العلق الآيات: من 1-5.

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)[1]. وأفضل العرب قريش، وأفضل قريش بنو هاشم، وأفضل الآل: آل مُحَمَّد من بني هاشم وبني المطلب. وأفضل الصحب: صحبة

((83))

الذين رأوه وآمنوا به وهاجروا معه ونصروه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وأفضل الصحابة: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة: طلحة والزبير، وسعد وسعيد، وأبو عبيدة، وعبد الرحمن بن عوف. ثم أهل بدر، ثم الأحديون؛ ثم الحديبيون، ثم بقيتهم رضوان الله عليهم أجمعين.

والحسن والحسين عليهما السلام، هما ريحانتا رسول الله ﷺ، وهما سيدا شباب أهل الجنة. وحب الآل والصحابة فرض على كل مسلم. وباغض الآل ناصبي، وباغض الصحابة رافضي. (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)[2].

أولياء الله

وكما أنه يجب حب آل النبي مُحَمَّد الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وحب صحابته الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، والذين آووهم ونصروهم على أعدائهم، وجاهدوا معهم جميعاً في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فكذلك يجب حب أولياء الله الذين (لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)[3]

((84))

وهم الموصفون بالصفات الطيبة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً)[4]. وكثير من أوصافهم في بقية الآيات إلى آخر السورة. ولهم البشرى عند الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتمسكوا بالشريعة وعملوا بأحكامها، وأحلوا حلالها وحرموا حرامها،

---

[1] – سورة المائدة الآية: 3.

[2] – سورة الحشر الآية: 10.

[3] – سورة يونس الآيات: 62- 63.

[4] – سورة الفرقان الآيات: 63- 64.

وتواضعوا لله فرفعهم وكفاهم المهمات، وقطعوا علائقهم بما سوى الله فأكرمهم بخوارق العادات التي تظهر على أيديهم فيعز الله بها المؤمنين ويرغبهم في الخير، ويذل بها الكافرين ويكبت بها أعداء الدين.

وأنا أصدق بكرامة الأولياء كما أصدق بمعجزة الأنبياء، ومنها: إجابة الدعوات، وشفاء المريض على أيديهم إذا توجهوا في ذلك. والله تعالى يقول لمريم عليهما السلام، (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً)[1]. ويقول أيضاً: (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[2]. وثبت بالنقل الصحيح ظهور الكرامة على يد جم غفير من الصحابة والتابعين وصلحاء المؤمنين. وليس من الكرامة ما يخالف الشرع، كالطعن

((85))

وأكل السموم، والدخول في النار الملتهبة، ولا ما ينسبه المشعوذون إلى أولياء الله الصالحين، من الشطح الذي فيه (الحديث عن النفس وادعاء ما لا يجوز)، ولا يصدر ذلك إلا عن جاهل أو متجرئ على الله، كقول بعضهم: ((إن الكعبة تدور بداره)) وقول آخر: ((إنه حضر بناء السماء واشترك في عملها بيده، وإنه أفضل من عرش الله ومن كرسيه الذي وسع السموات والأرض..))، (تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً).

والأولياء ﷺ لا يضرون ولا ينفعون، إلا بإذن الله. والذي يطلب منهم الولد، ويستغيث في الشدائد، هذا لا يعد محباً ولا محترماً ولا معظماً لهم، ولكنه يؤذيهم ويعاديهم، وهو معهم كالنصارى مع المسيح عليه السلام. وفي الحديث القدسي: ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه)). والتبرك بآثار الصالحين مطلوب بشرط ألا يكون فيه غلو ولا مجاوزة للحد، وتطلب زيارتهم

((86))

أحياء وأمواتاً، ودراسة سيرتهم، ومعرفة ما كانوا عليه من الخير ومجاهدة النفس في اللحوق بهم واقتفاء آثارهم.

---

[1] – سورة مريم الآية :25.

[2] – سورة آل عمران الآية: 37.

ويحرم بناء القباب واتخاذ التوابيت المزخرفة على قبورهم وكسوتها بالثياب الغالية كما تكسى الكعبة، وليس من التبرك التمسح بأعتاب قبورهم وذر ترابها على الرؤوس، والاستظلال برایاتهم، والانقطاع عن الدنيا للجلوس في ساحاتهم.

ومن الكبائر العظيمة والمنكر الذي لا يجوز السكوت عليه: ما يفعله الناس من مخالفات في مواسم الزيارة، ويظنون أن الأولياء يقرون أو يرضون به، وحاشا عباد الله الصالحين أن يرضوا بانتهاك الحرم ومجاوزة الحدود الشرعية: كاختلاط الرجال بالنساء، وشرب الخمر، ولعب القمار، والاستغراق في اللهو واللعب بالطبول والمزامير، والقصائد الأثيمة. وتخصيص العبادة بيوم معلوم، يتخذ عيداً من أعياد الجاهلية. وتحرم القرابين التي تقدم إلى بعض القبور، من البهائم والبيض، والتمر والحلاوة، والعصار والبخور، كما يحرم التغرير بالعامة والذين لا يعرفون الدين ولا يعلمون أحكام الإسلام.

وليس الأولياء طائفة مخصوصة من الناس كبني هاشم، أو المنتسبين إلى بعض الشيوخ من أهل العلم وأصحاب الطرائق

ولكنهم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، وعملوا بالصالحات المطابقة للتعاليم الإسلامية، ولو كانوا شركسة الترك أو زنوج أفريقيا، لقول ربي تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[1]
وذكر الله مطلوب، وهو بالمأثور أفضل (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)[2] وليس من الذكر، ولا من الاشتغال بالمطلوب: الطرائق المبتدعة التي يقع فيها الرقص والتواجد، والتصفيق والنحيب والصراخ وضرب الدف، ونحو ذلك. ونعم التصوف الإسلامي تصوف أبي القاسم الجنيد، أو الفضيل بن عياض، وأصحابهم الذين لا يرون الطريق الموصل إلى الله إلا بما جاء به عبده ورسوله العظيم، عليه وعلى أتباعه المؤمنين أفضل الصلاة والتسليم. (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[3].

---

[1] – سورة الحجرات الآية: 13.

[2] – سورة الأحزاب الآية: 35.

[3] – سورة يوسف الآية: 101.

ما أحسن ما ذكرت، وما أطهر هذه العقيدة عن البدع والخرافات، وما أعظم موافقتها لأدلة الكتاب والسنة؛ عقيدة لو اتحد الناس عليها لما تحكم فيهم الشيطان، ولا تفرقت بهم الأهواء. ولا شك أن ما ذكرت يا أخي، هو ما يدعو إليه قول الله سبحانه وتعالى: (وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[1].

وهل على الإنسان حق لأحد بعد الله ما دام إيمانه عظيماً بالله وملائكته ورسله؟ أم كيف ذلك؟ وهل يدخله إيمانه الجنة بلا عمل؟

كلا يا سيدي: فليس هذا الإيمان كله، وإنما الإيمان قول وعمل ونية، وليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر، والحقوق كثيرة، وأعظمها: حق الوالد الذي كان سبباً بإذن الله في إيجاد الولد، وقد أمرنا بطاعة الوالدين وبرهما، والإحسان إليهما، والصبر عليهما، والدعاء لهما، وقال رسول الله ﷺ: ((الجنة تحت أقدام الأمهات)). وسأله سائل: أي العمل أفضل؟ فقال: ((إيمان بالله، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله)). وأنا أُجِلُّ أبوي وأسعى جاهداً أن يكونا

راضين عني؛ أعترف لهما بالجميل، وأذكر عظيم عنايتهما بتربيتي وحرصهما على حياتي وصحتي. وقد بلغني أن بر الآباء يسبب بر الأبناء، ويطيل في العمر، ويبارك به في الرزق، وأن القيام بشأنهما كالجهاد في سبيل الله بالنفس والمال. ومهما يكن الوالد طائعاً أو عاصياً فحسابه على الله وحقه أكيد على ولده، ونفقته واجبه عليه إذا كان فقيراً عاجزاً عن العمل والاكتساب.

وبعد صلاة الصبح أسلم على والديَّ وأتفقد أحوالهما وأطلب منهما صالح الدعاء لديني ودنياي، وأعمل بإرشاد أبي، ولا أخالف له أمراً، وأعاونه فيما يعمل، وأقوم بما عهد به إلي، وإذا دعاني لبيته وإذا أرسلني في مهمة قضيتها مسرعاً، وماله أحفظه، وأولاده من أمي ومن غيرها أحترم الكبير منهم وأعطف على الصغير، وأوقر أصحابه، وإذا مشى كنت خلفه، وإذا تحدثت عنه عظمته في حديثي.

---

[1] – سورة الأنعام الآية:153.

(وأمي) أهش لها وأبش، وابتسم لها دائماً؛ وأُبادر في قضاء حاجتها، ولا أغضب منها إذا عتبت عليَّ أو ضربت أبنائي أو اختصمت مع امرأتي، ولو أمرتني بمفارقة أهلي لم أجد بدًّا من ذلك. وإذا مات أحدهما أو كلاهما ترحمت عليه، واستغفرت له، وسألت الله أن يجمعني بهما في مستقر الرحمة (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

((90))

إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً)[1].

الأولاد

ولبنيَّ علي حق، أستنسب أمهم وأطلبها ذات دين وحسب، وأختار لهم الأسماء الطيبة، وأسعى عليهم في طلب الحلال، وأبذل قصارى جهدي في حسن تربيتهم والاحتفاظ بصحتهم ولربما جعت ليشبعوا، وسهرت ليناموا، ولا أسمعهم إلا خيراً، ولا أحب أن يروا من أفعالي إلا الصالح الذي يتخلقون به، ويسرني أن ينشؤوا عليه؛ ومن بلغ منهم التمييز علمته الصلاة وأمرته بها، وكذلك سائر التعاليم الدينية. وأرسله إلى المدرسة وأوصي به الأستاذ خيراً، وأشتري ما يلزم من ثياب وكتب، ودفاتر وأقلام، وأعلمه حب أهله وإخوانه وأزجره عن الخبائث، ولا أسكت له عن القول الفاحش، وأُعوِّده الرياضه البدنية، وأسأله عن دروسه إذا رجع إلى البيت، ولا أسمح له بسؤال شيئاً يقدر عليه بنفسه. وإذا فاز أجزته، وإذا أحسن شجعته، وإذا قصر أو أساء أدبته بالأخف فالأخف.

((91))

وأنا أفرق بين أولادي في مضاجعهم حتى إذا بلغوا سن العاشرة، وأعلمهم كيف يعيشون، وكيف يخالطون الناس، وكيف يدخلون ميادين العمل إذا فرغوا من دراستهم. وأزوِّجهم إذا شبوا وأعطيهم من المال ما يستعينون به على حياتهم، وأطلب لابنتي الكفء الكريم، ولا أبيعها على الرجال كما تباع الأمة. وأقول لأمها: عليك بابنتك في تربيتها وإعدادها للزوجية والأمومة.

---

[1] – سورة الإسراء الآية: 23- 24.

وأعلم مراد الله تعالى من قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[1].

الزوج والزوجة

وزوجتي التي أريدها شريكة حياتي، لا أستعجل في اختيارها والبحث عنها، وإنما أنظر إليها أولاً، فأرسل المرأة التي أثق بها، فتأتيني بما يسرني من خُلُقِها وخَلْقِها، وأصلها طيب وبيتها كريم. وإذا تم زواجي بها، عرفت لها من نفسي مثلما أحب أن تعرف لي من نفسها: فأطعمها مما أطعم وأُلبسُها مما ألبس، ولا أقبح لها وجهاً، ولا أضربها إلا إذا أذن الله في ذلك، وأبش لها إذا دخلت، وأودعها إذا خرجت، ولا أذكر عندها النساء الأجنبيات، ولا

أفشي لها سراً ولا أمسكها ضراراً، وإنما هو إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. ولا أضيق عليها في النفقة، ولا أمنعها عما تيسر من الصدقة، وإذا تزوجت معها أخرى عدلت بينهما في القسمة وفيما أوجب الله عليَّ لنسائي. وأتزين لها كما تتزين لي، وأتحفها بالهدية، ولا أمن عليها بالعطية، ولا أحول بينها وبين تأديب أبنائها، ما دامت مربية حكيمة. وأغار عليها ولا أسمح لها بالخروج من بيتها إلا في حاجة: كزيارة أهلها. وتفقد جيرانها. ولا أمكنها من رفع صوتها، وتطلعها إلى الرجال من السطوح والنوافذ في غير حشمة، ولا أقرها على الملابس القصيرة والعادات القبيحة، والإفراط في الضحك ومخالطة النساء اللاتي لا خير فيهن، ولا أدع للأوهام على قلبها سبيلاً: فلا حرز ولا تميمة؛ ولا خوف من الجن وأصحاب الزار، ولو طلبت شيئاً من ذلك جعلت العصا بينها وبينه، أو فارقتها فراق من لا يحب معاشرتها ولا يأسف على مفارقتها. وأحب فيها الزينة والتجمل بالحرير والذهب وما أذن الله من نقش وخضب، وأُعد لها آلة التنظيف، وأعلمها كيف تعبد الله.

وإذا حاضت أمرتها بترك الصلاة والصيام ستة أيام أو سبعة؛ أو حتى تطهر في مدة خمسة عشر يوماً بلياليها، وأمنعها من الطواف

[1] – سورة التحريم الآية:6.

بالكعبة، ومن تلاوة القرآن، ومس المصحف، وحمله. ولا أقرب منها ما بين السرة والركبة حتى تغتسل، وأعلمها إذا نفست أن تترك ما تتركه الحائض حتى تطهر ثم تغتسل. ولا أكلفها غير ما أوجب الله عليها، ولا أستأثر بالمصالح دونها، ولا أخونها في بيتها ولا أحب منها أن تصف لي المرأة الحسناء حتى كأني أنظر إليها. ولا أتغذى ولا أتعشى في المطاعم والأسواق، كما يفعل الأنذال ونساؤهم جائعات أو مقتر عليهن في المصاريف، ولا أمنعها من معالجة نفسها باستعمال الأدوية واستنشاق الهواء، ولكنها لا تزور الطبيب ولا يدخل عليها إلا وأنا حاضر معها أو عندها أحد محارمها. وإذا زوجت موليتي أمرتها بحسن العشرة وطيب الصحبة، ولا تكلف بعلها فوق طاقته ولا تطلب منه إلا ما يقدر عليه، ترضى منه بالقليل، وتشكره على الكثير، وتسكن معه حيث سكن، ولا ترفع صوتها عليه، ولا تخالف له أمراً، ولا تدخل فيما لا يعنيها من شأنه. وآمرها بتنظيف بيته وإعداد طعامه وشرابه، وتنسيق أثاثه وترتيب كتبه، ولف أوراقه، وغسل ثيابه، وتربية أولاده، والاقتصاد في المعيشة، وأن تسره إذا حضر، وتحفظه في أهله وماله إذا غاب. ولا تسمح لأحد في بيته إلا بإذنه، ولو دعاها إلى فراشه وهي على التنور أجابته وأُحذرها من مطالعة الصحف والجرائد، ومشاهدة الصور والأفلام

((94))

الخبيثة المخلة بالشرف والأخلاق الفاضلة، وما نقص عليها من زوجها أعطيتها إياه من مالي لتعيش معه سعيدة ولتكون معه راضية مطمئنة.

وأعلمها أنه لو أمر الله أن يسجد لمخلوق، لأمر الزوجة أن تسجد لزوجها لعظيم حقه عليها. وأوصيها بشريك حياتها خيراً إذا مرض أو افتقر فقل ماله وضعف حاله. ألا تقصر فيما كان يعتاد من حسن معاملتها، وإذا كانت له أعمال شاقة فتعينه عليها، تكتب وتقرأ له وتضبط له الحساب، وأقول لها: إن المرأة إذا نشزت من طاعة زوجها، ذكرها الله وخوفها من سوء العاقبة، فإن أصرت هجرها في الكلام وال فراش حتى تعاود الطاعة، فإن أ صرت جاز له تأديبها وضربها ضرباً غير مبرح، وإذا استمرت في نشوزها سقط ما لها عليه من النفقة والكسوة والقمسة.

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً، وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ

وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)[1].

الأستاذ والتلميذ

والمعلم المرشد المصلح لديني ودنياي: أعرف له فضله علي، وأنه لوالد روحي ومربيها، وبسيرته أقتدي، وفي سبيله أمضي، وأتقبل منه ما يقول بحسن نية، وأبحث عما أشك فيه مما قال لي، ولا أستحي من سؤاله واستفهامه ما خفي عليَّ من عبارته وإملائه، ولا أزعجه في وقت راحته، ولا أدق عليه بابه، ولا أتمرد عليه في المجتمعات، وأمام زملائي، وبصورة حسنة أُذكِّره إذا نسي، وأرده إذا أخطأ، وأتحمل منه غلظ القول وألم الجفوة، حباً في العلم وتقديراً مني لما هو أهله، وأعتني بمؤلفاته، وأحفظ ما أسمع من منظومه ومنثوره، وأنصت له إذا تكلم، وأعرف بين يديه مكاني في الصف والحلقة، ولا أختلف مع أحد عنده، وأخدمه كما ينبغي، أصب عليه الماء إذا توضأ وأحمل سجادته وأفرشها له وأعظمه إ ذا قرأت عليه، وأذب عنه إذا سمعت فيه مكروهاً من القول، وأكرم أهله، وأدعو له بطول العمر، وأترحم عليه إذا مات، وإذا خرجت من المدرسة ذكرت حقه طول حياتي، ولا أعامله معاملة الذين ينسون الجميل، وإذا لقي أحدهم أستاذه أعرض عنه ولم يسلم عليه ولم يصافحه، وأعيب على أولئك الذين إذا قسا عليهم الأستاذ، ثاروا عليه، وشكوه إلى مدير المعارف أو ناظر

المدرسة، ولا أغالي في تقديس شيخي غلو الصوفية الذين يعدون المريد كالميت بين يدي المغسل، فهو لا يأمره بمعروف ولا ينهاه عن منكر، بل يعتقد أن الحق فيما قاله شيخه وفيما فعله وإن خالف الشريعة، ولكن وسطاً بين ذلك، فلا غلو مذموم ولا تقصير في حق معلمي وأستاذي. وأما أنا فإذا كنت المعلم راعيت تلاميذي، وأحسنت إليهم، وسويت بينهم في المجلس والمخاطبة، أنظر إلى هذا تارة وإلى ذاك أخرى، وأسألهم هل فهموا؟ وأشجع الفهيم منهم وأصبر على البليد، وأفُك لهم العويص من المسائل بما أوتيت من حول وقوة، وأعتبرهم جميعاً كأبنائي، وإذا ضربت أحدهم فإنما هو الدمل في جسمي أخرج منه الخبث وأ ضع عليه الدواء، والحاضر منهم أعتني به، والغائب أسأل عنه، والفقير أواسيه، والغني لا أستجديه، ولا أقسو عليهم قسوة الوحوش ولا أؤدبهم بالعنف. واعرف أن الشرع يحكم عليَّ بضمان ما أتلفته من نفوس تلاميذي وأموالهم، وأراقبهم في أعمالهم، وأهتم بهم خارج المدرسة كاهتمامي بهم

---

[1] – سورة النساء الآية: 34- 35.

داخلها؛ ولا أحدق النظر في وجه أحدهم، ولا أضع يدي عليه، وأعلمهم حب الدين والوطن والإخلاص لدولتهم وبلادهم، وأعدهم للمستقبل، وأرشحهم للوظائف الكبيرة والمناصب العالية، وأشجعهم على الكتابة والخطابة، وأحبب إليهم المطالعة المراجعة،

((97))

ولا أقصرهم على دأب معين، ولا أقف حائلاً بينهم وبين اتجاهاتهم المختلفة في التحصيل والإنتاج، وأحسن لهم العناية بالقديم، والأخذ بالحظ الوافر من كل جديد، وإذا سمعت الدروس أو القصيدة من أحد تلاميذي، أو قرأت له كلمة في مجلة أو جريدة، باركت عليه ودعوت له، وشجعته على المضي. وقلت له: فيك خلف من سلف إن شاء الله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)[1].

الرئيس والمرؤوس

ولكل أحد عمل يقوم به رئيساً عليه أو مرؤوساً فيه، ولكل منهما حق على صاحبه؛ فالرئيس أُجلُّه وأحترمه، وأقوم بما أسنده إليَّ من مهمة، وأسبقه صباحاً إلى محل العمل، ولا أخرج من إدارتي إلا في الوقت المحدد، وأتمشى على النظام المرسوم، ولا أتعداه قيد أنملة ولا أخون ولا أكذب، ولا آكل الرشوة، ولا أقدم لاحقاً على سابق، ولا أكتب شيئاً إلا في دفاتره المعدة له. وإذا عهد إليّ الرئيس بشيء كنت كما يظن بي؛ ولا أطلب من الأجر أكثر مما

((98))

أستحق، ولا أذكر العمال عنده إلا بخير، ولا أغتاب أحداً، ولا أنم على أحد، ولا أستخف بالمتقن، ولا أحط من قدر لمحسن؛ وإذا استنصحني الرئيس نصحت له، وإن استشارني أشرت عليه بما أرى أنه ألأصلح لي وله وللعمل، وأكره الشغب والإضراب من غير سبب؛ وحتى الإمام في الصلاة لا أتقدم عليه، ولا أتأخر عنه بما تفحش فيه المخالفة، وإذا كنت جندياً تبعت أوامر ضابطي، وسرت على ما يرسم لي من خطط الإقدام والإنهزام، والمرتب لا أطلبه قبل وقته، والضيم لا أحمله، وعرضي أصونه وكرامتي لا أبيحها لأحد كائناً من

---

[1] – سورة الطور الآية :21.

كـان، والمـرؤوس أرفـق بـه، وأحسـن إليـه، وأشـكره إذا أحسـن، وأعـذره إذا أسـاء، ولا أ بخسـه حقـه، ولا أسـتخف بعملـه؛ وأوفيـه أجـره وأعـده كالشـريك في الفائـدة، وإذا احتـاج أقرضـته، وإذا رأيـت أبنـاءه تلطفـت بهـم، تـوددت إلـيهم، وأُحـب لـه الترقـي ولا أتتبـع عثراتـه ولا أقبـل الوشـاية، ولا أقـره علـى تعمـد الخطـأ. ولا أسمـح لـه باسـتخدام منصـبه في مصـالحه الشخصـية؛ وإذا أجهـده العمـل عاونتـه عليـه، وإذا فـرغ منـه قبـل نهايـة الوقـت، سمحـت لـه بالـذهاب، وأعطيـه الإجـازة السـنوية حسـبما تقضـي بـه العـادة، وإذا شـاخ وتقاعـد عـن الشـغل أعطيتـه معـاش التقاعـد، وبلغـني عن النبي ﷺ أن الله عز وجل لا ينظر يوم القيامة إلى رجل استأجر

أجـيراً فوفـاه عملـه ولم يـؤد إليـه أجـره. والتعـاون بـين النـاس مـأمور بـه في قـول ربنـا جـل ذكـره: (وَتَعَـاوَنُوا عَلَـى الْـبِرِّ وَالتَّقْـوَى وَلا تَعَـاوَنُوا عَلَـى الْإِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَـدِيدُ الْعِقَـابِ)[1].

الدولة الحاكمة

والحقـوق لا تحفـظ، والحرمـات لا تقـدس، والرعيـة لا تسـعد، والـبلاد لا تترقـى إلا بفضـل الله تعـالى أولاً، ثم بالدولـة الحكيمـة الرشـيدة القويـة الـتي تعـرف لكـل حقـه وتؤذيـه إليـه، فيهـا يسـود الأمـن، ويكثـر الـرزق وينشـر العمـران، ويعلـم العلـم، ويحفـظ الاسـتقلال. وهـي مسـؤولة عـن سـعادة الأفـراد والجماعـات، وفـك الخصـومات بـين رعاياهـا، والتفكـير في مصـالحهم والسـهر علـى حمياتهم، والعنايـة بهـم، والسـلطان ولي مـن لا ولي لـه، وللحـاكم السـمع والطاعـة في غـير معصـية، فأقبـل حكمـه، ولا أشـهد عنـده زوراً، ولا أغـرر بـه القضـاء. ولا أدعـي بمـا لـيس لي، وأدفـع للدولـة الزكـاة والواجبـات الماليـة المفروضـة علـيَّ حـين يطلـب ذلـك مـني، وأنا المخلـص الأمـين لـدولتي صـانعاً وزارعـاً، وتاجـراً، ومعلمـاً، وطالبـاً، وأرى أنهـا ظـل الله الممـدود علـى أرضـي، وإذا بايعـت ملكاً أو إماماً، وفيت ببيعتي وأنجزت وعدي، ولم أخن في عهدي، ولست من الذين إذا

[1] – سورة المائدة الآية: 2.

أعطوا منها رضوا وإذا منعوا غضِبُوا، ولا أُوالي الدولة الأجنبية المعادية وتهمني خزانة حكومتي والمالية التي يجب أن يكون دخلها أكثر من خرجها لشراء السلاح ونفقات الجيش، وبناء المدارس، وإصلاح الطرق، ولأمر الطبيب، والدواء والمستشفى. ولا أراه كثيراً عليَّ ما أدفعه من الضريبة التي تؤخذ مني بحق ولكنني أعطيه طيبة به نفسي ناوياً به مساعدة الدولة على القيام بالواجب، ولا ألزمها بإيجاد الوظيفة، وإن كنت أشعر من نفسي بالكفاءة ولكنني أكره الظلم، ووضع الشيء في غير محله، ولا أحب أن يعبث بشرفي حاكم ولا عسكري، وكلما رأيت خطأ إصلاحه في غير ضوضاء وبلا منازعة. والملك، ورئيس الجمهورية، والوزراء وحكام المقاطعات أحترمهم وأعرف لهم حقوقهم، ولا أحابيهم في دين الله، ولا أتهيب أن آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتتبع حركاتهم، وأكره منهم الاستبداد والعجرفة والتعاظم على أفراد الشعب، وكلما واتتني الفرص، تفقدت أحوال المدرسة، والمستشفى والسجن، وابحث عما يصير في البلدية، وإدارة الأشغال العامة، ومراكز الشرطة، وأستطلع أخبار المحاكم الأهلية والمختلطة، وأطالب الدولة بتوفير أسباب الراحة لرعيتها، كإدخال الماء والنور إلى بيوتهم، وتنظيم المباني وحركات النقل والمواصلات

والمرور، وأهتم كثيراً بموارد الدولة، كالجمارك والمصانع، وأرفع رأسي مفتخراً في البلاد الأجنبية إذا رأيت علم دولتي. أو أبرزت جواز سفري، أو وقفت إلى جانب سفارتها، أو مفوضيتها، ودائماً أستعد للخدمة والتجنيد في البحر والبر والجو، ولا أبغي على الناس إذا قلدت منصباً عالياً في الدولة أو أراني حاكماً أو قائداً أو مديراً كأبسط كاتب أو جندي، ولا أتدخل في السياسة المعهود بتدبير أمورها إلى سواي، والله تعالى يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[1].

حب الوطن من الإيمان

وأفدي بلادي بدمي ومالي، وأجاهد في سبيل رقيتها، ولا أقرّ العدو فيها، وأجاهد لإسعادها في نواحي السياسة والعلم والاقتصاد، وأحارب الفقر والمرض فيها، وأنفض عنها غُبار الذل، وأموت في الدفاع عنها، وإذا سافرت منها رجعت بعد قضاء حاجاتي مسرعاً

[1] – سورة النساء الآية:59.

إليها، لا أرضي بها بديلاً، ولا أعيش في غيرها إلا مُكرهاً، والقليل فيها عندي كثير والحقير فيها عظيم، والمواطن فيها أجله

((102))

وأحترمه، إذا لم يكن باغياً على أهلها، ولا مستأثراً عليهم بمصالحهم ويسرني وجود الشركات الاقتصادية الواسعة في بلادي إذا أخذت نصيبها كاملاً من فوائد تلك الشركات باستخدام عمالها واستثمار خيراتها، بكثرة الصادر والوارد واستخراج المعادن، وإصلاح الزراعة، وتعبيد الطرقات وإقامة المباني الفخمة، وتنظيم المساكن، وتربية الحيوانات، وبلاد المسلمين كلها واحد، والمؤمنون إخوة وإن اختلفت بهم الجهات واللغات، وأبث الدعاية الطيبة لبلادي، ولا أشتري حاجتي إلا من منتوجاتها، وأعتز بنقدها وبحاصلاتها من النبات والحيوان وما يوجد في المياة الإقليمية من خيرات البحر، وأدرس تاريخها، وأعرف جغرافيتها، وأجمع الخرائط لعواصمها ومدنها، وسهولها، وجبالها، وموانيها، وأحفظ أسماء مديرياتها، وأحترم العادات، والتقاليد فيها إذا لم تخالف كتاب الله ولا سُنة رسوله ﷺ، ولا أتكلم إلا بلغتها معتزاً بها وبقوميتي التي أنا منها، وأنتسب إليها، ولست شعوبياً ولا أرى فضلاً لأبيض على أسود إلا بالتقوى. ولأهلي وبلادي خالص حبي ووادي، وبلغني أن النبي ﷺ كان يقول اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وزيادة. والقرآن ينهانا عن موالاة أعادئنا في الدين والوطن (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1]

((103))

معاشرة الناس

وأحب للناس ما أحب لنفسي، فأشكر محسنهم، وأتجاوز عن مسيئهم، ولا أتتبع عوراتهم، ولا أعد عثراتهم، ولا أسأل عن شؤونهم التي لا تعنيني، ولا أتجسس ولا أتحسس، ولا أغتاب ولا أنم ولا أكذب على أحد، ولا أستبيح من المسلم دماً، ولا مالاً، ولا عرضاً. ولا أتسمع حديث قوم وهم كارهون، ولا أطلع في بيت أحد إلا بإذنه، ولا أنظر إلى المرأة الأجنبية، ولا أطيل الحديث معها ولا أختلي بها أبداً، وأكره الفحش والبذائة والمزاح المفرط، ولا أعبس في وجوه الناس، ولا أتكبر عليهم، وأبدأهم بالسلام وأرده عليهم، وأعود المريض، وأشيع الميت، وأجيب الداعي، وأشمت العاطس، وأنصر المظلوم وآخذ ما استطعت على يد الظالم، ولا أفرط في

[1] – سورة الممتحنة الآية:9.

الضحك، ولا أغضب من غير سبب، وأتبع السيئة الحسنة، وأخالق الناس بالخلق الحسن، وأعمل قدر ما يسمح لي حالي، ويتسع له مالي من حسن الجوار وإكرام الضيف وإغاثة الملهوف، وإسماع الأصم وقيادة الأعمى وإرشاد الضال، وإماطة

((104))

الأذى عن الطريق وأصلح بين المتخاصمين، وأبر والدي، وأصل أرحامي. والصمت أحب إليَّ من الكلام إلا في خير. وأنصف من نفسي ولا أضيع حقي، وأذُب عن شرفي، وأذود عن حياضي وأعمل بإخلاص لأمتي وبلادي، وأكره الأيمان الكثيرة، ولا أشهد زوراً إن شاء الله، ونقض العهد، وخلف الوعد، وخيانة الأمانة، ولدد الخصومات من آيات النفاق. وأقبل على جليسي بوجهي وأرهف له سمعي، وأوسع له مجلسي، ولا أتقدم على من هو أكبر مني سناً، وأجلس حيثما ينتهي بي المجلس، ولا أفشي سراً، ولا أذكر حاجتي إلا لمن أحسنت فيه ظني وحسبته قادراً على معاونتي، وأمام الناس لا أعبث بلحيتي، ولا أتمطى ولا أتثاءَب، ولا أبصق ولا أتمخط. ولا أخلل أسناني، ولا أقلم أظفاري ولا أتضجر ولا أتأفف. وأحاول دائماً أن تكون الابتسامة ظاهرة علي، ولا أسخر من رجل ولا من امرأة، ولا أنابز بالألقاب، ولا أدعو صديقي بأحب أسمائه إليه ولا أزوره في غير وقت الزيارة، ولا أزعجه بطرق بابه ولا أدخل عليه إلا بإذنه، ولا أنظر في أوراقه ولا أفتش جيوبه، ولا أقترض إلا في ضرورة، ولا أعاشر من لا تليق بي معاشرته من السفهاء والأنذال والمجاهرين بالفسوق والعصيان، وأعلم أن الزاني البكر يجلد شرعاً بمائة جلدة، والمحصن يرجم بالحجارة حتى يموت.

والسارق تقطع يده، وشارب الخمر يجلد أربعين جلدة؛ والقاذف الذي يرمي أخاه المسلم والزنى إذا لم تكن له بينه على ما يقول يجلد ثمانين جلدة، وأعلم أنه من اطلع في دار قوم بغير إذنهم حل أن يفقؤوا عينه، وإذا حضرت في المجتمعات العامة اغتسلت قبل ذلك، وليست أفضل ثيابي، وتطيبت بخير طيب عندي ولا أتلفت في مشيي ولا أجر أحداً بثوبه، وبلغني أن خير الناس أنفعهم للناس؛ وأن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، وأن من نَفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا: نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة؛ ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، وشريكي لا أخونه، وعميلي لا أخدعه، والحسود لا يسود، ومن تواضع لله رفعه الله، ومن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومن يرائي يرائي الله به، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً؛ والصبر حكمة، والرفق ما دخل في شيء إلا زانه ويصلح الله بالرفق واللين ما لا يصلح بالعنف والشدة. والكريم حبيب الله، والبخيل عدو الله، والظلم ظلمات يوم القيامة، ولا أتمنى الشيء المستحيل، ولا أطلب مالاً طمع فيه، ولا أَتأَسف على ما

فـات. مصـدق بقضـاء الله وقـدره، وكـل شـيء عنـده بأجـل مسـمى، وإذا كـان الحـق علـيَّ بادرت بقضائه؛ واللسان آفة الإنسان، وإذا رأيت

((106))

مـن أحـد مـا يعجبـني قلـت: مـا شـاء الله، وأحفـظ قـول النـبي ﷺ: ((لا تحاسـدوا ولا تباغضـوا ولا تناجشـوا ولا تـدابروا ولا يبـع بعضـكم علـى بيـع بعـض، وكونـوا عبـاد الله إخـواناً، المسـلم أخـو المسـلم لا يظلمـه ولا يخذلـه ولا يكذبـه – التقـوى هـا هنـا)) ويشـير ﷺ إلى صـدره ثـلاث مـرات. ويقـول:((بحسـب امـرئ مـن الشـر أن يحقـر أخـاه المسـلم كـلُّ المسـلم علـى المسـلم حـرام: دمـه ومالـه وعرضـه)) ولا أشـتري علـى شـرائه، ولا أخطـب علـى خطبتـه حـتى يـنكح أو يـترك. والحيـاء شـعبة مـن الإيمـان، وشـر النـاس ذو الـوجهين وذو اللسـانين: الـذي يأتي هـؤلاء بوجـه وهـؤلاء بوجـه آخـر. والمسـلم مـن سـلم النـاس مـن لسـانه ويـده، والمهـاجر مـن هجـر مـا نهـى الله عنـه، ومـن أطعـم مؤمنـاً علـى جـوع أطعمـه الله مـن ثمـار الجنـة. وكـذلك أنا أكـره المـدح في غـير محلـه ولا أتملـق لمـن لا أحبـه، ولا أخضـع لمخلـوق، ولا أجـازي علـى المعـروف إلا بخـير منـه؛ والجميـل أعرفـه لأهلـه، والفضـل لأصـحابه (يَا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا لا يَسْـخَرْ قَـوْمٌ مِـنْ قَـوْمٍ عَسَـى أَنْ يَكُونُـوا خَـيْراً مِـنْهُمْ وَلا نِسَـاءٌ مِـنْ نِسَـاءٍ عَسَـى أَنْ يَكُـنَّ خَـيْراً مِـنْهُنَّ وَلا تَلْمِـزُوا أَنْفُسَـكُمْ وَلا تَنَـابَزُوا بِالْأَلْقَـابِ بِـئْسَ الِاسْـمُ .... إلى قوله تعالى: وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ).[1]

((107))

التعبد بالطهارة

جميـع مـا ذكـرت يا أخـي مـن الحقـوق والواجبـات للوالـد، والولـد والـزوج، والزوجـة، والأسـتاذ، والتلميـذ، والـرئيس، والمـرؤوس، والدولـة والـوطن؛ ولسـائر النـاس في معاشـرتهم ومخـالطتهم أشـياء عظيمـة وصـفات حسـنة لا يتحلـى بهـا إلا المـؤمن المحـتكم لدينـه، الموصـوف بكـل فضـيلة، الطـاهر مـن كـل رذيلـة؛ فهـل لـك أن تخـبرني بكيفيـة الطهـارة الـتي يسـتعد بهـا الإنسـان لمواجهـة ربـه في الصـلاة، وفي كثـير مـن العبـادات البدنيـة؟: ((نعـم يا سـيدي)) أنا أُحـب الطهـارة والنظافـة مـن الأحـداث والنجاسـات الظـاهرة والباطنـة، فـإذا خـرج شـيء مـن أحـد السـبيلين: القبـل أو الـدبر، أو نمـت مضـطجعاً، أو زال عقلـي لا سمـح الله بشـيء غـير النـوم، أو لامسـت المـرأة الأجنبيـة مـن غـير حائـل وأنا وهـي كبـيران، أو مسسـت فـرج آدمـي بـبطن الكـف أو بطـون الأصـابع. ولا حائـل

[1] – سورة الحجرات الآية:11-12.

بين كفي وبين ما مسسته من نفسي أو غيري فإنني في جميع ذلك أتوضأ إذا أردت القيام للصلاة أو لطواف بالكعبة: فأقعد مستقبل القبلة، وقد استنجيت كما أمرت، وأغسل كفي ثلاث مرات خارج الإناء، قائلاً ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) وأتمضمض وأستنشق ثلاث مرات من ثلاث غرفات، وأمج الماء من فمي، وأخرجه من أنفي، وأتسوك بالمسواك، أو بأصبعي،

((108))

ثم أغسل وجهي كله من الأُذن إلى الأُذن، ومن منابت شعر الرأس فوق الجبهة إلى منتهى اللحية أو العارضين، وأخلل الشعر الكثيف، ثم أغسل يدي، واليمني قبل اليسرى إلى منتصف العضدين ثلاثاً ثلاثاً، وأمسح برأسي كله والأذنين معه، ثم أغسل رجلي اليمنى قبل اليسرى، إلى منتصف الساقين، وأثلث الغسل وأخلل أصابعي وأدلك الأعضاء وأقول بعد الفراغ: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا مُحَمَّداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين، سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وإذا كنت على جنابة من جماع أو خروج مني اغتسلت غسلاً كاملاً يعم شعري وبشري ومعاطف جسمي وأدلك وأثلث، وأتيامن، وأوالي الغسل والوضوء. والنية في الوضوء عند غسل أول جزء من الوجه، وفي الغسل عند غسل أول جزء من البدن، وآمر زوجتي بمثل هذا إذا طهرت من الحيض والنفاس؛ وبلغني أنه يستحب الوضوء من خروج ا لدم السائل في أي مكان من الجسم، ومن أكل الجزور وهو لحم الإبل نيئاً ومطبوخاً، ولتلاوة القرآن، ولحضور مجالس العلم والذكر، ولزيارة القبور؛ وأن الغسل مستحب للجمعة والعيد، ولحضور المجتمعات العامة، وبعد الإفاقة من الجنون والإغماء ومن غسل الميت،

((109))

ولدخول مكة والمدينة، وأقول بعد الغسل مثلما أقول بعد الوضوء، والماء الذي أتطهر به لا يكون إلا مطلقاً عن القيود اللازمة، ولم يكن قد استعمله غيري في رفع حدث أو إزالة نجاسة، وأكره الوضوء والغسل بشديد السخونة وشديد البرودة، وإذا فقدت الماء أو عجزت عن استعماله لمرض أو جراحه في بدني، تيممت بالتراب الطاهر، أضرب عليه بيدي ناوياً فرض استباحة الصلاة، وأمسح بهما وجهي، ثم أضرب علي ضربة ثانية أمسح بها يدي، وإذا وجدت الماء أو قدرت على استعماله بعدما تيممت وقبل أن أشرع في صلاتي استعملت الماء وحبست التيمم باطلاً، والله تعالى يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا

وُجُوهَكُمْ... إلى قوله تعالى: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1].

إزالة النجاسات

وبدني وثوبي والمكان الذي أصلي فيه أطهرهُ بالماء، إذا أصابته نجاسة من الكلب والخنزير، فأغسله سبع مرات، وأجعل التراب في واحدة منهن، وكذلك أفعل بالإناء إذا ولغ فيه الكلب، وجميع ما يتصل أو ينفصل عنه فنجاسة مغلظة؛ ومثله الخنزير

((110))

أما ما يصيبني من البول والغائط، والمذي والودي، والدم، والقيح، والصديد، والقيء وكل ما يخرج من المعدة، ولبن ما لا يؤكل لحمه؛ والمسكر المائع فأغسله مرة واحدة حتى تزول أوصاف النجاسة: ((الطعم، واللون، والريح)) وإذا وقع التثليث في إزالة النجاسة فهو أفضل، وبول الصبي الصغير الذي لا يطعم غير اللبن وهو دون الحولين أرش عليه بالماء، حتى يكون أكثر منه، وجلد الميتة إذا احتجت إليه طهرته بالدباغ الذي يزيل عنه الفضلات والتعفن؛ والخمر إ ذا تخللت بنفسها فهي طاهرة، ويحل استعمال ما تخلل منها، والماء الذي أطهر به النجاسة أصبه على محلها صباً، ولا أدخل المتنجس في الماء القليل الذي هو دون القلتين لأنه ينجس الماء والإناء والشيء المغسول، وأتباعد عن النجاسة قدر الإمكان، والوسوسة من الشيطان؛ وبلغني عن النبي ﷺ أن عامة عذاب القبر من عدم التنزه من البول، وقليل الدم والنجاسة التي لا يدركها البصر، واليسير من شعر النجس، ودم البراغيث والبق، وبول الخفاش وذرق ا لطيور الذي تعم به البلوى، ويشق الاحتراز عنه، جميع ذلك معفو عنه، والبصاق والمخاط والعرق ولبن الآدمية والدمع وصمغة الأذن وما يتجمع في المعاطف طاهر إلا أنه مستقذر وينبغي إزالته فوراً، والله تعالى طيب ولا يقبل إلا طيباً، وهو القائل عز وجل: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ).

((111))

دخول الخلاء

[1] – سورة المائدة الآية: 6.

عند قضاء الحاجة أقول قبل دخولي المكان المعد للتخلي: ((بسم الله اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث)) وأقدم رجلي اليسرى، وأرفع الثياب قليلاً قليلاً وأعتمد في الجلوس على رجلي اليسرى، ولا أتكلم وأجتهد أ لا يسمع الناس مني صوتاً ولا يجدوا ريحاً، ولا أرفع بصري إلى السماء، ولا أنظر إلى ما يخرج مني، ولا أستقبل القبلة ولا أستدبرها، إلا إن كان بيني وبينها حائل قريب، ولا أطيل الجلوس، ولا أبول قائماً إلا لعذر، ولا أستقبل الريح، ولا أبول في مكان صلب، ولا في سرب ولا ثقب، وإذا انتهيت من قضاء حاجتي تمسحت بثلاثة أحجار طاهرة جامدة قالعة تزيل النجاسة عن القبل والدبر، وأتبع ذلك بالماء ولا أسرف في الصب؛ وإذا قمت أرخيت الثياب قليلاً قليلاً، وأقول بعد الخروج: غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني.

العناية بالنفس

وأزيل عني زوائد الجسم المستقذر بقاؤها، فأحلق العانة أو أزيل الشعر بالمعد لذلك من الصوابين والمساحيق وأنتف الإبط، وأقص الشارب وأعفي اللحية وأكره طولها كثيراً، وأقلم أظفاري، ولا

أحدد وقتاً لشيء مما ذكر، ولا أقصر في استعمال السواك، وأحرص عليه كثيراً عند الوضوء والصلاة ولتلاوة القرآن، وعند تغيير الفم؛ وعود الأراك خير من غيره، وأزيل القلح عن أسناني بما يتيسر مكن أغصانه وعروقه، وبالفرشة واستعمال الفحم والأدوية المحضرة لتنقية الفم وطيب النكهة؛ وإذا كانت لي وفرة اعتنيت بدهنها ومشطها وغسلها، ولا أحلق بعض الشعر وأدع بعضه، ولا أتشبه بالنساء في شيء مما هو خاص بهن من الملابس والحلي والزينة والحركة والكلام، ولعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال؛ ولا أتشبه أيضاً بالكفار في ملابسهم وعاداتهم في خصال الفطرة، ولا أصبغ الشيب إلا بحمرة أو صفرة، ولا أرد الطيب والهدية ولا ما يقدم إلي من وسادة ونحوها، وإذا قدمت في صدر المكان قبلت ولا يأبى الكرامة إلا لئيم؛ وأكره المشي حافياً ومقرعاً وبهيئة مزرية، ولا آكل في الأسواق والشوارع، وأجعل يميني لكل طيب وحسن، ويساري لكل خبيث ومستقذر، وأتداوى إذا مرضت، وأكره التشاؤم والطيرة والكي قبل الاحتياج إليه، وأخفف عن نفسي إذا امتلأت أوعية الدم بالفصد والحجامة وأكتحل بالأثمد ثلاثة أميال في كل عين، وأجعل الاكتحال قبل النوم، وأحب دائماً أن أكون على طهارة، والمؤمن لا ينجس حياً ولا ميتاً؛ والنظافة من الدين، والطهور شطر الإيمان.

((113))

التعبد بالصلاة

الصلاة خير موضوع، وأفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه، ولا دين للمن لا صلاة له، وتاركها عند الله كافر، وهو يوم القيامة في النار مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف، وهي خمسة فروض كتبها الله على عباده في اليوم والليلة: الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، ويجب فعلها في الأوقات التي حددها رسول الله ﷺ لأمته، فإذا حل الوقت تطهرت طهارة كاملة على ما تقدم، وصليت ركعتين سنة الوضوء وأخرج إلى المسجد، وقد يشق عليَّ الوضوء في البيت، ولا يتيسر لي إلا في المسجد، وحين أدخل بيت الله أدخل وعليَّ السكينة والوقار، أقدم رجلي اليمنى عند الدخول وأقول: بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك وأنوي الاعتكاف، وأصلي تحية المسجد ركعتين أو أكثر، وأقعد مستقبل القبلة، وأذكر الله ولا أتكلم إلا بخير، والملائكة تصلي على الإنسان ما دام في محل صلاته ما لم يحدث أو يتكلم، وإذا سمعت المؤذن قلت مثل ما يقول، وإذا قال: حي على الصلاة حي الفلاح، قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله. وبعد الفراغ أصلي على النبي ﷺ، وأقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت مُحَمَّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً

((114))

محموداً الذي و عدته، وأصلي سنة الفرض القبلية ركعتين قبل الصبح، وركعتين قبل الظهر أو أربع، وبعده ركعتين أو أربع، وقبل العصر أربع، وقبل المغرب ركعتين وبعده ركعتين، وقبل العشاء ركعتين وبعده ركعتين، ثم أوتر بثلاث، وأكثر من الدعاء بين الأذان والإقامة، وأحرص أن تكون صلاتي كلها في جماعة، ولا أنشد الضال، ولا أبيع ولا أبتاع في المسجد، ولا أرفع فيه صوتي إلا لحاجة، ولا أتفل فيه، ولا ألوثه بطاهر ولا نجس، وأقصد منه الصف الأول، وأترك الإمام لمن هو أفقه مني وأعرف بأحكام الاستخلاف، وإذا أقيمت الصلاة قمت عند الفراغ من الإقامة وأستوي في الصف، ولا أُوثر أحداً. بمكاني الذي سبقت إليه، والسابقون السابقون أولئك المقربون.

صفة الصلاة

وإذا كبر الإمام استحضرت نية الصلاة مقتدياً، ورفعت يدي مكشوفتين إلى أن أحاذي بهما الأذنين قائلاً : ((الله أكبر)) مستقبل القبلة بصدري ووجهي متلفظاً بالعربية في التكبير، لا أُخل بحرف ولا أسبق الإمام بحرف منه حتى ينتهي من تكبيرته، ثم أقول: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من

((115))

المشركين، قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، وأقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم اقرأ سورة الفاتحة، وإذا جهر الإمام بقراءته انتظرت فراغه منها ثم أقرأ بعده، وأحافظ على المأمور به من التجويد ومراعاة الحروف والتشديدات، وإذا كنت منفرداً أو إماماً جهرت بالقراءة في الصبح والجمعة والمغرب والعشاء، وأسر بها إ ذا كنت مأموماً في جميع الصلوات، وإذالم أسمع قراءة الإمام قرأت في الركعتين الأوليين سورتين بعد الفاتحة، ثم أقول: الله أكبر رافعاً يدي كما تقدم، هاوياً إلى الركوع، وأضع اليدين على الركبتين, أجافي المرفقين عن الجنبين، وأقول: سبحان ربي العظيم ثلاثة أو أكثر ثم أرفع معتدلاً رافعاً يدي قائلاً: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، ثم أسجد مكبراً وأقدم ركبتي ثم يدي ثم جبهتي وأنفي، رافعاً أسافلي على أعالي، مكشوف الجبهة، مطمئناً في الركوع والاعتدال والسجود والجلوس بين السجدتين، وأقول: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً أو أكثر وأدعو الله في السجود وأذكر حاجتي، ولا أتقدم على إمامي بخفض ولا رفع، وأتشهد بعد الركعتين، وبعد الثالثة من المغرب، والرابعة من الظهر

((116))

والعصر والعشاء قائلاً: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحَمَّداً رسول الله ثم أصلي على النبي الصلاة الإبراهيمية: اللهم صلِّ على مُحَمَّد وعلى آل مُحَمَّد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على مُحَمَّد وعلى آل مُحَمَّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، وأجتهد قبل السلام في الدعاء، وأستعيذ بالله من عذاب القبر، وبعد اعتدالي من الركعة الثانية في صلاة الصبح أؤمن على قنوت الإمام، وإذا كنت منفرداً قلت: اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت ولك الحمد على م قضيت، أستغفرك وأتوب

إليك، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم، وإذا فرغت من الصلاة وما يطلب منها قلت عند الخروج: السلام عليكم ورحمة الله ملتفتاً جهة اليمين ومرة ثانية جهة اليسار، ثم أستغفر الله ثلاثاً وأقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، وبعد الصبح والمغرب أقول: لا إله إلا الله وحدهُ

((117))

لا شريك لهُ، له الملك ولهُ الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات، اللهم أجرني من النار سبع مرات، وبعد كلل صلاة أسبح الله ثلاثاً وثلاثين، وأحمده ثلاثاً وثلاثين، وأكبره ثلاثاً وثلاثين، وتمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لهُ الملك ولهُ الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

والخشوع مطلوب في الصلاة، وليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها، ولا أعبث بيدي، ولا أوالي ثلاث حركات في الصلاة، وأعلم أنها تبطل بالحدث وملاقاة النجاسة، وانكشاف العورة والانحراف عن القبلة، وكلام الآدميين عمداً، وبالأكل والشرب ولو قليلاً، ولا أكف ثوبي ولا شعري في الصلاة لأنه مكروه شرعاً وكذلك الالتفات ومسح التراب والحصا عن الجبهة قبل السلام ولا أنقر في السجود نقر الغراب، ولا أبسط فيه ذراعي، وبلغني عن النبي ﷺ: أن الإنسان في صلاته يناجي ربه والملك عن يمينه، فلا يبصق بين يديه ولكن تحت قدميه أو عن يساره، والله تعالى يقول: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (1)

((118))

صلاة الجماعة

بلغني النبي ﷺ أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة، وأنها أفضل ما تكون في المسجد، وحضورها في القريب أفضل من حضورها في المسجد البعيد، إلا إذا كانت الجماعة فيه أكثر، أو كان إمامه أصلح وأفقه في دين الله، والجماعة من أعظم شعائر الإسلام، والبلد الذي يكون فيه ثلاثة من المسلمين أو أكثر ولا تقام ف يهم الجماعة يستحوذ عليهم الشيطان، وأنا أحرض أبنائي ومن في ولايتي من صغير وأجير على صلاة الجماعة وإذا استأذنتني امرأتي في الذهاب إلى المسجد وهي ذات دين وخلق مستقيم، والفتنة مأمونة، أذنت

---

[1] – سورة المؤمنون الآية: 1-2.

لها ولا أمنعها من الخير؛ ثم إذا كنت أنا الإمام حاولت أن أكون خيراً من المقتدين بي في الإتيان بالمطلوب من واجب ومندوب، وأخفف الصلاة بلا خلل فيها، ولا أطيلها حتى يتأذى الضعيف والكبير ومن له حاجة مستعجلة، وأجهر في موضع الجهر، وأسر في موضع الإسرار، وأقرأ بعد الفاتحة في الصبح والظهر من طوال المفصل، وفي العصر والعشاء من أوساطه، وفي المغرب من قصاره، وأطول الركعة الأولى على الثانية حتى يدركها المتخلف، وإن كنت مأموماً التزمت الإمام ولا أتقدم عليه في الموقف، ولا أبتعد عنه ولا عن الصف الذي

((119))

أكون من وراءه إلا بمقدار ثلاثة أذرع، وألصق قدمي بقدم الذي عن يميني وعن شمالي وكتفي بكتفه، ولا أقتدي بمأموم ولا بأمي لا يحسن القراءة، ولا بمن عليه نجاسة ظاهرة، ولا بمن علمت أنه محدث أو حامل نجاسة خفية، ولا أصلي خلف المرأة لأن العلماء يقولون ببطلان الصلاة خلف هؤلاء، وأكره القدوة بالفاسق والمبتدع، وهي بعد الحر البالغ أولى وأحسن منها بعد العبد والصبي، والأعمى مثل البصير، وإذا لحقت الإمام في الركوع وكبرت تكبيرة الإحرام كما ينبغي واطمأننت معه في الركوع وقبل أن يعتدل، حسبت هذه الركعة واحدة من صلاتي، وأسجد معه للسهو الذي حصل منه قبل الاقتداء به وبعده، ولا أسجد لسهو نفسي إلا إذا حصل مني بعد سلام الإمام، وإذا صليت منفرداً أو في جماعة أولى ورأيت الجماعة الثانية. صليت معهم بنية الإعادة مرة واحدة، وأكره أن أكون إماماً، إلا إذالم يكن في الحاضرين من هو أولى وأحق بها مني، وأرفع صوتي بالقراءة وتكبيرات الانتقالات وبالسلام قدر ما يسمع المصلون، ولا أحب المبلغ إلا لحاجة، وأصلح من ظاهري بنظافة جسمي وثوبي وطلاقة وجهي وتحسين صوتي قدر الإمكان، وأسأل الله أن يصلح باطني وأن يوجهني إليه وجهة حسنة (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)[1]

((120))

النفل المطلق

لا شيء أفضل عند الله من الصلاة فرضها ونفلها، وإذا تيسر لي أن آتي بشيء منها غير المكتوبة والراتبة فإنني أصلي بعد كل وضوء وكلما دخلت المسجد صليت ركعتين أنوي بها سنة الوضوء أو التحية المطلوبة، وبعد طلوع الشمس وارتفاعها قدر رمح أصلي ركعتين سنة الشروق، وفي حوالي ربع النهار الأول أصلي ثماني ركعات سنة الضحى، وأسلم من كل ركعتين،

[1] – سورة الفرقان الآية: 74.

وبعد الزوال أصلي أربعاً وبين العشاءين ما تيسر من صلاة الأوابين ركعتين إلى عشرين ركعة، وأحب قيام الليل وأن أكون من أهل قوله تعالى: (كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)[1] وصلاة الليل مثنى مثنى، وأطيل فيها القراءة، حسب ما عندي وحسب ما أستطيع من تلاوة القرآن وأتمم الوتر إحدى عشر ركعة وأجعلها آخر صلاتي، وفي الركعتين التاسعة والعاشرة منه أقرأ سبح اسم رَبَّك الأَعلى، وقُلْ يَا أَيُهَا الْكَافِرُون، وفي الأخيرة قل هو الله أحد والمعوذتين، ولا أتنفل نفلاً مطلقاً ليس له سبب متقدم ولا مقارن بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، ولا عند استوائها حتى تزول، ولا بعد صلاة العصر حتى تغرب، وأصلي التراويح في رمضان، وإذا علمت بكسوف الشمس وخسوف القمر، صليت

((121))

وحدي أو مع الناس ركعتين أتابع فيهما الإمام بالكيفية، وكذلك أفعل في صلاة الاستسقاء وهي ركعتان أيضاً ومثل صلاة العيد، والأمر الذي أتردد في فعله وتركه، استخير الله فيه، وأصُلي ركعتين من غير الفريضة، وأقول بعدهما: اللهم إنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه، ثم قدر لي الخير حيث كان وأرضني بما قسمته لي، وأُسمي حاجاتي والله أعلم بما في نفسي. والذنب يصدر مني، استغفر له الله وأتوب منه، ثم أتوضأُ وأصلي ركعتين صلاة التوبة لقول ربي تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)[2]

((122))

وحين تسافر

وماذا تصنع يا أخي إذا سافرت، وكيف تصلي في السفر، وهل تعبد الله بعبادة خاصة من حين تخرج من بيتك إلى أن تعود؟

((نعم)) يا سيدي أنا لا أُحب إلا لغرض مقصود من تجارة أو زيارة أو حج أو جهاد أو طلب علم أو سياحة أُروح بها عن نفسي، وأنظر فيها عجائب الكون وما خلق ربي في أنحاء المعمورة برها وبحرها، واقتص آثار الذين خَلَوْا من قبل، وفوائد السفر كثيرة، ويستحب الخروج

---

[1] – سورة الذاريات الآية:،17، 18.

[2] – سورة هود الآية:114.

في صباح الخميس، وألتمس الرفيق قبل الطريق، ولا أسافر إلا ثالث ثلاثة فأكثر، وأُساعد رفيقي فأركبهُ معي إذا ضعف، أو أتعاقب أنا وإياه ظهر دابتي، وإذا مررت بالمنقطع فلا أجاوزه حتى أقدم إليه المعونة، والسير في الليل أصلح وأر ريح ولا سيما في البلاد الحارة، وإذا نزلنا منزلاً آخر الليل تجنبنا قارعة الطريق وقرب بعضنا من بعض، وأُسعف بالأدوية التي تكون معي المريض في الباخرة أو القطار أو الطائرة أو القافلة، وأسنده إذا قذف أو أصابه الدوران، وأقول حين أخرج، وإذا ركبت سيارتي أو دابتي: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى،

((123))

اللهم هَوِّن علينا سفرنا هذا وَاطْوِ عنا بعده اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، وأقول ذلك إذا رجعت، وأزيد عليه: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون، وإذا صعدت مرتفعاً من الأرض كبرت، وإذا هبطت سبحت، ولا أرفع صوتي بذلك ولا أكلف دابتي فوق طاقتها، وأتزود بما لابد منه للمسافر من الزاد والماء وعلف الدابة والبنزين الكافي لسيارتي، وأتعرف إلى من ألقاه من أهل الفضل، وأوثق الصلة بيني وبينه، وأبحث في البلاد التي أ صل إليها عن الفائدة التي سافرت من أجلها فأزور المصانع والمعامل والمعارض التجارية، وأسأل عن صادرات البلاد وواردتها، وأزور العلماء والمتاحف ودور الآثار والمكاتب العامة وأقرأ ما هنالك من الصحف والجرائد. وأبتعد جداً عن الخطر وأمكنةِ الشر والمجالس التي لا يصلح أن أغشاها والمناظر الفتانة في بلاد لا تخضع للدين ولا تتقيد بالآداب، وإذا قضى الله حاجتي رجعت مسرعاً واستصحبت ما أقدر عليه من هدية للنساء والأطفال والأصدقاء، وأُقدم البشير بسلامة العودة بين يدي، وقد أُبرق لأهلي من بعيد، واذكر لهم موعد الوصول، ولا أطرقهم ليلا ولا أُفاجئهم، وإذا مررت بالمسجد صليت فيه سُنة العود من السفر، أما الصلوات المفروضة فأؤديها كما كنت أؤديها في الحضر

((124))

غير أني أقصر الرباعية وأجعلها ركعتين فقط وأنوي القصر عند تكبيرة الإحرام، ولا أرى ذلك يجوز لي إلا إن كان سفري طويلاً وفي غير معصية الله، وقد أجمع الظهر مع العصر فأقدم الثانية مع الأولى أو أؤخر الأولى إلى وقت الثانية، وفي المغرب والعشاء كذلك ولا أتنفل بين الصلاتين، وأؤذن للأولى منهما، وسمعت أهل العلم يقولون بجواز التقديم والتأخير للمريض الذي يشق عليه فعل كل صلاة في وقتها، وإذا رأيت حاجتي لزوجتي استصحبها معي في

السفر، وأُقرع بين الزوجتين وأيتهما خرج سهمها سافرت بها، وقال العلماء إنه يجوز للمسافر في رمضان الفطر وعليه القضاء، وإنه لا تلزمه الجمعة (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً)[1].

يوم الجمعة وليلتها

وماذا شرع الله لعبادة في اليوم المبارك الجمعة وليلتها؟ وما هي الأعمال التي تتقرب بها إلى ربك من غروب شمس يوم الخميس إلى غروب شمس يوم الجمعة؟ ((ج)) يا سيدي بلغني عن النبي ﷺ أنه كان لا يخلص يوم الجمعة بصيام ولا ليلتها بقيام وكره العلماء ذلك، أما أنا فإنني أقرأ سورة الكهف أو مرتين أو ثلاثاً،

((125))

وأكثر من الصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد ﷺ وإذا نشطت باشرت أهلي وأغتسل بعد طلوع الفجر، وإذا لم تكن عليَّ جنابة أخرت غسل الجمعة إلى وقت الذهاب إليها، وأقرأ في صلاة الصبح ((ألف لام ميم)) السجدة وبـ ((هل أتى على الإنسان)) وأسجد للتلاوة إذا كنت منفرداً وأتبع الإمام في ذلك فعلاً وتركاً، وأبكر إلى المسجد فلا أفرق بين اثنتين ولا أتخطى الرقاب، وأدنو من الإمام، ولا أقيم أحداً من مجلسه، وألبس أحسن ثيابي، والأبيض أفضل، وأمس من طيب أهلي ما وجدت من عطر وبخور، وأتسوك وأُزيل عني الروائح الكريهة بكل ما في وسعي، وفي المسجد أُصلي ما كتب لي من التنفل حتى يدخل الإمام فأنصت لما يقول، ولا أتلفت ولا أ قعد على هيئة تجلب النعاس، ولا أرفع صوتي بشيء من الذكر والصلاة على النبي والترضي عن الصحابة والتأمين على الأدعية وقت الخطبة؛ وإذا كنت أنا الخطيب جئت بعد الزوال فوراً، وأسلم على الناس عند الدخول وإذا صعدت المنبر، ثم أجلس حتى يفرغ المؤذن بين يدي من أذانه ثم أشرع في الخطبة ولا أطيل ولا ألتفت ولا ألتفت ولا أشير إلى أحد، وإذا بدا لي شيء يستحق الأمر به أو النهي عنه قلت ما بال أقوام يصنعون كذا ويتركون كذا إلخ، وطول الصلاة وقصر الخطبة من علامة فقه الرجل، وبحسب علمي أستمد الخطبة من

((126))

---

[1] – سورة النساء الآية: 101.

كلام الله عز وجل ومن هدي الرسول ﷺ، وأعتمد على شيء في يساري كالعصا ونحوها، ولا أتلثم ولا ألبس الطيلسان ولا أسرد الكلام سرداً ولا أطيل الجلوس بين الخطبتين، ولا أفصل بينهما وبين الصلاة إلا بقدر ما أنزل من المنبر وأدخل المحراب، وآمر الناس بتسوية الصفوف، ولا أصلي إذا دخلت والإمام يخطب غير التحية، وإذا رأيت من يصلي وأنا الخطيب أمرته بتحية المسجد ركعتين خفيفتين يتجوز فيهما ثم يقعد وأقرأُ في الصلاة سورة الجمعة (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[1] وسورة (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ)[2] وتارة أقرأ بسورتي الأعلى والغاشية، وبعد السلام لا أطيل الجلوس، ولا أصلي إلا ركعتين خفيفتين وإن أخرتهما إلى البيت صليتها أربعاً، وفي يوم الجمعة ساعة مباركة لا يصادفها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه ما سأله، ما لم يكن فيه إثم ولا قطيعة رحم، وأزور قبور المسلمين على ما سيأتي، وصلاة عصر يوم الجمعة أفضل الصلوات بعدها ولفريضة الجمعة في الإسلام شأن عظيم، ومن ترك ثلاث جمع متواليات بغير عذر طبع الله على قلبه بطابع النفاق، ولا أتأخر عن حضور الجماعة وإقامة الجمعة إلا لعذر شرعي، ويشترط العلماء لصحة الجمعة شروطاً خاصة ككونها في جماعة، وأنها لا تقام إلا في

خطة البلد، وأنا لا أصلي الظهر بعدها مطلقاً، سواء كان عدد الحاضرين كثيراً أو قليلاً، والسفر حرام بعد طلوع الفجر إلا لمن يدرك الجمعة في بلد آخر، أو يخاف فوات الرفقة، وأحب مباشرة أعمالي بعد الصلاة ولا سيما التجارة لقول الله تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[3].

يوم العيد وليلته

في العيد أي شيء يا أخي تقول وتفعل؟ ((ج)) إذا غربت شمس آخر يومٍ من رمضان أو التاسع من شهر ذي الحجة الحرام فتلك هي ليلة العيد، وفيها: أكبر الله كثيراً في المسجد والبيت والسوق. وعلى كل حال أرفع صوتي بالتكبير إلى أن يدخل الإمام في صلاة العيد، وأحيي تلك الليلة بالصلاة وتلاوة القرآن والذكر المشروع ((ومن أحيا ليلة العيد أحيا الله قلبه

---

[1] – سورة الجمعة الآية:1.

[2] – سورة المنافقون الآية: 1.

[3] – سورة الجمعة الآية:10.

يوم تموت القلوب)) ومن صبح تاسع ذي الحجة إلى عصر آخر أيام التشريق أكبر خلف كل صلاة فريضة ونافلة ومقضية ومؤداة، وأقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله ولا نعبد

((128))

إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا إله إلا الله وحده صدق وعده، ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله الله أكبر ولله الحمد ثم أصلي على النبي ﷺ، وفي عشر ذي الحجة أكبر إذا رأيت الأنعام التي تصح بها الأُضحية، وإذا كنت عازماً على أُضحي فإنني لا أُزيل عن نفسي ظفيراً، ولا شعراً، وأخرج زكاة الفطر قبل صلاة العيد، وهي صاع من غالب قوت البلد أخرجه عن نفسي وعن زوجتي وعن ولدي الصغير والكبير الذي تلزمني نفقته وعن أبي وأمي كذلك، وسمعت أن الفطرة لا تجب إلا على المستطيع الذي يملك فاضلاً عن قوت يومه وليلته، وأصوم يوم عرفة، وأمسك عن الطعام والشراب يوم النحر حتى أ رجع من المصلى، وأغتسل للعيد وألبس أجود ما لدي من الثياب إلا المحرم، وأتطيب وأبكر بالخروج، وأذهب في طريق وأعود في غيرها، وأهش وأبش لمن لقيته من المسلمين وأصافحهم وأُسلم عليهم، وآمر أهلي بالخروج وعليهم الزينة ومظاهر النعمة والمرأة في جلبابها غير سافرة ولا متعرضة لفتنة، ولا أُصلي شيئاً قبل العيد ولا بعده، وأُحب الصلاة في الصحراء إلا إذا اتسع المسجد وأُقيمت الصلاة فيه - فأصلي فيه – فأصلي التحية عند الدخول ثم أجلس، وإذا قال المنادي (الصلاة جامعة) قمت في الصف وكبرت بعد

((129))

الإمام تكبيرة الإحرام وسبعاً بعدها أرفع يدي مع كل تكبيرة، وأقول بعدها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ثم يقرأ الإمام وأنصت لقراءته، وإذا فرغ من الفاتحة قرأتها أنا، وأكبر في الركعة الثانية بعد الرفع من السجدة الأخيرة، وقبل القراءة خمس تكبيرات كما تقدم، والإمام يقرأ في الركعة الأولى (ق والقرآن المجيد) وفي الثانية (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

وبعد السلام يصعد المنبر ويخطب فينا خطبتين تناسب الحال والزمان ويكبر في الأولى تسعاً، وفي الثانية سبعاً، ويحث الناس على الخير والصدقة ومواساة الفقراء، وأنا أوسع على العيال وأبسط لهم في رزقهم يومئذ وأكره السرف ووضع الشيء في غير محله، فإذا ذبحت

أضحيتي ثلثها، وتصدقت بثلثها، وجعلت لنفسي ولأهلي ثلثها، ولا أبيع الجلد ولا أجعله أجرة للجزار، وأسمح في بيتي بشيء من اللهو مع مراعاة الأدب والحشمة، وأحافظ على من في ولايتي من العادات القبيحة والذنوب التي يرتكبها الفساق في أيام العبادة، كالخمر والقمار، وأخاف عليهم من قوله جل ذكره: (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً)[1].

((130))

قضاء الفوائت

هل يطلب قضاء شيء فائت مما ذكرت من الفروض والنوافل؟ ((نعم)) يا سيدي، يطلب قضاء الفوائت كلها إلا ما له سبب، كصلاة الكسوفين، وسنة الإحرام، والقدوم من السفر، وحين تفوتني الفريضة بعذر شرعي: كالنوم أو النسيان، أصليها متى ذكرت أو استيقظت، قال الله تعالى (وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) والتي تفوت بلا عذر أبادر بقضائها، ولا اشتغل عن ذلك إلا بأمر ضروري لا بد منه؛ وإذا كانت عليَّ فوائت كثيرة أذنت للأولى منها، لكل صلاة، وأفعلها مرتبة كما فاتت، وأقدم القضاء على الأداء إلا إذا رأيته ضاق وقت المؤداة، وإذا شككت في عدد الفوائت بنيت على الأقل وأخذت باليقين، والنفل المطلق يكون ورداً وعادة لي، أصليه إذا فات، وإذا أقيمت الجماعة صليت معها وأخرت السُنة القبلية، ثم أجعلها مقدمة البعدية، وقال العلماءُ فيمن فاتته الصلاة المفروضة بغير عذر، وهو جاحد لوجوبها: إنه كافر. أما الكسلان فيستتاب، فإن تاب وإلا قتل حداً وتجري عليه أحكام المسلمين (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)[2].

((131))

الميت ما يفعل به؟

أزور المريض وأدخل السرور على قلبه، وإذا يئست منه ذكرته بالله وبشرته بما أعد الله للمؤمنين من الخير، وأرغبه في الوصية، وإذا احتضر لقنته كلمة التوحيد، لا إله إلا الله، وأوجَّهُهُ إلى القبلة؛ وحين تفيض نفسه، أشد لحييه، وأغمض عينيه، وأتركه يستريح قليلاً ثم أمسح على

---

[1] – سورة الإسراء الآية:64.

[2] – سورة النساء الآية :103.

بطنه، وأطرح عليه شيئاً ثقيلاً حتى يفرغ ما فيه، وأمنع النساء عند الميت والنياحة وتعديد الشمائل، ثم أرفعه أنا والمعين إلى المغتسل، وأزيل عنه النجاسة وأغسل سوأتيه، وأنظف أنفه، وأغسله ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً، وأجعل في الأخيرة كافوراً، ومع الأولى سدراً أو صابوناً، ثم أنشف جسمه وأذر عليه الحنوط، وأسدد منافذه ومعاطفه بالقطن، وأطرحه في الكفن المطيب الأبيض ثلاث لفائف، وقد أجعل إزاراً وعمامة، وآمر النساء بمثل هذا في تجهيز المرأة الميتة، وأن يظفرن شعرها ويجعلنه وراء ظهرها، ثم تكفن في قميص وإزار وخمار ولفاقتين، والمحرم بحج أو عمرة لا يستر رأسه، والمرأة لا يغطي وجهها، ولا يمس بطيب لأنه يبعث ملبياً وعلى هيئته يوم مات، وإذا رأيت خيراً ذكرته، وإن رأيت خلاف ذلك سترته على الميت واستغفرت له، وأسرع بالسير خلف الجنازة، وأكون أمامها أو خلفها أو بجانبها، وأكره

((132))

أن تُتبع بالنار، ولا أحب أصوات المشيعين المرهبة المخيفة، وحيث يصلى على الجنازة نقف ثلاثة صفوف أو أكثر، ويؤمنا ولي الجنازة أو من يختاره هو للإمامة، ثم نكبر تكبيرة الإحرام ونقرأ الفاتحة، ونكبر أخرى ونصلي على النبي ﷺ، ونكبر ثالثة وندعو للميت: اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم منزله ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من دارة، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجه، وأدخله الجنة برحمتك، وقه فتنة القبر وعذاب النار، والصغير نقول في الدعاء له: اللهم اجعله لوالديه فرطاً وذخراً وعظة واعتباراً وسلفاً وشفيعاً، وثقِّل به موازينهما، وأفرغ الصبر على قلوبهما، ولا تفتنهما بعده، ولا تحرمهما أجره، ونكبر رابعة ونقول بعدها: اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر اللهم لنا وله، ثم نسلم مرتين يمنه ويسره : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ونحفر للميت حفرة عميقة قدر قامة وبسطة، وإذا كانت الأرض رخوة شققنا له وسط القبر، وفي الصلبة نجعل له لحداً جهة القبلة، ونضعه فيه على شقه الأيمن وتحت خده لبنة أو نحوها، ونقول عند الوضع: بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ، ونسقف الشق ونسد

((133))

اللحد بتسع لبنات، ثم نهيل عليه التراب، ونسطح القبر ونرشه بالماء، ونجعل عليه علامة يعرف بها، ونستقيم عنده قليلاً نستغفر له ونسأل الله له التثبيت، والبناء على القبر حرام في المقبرة الموقوفة والمسبلة، ويكره تجصيص القبر وتبييضه، والكتابة والمشي والجلوس عليه، واحترام الميت كاحترامه حياً، وأزور المقابر زيارة إسلامية صحيحة، وأقول عند الدخول: السلام عليكم

دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون؛ والمرأة لا أدعها تزور المقابر إلا إذا وثقت بدينها وصبرها، وأنها لا تفعل ما نهى الله عنه، وأعزي أهل الميت بعد دفنه إلى ثلاثة أيام وأقول لهم: عظَّمَ الله أجركم وأحسن الله عزاءكم ورحم ميتكم، وأقول للنساءِ: إنه ليس من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية: قال الله تعالى: (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ)[1]

((134))

التعبد بالزكاة

كفيت وأغنيت يا أخي بما ذكرت من أمر الصلاة وأحكامها فجزاك الله خيراً، والآن كيف تتعبد بالزكاة؟ ((ج)) إذا رزقت مالاً كثيراً عرفت حق الله فيه، وأخرجت منه الحق المعلوم للسائل والمحروم، والزكاة نصيب مقدر مفروض من المال، يؤخذ من أغنياء المسلمين ويرد على فقرائهم، ومانع الزكاة لا دين له، ممحوق البركة، مسلوب النعمة ولو بعد حين، ومصيره النار ومصاحبة الكفار، وجاء الوعيد الشديد في كتاب الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ لمانع الزكاة، وهي لا تجب في المال كله، وإنما تجب في الإبل والبقر والغنم، والذهب والفضة، وعروض التجارة، والحب والثمر المأكول في حالة الاختيار، وفيما وجد من كنوز الجاهلية، وما يستخرج من معادن الذهب والفضة (والنصاب والحولُ والملك التَّام شرطٌ في وجوبها) والحب والثمر يزكى يوم حصاده، والكنوز المذكورة يخرج منها الخمس في الحال، والربح ونتاج الماشية حوله بحول أصله. ونصاب الإبل خمس وفيها جذعة من الضأن لها سنة، أو ثنية من المعز لها سنتان، وفي العشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين بنت مخاض من الإبل لها سنة، وفي ست وثلاثين بنت لبون لها سنتان

((135))

وفي ست وأربعين حقة لها ثلاث سنين، وفي إحدى وستين جذعة من الإبل لها أربع سنين، وفي ست وسبعين بنتا لبون اثنتان، وفي إحدى وتسعين حقتان، وفي مائة وإحدى وعشرين ثلاث بنات لبون؛ ثم في كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حقة وهكذا، ونصاب البقر ثلاثون وفيها تبيع له سنة، وفي الأربعين مسنة من البقر لها سنتان وهكذا،

---

[1] – سورة الواقعة الآيات: 60- 62.

ونصاب الغنم أربعون وفيها شاة واحدة، وفي مائة وإحدى وعشرين شاتان، وفي مائتين وواحدة ثلاث شياه، وفي أربعمائة أربع شياه، ثم في كل مائة شاة وهكذا، ولا يجب شيءٌ فيما بين عدد وآخر. ونصاب الذهب إحدى عشر جنيهاً تقريباً، ونصاب الفضة عشرون أوقية، وفيهما ربع العشر وما زاد فبحسابه، وكذلك الواجب في المستخرج من المعدن، وعروض التجارة تثمن في آخر الحول بالنقد الغالب في البلد، أو بالذي ملكت به، وإذا بلغ المذكور نصاباً وجب فيه ربع العشر، ونصاب الحبوب خمسة أوسق وقدرها بالوزن ألف ومائتان وعشرة أرطال تقريباً بالأرطال المعروفة، وأحدها ست عشرة أوقية وفيها العشر كاملاً إذا سقي بالمطر وبلا مؤونة، وإلا فنصف العشر فقط، وأنا أدفع الزكاة الواجبة عليَّ إلى الإمام أو إلى الحاكم المسلم المتغلب إذا طلبها مني، وإلا فإني أصرفها كما أمرني ربي بقوله

((136))

تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[1] ولا أدفع زكاة مالي ولا فطرتي لكافر ولا لغني، ولا لمن تلزمني نفقته، ولا لأهل بيت النبي ﷺ، وإن كانوا محتاجين، وسمعت العلماء يقولون: إنها لا تنقل الزكاة من بلد إلى آخر إلا إذا غني أهل البلد، فتنقل إلى أقرب مكان مستحق أهله. ويقولون أيضاً: إن القيمة لا تجزي في الزكاة، وأنا بحسب ديني ومعرفتي أنظر إلى الأصلح وأدفعها إلى المستحق كما يجب، وأنقلها من كان إلى آخر مقلداً في ذلك القائلين بجوازه.

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)[2].

واجبات أخرى

---

[1] – سورة التوبة الآية:60.

[2] – سورة الروم الآية:39.

عليَّ في المال حقوق كثيرة: الكفارة، والفدية، والأضحية؛ والعقيقة، والمنذور، وما أتقرب به إلى الله من هبة وهدية وصدقة، ووصية ووقف، وليس الجميع واجباً، ولكنه مطلوب متعبد به إلا ما شرع من ذلك عقوبة على ذنب، أو يوجبه الإنسان على نفسه، وطرق البر وسبل الخير كثيرة وأنا إن شاء الله من الذين يعرفون حق

((137))

الله في المال، أ صل به الرحم، وأحمل الكل، وأقري الضيف، وأتفقد أحوال الأرامل والمساكين، وأكفل اليتيم، وأشجع الطالب في المدرسة، وأكرم المريض في المستشفى، وأساعد جيراني، وأساهم في المشروعات الإصلاحية، وأحب الصدقة إليَّ أبعدها عن الرياء والسمعة، وأدومها نفعاً وأطولها بقاءً وهي الصدقة الجارية، كبناء المساجد والمدارس وملاجئ العجزة والوقف عليها، ونشر المصاحف والكتب العلمية؛ وحين ترد ماشيتي على الماء أحلبها هنالك، وإذا جئت بالهدية: الفاكهة ونحوها أ شركت فيها جليسي وجاري؛ وإذا وسع الله علي وسعت على نفسي وأهلي وعيالي، فأكلت وشربت وتصدقت في غير سرف ولا مخيلة؛ والمحتاج الوفي الأمين إذا عجزت عن مساعدته أقرضته المال وأنظرته، ولا أرى علي بأساً إذا أخذت منه الرهن والوثيقة التي استوفى منها الحق الذي عليه، وأفضل الإسلام إطعام الطعام، والأقربون أولى بالمعروف، ولا أمن بالصدقة، ولا أتبعها منًّا ولا أذى، ولا أنهر السائل ولا أرد بالجفا، ولا أحقر المعروف ولو قليلاً سواء أخذته أو أ'طيته؛ وقد أوثر على نفسي (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[1]

((138))

كيف تكسب المال؟

بعض الناس يكتسب المال ويجمعه من الحلال والحرام ولا يتورع عن شيء، ولا يترك من الحرام إلا ما عجز عنه، قد نزع الله من قلبه الغنى وجعل الفقر بين عينيه، وإنه ليبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، وأما أنا فلا أجمع المال، ولا أطلب الرزق إلا من باب، والدنيا فانية، وليس للمرء منهما إلا ملء بطنه وستر جلده، والنبي ﷺ يقول: ((ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)) والطمع مهلكة، والقناعة غنى، ولذلك فإنني لا أتعامل

[1] – سورة البقرة الآيات: 270 – 271.

بالربا، ولا أتجر في الخمر، ولا أطفف المكيال والميزان، ولا أقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ولا أشتري المغصوب ولا المسروق وإن قل ثمنه، ولا أقبل الرشوة، ولا أحب المطل، ولا أذل نفسي بالمسألة، ولا أتصنع للأغنياء، ولا أزور في شهادة ولا كتابة، وأُحب المال إذا ما اكتسبه بكد يميني وعرق جبيني، وأخرج صباحاً من البيت إلى مقر العمل وأقوم به خير قيام؛ والبركة في التبكير، وإذا دخلت السوق فلا فحش ولا بذاءة ولا صخب ولا أيمان، والتاجران أكون بينهما سمساراً لا أكذب على أحدهما ولا أغشه ولا أُغرر به، ولكنني أحبب لهذا البيع ولهذا الشراء، وأدعو لهما بالبركة، وأبشرهما بالفائدة، ولا أبيع ذهباً

((139))

بذهب، ولا فضة بفضة، ولا مطعوماً بمطعوم إلا متماثلاً نقداً يداً بيد، والعلماء يقولون: كل قرض جر نفعاً للمقرض فهو ربا، وإذا كان كان المال عندي قارضت به العامل الأمين، وجعلت له من الربح جزءاً معلوماً، وإذا أجرت نفسي أو استأجرت أحداً فعلى شريعة الإسلام، وبعد أن أسأل أهل العلم عن الإجارة وأحكامها، ولا أضيع شيئاً من وقت العمل، ولا أتهاون باليسير من مال الغير، وأعلم أن الله رقيب علي في صنعتي وفيما أصنع، وإذا كنت صاحب مطعم أو مقهى فالخمر والخنزير ولعب القمار لا يدخلون محلي، ونظافة المكان والآنية أمر يحبه الله، وبه تحفظ الصحة، ويجلب العميل، والحركة والنشاط من أسباب النجاح، والخشونة من أوصاف الرجال؛ والساعي على الأرملة والمسكين كالصائم القائم المجاهد في سبيل الله. والنبي ﷺ يقول: ((إنها لا تموت نف س منفوسة حتى تستوفي مالها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)) والله تعالى يقول: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[1].

((140))

[1] – سورة الملك الآية:15.

التعبد بالصيام

وكما ذكرت أمر الصلاة والزكاة يا أخي – فاذكر – لي كذلك أمر الصوم، ولك عند الله عظيم الأجر.. يا سيدي عبادة بدنية تهذب النفس، وتصلح الروح، وتضيق بها مجاري الشيطان من ابن آدم، وفيه فوائد طبية واجتماعية، وقد فرض الله منه على المسلمين شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وبعث الله فيه مُحَمَّداً ﷺ، وإذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغُلِّقت أبواب النار، وصفدت الشياطين، والأعمال التي تؤدى فيه: صلاة وصوم وزكاة وتلاوة قرآن، واذكر الله كثيراً بكرة وأصيلاً، وأنا أقول فيه: أشهد أن لا إله إلا الله، أستغفر الله، أسأ لك الجنة وأعوذ بك من النار، وأقول أيضاً: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عنا. وإذا كان أول ليلة منه تفرغت للعبادة وتهيأت بكل ما في وسعي لحضور الجماعة، وإطالة الاعتكاف وملازمة المصحف والمسجد، وأنوي صيامه وقيامه، وأكرر نية الصيام ليلاً لكل يوم، وأستحضر بقلبي: نويت صوم غد عن أداء فرض شهر رمضان هذه السنة لله تعالى. وأصلي التراويح مع الإمام الفقيه الحسن القراءة والصوت، ولا أركض فيها ركضاً ولا أفعلها للعادة، ولكنني أتعبد بها خاشعاً منيباً، وأقوم الليل وأطيل صلاته لنفسي،

((14))

أجعل الوتر آخر صلاتي، ولا أستمر على الباطل، ولا أجلس مع الذين يبيتون على غيبة ونميمة ولهو ولعب، وأتناول السحور آخر الليل، وفي السحور بركة، ولا أتملأ بالطعام والشراب الذي يثقلني ويتعبني طيلة النهار؛ ولا يمنعني الصوم عن مزاولة أعمالي، ولا أظل نائماً كما يفعل المترفون والكسالى، ومتى تيقنت غروب الشمس عجلت الفطور وأجعله بتمر، وإن لم أجده ف بحلو آخر وإلا فبالماء، ولا أبالغ في تناول العشاء، ولا أنوع أصناف المأكولات، وأحاول أن أفهم السر من الصوم وما يجب على الغني نحو الفقير، وما يعود به على الصائم من تخفيف شحم البطن، وما يستفيده الصائم من القوة والجلد والصبر على المكاره، وأمسك من طلوع الفجر إلى غروب الشمس عن الأكل والشرب والجماع والمباشرة بشهوة، وسمعت أهل العلم يقولون: إن تعمد القيء ووصول شيء من الأعيان إلى ما يسمى جوفاً من منفذ مفتوح يفطر بها الصائم، والحيض والنفاس والجنون ولو لحظة، وبالسكر والنوم الذي يستغرق النهار كله كذلك يقطع الصوم، ولا بأس بالحجامة والدهن والاغتسال والاكتحال والتسوك قبل الزوال وبعده، والأحسن ترك ذلك، وغبار لطريق وغربلة الدقيق إذا وصل إلى الجوف عفي عنه، ومن أكل أو شرب ناسياً أو جاهلاً معذوراً أو مكرهاً

فصومه صحيح ولا شيء عليه؛ والصوم لا يجب إلا على المسلم البالغ العاقل الصحيح المقيم، وللمسافر والمريض الفطر في رمضان وعليهما القضاء، والرجل العاجز والمرأة العجوز ومن به مرض لا يرجى برؤه يجوز لهم الفطر، وعليهم لكل يوم إطعام مسكين فقط، والحامل والمرضع إن خافتا على نفسيهما تفطران وعليهما القضاء، وإن خافتا على نفسيهما تفطران وعليهما القضاء، وإن خافتا على الولد وجب عليهما القضاء والفدية لكل يوم إطعام مسكين، والحائض والنفساء تقضيان الصوم ولا تقضيان الصلاة، وإذا جاء رمضان الآخر وعليَّ قضاء من رمضان ألأول قضيت وأخرجت الفدية، واستغفرت ربي من التقصير في الواجب، والصبية الصغار من البنين والبنات آمرهم بالصلاة إذا ميزوا وقدروا عليه لسبع سنين، واضربهم على تركه لعشر، وإذا خرج رمضان لم أقصر المطلوب، ولا أفعل المعصية التي كنت أبتعد عنها كما يفعل الفساق والجهلة في شوال (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1]

صوم النفل

وأعبد ربي بما أقدر عليه من الصيام في سائر السنة، وأحرص من ذلك على صيام ست من شوال، لقول النبي ﷺ: ((من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر كله)) وأصوم يوم عرفة إلا إ ذا كنت من الواقفين هنالك.. وصوم يوم عرفة يكفر الله به ذنوب سنتين: سنة ماضية وسنة قادمة، وأصوم تاسوعاء وعاشوراء من المحرم وأيام البيض من كل شهر: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر؛ وأحب صوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، وبلغني عن النبي ﷺ أنه كان يكثر من الصوم في شعبان وفي شهر الله المحرم، ولا أفرد بالصوم الجمعة ولا السبت ولا الأحد، إلا إذا وافق عادة، وأكره صيام الدهر، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى.

---

[1] – سورة البقرة الآية:185.

وإذا صمت النفل أخفيته وتباعدت به عن الرياء، ويوم صومي لا أرفث ولا أفسق، وإن امرؤ سابني أو شاتمني قلت له: إني صائم، ومن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه؛ وكل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لله وهو يجزي به، وخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، ومن فطر صائماً

((144))

ولو بجبة تمر أو مذقة من لبن كان له مثل أجره، ولا ينقص من أجر الصائم شيء، والصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر، (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ).

التعبد بالحج

وكما أوضحت أركان الإسلام الأربعة، فهل لك أن تذكر الركن الخامس الذي هو الحج، وتبين لي كيف تؤديه؟ ((نعم يا سيدي)) الحج والعمرة فريضة الله على عباده في العمر مرة واحدة، ولا يجب ذلك إلا على المسلم البالغ العاقل الحر الذي يملك الزاد والراحلة ونفقة الذهاب والإياب لنفسه ولمن تلزمه نفقته، وتتابع الحج والعمرة ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وإذا عزمت أنا على الحج وهيأت ما لابد منه، ورتبت شؤون سفري وما يحتاج إليه أهلي مدة غيابي، واتخذت الإجراءات اللازمة التي يقضي بها قانون الزمان والمكان، دعوت الله عند لخروج من البيت بدعاء السفر المتقدم، وإذا بلغت الميقات نظفت نفسي واغتسلت غسلاً كاملاً وتوضأت وصليت ركعتين سنة الإحرام في غير أوقات الكراهية، وأقول: نويت الحج وأحرمت به لله تعالى،

((145))

وإذا انتهيت من أعماله خرجت إلى الحل وجئت بعمرة، وهذا هو الإفراد؛ أما إذا أحرمت بالعمرة أولاً وهو التمتع، أو جمعت بين الحج والعمرة وهو القران فإنه يلزمني مع ذلك فدية، وهي ذبح شاة تجزي في الأضحية، ولا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره المعلومة: شوال وذي القعدة وعشر ليال من ذي الحجة، وتصح العمرة في كل وقت. والتجرد من الثياب: المخيط ولمحيط واجب قبل الإحرام. وألبس ثوبين أبيضين إزاراً ورداءً، وأرك منذ الإحرام إلى أن أتحلل من لحج والعمرة الطيب والدهن وحلق الشعر وتقليم الأظفار.

ولا أستر رأسي، ولا أباشر امرأتي بشهوة، وآمرها إن كانت معي أن تكشف وجهها وكفيها، وأن تترك المحرمات كلها، ولا أتعرض لصيد البر مطلقاً، ولا أقطع شيئاً من نبات الحرم،

وأخبرني أهل العلم أنه من فعل شيئاً من ذلك فعليه الفدية: ذبح شاة أو توزيع ثلاثة آصع لستة مساكين في مكة، أو صوم ثلاثة أيام إلا الصيد فإنه يجب عليَّ مثله من النعم إن كان له مثل أو ورد فيه نص، وإلا فيحكم فيه اثنان ذوي عدل من المسلمين، وفي الشجرة الكبيرة بقرة وفي الصغيرة شاة، فإن صغرت جداً فالقيمة، والوطء في الإحرام يفسد الحج ويجب إكماله وقضاؤه في السنة القادمة والتصدق

((145))

ببدنه من الإبل، فإن لم يجدها فبقرة، فإن لم يجدها فسبع شياه، فإن لم يجدها فيتصدق بقيمة البدنة طعاماً، وفي الشعرة والشعرتين والظفر والظفرين مدٌّ ومدان، ولا بأس بالغسل في كل حال ولا بحك الجسم وقتل القمل، وأكثر من التلبية: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، واغتسل لدخول مكة، وإذا رأيت بيوتها قلت: اللهم اجعل لي بها قراراً وارزقني فيها رزقاً حلالاً، وإذا دخلتها قلت: اللهم إن هذا الحرم حرمك والبلد بلدك والأمن أمنك والعبد عبدك جئتك مكن بلاد بعيدة بذنوب كثيرة وأعمال سيئة أسألك مسألة المضطرين إليك المشفقين من عذابك، أن تستقبلني بمحض عفوك، وأن تدخلني في فسيح جنتك جنة النعيم، اللهم إن هذا حرمك وحرم رسولك ﷺ، ففحرم لحمي ودمي وعظمي على النار، اللهم آمني من عذابك يوم تبعث عبادك، أسألك بأنك الله الذي لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم أن تصلي وتسلم على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه، وأدخل الحرم من باب السلام قائلاً: اللهم أنت السلام ومنك السلام فحيَّنا ربنا بالسلام، وأدخلنا الجنة دار السلام، تباركت ربنا وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم افتح لي أبواب رحمتك ومغفرتك وأدخلني فيها، باسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

((147))

أركان الحج وواجباته

أركانه: الإحرام بالنية، ويجب أن يكون ذلك من الميقات: ذي الحليفة، والجحفة، ويلملم، وقرن، وذات عرق. وطواف الإفاضة ولا يكون ذلك إلا بعد الوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة والحلق أو التقصير ولو ثلاث شعرات، والحلق للرجال أفضل، والتقصير للنساء أفضل، والوقوف بعرفة (والحج عرفة) أما طواف القدوم فهو سُنة، وطواف الوداع واجب في حق غير الحائض، وكذلك المبيت بمزدلفة، والمبيت بمنى ليالي التشريق، ورمي الجمار: جمرة العقبة يوم العيد وهي والصغرى والوسطى أيام التشريق، ومن ترك شيئاً من الواجبات فعليه الفدية: ذبح

شاة، فإن عجز صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله، كما يفعل المتمتع والقارن. والركن لابد من الإتيان به، ولا يصح الحج بدونه، وإذا فاتني الوقوف بعرفة تحللت من الإحرام بعمل عمرة، ولا يصح الوقف بها إلا من زوال شمس تاسع ذي الحجة إلى طلوع فجر يوم العيد ولو لحظة، ويسن الجمع بين الليل والنهار فيها، وأنا أُصلي بها الظهر والعصر جمع تقديم، وأصلي المغرب والعشاء جمع تأخير بمزدلفة، وأبيت بها إلى ما بعد نصف الليل، وإن قدرت صليت بها الصبح، وأُسرع السير في وادي المحسر، وأرمي الجمرة بعد طلوع

((148))

الشمس بسبع حصيات ألتقطها من مزدلفة، وأقول مع كل واحدة منها: بسم الله، الله أكبر، وتنقطع التلبية، وأحلق رأسي أو أقصر، وأذبح الهدي أو الأضحية، وأنزل إلى مكة وأطوف طواف الإفاضة، وأسعى بين الصفا والمروة، وبذلك أتحلل من النسك تحللاً تاماً، وأعود إلى منى وأبيت بها ليلتين أو ثلاث، وأرمي الجمار بعد زوال كل يوم بسبع حصيات لكل جمرة، وأكبر بعد الصلاة من ظهر يوم النحر إلى صبح آخر أيام التشريق، والعمرة مثل الحج في الأركان ولا وقوف لها، وأحرم بها من الميقات، وإذا كنت بمكة خرجت إلى الجعرانة أو التنعيم أو الحديبية (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[1].

((149))

وكيف تطوف وتسعى؟

((ج)) وإذا رأيت الكعبة توجهت إلى الله بالدعاء، واستحضرت عظمة الرب، وأنني مُقبل عليه، معترف بذنبي، سائل منه تبارك وتعالى أن يغفر لي ويتوب علي، وأن ينزلني منازل الأبرار عنده، وأقول: اللهم أعوذ برب البيت من الكفر والفقر، وعذاب القبر، وضيق الصدر، اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابة ورفعة وبراً، وزد يا رب من شرفه وكرمه وعظمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابة ورفعة وبراً، وأقصد الحجر الأسود وأقبله

[1] – سورة البقرة الآية:196.

وأسجد عليه ثلاثاً، ثم أتأخر عنه وأنفتل حتى يكون الركن الذي فيه الحجر عن يساري، وأنوي الطواف بالبيت وأجعله سبعة أشواط، وقبالة الباب أقول: اللهم إن هذا البيت بيتك والحرم حرمك والأمن أمنك، وهذا مقام العائذ بك من النار، وأقول عند الركن الشامي الأول: اللهم إني أعوذ بك من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وسوء المنقلب في المال والأهل والولد، وتحت الميزاب أقول: اللهم ظلني في ظلك يوم لا ظل إلا ظلك، واسقني بكأس نبيك مُحَمَّد ﷺ مشرباً هنيئاً لا أظمأ بعده أبداً. وعند الركن الشامي الثاني أقول: اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وعملاً مقبولاً وتجارة لن تبور، يا عزيز

((150))

يا غفور، وكلما حاذيت الركن اليماني استمله بيدي وقبلتها وأقول: بسم الله الله أكبر، وأسرع المشي في الثلاثة الأشواط الأو لى، ولا أزاحم ولا أوذي أحداً، ولا أكون إلا طاهراً من الحدثين الأصغر والأكبر، ومن النجاسة في ثوبي وبدني، مستور العورة جاعلاً البيت عن يساري وأنا داخل المسجد، ولا أدخل في الطواف من حجر إسماعيل، ولا أجعل يدي فوق الشاذروان، وإذا انتهيت من لطواف كله، صليت خلف المقام ركعتين أو في الحجر أو في المسجد، أو خارجه إذا لم أستطع إلا ذلك، وأشرب من ماء زمزم وأتضلع منه وهو عند الله لما شرب له، وإذا أمكن بلا تعب أن أدخل الكعبة دخلتها وصليت فيها ما كتب لي، وأكثر من الدعاء فيها وتحت بابها والملتزم منها، ولا أقبل منها غير الحجر الأسود ولا ألحسه بلساني كما يفعل الجهال، ثم أخرج إلى المسعى من باب الصفا وأقرأ قول الله تبارك وتعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)[1] وأصعد فوق درج الصفا إلى أشاهد الكعبة، وأستقبلها، وأدعو الله ثم ابتدئ السعي نازلاً من الصفا متجهاً صوب المروة وأسرع في السير بين العمودين الأخضرين، وأصعد في المروة وأدعو الله أيضاً وهذا شوط واحد، والثاني من المروة إلى الصفا

((151))

إلى أن تتم الأشواط السبعة، وأحب أن أكون في السعي كما كنت في الطواف متطهراً مستور العورة متباعداً عن النجاسة ما أمكن ولا يكون السعي إلا بعد طواف ولا يستحب تكراره، وإذا كنت محرماً بالحج وطفت طواف القدوم وهكذا أسعى (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي

---

[1] – سورة البقرة الآية:158.

أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)[1].

المدينة المنورة

وإذا فرغت مما تقدم توجهت إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وهي دار الهجرة ومهبط الوحي، وحيث كانت تخرج منها جيوش الإسلام بالدعوة إلى الله وللدفاع عنها. وهي التي حرمها سيدنا مُحَمَّد كما حرم مكة سيدنا إبراهيم صلى الله عليهما وسلم، ومسجدها في الفضل بعد مسجد مكة، والصلاة فيه بألف صلاة في غيره؛ ومن شهد فيه أربعين صلاة مكتوبة كتب الله له

((152))

براءة من النار وبراءة من النفاق، وفي حرمها الشريف قبر رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقبل أن أدخلها أغتسل غسلاً كاملاً والزم الأدب فيها، وأحترم البقاع المقدسة التي تشرفت بأقدام النبي ﷺ يسير فيها، وإذا دخلت المسجد بدأت بالصلاة فيه، وأكثر من الدعاء وأتجه صوب القبر المعظم وأقف أمامه في تجلة واحترام كما لو كان صاحبه ﷺ جالساً أمامي ثم أسلم عليه، وأتنحى قليلاً لأسلم على صاحبيه رضي الله عنهما، ولا أقبل الجدران ولا أسجد على الأعتاب، ولكنني أذكر العظمة النبوية وما أكرم الله به مُحَمَّداً ﷺ من الخير العظيم، ومع نية الاعتكاف في المسجد الحرام أكثر من صلاة النفل والأذكار والأدعية، وأزور أهل البقيع وأتتبع الأماكن التي كان يجلس النبي ﷺ وينزل عليه الوحي فيها، وأزور مسجد قباء وأصلي فيه، وأتجنب ما يفعله الجهال من البدع في الحج والزيارة، ولا أقصر في الدعاء لنفسي ولإخواني المسلمين في البقاع المقدسة ومحلات الإجابة، وزيارة المدينة قبل الحج وبعده على السواء، وعلامة حب النبي ﷺ متابعته والاقتداء به في جميع أحواله، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2].

((153))

هدية ﷺ

---

[1] – سورة الحج الآيات 27-29.

[2] – سورة آل عمران الآية:31.

وكيف تقتدي به يا أخي وأنت اليوم لا تراه؟ ((ج)) يا سيدي بلغني عنه ﷺ أنه قال: ((صلّوا كما رأيتموني أصلي)) وقال في الحج ((خُذُوا عَني مناسِككُم)) وتعاليمه محفوظة، وسيرته معروفة وكتب السُنة طافحة بهديه في جميع أعماله مع الله ومع الناس في العبادة والمعاملة والحرب والسلم، وفي المسجد والبيت، وكيف كان يأكل ويشرب ويخلع ويقوم ويقعد، وينام ويستيقظ، وأنا لا أستطيع أن أكون مثله في كل شيء، ولكنني أعمل بقوله ﷺ: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) وأروض نفسي على التخلق بأخلاقه العظيمة من الصدق والأمانة والصبر والشجاعة والرفق والأناة، والحلم والعفو عن الناس، والكرم والجود، واحتمال المكاره ودفع السيئة بالتي هي أحسن، وإنه كان يغضب لله ويرضى لله، ويجوع ويظمأ، ويسهر رغبته فيما عند الله، وأنا كذلك أُعود نفسي الرضا والقناعة بما تيسر، وأتواضع لله فأخدم أهلي وأعين إخواني، وأباشر أعمالي بيدي، فأكنس بيتي وأطوي فراشي وأخيط ثوبي وأصلح نعلي، وأذبح الشاة وأطبخ الأكل وأفعل مثل ما كان يفعل عليه الصلاة والسلام، وبلغني أنه كان يحب الرياضة البدنية: السبق والرمي والسباحة؛ فيسابق بين أصحابه، ويقول لجماعة

منهم كانوا ينتظلون بالسهام ((ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا معكم كلكم)) وهذه جملة صالحة من آدابه وتعاليمه لأمته في كثير من شؤونهم (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[1].

الأكل والشرب

وكيف تصنع يا أخي بطعامك وشربك وهل عليك شيء إذا حضر غير أن تأخذ منه قدر الحاجة وكفى؟ ((ج)) لا يا سيدي، أنا لا آكل ولا أشرب كما تفعل البهيمة عند المحفد والحوض ولكنني أطلب ذلك من الحلال أولاً، وإذا وصلت إليه جلست كما يجلس العبد، وأكلت كما يأكل العبد المتواضع لله، فأغسل يدي وآكل بيميني، وأقول: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وإذا نسيت البسملة قلت أثناء الأكل أو بعده: بسم الله في أوله وآخره، ولا آكل إلا مما يليني، ولا تطيش يدي في الصفحة فآكل من جوانبها، ولا أسابق الأكلة، ولا أكبر اللقمة ولا أبلعها قبل إحكام مضغها، ولا ألعق أصابعي قبل الفراغ من

---

[1] – سورة الحشر الآية: 7.

الطعام، ولا أقارن في التمر ونحوه، ولا أشبع كثيراً، وإنما أجعل ثلث بطني وثلثهُ للتنفس، ولا أُدخل الطعام على الطعام قبل تمام هضمه، وأكره منه الحار

((155))

المؤذي، ولا أنفخ فيه ليبرد، ولا أتعاطى البهارات والأبزرة المهيجة، ولا أعيب منه شيئاً، ولكنني آخذ مما أرغب فيه وأرك ما لا حاجة لي به، ولا أحرم ما أحل الله لعباده من الطيبات، ولا أتصوف بتجنب اللحم والعسل والخضرة والفاكهة، وسواء عندي الأكل بيدي أو بالملعقة والشوكة ما لم يكن مع ذلك كبر أو احتقار للتقاليد، ولا أمسح يدي بالمنديل قبل غسلها، وإذا شربت قلت أيضاً في أوله: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وأتنفس الشرب خارج الإناء ثلاث مرات إلا إذا اكتفيت بنفس واحد، ولا أشرب من ثلمة القدح، ولا من فم السقاء، ولا أعب الماء عب الطير ولا أمُصهُ مص البعير، وأكره رفع الصوت بالجشاء، ولا أشرب المكيفات المضرة بالبدن أو العقل ولا آكل ولا أشرب قائماً إلا لعذر، والأكل في بعض الأماكن إخلال بالمروءة، وإذا رفعت المائدة واكتفيت أنا من الأكل، قلت: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفى ولا مستغنى عنه ربنا، وبعد الشرب أقول: الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا، وإذا سقيت القوم كنت آخرهم شرباً وإذا رويت من القدح دفعتهُ للذي عن يميني، وللناس آداب على الموائد وحين تدار كؤوس المرطبات وفناجين القهوة والشاي تنبغي مراعاتها، وأنا

((156))

بحمد الله مؤمن كريم، وصاحب ذوق سليم، والله تعالى يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)[1]

لبس الثياب

وخير اللباس وأحبُهُ إلى رسول الله ﷺ الأبيض ا لنقي، ولا بأس بالأحمر والأصفر والأخضر والأسود من القطن والصوف والكتان، ومن أي نوع غير الحرير إلا الذي يصبغ بالحمرة والصفرة بعد نسجة فإنه لا ينبغي للرجال، وجلود السباع مدبوغة وغير مدبوغة يحرم افتراشها والجلوس عليها لما فيها من الخيلاء والتشبه بملكوك الأعاجم، والرجل الذي يلبس الحرير في الدنيا لا يلبسه في الآخرة إلا المعذور الذي لا يجد غيره أو المصاب بجرب أو حكة لا

[1] – سورة البقرة الآية:172.

يتناسب معها إلا الحرير، والذهب كذلك لا يحل للرجال البالغين لبسه خواتم ولا إسورة، ولا سلوس للساعات، ولا بأية كيفية، والفضة لا بأس بالتختم بها؛ وأطفالي الصغار وإن كان لا يحرم عليهم الذهب والحرير فإني أكره لهم أن يلبسوه، ولا أمانع المرأة من الزينة بما تيسر لها إلا السرف ومخالفة الآداب، وألبس في كل بلاد زي أهلها ولا أتشبه بالأجانب، ولا أخدع الناس بثياب أهل العلم وأنا لست

منهم، وأُحب العمامة والقميص والإزار الضافي – وما زاد على الكعبين فهو في النار، ومن جر ثيابه على الأرض كبراً وخيلا ء لم ينظر الله إليه، والفخذ عورة، والسراويلات القصيرة من لباس الكفار، والمسلم لا يتخذها إلا لحاجة، كالحمالين وأصحاب الأشغال الشاقة، ووساخة الثوب تجلب الهم والمرض وتجمع القمل والجراثيم الفتاكة، وأكره الأكمام الواسعة والعمائم الكبيرة فوق المعتاد، وإذا أرخيت العذبة جعلتها من أربع أصابع إلى ذراع ولا بأس بزرار الكم والساعة اليدوية، وأنا لا أمشي حاافياً إلا إذا لم أجد النعل، ولا أتعاظم على الناس بما أكرمني الله به وأحب أن تظهر علي آثار النعمة؛ ويعجبني الطيب والسواك وهو من سنن المرسلين وأتصدق بثيابي البالية وأشكر الله على الجديد منها، وأقول إذا لبسته: اللهم لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأبدأ باللباس بميامني، وإذا خلعت الثوب للاغتسال أو لألبس غيره بادرت بستر عورتي، وأكره التكشف الذي لا داعي له مع زوجتي، والله تعالى يقول: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)[1].

النوم واليقظة

وحين آوي إلى فراشي أكون على طهارة، وأضطجع على شقي الأيمن، وأحب أن أكون مستقبل القبلة، وأقول: اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت، وبلغني أنه من جعل ذلك في آخر ما يتكلم به ومات من ليلته أنه يموت على الفطرة، وأكره النوم قبل صلاة العشاء والحديث بعدها إلا في خير؛ ولا أنام إلا على وتر، وإذا وثقت من نفسي وكنت ممن يقوم الليل جعلت الوتر آخر

[1] – سورة الأعراف الآية: 26.

صلاتي، ولا أتعاطي المكيفات التي تسبب السهر والأحلام المخيفة، وأجعل العشاء خفيفاً، ولا أترك على يدي غمر الحم وأثر الطعام، ولكنني أغسلها وأسوك وأتمضمض قبل النوم، ولا أبالغ في تمهيد الفراش وإصلاح الوسادة.

وإذا خشيت انكشاف عورتي اتخذت السراويل، أو دخلت تحت الدفاء العريض، وأنفض الفراش وأتعهده، وقبل ذلك أغلق أبواب البيت وأطفيء المصابيح، وأدفن النار وأغطي الآنية وأذكر اسم الله، وإذا نام أهلي معي في الفراش أو كانوا قريباً مني أيقظتهم آخر

((159))

الليل ليصلوا ما كتب لهم، وأكره النوم على جنابة، وإذا لم أغتسل توضأت كوضوء الصلاة، ولا آكل ولا أشرب ولا أطأ مرة ثانية بعد ذلك، وإذا أرقت أو فزعت ف ي النوم قلت: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، وإذا استيقظت مسحت النوم عن وجهي وقلت: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، وأتسوك وأقرأ الآيات العشر من آخر سورة آل عمران (إن فِي خَلْقِ السَّمَاوَات وَالْأرضِ إلى تمام السورة) ثم أقول: اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق ومُحَمَّد حق والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أ سررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت، وأتوضأ – وأصلي حتى أسمع مؤذن الفجر، ثم أصلي ركعتين خفيفتين سُنة الصبح وأقرأ فيها بفاتحة الكتاب وقُلْ يا أيُّها الكافرون، وَقُلْ هُو الله أحد، وأضطجع بعدهما قليلاً على شقي الأيمن، وأقول: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ورب مُحَمَّد ﷺ أجرني

((160))

من النار، وأخرج إلى المسجد، وأشهد الصلاة في جماعة، وإذا كان لي عمل مستعجل بكرت فيه وإلا جلست في المسجد أقرأ القرآن وأذكر الله حتى أصلي ركعتي الشروق بعد طلوع الشمس وارتفاعها، وللنوم واليقظة وفي الصباح والمساء أدعية وأذكار مأثورة عن النبي ﷺ وهي كثيرة، وأناا أجيء من ذلك بما أحفظه وأقدر عليه لقول ربي تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)[1].

المجلس والجليس

وللمجالس آداب مرعية: وأنا لا أقصر في العمل بها إن شاء الله فإذا أقبل جليسي وسَّعت له في المكان، وتبسطت معه في الحديث وأصغي له إذا تكلم، وأكرمه بالوسادة، وأقدم له من الكرامة ما تقضي به العادة، والزلة أغفرها له، وغلطه في الكلام أتغافل عنه ولا أرد عليه إذا لحن في غير قرآن ولا حديث نبوي، ولا أهزأ به ولا أعبس في وجهه، ولا أتشدق عليه في الكلام ولا أكلفهُ الاستماع لما أقول أو أكتب، ولا أذكر عنده صديقه بما يكره ولا أسيئه بالحديث عن عدوه إلا إذا أ صلحت بينهما، ولا أحرجه بالسؤال عن الشيء الذي لا يحب ذكره، ولا أقره على باطل، وأذم له

((161))

العناد والتعصب ضد الحق، والكبير أقول له: أيها السيد والوالد والصغير أتلطف له كما يفعل الوالد الحنون وأدعو له، والزميل والقرين المماثل أتأدب لله مخاطباً ومجيباً فأناديه: يا حضرة المحترم، يا صديقي العزيز، إلا الظالم الباغي فأوقفه عند حده ولا أظهر له الضعف من نفسي، ولا أمكنه من فرض إرادته علي، والنمام وصاحب الغيبة أقطع عليه حديثه، وأذكره الله في المسلمين خيراً، وإذا دخلت أنا المجلس سلمت على أهله وجلست حيث ينتهي بي المكان، وأكره القيام لي، ولا أفرق بين اثنين، ولا أقعد بين يدي أحد وألقيه ظهري إلا إذا نظم المجلس وصفت الكراسي كذلك، والخطيب لا أزعجه بالتصفيق، والشاعر لا أستعيد منه الركيك والمبتذل، والمدرس لا أوذيه بكثرة الأسئلة، ولا أعلق على ما يقول إلا على شيءٍ يستحق البحث والنظر، وإذا فهم غلطاً أو توهم خلاف ما تؤديه العبارة حاولت قدر الجهد أن أرده إلى الصواب ولو بتجاهلي وإظهار الغباوة مني حتى يعيد النظر ويتثبت في الفهم والتقرير، ولا أضع يدي على كتف الذي بجانبي متحاملاً عليه، ولا أضرب على فخذه كلما تكلمت، ولا أُشير إلى كل شيء وأكره الغمز بالعين ومد اللسان وعض الشفة، ولا أترجم لنفسي، ولا أقص تاريخي إلا لحاجة تدعو إلى ذلك، وأسأل جليسي عن اسمه وعن

((162))

---

[1] – سورة الأحزاب الآيات: 41-42.

الحاجة التي جاء من أجلها، وأحب التعارف وأكره الفضول، ولا أتثاءب ولا أتمطى ولا أزاحم ولا أقعد في مكان ربما أخرت عنه؛ ولا أجلس جلسة مزرية، وأخفض صوتي إذا تكلمت، وأرهف سمعي وأُحدّ بصري ولا أعبث ولا أتريح، ولا أطيل الجلوس عند المريض إلا إذا أنس بي أو احتاج إلي، ولا أزور صديقي في أوقات عمله ولا أفتش عليه، ولا أستطلع أخباره البيتية، ولا أفشي له سراً وأتشاغل عنه أو أخرج من عنده إذا جاءه البريد أو رأيته مكباً على قراءة أو كتابة؛ وفي المجالس لا أستبيح عرض أحد ولا أتطاول على الناس، ولا أ فتخر بالمال الذي صرفته اليوم، ولا أذكر أمر نسائي، وأكتم عواطفي، ولا أرقص ولا أ صرخ ولا أضرب الأرض برجلي إذا سمعت الطرب وحركتني أصوات المغنين، وأذكر الله عند الغفلة، وأيما مجلس قام أهله عنه ولم يذكروا الله فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة، ومن آداب المجالس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغض البصر، ورد السلام، وبلغني عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قام من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتُوب إليك، وسئل عن ذلك فقال: إنه كفارة لما يكون في المجلس. وروي عنه ﷺ أنه كان يدعو إ ذا قام من المجلس بهؤلاء الدعوات: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول

به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا. وبهذا تتم رسالتنا ((كيف تعبد الله)) ومنه عز وجل نستمد المعونة والتوفيق ونسأله العمل الصالح وحسن الخاتمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد المعلم العظيم والمرشد الحكيم وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين،،،

– 3 –

نحو المسجد

للشيخ مُحَمَّد بن سالم البيحاني رحمه الله

نحو المسجد

الموضوع

هـذه رسـالة أعـرض عليـك أيهـا القـارئ الكـريم فيهـا عنايـة الإسـلام بالمسـجد، وأنـه مصـدر التشـريع ومحـل العبـادة وبرلمـان الدولـة وميـدان النشـاط ومحـل التـدريب العسـكري وملجـأ الضـعفاء والعجـزة ومـأوى الغريـب، ومستشـفى المـريض إذا أصـيب الإنسـان بالكسـل والنفـاق، ومدرسـة الطالـب وروضـة الطفـل ونـدوة المصـلين ومنتـزه المنقطعـين لعبـادة الله. وأن الله عـز وجـل في كتابـه العزيـز وعلـى لسـان نبيـه الكـريم يرغـب في بنـاء المسـاجد وعمارتهـا وتنظيفهـا وتطبيبهـا وكثـرة الـتردد إليهـا ومـا تحتـاج إليـه مـن الأئمـة والمـؤذنين والمـاء والنـور والمصـاحف وأجزائهـا والكتـب العلميـة والخطبـاء والمدرسـين الـذي يوجهـون النـاس إلى ربهـم وجهـةً حسـنة في ديـنهم ودنيـاهم حـتى يتخـرج مـن المسـاجد الفقيـه والقـارئ والحـاكم والمفسـر والمحـدَّث والمـؤرخ والأديـب واللغـوي والخبـير بمختلـف الفنـون مـع مـا يحتـاج إليـه الإسـلام مـن وعـاظ ومرشـدين ومبشـرين، يقـدرون علـى نشـر دعـوة الإسلام ورفع أعلامه في كل بلد، وحيثما توجههم المساجد

مسـلحين بالأخـلاق الفاضـلة والآداب السـامية والسياسـة الحكيمـة ووضـع كـل شـيء في محلـه اللائـق بـه، والتـاجر في السـوق، والعامـل في المصـنع، والفـلاح في الحقـل، والأسـتاذ في المدرسـة، وعميـد الأسـرة في البيـت، ورئـيس الحـزب أياً كـان سياسـياً أو علميـاً يخـرج بالإسـلام كـل أولئـك مـن المسـجد علـى خـير مـا يـرام، ويـوم كـان المسـلمون لا يفرقـون بـين بـلاط الملـك ومحـيط المسـجد كـانوا كمـا علمـت فـاتحين ورجـال دولـة، وبعـد مـا تأخـروا عـن المسـجد واشـتغلوا عنـه بالأنديـة والمسـرحيات اللهـو واللعـب ومجـالس الباطـل، تـراهم اليـوم علـى حالـة يرثـى لهـا مـن التفـرق واخـتلاف الكلمـة، واسـتعمار أوطـانهم والـتحكم في مصـالحهم، يفـرض عليـه الأجنـبي المتغلـب إرادتـه، ويتـزعم فـيهم الجاهـل والسـفيه وعبـد الهـوى وذنـب الاسـتعمار (ومـا ظلمهـم الله ولكـن النـاس أنفسـهم يظلمـون) فحـي علـى الصـلاة وحـي علـى الفـلاح وعـودة إلى المسـجد حـتى يعـود إلينا مجدنا ويرجع عزنا والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون.

أثر المسجد في المجتمع الإسلامي

لا شـيء في ديـن مـن الأديان يعـرف النـاس لـه الأثـر الطيـب والمنفعـة الظـاهرة المحسوسـة مثـل مـا في للمسـجد الـذي هـو مصـدر التشـريع ومحـل العبـادة ومـؤتمر الأمـة، وفيـه يجتمـع الـذين اسـتجابوا لله وأقاموا

((169))

الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقنهم ينفِقُون، ذَلِك القوم يهتدي بهديهم.

يوم الجمعة في كل أسبوع يحضر أهل البلد الواحد في مسجد واحد، أو في عدة مساجد إذا دعت الحاجة إلى التعدد، وثمة يصلون الجمعة ويستمعون الخطبة التي يعالج فيها الخطيب أمراض المجتمع، ويحاول فك المشاكل بين الناس، ويأمُر بالمعروف وينهي عن المنكر، وكل يوم خمس مرات يتلاقى المؤمنون في المسجد بأجسامهم وقلوبهم ويتعاونون على الخير ويتحدثون في مختلف الشؤون الدينية والدنيوية، ويتساءلون عن المريض والغائب والمتخلف، فهذا يزورونه وذاك يعينونه والآخر يخلفونه في أهله بخير، إن سافر حافظوا على مصالحه وحموا له بيته وتعهدوا بالواجب زوجته وأولاده، وإن مات كفلوا له أرملته وربوا له أيتامه وقسموا تركته كما أمر الله بين الورثة، ينصرون المظلوم ويأخذون على يد الظالم، والمصلون في المساجد هم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) لا يسكتون عل معصية ولا يجتمعون على باطل ولكنهم يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، ويفشون السلام بينهم، ويعودون المريض المسلم ويشيعون جنازته، ويشمتون العاطس، ويجيبون الداعي، ويبرون المقسم، ويقيمون حدود الله على من

((170))

خالفها لا تأخذهم في الحق لومة لائم، وإذا قام فيهم المرشد مدرساً أو خطيباً استمعوا القول واتبعوا أحسنه. (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) والقانع والمعتز من ذوي الحاجة والمسألة يعرفهم إخوانهم – والمؤمنون كلهم إخوة – فيمدون إليهم يد المساعدة ويتصدعون عليهم سراً وعلناً، وربما قام المصلي في المسجد يتتبع الزوايا والأركان وما وراء السواري ليجد فقيراً أو مسكيناً يواسيه بتقديم الهدية والصدقة أو يسليه بالكلمات الطيبة والابتسامة الودية ويخفف عنه آلامه ويزهده في الدنيا ويذكر له ما أعده للمؤمنين الصابرين من الجزاء العظيم في الآخرة (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[1]، وحيث لا ملجأ ولا مسافر خانه ولا فندق للمبيت، ولا مطعم ولا مقهى، تجد الغريب لا يأوي إلا إلى المسجد، ولأول صلاة يؤديها في مسجد البلد يتعرف بكثير من الناس طالباً أو مطلوباً، فإما يأتيه حق ضيافته إلى المسجد أو يأخذه الإمام أو أحد المأمورين إلى بيته ويرحب به وينزله في أهله منزلاً كريماً، وإذا

[1] – سورة العنكبوت الآية:64.

خرج كان في حاجته وإذا سال عن شيء أفاده بالجواب الشافي، ولعله يزور به بقية المساجد والمدارس والمستشفيات والأسواق والشوارع العامة والمصانع وجميع

((171))

مرافق الحياة في بلاده، وقد يطلب الغريب زيارة الشيخ فلان أو الوجيه فلان ولا يتيسر له ذلك إلا في المسجد خاصة، حيث لا يتخلف عن الجمعة والجماعة إلا معذور من الرعاة والرعية، وفي مسجد رسول الله ﷺ كانت الصفة التي ت ضم سبعين أو أكثر من ضعفاء المسلمين الذين تراهم كالمرابطين في المسجد من خشية الله لا يقومون إلا لقول المؤذن: حي على الصلاة حي الفلاح، وهم الأسود الضاربة والطيور الكاسرة إذا سمعوا داعي الله يقول: حي على الجهاد حي الكفاح (أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وَعدَ اللهُ الذينَ آمنُوا وعمِلوا الصالحِات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً).

وفي المسجد كانت الأخبئة لبعض المساكين، كالمرأة السوداء التي تقم المسجد، وحين ماتت سأل عنها رسول الله ﷺ فأخبروه بأمرها وقال: دلوني على قبرها، ثم قام يصلي عليها، وهي أو امرأة مثلها كانت عتيقة، ولعتقها قصة في صحيح البخاري في حديثها مع عائشة لما سألتها عن البيت الذي كانت تتمثل به:

ويوم الوشاح من أعاجيب ربنا على أنه من بلدة الكفر نجاني

((172))

ومن ذلك نعلم أنه يستحب اتخاذ الأجنحة الخاصة والغرف الكثيرة قريباً من المسجد لمثل هذه الأغراض الشريفة، ولابد من إقامة المساجد في المدارس والربط والمعاهد والجامعات العلمية ليصلي فيها التلاميذ والأساتذة، وليأخذوا منها التعاليم الدينية والتربية الإسلامية الصحيحة؛ وثمة تقوى نفوسهم، وتعلو هممهم، وتطهر أرواحهم ويتيسر الجمع بين الدنيا والآخرة والربط بين عاجل الحياة وآجل ما بعد الموت، وعلى المعلمين أن يغتنموا فرصة الصلاة ووجود التلاميذ في المسجد فينفُخوا فيهم الروح الدينية والرحمة الإنسانية والقوة العسكرية والتضحية الفدائية والوطنية الصادقة كما يجب أن يكون ذلك في سائر المساجد، وبواسطة العلماء العاملين في كل مكان، وفي بيوت الله قبل كل مكان، ويا هل ترى أين تظهر شعائر الدين وعزة الإسلام

وتدين أهل المدينة والبلدة والقرية إلا في المساجد المنبعثة منها المؤذنين والقراء والذاكرين والقائلين على كل دعوة صالحة آمين؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ)[1].

((173))

كبار العلماء المتخرجين في المساجد

للحرمين الشريفين والمسجد الأقصى الذي بورك حوله الفضل المطلق على سائر المساجد، ولا تشد الرحال إلا إليها، والصلاة وسائر الأعمال مضاعفة الأجور والحسنات في المساجد الثلاثة، ولذلك يقصدها المسلمون لزيارتها، وللتبرك بها، والصلاة فيها، والعلماء والمدرسون فيها لا يحصون كثرة قديماً وحديثاً، وما كانت المدرسة الأولى بل الجامعة العلمية للمهاجرين والأنصار إلا في المسجد حيث يلقي عليهم رسول الله ﷺ ما يوحى به إليه من الكتاب والحكمة، وحيث يقتدون بأفعاله العلمية وخصاله الحميدة وهم يأخذونها عنه سماعاً بالآذان، ورؤية بالأعين، ويقول لهم: صلوا كما رأيتموني أ صلي، وتؤخذ عنه الشهادة بتعاليم الإسلام من المسجد كما في حديث ضمام بن ثعلبة الذي قدم المدينة، وأناخ بعيره في ناحية المسجد، وأخذ يلقي على رئيس تلك الجامعة أو عميد هذه الكلية أسئلته الكثيرة، ويستفيد بالأجوبة النافعة المفيدة، ويقول أخيراً: إنه رسول مَنْ وراءه، وينصرف راشداً ومعلماً، والوفود القادمة من مختلف أنحاء الجزيرة تتعلم الدين وأحواله وقواعده التي يقوم عليها في أيام قليلة يقضونها في المسجد متعلمين من إخوانهم السابقين في الإسلام، ومن الأستاذ الأكبر ﷺ كوفد ثقيف والأشعريين.

((174))

وعبد القيس وغيرهم، والتعليم يُلقى على الأفراد والجماعات بأساليب الحكمة، وعلى كل واحد بما يتناسب مع عقله وعلمه واستعداده.

وربما جلس الصحابة رضي الله عنهم صامتين لا يتكلمون حياءً من رسول الله ﷺ ومهابة له، أو غير ذاكرين لشيء يسألون عنه، ويأتيهم الأعرابي يسأل عن أشياء يستفيدون بالسؤال عنها، وربما

---

[1] – سورة المائدة الآيات:57- 58.

جاء جبريل في صورة رجل غريب يسأل عن الدين وأمارات الساعة فيستفيدون من الجواب عليه وينقلون العلم إلى مَنْ وراءهم، ونضر الله وجه امرئ سمع كلمة من الخير وبلغها إلى الغير، ومن هناك كانت البعوث والسرايا ودعاة الإسلام ورسل السلام تنبعث قِبَلَ الشام واليمن ونجد وإلى القرى القريبة والبعيدة، فأبو موسى ومعاذ بن جبل يذهبان إلى اليمن معلمين، ولهما ولأمثالهما يقول النبي ﷺ بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا، وأبو عبيدة الأمين المالي يذهب إلى نجران والبحرين ويأتي بأموال الجزية والخراج، ومثله عبد الله بن رواحة يأخذ ما وقعت عليه المساقاة في خيبر مع اليهود؛ وخالد وعلي وعمرو بن العاص والمهاجر بن أبي أمية والعلاء بن الحضرمي وزيد بن حارثة وإخوان لهم كثيرون يخرجون من المسجد مدربين تدريباً عسكرياً صالحين للقيادة وإمارة الجيوش.

((175))

والخلفاء الراشدون بعد رسول الله ﷺ في مسجده الشريف يقعدون للتعليم والشورى والإصلاح والقضاء والفتيا وتنظيم بيت المال واستقبال الوفود وكتابة الرسائل؛ وفي الحرم المكي يقعد ابن عباس وابن عمر ﷺ للتعليم، وحواليك يا بن عباس مجاهد وعطاء ومكحول وميمون وعكرمة ومقسم وسعيد بن جبير، وإذا أنت تعلم الناس تفسيراً وحديثاً وفقهاً وأدباً، إذ يفتح أخوك عبيد الله داره للأضياف والقادمين مكة ويطعم الطعام، واحدكما لدنيا الناس والآخر لدينهم، وكم تعاقب العلماء والمتعلمون من التابعين وتابع التابعين بعد الصحابة في مساجد الأمصار، كسالم وعروة وخارجة والقاسم بن مُحَمَّد وزين العابدين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، ثم ابن شهاب الزهري وهشام بن عروة وعبيدة السلماني وابن سيرين، وكل أولئك يدرسون الناس في المساجد ويتخرج على أيديهم الألوف من العلماء وأبطال التاريخ الإسلامي، كسفيان بن عيينة ومالك بن أنس وابن جريج وعبد الرازق الصنعاني وشيخة معمر وقبلهم وبعدهم ممن لا يأتي عليه الحصر؛ وفي مسجد دمشق معاذ بن جبل وأبو الدرداء وعبد الله بن عامر من القراء السبعة الذي قيل فيه إنه خطب في المسجد عشرين سنة وما سمعوا منه خطبة معادة ولا كلاماً مكرراً؛ وفي الكوفة عبد الله بن مسعود وتلاميذه من أمثال:

((176))

علقمة بن وقاص الليثي، وبعدهم عبد الرحمن بن حبيب السلمي وأبو بكر بن أبي عياش، ومن القراء حمزة والكسائي وعاصم بن أبي النجود، وفي البصرة الحسن وابن سيرين وشيخهم أنس بن مالك ﷺ وسل بغداد والموصل والقاهرة وقرطبة وإشبيلية والقيروان وفاس ورباط وشنقيطة، وسل أنطاكية وحلب وحمص وحماة؛ وسل الطائف والإحساء وصنعاء وزبيد

وحضرموت وغيرها من الأقطار الإسلامية كيف مساجدها وعلماؤها، وكيف كان الشافعي يقضي نهاره في مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، وأين كان الأئمة ورجال الفقه والحديث يلقون دروسهم في شتى العلوم؛ وهل كان ذلك إلا في المساجد؟! ولو بعث الله معمر بن المثنى والقاسم بن سلام والفراء والزجاج والمبرد والمازني وأبا عمرو بن العلاء، لو بعث هؤلاء من الجيل الأول، وبعدهم لو بعث الرازي والغزالي والزمخشري ثم النووي والرافعي ومن بعدهم، لو بعث هؤلاءٍ وقيل لهم: من أين تخرجتم، وفي أي مدرسة تعلمتم؟ لقالوا جميعاً: في المسجد تعلمنا وعلى أيدي الرجال الذين خدموا الإسلام بالنشر والتأليف تثقفنا؛ وأي جامعة علمية تسبق في التاريخ جامعة الأزهر الشريف، وهي محتفظة بكيانها إلى اليوم، ولو أخذ الكاتب يعد أسماء العلماءِ

((177))

والمتعلمين في الأزهر ما وصل إلا قطرة من بحر، أو ذرة من رمل عالج؛ وأذكر من قصيدة لي بيتين للمناسبة:

ينسب العلم في الحديث إلينا فاشرحوا قول خاتم الأنبياء

وأعيدوا إلى تعز وصنعا وزبيد مآثر القدماء

أما المجاهدون ورجال السلك السياسي من الفاتحين وبناة الممالك، فسل عنهم المساجد لتحدثك عن سعد بن أبي وقاص، والمثنى بن حارثة وأبي مسلم الخراساني، وطارق بن زياد، وموسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم الباهلي، والمهلب بن أبي صفرة، وطاهر بن حسن وابنه عبد الله ثم جوهر الصقلي ومنصور بن أبي عامر المعافري اليمني وأمثالهم من القواد والجنود ونواب الخلافة ووكلاء الشريعة في الشرق والغرب.

كانت المساجد أبحراً تدفع بالأمواج من أبطال الفتح وعلماء الدين وتقذف بالجواهر واللآلئ الكبار من هذا النوع في مختلف العصور.

ومنه يخرج أبطال عباقرة من قادة الفكر في الأمصار والمدن، من كل عَّلامة فهامة لبق يملي الأحاديث إملاء الفتى اللسن:

قوم إذا نفخوا من روح نهضتهم في الميت أحيوه بعد اللحد والكفن

ومن القصيدة نفسها يقول الشاعر مخاطباً المسجد:

((178))

واضـرب لنـا المثـل الأعلـى بمـن خرجـوا مـــن المســـاجد كالنظـــام والحســـن

وخالـــدٍ والمثـــنى والأولى هـــدموا معـالم الشـرك مـن صـرح ومـن وثـن

ومـاتزال بحمـد الله مسـاجد المسـلمين محتفظـة بكرامتهـا وشـرفها وإعـدادها للمصـلين إعـداداً طيبـاً لـولا تأخـر النـاس عـن حضـور الجميـع والجماعـات؛ ولـولا اسـتكفائهم بالمـدارس العصـرية الـتي وضـعت بـرامج التعلـيم مخالفـة لـبرامج المسـاجد. فـالعلوم كلهـا اليـوم رياضـية وصـحية ودنيويـة بحتـة مـع أن المسـاجد كانـت تـدرس هـذه العلـوم ولكـن مـع الـدين واللغـة العربيـة والتـاريخ المجيـد، ولا أكتمـك الحـق إذا قلـت لـك: إن كثـيراً مـن علمـاء اليـوم قـد أعرضـوا عـن المسـاجد، وقصـروا في الواجـب، وحصـروا تعـاليمهم في المبـادئ الأوليـة مـن تعـاليم الـدين وأصـبحوا عالـة علـى النـاس يتكففـون مـا في أيـديهم ويحرصـون علـى رضـا فـلان وفـلان؛ ولا يقولـون بالحـق حيـث كـانوا، قـد اعتمـدوا على التسـول وخرجـوا مـن ميـادين العمـل، وظنـوا أنهـم ممـن تجـب النفقـة عليهم مـع قـدرتهم علـى الاكتسـاب. ولقلـة الوظـائف الدينيـة زهـد النـاس في هـذا النـوع مـن العلـم وأصـبح أولاد القضاة والمدرسين يلتمسون الرزق بتعلم اللغات الأجنبية متأثرين بما تنقله إليهم

المـدارس والكتـب والأسـاتذة الـذين لا خـير فـيهم تأثـراً بصـرفهم عـن المسـجد وتعـاليم المسـجد، ومـن ينكـر الفضـل علـى جنـوبي الجزيـرة العربيـة لمسـجد بابطينـه في رباط تـريم، ومسـجد الجـامع والمحضـار هنالـك، ومسـجد طـاهر بـن عمـر بسـيون؛ وكـذلك مسـاجد جبلـه وزبيـد وأب، ومـن يتخـرج منهـا مـن الفقهـاء والنحـويين والفرضـيين لـولا جمـود ورعيـة ظـاهرة علـى فريـق مـن إخواننـا المسـؤولين أمـام الله عـن قولـه تعـالى: (وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ لَتُبَيِّنُنَّـهُ لِلنَّـاسِ وَلا تَكْتُمُونَـهُ)[1] والعـاجز عـن الكتابـة والإنشـاء والارتجـال لا يسـتطيع البيـان ولا يقـدر علـى التعلـيم كمـا ينبغـي. ولـو نظـرت إلى مشـاهير الـيمن مـا وجـدتهم إلا أبنـاء المسـاجد، وهـل كـان سـعد زغلـول والمراغـي وجمـال الـدين ومُحَمَّد ع بـد إلا مـن تلاميـذ المسـجد في مصـر، ومُحَمَّد بـن عبـد الوهـاب في نجـد، والأمـير الصـنعاني الشـوكاني بصـنعاء، وحاليـاً السـيد علـوي المـالكي بمكـة، والشـيخ الحمـدان بالطـائف، ومُحَمَّد ابـن إبـراهيم المبـارك في الإحسـاء، وجماعـة مـن علمـاء عـدن والقـائمين بالتـدريس والتـأليف وخدمـة العلـم في صـنعاء الـيمن. كـل أولئـك مـن حسـنات المسـجد مـا زالـت بهـم الـدنيا عـامرة والأمصـار زاهـرة، والمسـاجد حيـة مؤديـة لمـا بنيـت لـه؛ ومثـل هـذه الأمـة

---

[1] – سورة آل عمران الآية: 187.

مثل الغيث لا يدري الخير في أوله أم في آخره؟ ولا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين

((180))

لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله، ولا تقوم الساعة حتى يرفع العلم ويظهر الجهل، ويشرب الخمر ويجاهر الناس بالمعاصي، ولا سبيل إلى محاربة ذلك والقضاء عليه إلا من طريق المسجد وبلسان المنبر وعلى أيدي الذين يقول الله ف فيهم: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1].

بناء المساجد وعمارتها

قال الله جل ذكره: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)[2] وقال الله تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[3].

واختلف العلماء في معنى العمارة، فقيل: بناء المساجد وتشييدها وإصلاح ما خرب منها، وأن تسرج وتفرش وتنظف وتبخر وتنصب

((181))

فيها المحاريب والمنابر، وتتخذ لها المآذن، وتهيأ فيها أو قريباً منها المطاهر للوضوء والغسل وإزالة النجاسة. وقيل: عمارتها بالصلاة فيها وكثرة التردد إليها وملازمتها للاعتكاف والتلاوة وذكر الله عز وجل والتعلم والتعليم وغير ذلك من سائر العبادات. والكل صحيح وله شواهد لا تحصى من الكتاب والسنة كما قال الله تعالى: (﴿عَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا

---

[1] – سورة التوبة الآية:71.

[2] – سورة التوبة الآية: 18.

[3] – سورة النور الآيات:36- 38.

بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)[1] وقال تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)[2].

وقال تعالى: (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[3]، وفي الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: ((سمعت رسول الله ﷺ يقول: من بنى لله مسجداً يذكر فيه بنى الله له بيتاً في الجنة)) وعن أبي ذرَّ الغفاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من بنى لله مسجداً قدر مفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة)) وعن جابر عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((من جفر بئر ماء لم يشرب منه كبد حرى من جن ولا إنسٍ ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة ومن بنى مسجداً كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة)

((182))

ومقحص قطاة: مجثمها على بيضها: وهو كناية عن العمل القليل يكثره الله وينميه لصاحبها إذا تقبله؛ ونظير هذا قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ)[4]، وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)[5] وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((من بنى لله مسجداً صغيراً كان أو كبيراً بنى الله له بيتاً في الجنة)) وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من بنى بيتاً يعبد الله فيه من مال حلال بنى الله له بيتاً في الجنة من درٍ وياقوت)) وفي قوله ﷺ ((من مال حلال)) دليل على أنما يتقبل الله من المتقين وأنه لا يصعد إليه إلا الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، ومن كسب الحرام وتصدق به لم يكن ذلك كفارة له وإن حج وبنى المساجد وفتح المدارس وجهز الغزاة من ماله الحرام، فعمله رد عليه وإن سقط عنه الفرض وقيل ببراءة ذمته ولكنه لا ثوب له.

بنى مسجداً لله من غير كدَّه ولكن بعون الله غير موفق

ككافلة الأيتام من كسب فرجها لك الويل لا تزني ولا تتصدق

---

[1] – سورة البقرة الآية: 125.

[2] – سورة الحج الآية:26.

[3] – سورة الحج الآية: 40.

[4] – سورة الزلزلة الآية:7.

[5] – سورة النساء الآية:40.

وأفضل ما تكون المساجد في الأبنية المسكونة والحارات المعمورة وحيث يحتاج إليها الناس في المدن والقرى والبوادي سواء وسط البلد وأطرافها، وخاصة حيث يكثر الأجانب غير المسلمين وقريباً

((183))

من كنائسهم ومعابدهم، وفي ذلك رمز إلى ظهور الإسلام على غيره من الأديان وان كلمة الذين كفروا هي السف لى وكلمة الله هي العليا.

قالت عائشة ﵂: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب. واتخذ أبو بكر ﵁ مسجداً بفناءِ داره بمكة وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، وهو رجل بكاء من خشية الله إذا قرأ تحدر عليه بعض المشركين من الرجال والنساء والصبيان وتأثروا به، ودخل الإسلام عليهم وهم كارهون حتى شق ذلك على زعماء مكة ورؤساء الكفر يومئذ فيها.

وقبل تسع ليالٍ من كتابتي هذه السطور احتفل البوليس المسلح في عدن العربية المسلمة، المستعمرة الإنجليزية حالياً، بافتتاح مسجد جديد ساهموا في بنائه مالياً من مرتباتهم الشهرية وأعانهم عليه جماعة من المحسنين، وحضر ا لاحتفال عدد كبير من علماء البلد وتجارها وأعيانها المحترمين، وفي كلمتي التي قلتها ليلتئذ طالبت بقطعة أرض في شعب العيدروس مسجد هناك، حيث يسكن آلاف من المسلمين ولا مسجد في ذلك الحي؛ والمتطوعون بعمارة المسجد هنالك موجودون من الأغنياء والفقراء أثابهم الله وبارك لهم فيما آتاهم ولا بأس أن يشترك في عمارة المسجد الكافر والمشرك واللاديني، إذ المقصود وجوده، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر

((184))

وبأقوام لا خلاق لهم (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)[1].

زخرفة المساجد وتزيينها

وليس من العمارة في شيءٍ زخرفتها وتزيينها بالنقش والتلوين محمرة أو مصفرة مما يشغل المصلين، أو يلفت أنظارهم حتى يصرفهم عن الخشوع والتدبر، ومعلوم أنه ليس للمرءِ من صلاته إلا ما عقل منها، وسترت عائشة ﵂ جانب بيتها بقرام لها فيه نقش وتصاوير فقال

---

[1] – سورة النساء الآية:124.

ﷺ: ((أميطي عنا قرامك فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي)) وصلى النبي ﷺ في خميصة ذات أعلام، فلما فرغ قال: ((ألهتني هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم وأتوني بانبجانيته))، وقال في تحفة ابن حجر وزعم عدم التأثر به حماقة، فقد صح أنه ﷺ مع كماله الذي لا يداني صلى في خميصة لها أعلام ونزعها وقال ((ألهتني أعلام هذه)) وفي رواية ((كادت أن تفتنني أعلامها)) ولئن كان هذا في الملابس والستائر فكيف به ثابتاً في قاعة المسجد وسقفه وجداره؟ والأخبار والآثار في النهي عن زخرفة المساجد ونقشها وتلوينها كثيرة جداً، قال ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يتباهي الناس في المساجد)) وقال أيضاً: ((ما أمرت بتشييد المساجد)) والتشييد طلاءُ

((185))

الجدران بالجص والإسمنت ونحوهما؛ وقال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفتها اليهود والنصارى، وقال الإمام المهدي في البحر الزخار: إن تزيين الحرمين لم يكن برأي ذي حل وعقد، ولا سكوت رضى، أي من العلماء، وإنما فعله أهل الدولة الجبابرة من غير مؤاذنة لأحد من أهل الفضل وسكت المسلمون والعلماء من غير رضا الله:

أما المساجد فهي اليوم عامرة ... كأنها من قصور الفرس والروم

ترى على الباب والمحراب زخرفة ... تلهيك عن كل منطوق ومفهوم

وما يصلّي بها إلا مؤذنها ... أو الإمام ولكن دون مأموم

وإن رأيت صفوفاً في مساجدنا ... فمن فقير ومسكين ومحروم

وأول من زخرف المساجد وبالغ في ذلك الوليد بن عبد الملك بن مروان، والجامع الأموي بدمشق ما يزال محتفظاً بآثاره وفنه المعماري القديم، ولابد أنها تكون قد دخلت عليه بعض إصلاحات أخرى، ولبنائه واستعانة الوليد بالإفرنج على ذلك قصة معروفة في التاريخ، وقد أعانوه بالمهندسين والمال الكثير، وأشاد بذكره وعمارته الحسية والمعنوية أمير الشعراء أحمد شوقي رحمة الله:

مررت بالمسجد المحزون أسأله ... هل في المصلى أو المحراب (مروان)

تغير المسجد المخزون واختلفت ... على المنابر أحرار وعبدان

فلا الأذان أذان في منارته ... إذ تعالى ولا الآذان آذان

((186))

ولـيس مـن المنهـي عنـه أن يكـون بناؤهـا بالحجـر المنجـور والإسمنـت المسـلح، ولا أن تـبلط بالمرمـر أو تفـرش بالمشـمع مـا دام ذلـك بعيـداً عـن الزينـة الشـاغلة الملهيـة. وعـن خارجـة بـن زيـد قـال: هـدم عثمـان بـن عفـان ﷺ المسـجد وزاد في قبلتـه ولم يـزد في شـرقية، وزاد في غربيـة قـدر أسـطوانتين وبنـاه بالحجـارة المنقوشـة والقصـة وعسـب النخـل والجريـد وَبَيَّضـهُ بالقصـة، وقـدَّر زيـد بـن ثابـت أساطينه فجعلهـا علـى قـدر النخـل وجعـل فيـه طاقـات مـن المشـرق والمغـرب، وذلـك قبـل أن يُستشـهد بأربـع سـنين وزاد فيـه إلى الشـام خمسـين ذراعـاً. وفي اتخـاذ المنـابر والمنـابر وكـبرات الصـوت إذا أحسـنت نيـة بانيهـا ومتخـذها تعظـيم ل شـعائر الله: (ومـن يعظـم شـعائر الله فإنهـا مـن تقـوى القلـوب) وكثـرة النـور فيهـا وأمـاكن الطهـارة قريبـاً منهـا مـع نظافتهـا وتبـديل الميـاه كلمـا تغـيرت وحسـن تصـريفها إلى مجاريهـا المعـدة لهـا كـل ذلـك ممـا يرغـب المصـلين في دخـول المسـاجد وملازمتهـا صـباح مسـاء ليـل نهـار، ومـن ذلـك المصـابيح الكبـيرة والقناديـل الذهبيـة والثـريات الفاتنـة محسـوب مـن البدعـة وداخـل في الكراهـة والتحـريم إلا إذا قصـد بـه إرغـام آناف الكفـرة وأعـداء الإسـلام مـن الزنادقـة والملحـدين الـذين لا يقدسـون إلا المظـاهر ولا يعظمـون مـن بيـوت الله إلا مثل هذه المناظر، وأرجو الله أن لا يكون في هذا إذذا حسن المقصد والله من وراء المقاصد

((187))

والمـراوح الكهربائيـة في الـبلاد الحـارة، والـدفايات في الـبلاد البـاردة وتهويـة المسـجد بارتفـاع سـقفه وكثـرة الأبـواب والنوافـذ، كـل ذلـك حسـن ولا بأس بـه كـالمحراب الـذي تعـرف بـه القبلـة ويتوسـط بـه الإمـام صـفوف المصـلين، وهـو وإن كـان لم يحـدث في المسـاجد إلا آخـر القـرن الأول لا يعـد مـن البدعـة في شـيءٍ، وإنمـا هـي مـا حـدث في الـدين ودخـل في كيفيـة العبـادة لا مـا اتخـذ للـدين أو اقتضـته حاجـة المسـلمين. ومـن المستحسـن أيضـاً أن تتخـذ فيـه الـدواليب للكتـب والمصـاحف أن تكـون لـه مقصـورة يتهيـأ فيهـا الإمـام، ويأوي إليهـا الغريـب والمنقطـع، ويعلـم فيهـا القـرآن صـيانة للمسـجد مـن عبـث الأطفـال واتباعـاً لمـا كـان عليـه سـلف الأمـة في كثـير مـن البلـدان والله المستعان.

القبور في المساجد

عمـت المصـيبة في الأزمنـة الأخـيرة وفي كثـير مـن بـلاد المسـلمين باتخـاذ القبـور في المسـاجد مـع علمهـم بقـول النـبي ﷺ: ((لعـن الله زائـرات القبـور والمتخـذين عليهـا المسـاجد والسـرج)) وأنـه كـان يقـول في مـرض موتـه ﷺ: ((قاتـل الله اليهـود والنصـارى اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مسـاجد)) قالـت

عائشة ﵂: يحذر ما صنعوا. وذكرت له زوجتاه أم سلمة وأم حبيبة كنيسة رأتاها في الحبشة يقال لها ((مارية)) فقال ﷺ: ((أولئك قومٌ إذا مات فيهم الرجل

((188))

الصالح بنوا على قبره مسجداً واتخذوا فيه تلك الصور أولئك هم شرار الخلق عند الله)) أو كما قال عليه السلام، ونهى الناس أن يصلوا إلى القبور أو عليها خشية أن يعظم غير الله، ومن عظم غير الله فقد أشرك، وأقل ما قيل في الصلاة بمسجد على قبر: إنها مكروهة إذا تمكن الإيمان من قلب المصلي واضطر إلى مثل هذا العمل. ومن المؤسف أنك ترى اليوم كثيراً من العامة وبعض الخاصة يقصدون المساجد المبنية على القبور للصلاة فيها وتعظيمها، ويعتقدون أنها خير من غيرها، وربما كان الجمع فيها أكثر من سواها، كمساجد: الحسين وزينب والشافعي والبدوي في مصر، وعلى شاكلتها في الشام واليمن والعراق والهند مساجد لا تحصى وفيها القبور المشيدة والتوابيت المخرفة، وعليها الكتابات المذهبة والملابس المزركشة، والناس حولها طائفون، وعاكفون وعلى أعتابها راكعون وساجدون، وليس في قلوبهم للمسجد أدنى ما فيها من الاحترام والتعظيم للقبر المتخذ عليه المسجد، قد زين لهم الشيطان أعمالهم وصدهم عن الصلاة وذكر الله، وشغلهم بالتوسل والاستغاثة بغير الله ، ورفعوا أصواتهم في بيوت الله بدعاء الميت والثناء عليه شعراً ونثراً، وذلك كان يخافه النبي ﷺ على أمته أن تصاب به من بعده، وقد ورد النهي عن تشييد القبور والبناء عليها خارج المساجد، وكيف به فيها وهي بيوت الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها

((189))

اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال؟! وكل مسجد بني على قبر وجب هدمه وإزالته، وكذلك القبر يتخذ في المسجد يجب طمسه وإخفاء أثره سداً للذريعة وتباعدا عن مخالفة أمر الله ورسوله.

وحسن ما فعلته الحكومة العربية السعودية في بلادها من ذلك وما أزاله إمام اليمن من قبور ابن علوان وابن العجيل وغيرهما من مساجد الحجرية وتهامة، حتى قيلت فيه القصائد وشكر صنيعه العلماء المحققون، وأوردت من ذلك الكثير في كتابي (الصارم القرآني)) والقبور في المساجد إذا كان لزيارتها مواسم سنوية معلومة يحصل معها من الذنوب والمنكرات ما يشك فيه أحد ولا يختلف فيه اثنان، كاختلاط الرجال بالنساء والرقص والطبل والمزمار وشرب الخمر ولعب القمار وأشياء أخرى من الخلاعة والمجون، أما داخل المسجد أو على أبوابه وقريباً منه،

وقد تلذذ به المصلي الجاهل أو العالم الغبي الذي يعتقد أن الصلاة في مسجد ولي الله فلان يوم زيارته أفضل من سبعين صلاة في غيره، وربما قام واعظاً وخطيباً في أحد هذه المساجد مرغباً في زيارة الأولياء وساكتاً عن المنكر الذي يراه ويسمعه داخل المسجد وخارجه، ويعد ذلك من الحسنات ولا يعترض عليه في نظره إلا مخالف وهابي، وينسب المعترضين والمنكرين لهذه المعصية إلى بغض الأولياء والصالحين، ويظن أن الأولياء يرضون أو يقرون

((190))

أعمال الوثنية، وارتكاب المعصية عند ضرائحهم وقبورهم المحترمة ويحسب أنهم يشفعون عند الله في تلك الجموع التي لا تعرف للمساجد حرمة ولا تحافظ على قداستها الإسلامية. ومن مصائب القبور في المساجد وجودها بين الصفوف، وكونها بين القبلة والمصلي وأن بعض الناس لا يخرج من المسجد حتى يتمسح بها ويطلب الخير والبركة من أصحابها كل يوم خمس مرات، وبينما كان يقول لربه في صلاته: إياك نعبد وإياك نستعين، ويطلب منه حاجته ويستعجله مسألته إذا به يقول عند القبر وبعد الفراغ من الصلاة: ((وبكم يا أهل الولاية كل كربة تنجلي)) فصونوا أيها المسلمون مساجد الله من هذا كله، وطهروها من النجاسة الحسية والمعنوية، واجعلوا العبادة فيها لله تعالى وحده لا شريك له، وكونوا من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون؛ ولا تلتفتوا في المساجد وحين تصلُّون إلى شيء من الدنيا ولا تجعلوا الواسطة بينكم وبين الذي يقول سبحانه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)[1] واجعلوا قبوركم بعيدة عن المساجد كما أمرتم، وزوروها كما أمرتم، فإن زيارة القبور تزهد في الدنيا وترغب في الآخرة، وتذكروا أعمال الصالحين وكيف كانوا في حياتهم، ثم اقتدوا بهم وترضوا

((191))

عنهم وقولوا كما قال نبي الله يوسف عليه السلام: (أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[2].

البدع والحوادث

---

[1] – سورة البقرة الآية:186.

[2] – سورة يوسف الآية: 101.

من كلام الذي أوتي جوامع الكلم ﷺ: ((فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)) وقال: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) وفي رواية: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) والبدع والحوادث في دين الله كثيرة، وشرها ما يحصل في المساجد وفي الصلاة والطهارة والأذان والإقامة وخطبة الجمعة، وكلها شر، والناس يختلفون في تفسير البدعة ويستحسن بعضهم أشياء منها يرونها أمراً مطلوباً مرغباً فيه ولا شيء في البدعة يكون حسناً بل كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار وإن استحسنها أحد في شيءٍ من الطاعات والقربات فهي رد عليه وإن ألفتها نفسه وإن اطمئن قلبه إليها.

سجية تلك فهيم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

ولا تحرم البدعة ويأثم صاحبها إلا إذا دخلت في الدين وأضيفت إلى المشروع، وتزيد بها أهلها على قول ربنا تبارك وتعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)[1] والمطعم والملبس والمسكن والأثاث والمركب ونحو ذلك لا تدخله البدعة ولكنه يحرم فيه الإسراف والتبذير كما يحرم البخل والتقتير، وخير الأمور أوساطها، والله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده، ولا حرام إلا ما حرمه الشارع ولا حلال إلا ما أحله أو سكت عنه (وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ)[2]، ومن البدع المنكرة ما يحصل في المساجد من اللغط ورفع الأصوات بقراءة الحضرة والمولد وإنشاد القصائد الغزلية التي يتلذذ بها أدعياء التصوف وأصحاب الطرائق مع التغني بها وتلحينها بما يهيج العواطف ويحرك المشاعر ويفتح أبواب الشهوة للشيطان على قلوب كثير من الشباب، وشيوخ الفتنة الغارقين في المجون والخلاعة، وربما كان بعضها كفراً وزندقة وإلحاداً أو إباحية منكرة وحلولية ملعونة يسمعها المتدين الجاهل فيأخذها على علاتها ويحسن الظن بأصحابها، ثم يكفر وهو لا يدري ويسمعها اللاديني فتهش لها نفسه ويلين بها جلده وقلبه إلى ذكر الشيطان فيتبع الهوى ويستدل بها على إباحة المحرمات أو يسخر منها بدين الله وما جاءت به رسله: (أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[3]

---

[1] – سورة المائدة الآية: 3.

[2] – سورة النحل الآية:116.

[3] – سورة المجادلة الآية: 19.

((193))

ومن البدع ضرب الدفوف ودق الطبول والكاسات وأصوات المزامير والشبابات، وإن حرم ذلك خارج المسجد فهو فيه أشد حرمة وأكبر إثماً، وفاعله متشبه بالنصارى في كنائسهم وبالوثنين في مختلف معابدهم، فذاك يصلي ويدعو على نغمات الموسيقا، وهذا يتعبد بضرب الطار وتلحين المقطوعات الشعرية على صوت الشبابة، وما عبادته تلك إلا توسل واستغاثة بغير الله ودعاء لمن لا يستجيب من الأموات وصلحاء الجن والإنس والملائكة: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً)[1]، وبعض الناس في المساجد يلحنون الذكر ويصوتون به على نغمات معروفة متفق عليها كقولهم قبل صلاة الصبح: لي عشرة أطف بهم نار الجحيم الحاطمة: المصطفى والمرتضى وابنيهما والفاطمة، ثم إلى آخر ما يترجزون به من تلك القصيدة، ولا بأس أن يجهزوا بالمأثور، ويذكر بعضهم بعضاً ويشتغلون به عن حديث الباطل والغفلة عن ذكر الله شريطة أن لا يتأذى به مصل ولا تال للقرآن، وقصة الإسراء والمعراج ودعاء الشعبانية وما يحصل في أواخر رمضان عند كثير من الناس في المساجد يعد من البدعة وخاصة إذا خرجوا به عند حد الاعتدال وأفرطوا في الضجة، وتأذى بهم النائم والمصلي والمتدبر لكتاب الله ولا بأس أن يجهروا بالتكبير في المساجد والأسواق والبيوت ليلتي

((194))

العيد وأدبار الصلوات من تاسع ذي الحجة إلى رابع أيام التشريق لأنه من شعائر الله ومن المأثور عن الصحابة والسلف الأول ﷺ، وكذلك التلبية أيام الحج داخل المطاف والحرم الشريف وخارجاً عنهما، ومن البدعة ما يأتي به المؤذنون من الزيادات في ألفاظ الأذان والجهر بالصلاة على النبي ﷺ وقراءة بعض الآيات القرآنية بعده، وإن كنا قد ابتلينا بشيء من ذلك مراعاة للمألوف من الباطل ولمن يتقي شره من الجهال وأدعياء العلم، ولدعوة المصلين إلى المسجد وتذكير الغافل وإيقاظ النائم وإرغام الآف الملاحدة واللادينية، فلاحول ولا قوة إلا بالله والله المستعان، وبعض المتطهرين يلعب بهم الولهان، شيطان الوسوسة، فيجاوزون التثليث ويسرفون في استعمال الماء، وذلك محرم في الموقوف والمسبل، ومنهم الذي يبالغ في المضمضة والاستنشاق فيتنخم ويمتخط في حياض الماء وعلى مقاعد المتطهرين وممراتهم، ومنهم الذي يغسل رأسه بدل المسح عليه ويأتي بأدعية وأذكار عند غسل أعضائه وليست من السنة في شيءٍ والمغتسل من الجنابة لا يقل في ابتداعه عن عمل المتوضيء، أما إزالة النجاسة فنعوذ بالله

---

[1] – سورة الجن الآية:18.

من حالة الموسوسين فيها فكم يصبون عليها من الماء وكم يبالغون في استعمال الصابون والأشناء والريته والسودة وغيرها المطهرات، ودين الله تيسير وتخفيف، ولا يجب في رفع

((195))

الحدث غير سيلان الماء على العضو مرة أو مرتين أو ثلاثة، وفي غسل النجاسة الحكمية يكفي جريان الماء عليها، والعينية تغسل حتى يزول طعمها وريحها ولونها وكفى؛ وقد يتأخر الموسوس عن إدراك الجماعة أو تكبيره الإحرام لمبالغته في الطهارة التي لا يقصد الشيطان من ورائها إلا فتنته في دينه، أو الضحكة عليه، وربما ولتشدده في البدعة، وكان يكفيه معرفة وضوء النبي ﷺ وغسله من الجنابة ثم يتأسى به، وكفى به أسوة وقدوة، وما يتزيد به في ألفاظ الإقامة وما يحصل من الإمام وبعض المأمومين من الكلمات عند قراءة بعض الآيات وأواخر السور، كقولهم: ((إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)) عليهما السلام، ((إياك نعبد وإياك نستعين)) استعنا بالله ((إن شانئك هو الأبتر)) والله أكبر، ((فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً))، رب يسر ولا تعسر يا كريم، وفي القنوت يزيدون ألفاظاً في صلب المأثور ويضيفون إليه ما لا دليل فيه ولا نص عليه، ومن البدع ما يقع في خطبة الجمعة من رفع الصوت بالصلاة على النبي والترضي عن الصحابة والدعاء للسلطان،ولا سيما الظالم والجائر والحاكم بغير ما أنزل الله، وعند قراءة القرآن يرفع

((196))

عقيرتهم بما يدل على قلة الأدب وعدم الخشوع والامتثال لقوله تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)[1] فمنهم من يصيح الله.. الله يا سيدي، ومنهم من يقوم ويقعد ويتحرك حركات المجانين، وإذا أنكرت عليه هم أن يبطش بك، وأنت المعتدي في نظر أمثاله ممن حواليه، وليس من البدعة أن يتخذ الواعظ والقاص لنفسه مكاناً معيناً من المسجد أو يتبوأ كرسياً لأداء وظيفته ارتجالاً لما يقول أو قراءة من كتاب صحيح معتبر، ولا يجوز السكوت على ما يقوله الواعظ الجاهل من تحريف لمعاني القرآن وتغيير ألفاظه والكذب على الله ورسوله بالآيات والأحاديث، وما أكثر هذا النوع في المساجد من المحترفين بالوعظ والترغيب والترهيب، وهم لا يرغبون في حسنة ولا يرهبون من سيئة، ومن القصاص من يقعد في المسجد ولا صناعة له إلا ما يضلل به الجاهل، ويزين به الباطل من الإسرائيليات وخرافات المفسرين وأساطير الأولين، والكتب بين يديه: نزهة المجالس، ونزهة الناظرين، ودقائق الأخبار،

---

[1] – سورة الحديد الآية: 16.

وتنبيه الغافلين، وكثير من هذا النوع الذي يجمع الغث والسمين، والصدق والكذب، والحق والباطل، وهو لا يميز هذا من هذا، وإن أدرك منه شيئاً لم يبينه للعامة وهم يستحسنون ما يقول ويبكون لما يسمعون، وأين ما كان في المسجد من الدروس النافعة

((197))

والمدرسين الأتقياء أئمة الرشد ودعاة الحق وهداة الخلق؟ لقد أقفرت منهم الديار وخلت منهم المساجد، وتفرق الناس عن حلقات الموجودين منهم، وضاعت السنة وظهرت البدعة، وسكت العالم وتكلم الجاهل (وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين قال ربي احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون).

كرامة المسجد واحترامه

جميع المساجد وبيوت العبادة في الأديان كلها مقدسة محترمة والأوضاع والقوانين المدنية تعرف للمعابد حقها، ولكل قوم حريتهم الدينية، والقيام بأمر المسجد والكنيسة والبيعة والديوالي موكول إلى أ صحابها، ولا تتدخل أية حكومة رشيدة ديمقراطية أو دكتاتورية في أمور المعابد إلا ما قيل في بلاد الشيوعية، وحيث لا مال ولا أسرة ولا دين، وفي شريعتنا الإسلامية لا يتدخل الحاكم المسلم في شؤون غيره من الأمم الخاضعة لحكمه، ولا يتولى معابدهم ولا يتحكم في صدقاتهم، ولا يجرح عواطفهم ولا يستخف بمقدساتهم ماداموا يعرفون للإسلام والمسلمين مثل الذي يعرفون لهم، لكن المسجد عند أهله معظم ومحترم فوق ما يتصوره الأجنبي أو الذي لا يعرف أثر المسجد في المجتمع كما سبق، فإنه البيت الذي لا يحل المكث

((198))

فيه لجنب ولا حائض، ولا سكران ولا ذي جراحة دامية سيالة إلا عابر سبيل لا يخاف تلويث المسجد، لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ)[1] أي: أماكنها. وفي الحديث الشريف عنه ﷺ: ((إني لا أحل المسجد لحائض ولاجنب) وفي الحديث الشريف عنه ﷺ: يقول الله تعالى: (إن بيوتي في أرضي المساجد وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر ففي بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره)، وروي أنه يقول يوم القيامة: (أين جيراني؟ فتقول الملائكة: من هذا الذي ينبغي له أن يجاورك؟ فيقول: أين قراء القرآن وعمار المساجد) وقال النبي ﷺ: ((إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان)) وقال ﷺ: ((الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي يصلي فيه تقول: اللهم صلّ عليه اللهم ارحمه اللهم اغفر له ما لم يحدث أو يخرج من المسجد)) وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه، فما حقه أن يقول إلا خيراً، ومن اعتكف في المسجد مدة من الزمان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، وأفضل ما يكون الاعتكاف في رمضان وهو في العشر الأواخر منه أولى وآكد، لأن ذلك موسم العبادة والوقت

((199))

---

[1] – سورة النساء الآية: 43.

الذي يتجلى فيه الرب سبحانه لعباده بالمغفرة واستجابة المسألة: وخرج ابن عباس رضي الله عنهما مع صديق له حاجته وكان معتكفاً في مسجد النبي ﷺ وقال: سمعت صاحب هذا القبر ﷺ يقول: ((من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين)) والقصد من الاعتكاف: انقطاع صاحبه عن الدنيا وتفرغه لعبادة الله مدة الاعتكاف، لا يشتغل إلا بالطاعة ومناجاة ربه تعالى، ولا يفكر إلا في الآخرة، وهو لا يتمتع من ملذات الحياة إلا بالضروري المعتاد من أكل وشرب ونوم، ولا يخرج إلا لقضاء حاجة أو عذر شرعي من الأعذار المنصوص عليها في كتب الفقه والحديث، ولا يقبل امرأته ولا يباشرها بشهوة وإن فعل بطل اعتكافه.

وأوجب عليه بعض العلماء بالجماع كفارة عظمى ككفارة الجماع في نهار رمضان، وقيل: يتوب ويستغفر ويتصدق بدينارين، وقيل: يتقرب مع التوبة إلى الله بما استطاع مع العبادة والخير (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) وتجب صيانة المسجد عن عبث المجانين والصبيان غير المميزين للحديث الشريف، عن واثلة ﷺ ((جنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم ورفع

أصواتكم)) ولئلا يبول أحدهم في المسجد، أو يشغل المصلين بالبكاء واللهو واللعب، إلا الصبي الصغير مع أمه إذا كانت تحافظ عليه وتضمه إلى جانبها، وكذلك الصغير الذي يؤمن عليه من تلويث المسجد والشغب فيه، فإن النبي ﷺ كان يستصحب معه أمامة بنت بنته وزينب عليهما السلام، ويدخل بها المسجد أو تدخل عليه ويحملها في صلاته وإذا ركع أو سجد وضعها، وإذا قام رفعها، واليوم لا تجد من يخرج المجنون من المسجد بشدة ولا لين، بل يسكت الناس على عبثه وربما اعتقد فيه الولاية وإن قتل أو ارتكب الكبيرة، ولصيانة المسجد تتخذ الأبواب والغلق والشبابيك، ويكون له الحارس أو الحراس وخاصة إذا كثرت فيه السرقة وتعود اللصوص فتح دواليبه وأخذ المصاحف منه، وما أكثر سرقة النعال من المساجد قديماً وحديثاً حتى كان بعض العلماء يضع نعاله بين يديه مخافة اللص، ويقول تأمني ولا تغمني، وإذا قيل: إن السارق من المسجد لا تقطع يده فإنما ذلك في حق الله تعالى ويجب تعزيزه وعقوبته بما يستحق، وحقوق الآدميين لا تقاس بحق الله، ومن اعتمد الخفية في سرقة نعال المصلي قطعت يده إذا بلغت قيمة النعال ربع ديناراً أو ثلاثة دراهم، ويحرم أن ينشد الرجل ضالته في المسجد حيواناً كانت أو غيره، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من سمع رجلاً

((201))

ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا ردها الله عليك)) فإن المساجد لم تبن لهذا، ومن وجد لقطة فليعرفها على أبواب المساجد والطرق الموصلة إليها، وكذلك السائل عن ضالته؛ وإلى الله نشكو ما نسمع من الضجة والأصوات العالية حين يجد المصلي مسبحة أو قلماً أو ساعة أو مذكرة جيب في المسجد وهو يعلن عنها ويعرف الناس بوجودها عنده، ويحسن أن يكون في المسجد فراش أمين أو خادم شريف توضع عنده هذه اللقطات حتى يأتي أصحابها، وثبت عنه ﷺ: ((إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء، إذا كان المغنم دولاً ، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه، وبر صديقه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد)) إلى قوله ﷺ: ((فلينتظروا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً ومسخاً)) وآثم من يرفع صوته بتلاوة القرآن أو ذكر الله تعالى أو يجهر بالتأمين وتكبيرات الانتقالات فوق العادة حتى يشغل المصلي ويزعج من حواليه. قال ﷺ: ((يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً ولكنكم تدعون سميعاً قريباً مجيباً)) والله تعالى يقول: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً) والبيع والشراء في المسجد لا يجوز، وإذا رأيت من يبتاع ويشتري فيه، فقل له: لا أربح الله تجارتك؛ ويجوز دخول المشرك وحبسه فيه

((202))

ليشهد صلاة المسلمين ويسمع الخير فينتفع به إن شاء الله (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ)[1] وثمامة بن أثال زعيم اليمامة جيء به أسيراً وهو مشرك وربط في سارية المسجد ثلاثة أيام، وكلما قال له النبي ﷺ: ((ما عندك يا ثمامة)) قال: خيراً يا مُحَمَّد، إن تَقْتُل ذا دم وإن تُنْعِم تُنْعم على شاكر. فأطلقه، ثم ذهب واغتسل، وجاء وأسلم وحسن إسلامه بعد ذلك ﷺ، ولقداسة المسجد لا يحل فيه لغو الحديث والكلام الباطل؛ وروي أن الكلام فيه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب؛ وأيضاً لا يحل تلويثه بنجس ولا طاهر سواء داخله وخارجه، فليعلم الذين يمسحون البصاق والمخاط بجدران المسجد ويبولون إلى جانبها، والبصاق فيه خطيئة وكفارتها دفنها أو غسلها، ومن حدث له شيء فلا يبصق بين يديه ولا عن يمينه فإنه يناجي ربه والملك عن يمينه، ولكن يبصق عن يساره أو تحت قدمه أو في طرف ثوبه، وكل هذا لمن يصلي خارج المسجد، أما فيه فيحرم إلا إذا كان في منديله أو طرف ثوبه، ولا بأس بالأكل والشرب والنوم، وجلوس المحدث حدثاً

---

[1] – سورة التوبة الآية: 6.

أصغر في المسجد إذا أمن التلويث بالعرق الكثير والريق الذي يسيل من فمه، وما يسقط من كؤوس المرطبات وفناجين القهوة في الحفلات الدينية، وتوزع فيه الصدقات

((203))

النقود وغيرها، حيث لا ضرر ولا ضرار، ولا يتيمم أحد من ترابه وإن أجنب المعتكف أو حاضت المرأة وجب الخروج فوراً إلا إذا خاف على نفسه أو ماله أو عرضه، ومن أكل البصل أو الثوم أو ما له رائحة منتنة تباعد عن المسجد حتى يذهب ما في فيه لئلا يتأذى به ملك أو إنسان، وقيس على ذلك بالأولى صاحب المرض المعدي من السل والجذام ونحوهما يمنع من المساجد والمجتمعات العامة خشية أن ينقل العدوى إلى غيره، وكل شيء بقدر الله، ولكنه لا يرد ممرض على مصح، وفر من المجذوم فرارك من الأسد، وشارب الدخان والمصاب بالبخر والكور إ ذا لم يتنظف ولم تنقطع الرائحة الكريهة منه يبتعد عن المسجد، وله الأجر إن كان معذوراً، وكما ورد النص في أنه لا يشهر السلاح في المسجد ومن مر فيه ومعه نبل فليمسك بنصالها مخافة أن يجرح أحداً أو يسقط السلاح من يده أو يغضب غضباً يحمله على العدوان، فكذلك حامل البندقية ولا يدخل بها مشحونة ولا يضعها حيث يخاف عليها السقوط أو الخطف، ولا تصدر الأحكام في المسجد وعلى المجرمين في المسجد على المجرمين، ولا تقام الحدود والتعزيرات وإن وقع الحكم نفذ في مكان آخر، وللغريم أن يتقاضى غر يمه حيث وجده ولو في الصف الأول مع مراعاة الأدب واحترام البقاع المقدسة وسمع النبي ﷺ كعب بن مالك يتقاضى عبد الله بن أبي حدرد دَيْنًا

((204))

له عليه في المسجد وارتفعت أصواتهما، فكشف ستر بيته، وقال: ((يا كعب ضع عنه الشطر)) قال: قد فعلت يا رسول الله، فقال للآخر ((قم فاقضه حقه))، ويحرم فيه الرقص والتواجد المخل بالآداب والمروءة وكرامات بيوت الله، ولوحصل ذلك من أدعياء التصوف وأصصحاب الطرائق التي تقام في المسجد وجب إخراجهم والحيلولة بينهم وبين العبث بقداسة المسجد ولا يعد ما ذكر داخلاً في الآية الكريمة: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[1].

فضل الصلاة في المسجد وكيفية الذهاب إليه

---

[1] – سورة البقرة الآية:114.

سئل النبي ﷺ: أي البلدان أحب إلى الله، وأي البلدان أبغض إلى الله؟ قال: لا أدري حتى أسأل جبريل عليه السلام، فأتاه جبريل فأخبره أن أحب البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق، وثبت عنه ﷺ ((لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد)) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين درجة)) وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى الصلاة، لا يخرجه إلا

((205))

الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاة: اللهم صلّ عليه اللهم ارحمه، ولا تزال في صلاة ما انتظر الصلاة، وفي رواية اللهم اغفر له اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه ومما تقدم تعلم أن الله ما شرع الصلاة في المسجد وأمر بإقامة الجماعة فيه إلا لحكمة لا تخفى على رواد المساجد، والمترددين عليها والساعين إليها في وهج الشمس وحرارة الرمضاء، وفي ظلمة الليل وبرد الشتاء وفي مثلهم يقول عز وجل: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)[1]، والغدوة والروحة إلى المسجد من الجهاد في سبيل الله، وعن بريدة رضي الله عنه ﷺ قال: ((بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة))، ولترغيب الناس في صلاة المسجد اتخذت جميع وسائل الراحة من المصابيح والأضواء والفرش الناعمة، وإنها لتجمر وتنظف ويوقد فيها العنبر والعود، وقد يرش فيها على المصلين بمختلف أنواع العطور، وورد في كنس المساجد وإماطة الأذى عنها أنه مهر الحور العين. وقال ﷺ: ((عرضت عليَّ أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد)) ولو نظرت في كثير من بلاد المسلمين إلى المساجد وما فيها من القراء بالأصوات الحسنة، والمصاحف المذهبة، وتنقية

((206))

الهواء وطيب الرائحة لوجدتها أصلح من غيرها لملازمتها والجلوس فيها، والمؤمن في المسجد كالحوت في الماء، والمنافق فيه كالطائر في القفص، وطوبى لعبد قلبه معلق بالمساجد لا يخرج منها إلا لقضاء حاجة أو طلب رزق حلال، وطلب المعاش فريضة بعد الفريضة، وفيه مجالسة العلماء والصلحاء وتزداد في كل لحظة خيراً وتكسب أجراً وتبتعد عن شرور المجتمع، وإذا كانت المكتوبة فيه بخمس وعشرين أو سبع وعشرين في غيره فإن التنقل وخاصة بصلاة

---

[1] – سورة يّس الآية:12.

الضحى والأوابين وقيام الليل والنفل المطلق في البيت أفضل منه في المسجد للبعد عن الرياء والسمعة ومجاملة الناس واستلفات أنظارهم إلا لمن يقتدي به ويفعل الناس مثل فعله فتنبغي له صلاة الرواتب والتراويح والوتر في المسجد، ومن دل على خير كان له مثل أجر من فعله لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، وفي الحديث الشريف: ((أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)) وعنه ﷺ ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً)) وبعدما كان المسلمون تغص بهم المساجد وتزدحم بهم الأبواب داخلين وخارجين من جميع طبقات المجاورين لها والراغبين فيها، يجيئون من أماكن بعيدة لكثرة الجماعة، ولصلاح الإمام وحسن قراءته، وبعد ما كانوا يتسابقون إلى الصفوف الأول فالأول، والإمام يقول لهم: ليليني منكم أولو الأحلام والنهي، والواعظ

يقول: لو يعلم الناس ما في الأذان والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، حقاً وبعد كله أصبحت المساجد خاوية، ومن المصلين خالية لا يؤمها إلا بقية من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة، ولا يجلس فيها إلا الفقراء والمساكين والغُرباء والمنقطعون، أما الأغنياء وأصحاب الأعمال الكثيرة وأنصاف المسلمين فإنهم لا يأتونها ولا يدخلونها، بل يسخرون من رواد المساجد ويستهزئون بهم: (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ)[1] ويمر أحدهم بين أيدي الصفوف، وعلى أبواب المسجد الأمامية المفتحة وهو يغني ويصفر، وربما سمع صوت الإمام أو المؤذن (فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى، وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)[2]، والبيوت المجاورة للمسجد إذا كان أهلها لا يحافظون على إ قامة الصلاة وشهود الجماعة فيها مهددة بالخراب وتفرق السكان، وهل يصدق القارئ المسلم أن بعض أولئك يتأذون بصوت المؤذن والمقيم، وخاصة في مكبرات الصوت فيفضلون الخلوة ومجاورة الشيطان على القرب من أماكن العبادة ومجاورة بيوت الله، والإسلام لا يضيق على أهله ولا يوجب عليهم العبادة في محل معين بل الأرض كلها مسجد وترابها طهوراً، وأيماً رجل أدركته الصلاة فليصل حيث كان، ولكن حضور الجماعة

---

[1] – سورة المائدة الآية:58.

[2] – سورة القيامة الآيات: 31- 32.

وإقامتها في المسجد يجعل من الرجل العادي رجلاً مثالياً في دينه وخلقه، ويزوده بالنبل والكرامة، ويجعله عضواً عاملاً في جسم الأمة الإسلامية، والمسجد القريب منك أولى بالصلاة فيه من البعيد عنك إلا لجماعة أكثر، أو إذا كان يتعطل البعيد بغيابك عنه، ثم أنت إذا خرجت إلى الصلاة فبعد أن تتطهر وتأخذ زينتك من الثياب وتستاك وتمس من طيب أهلك ثم تتوجه إلى ربك وعليك السكينة والوقار، ولا تمش في الأرض مرحاً ولا بذلة ومهانة، ولكنك ترفع رجلا وترفع لك بها درجة، وتحط أخرى عنك بها خطيئة، وتقول اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وان تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وإذا مشيت فكأنك في موكب من الملائكة لا تؤذ في الطريق أحداً، ولا تشتغل إلا بذكر الله، وتستصحب معك من وجدت في الطريق من إخوانك، وإذا دخلت المسجد قلت: أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، الحمد لله وصلى الله على آله وصحبه وسلم، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك بسم الله، وتقدم رجلك اليمنى داخلا ولا تخترق الصفوف ولا تتخطى الرقاب إلا لتسد فرجة بين يديك بغير

إزعاج ولا إيذاء، ولا تركض في المسجد لتدرك تكبيرة الإحرام أو الركعة قبل أن يعتدل الإمام، وفي الحديث الصحيح ((إذا أُقيمت الصلاة فأتوها وعليكم السكينة والوقار فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا)) وإذا وقفت في الصف فلا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ولا تزاحم أو ترى لك ف ضلاً على أحد من أهل المسجد، ولا تكن من الذين يقولون للإمام إذا أدركوه راكعاً: انتظرني أو اصبر قليلاً أو تذكرة الآية إن الله مع الصابرين، وإذا جئت قبل الإقامة فلا تجلس حتى تصلي ركعتين تحية المسجد، لحديث أبي قتادة ﷺ: ((إذا أتى أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين)) وخفف التحية إذا دخلت والإمام يخطب ثم صلّ ما كتب لك واذكر ربك كثيراً، ولا تنتقد الناس إلا بلطف إذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر، وصلّ قبلية الفرض وبعديته، ولا تستوطن من المسجد مكاناً خاصاً لا تتجاوزه إلى غيره، ومن سبق إلى مباح فهو أحق به. وليس هذا محل تعليمك الأذكار الواردة والأدعياء المأثورة إلا ما تيسر منها، فإذا سمعت المؤذن فقل مثل ما يقول، وإذا قال: حي على الصلاة حي الفلاح؛ فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله، وبعد الفراغ تصلي علي النبي ﷺ وتقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت مُحَمَّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً

محمـوداً الـذي و عدتـه، فإنـه مـن قـال ذلـك حلـت لـه الشـفاعة يـوم القيامـة، وبـين الأذان والإقامـة سـاعة مـن سـاعات الإجابـة، وبعـد السـلام مـن الصـلاة أدعيـة وأذكـار كثيرة لا ينبغـي لـك التهـاون بهـا والغفلـة عنهـا، وإذا خرجـت فقـدم رجلـك اليسـرى وقـل: بسـم الله والصـلاة والسـلام علـى رسـول الله، اللهـم اغفـر لي ذنـوبي وافـتح لي أبـواب فضـلك، وتنصـرف حيـث شـئت ومقابـل حاجتـك (فَـإِذَا قُضِـيَتِ الصَّـلاةُ فَانْتَشِـرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُـوا مِـنْ فَضْـلِ اللَّهِ وَاذْكُـرُوا اللَّهَ كَثِـيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1].

الجمعة والجماعة

تصـح إقامـة الجمعـة حيـث مـا كـان في خطـة البلـد، لأن الصـحابة ﷺ كـانوا يـؤدون فريضـة الجمعـة في بعـض أوديـة المدينـة قبـل هجـرة النـبي ﷺ وقبـل بنـاء المسـجد، وعلـى ذلـك أكثـر أهـل العلـم. والظـاهر أنهـا لا تصـح إلا في المسـجد لأنهـا منـذ هـاجر النـبي عليـه الصـلاة والسـلام لم تـؤد إلا في المسـجد، واسـتمر عليـه عمـل المسـلمين في كـل زمـان ومكـان، وأول مسـجد صـليت فيـه الجمعـة بعـد مسـجد المدينـة المنـورة مسـجد جـواثا في أرض البحـرين، قريـة قريبـة مـن الإحسـاء، ولا يبعـد القـول بأن مسـجد صـنعاء مـن أول المسـاجد إقامـة للجمعـة. وصـلاة العيـد في الصـحراء أولى منها في المسجد حيث يكثر حضورها من الرجال

والنسـاء والأحـرار والعبيـد والصـغار والكبـار، ولأنهـا رمـز إلى عظمـة الإسـلام، وشـعيرة مـن شـعائره العظـام ولا تقـام في المسـجد إلا لحاجـة الخـوف والمطـر ونحوهمـا، وكـذلك بقيـة الصـلوات الخمـس تصـلي جماعـة في المسـاجد الجوامـع وغيرهـا، ومـا مـن بلـدة أو قريـة فيهـا ثلاثـة مـن المسـلمين لا تقـام فـيهم الجماعـة إلا اسـتحوذ علـيهم الشـيطان. وحكمهـا أنهـا فـرض كفايـة أو سـنة عـين، وتـدرك صـلاة الجمعـة بركعـة وصـلاة الجماعـة بأقـل جـزءٍ منهـا ولـو السـلام، ولهـذه وهـذه شـروط مفصـلة في كتـب الفقـه وللجمعـة شـروط وجـوب سـبعة، وهـي: الإسـلام والبلـوغ والعقـل والحريـة والـذكورة والصـحة والاسـتيطان. ويسـن لهـا التبكـير إلى المسـجد، ومـن جـاء في السـاعة الأولى فكأنمـا قـرب بدنـة، ومـن جـاء في السـاعة الأخـيرة فكأنمـا قـرب بيضـة، وفي يـوم الجمعـة وليلتهـا سـاعة لا يصـادفها عبـد مسـلم وهـو قـائم يصـلي يسـأل فيهـا شـيئاً إلا اسـتجاب لـه دعوتـه وأعطـاه

[1] – سورة الجمعة الآية:10.

مسألته، ومن تخلف عن الجمعة ثلاث مرات متوالية بغير عذر طبع الله على قلبه طابع النفاق، والغادي والرائح إلى الجمعة يسن له الغسل، وقيل: يجب عليه إذا قدر، ويستاك ويتطيب وينظف بدنه، ويدنو من الخطيب ويستمع وينصت ولا يلهو ولا يلغو، ومن لغا والخطيب يخطب فلا جمعة له. وينبغي للخطيب أن تكون عليه السكينة والوقار، ولا يدخل إلا بعد الزوال ولا سنة قبلية للجمعة

((212))

ولا نص وارد في استحبابها إلا قياسها على الظهر، ويختار الخطيب المواضيع الهامة والنقط الحساسة وما ينبغي القول فيه دون غيره ويفصح ويبين ويكثر من الشواهد والأمثال، ولا يمطط ولا يتشدق ولا يتنطع ولا يذكر أحداً معيناً بالسوء، ولا يتلفت إلا إذا اتسع المسجد وكثر المصلون، ويتجنب البدع الكثيرة التي يفعلها خطباء العصر من دق المنبر، والدعاء للسلطان، ومد أواخر الكلمات ليمكن الناس من رفع أصواتهم بالأذكار والدعوات، ويطول الركعة الثانية من الصلاة كي يدركها المتخلف، والعدد المعين لا شيء يحتج به في اشتراطه للجمعة ولكنه ينبغي ترغيب الناس في الحضور ودعوتهم إلى ا لجمعة، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. فإنها مجلس العموم وندوة الأسبوع، وفيها تعرض الحوادث ويتعاون الناس على القيام بالواجب والمندوب. أما الجماعة في سائر الصلوات فحسبك ما قدمنا في فضلها ولا عذر للمتخلف عن الجمعة والجماعة إلا المطر وشدة الحر والبرد والمرض والتمريض، ومن علبه الجوع أو العطش أو النعاس، وكذلك من خاف على نفسه أو ماله أو شرفه إذا ذهب إلى المسجد، ويشترط لصحة الجماعة قرب الإمام من المأموم إلا إذا اتصلت الصفوف أو كان الجميع في مسجد واحد، والمؤتم لا يؤتم به غبره لا داخل المسجد ولا خارجه. وكثيراً ما يسأل الناس عن الصلاة في البيوت

((213))

البعيدة عن المسجد إذا علموا تنقلات الإمام بمكبرات الصوت أو من الراديو والتلفزيون، وهذا لا يصح لمنافاته اسم الجمعة والجماعة ونصيحتنا إلى علية القوم والوجهاء والأعيان منهم أن يتوجهوا إلى بيوت الله ولا يتخلفوا عن الجمعة والجماعة، فإلى من يوجه القول وإلى من تسند المهمات إلا إليهم؟ وممن يقتدي الأطفال والصغار والعامة إلا بسادتهم وقادتهم؟ وغير مرة يقول لي الأدباء والصحفيون: مالأئمة المساجد لا يقولون كذا، ولا يفعلون كذا، وفيما نحن وهؤلاء لا يدخلون المسجد ولا يكفرون ألسنتهم وأقلامهم عند النقد، وليتهم يحضرون ثم ليقوموا ما بدا لهم، والمسجد ليس لأحد دون أحد، وكم أتمنى لو يقوم هؤلاء الموهوبون

والقادرون على الكلام بواجب الخطابة وإلقاء المحاضرة في أماكن توجه الدعوة منها إلى الجميع ولا مساهمة مالية ولا اشتراك فيها ولا تذكرة حضور إلّا نداء المؤذن وجودة الإلقاء وحسن الاستماع، وليعلموا أننا لا نشترط عليهم شلناً إلا موافقة القول للعمل، وأن لا يحاضر أو يخطب في المسجد من له صلة بحانة أو ما خور، وليست للخطيب ثياب مخصوصة ولا زي معين، وحبذا لو يتمرن كثير من الإخوان والأمناء الصالحين على الوعظ والإرشاد وإعطاء الدروس النافعة المفيدة في المساجد والأندية على السواء قبل الصلاة أو بعدها، وإنما الناس بقادتهم، والعلم شرط

((214))

أساسي لصحة القيادة (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[1].

النساء والصبيان في المساجد

يجب على ولي الصبي أن يأمره بالصلاة لسبع سنين، ويضربه على تركها لعشر إن كان مميزاً يفهم ما يقال له، ويحسن العمل الذي يؤمر به وكذلك سائر الواجبات والمندوبات يؤمر بها ويضرب على تركها ليتعود الخير وينشأ عليه، ومن عاش على شيء مات عليه وقلوب الصغار طاهرة مستعدة لما يرسم عليها من صور الخير والشر وكان المسلمون في عهد رسول الله ﷺ وبعد ذلك يأتون بصبيانهم إلى المساجد ويحضرونهم في مجالس الخير، وتكون صفوفهم بين صفوف الرجال والنساء، ونعم الفاصل بين الرجل والمرأة وقت إقامة الصلاة، وإذا ساءت الآداب وخيف على الصبيان من اللهو واللعب تفرقوا في صفوف الرجال، وحافظ كل على من يجانبه، ولقوة ذاكرة الصغير ينطبع في نفسه أدب العبادة وكيفية أدائها مع الخشوع والسكينة والوقار، وإنه ليحفظ ما يقول الخطيب والإمام ويقلد ويعيب على المتقدم والمتأخر والمسيء في صلاته، وينكر على الفرد ما يراه مخالفاً لأفعال الجماعة، وإذا بلغ كانت العبادة

((215))

سهلة عليه وقد شغف المسجد قلبه حباً وصار مولعاً ومكثراً للتردد عليه، وهكذا ينتقل الإسلام في أجمل صوره وأجل مظاهره من السلف إلى الخلف، ومن الآباء إلى الأبناء، وفي هذه

---

[1] – سورة فصلت الآية:33.

الأيام تباعد الرجال عن المسجد والأطفال أشد بعداً عنه وأكثر قرباً واتصالاً بدور السينما ومحلات الخلاعة والمجون منهم ببيوت الله الرياض البهجة النضرة التي كان ينبغي تقضية معظم أوقاتهم فيها، ففيها رياضة بدنية وتربية روحية ونشأة أدبية وبيئة صالحة دينية تخرجهم رحماء بينهم أشداء على من خالف أمر الله فيهم، يعرفون الحق الذي لهم فلا يتركونه إلا مسامحة وعفواً أو رحمة ومواساة، قد علمهم المسجد عزة المؤمنين وبطولة المجاهدين، وأنهم لا يخضعون إلا لله ولا يخشعون أحداً سواه، يحبون الحياة للعمل ولا يكرهون الموت لما يعرفون من الجزاء والثواب الذي يرجونه من الله، وتصح إمامة الصبي المميز العارف بأحكام الصلاة، وربما كانت قراءته بصوته البرئ الطاهر أكثر تأثيراً في قلوب المصلين، وما أعظمه وهو يقول في صلاته وقبل أن يعرف الأزواج والذرية (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)[1] وعن عمرو بن سلمة قال: لما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبادر أبي إلى قومه بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم من عند النبي ﷺ حقاً، فقال:

((216))

صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذون أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآناً، فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآنا مني لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين، وكانت عليَّ بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا إست قارئكم، فاشتروا فقطعوا لي قميصاً فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص.

والمرأة تحضر الصلاة في المسجد ومصلى العيد لتشهد الخير ودعوة المسلمين، ولتشارك الرجال في أفضل العبادات؛ لا فرق بينهما وبينه في ضعف العبودية وتعظيم الرب جل وعلا، وهي في الإسلام والعمل مساوية لزوجها وأبيها (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)[2].

وليست بأقل شأناً من الرجل في التكاليف الواجبة والمندوبة بل والمحرمات والمكروهات إلا مسائل يخفف الإسلام فيها الحكم عن المرأة لكثرة مشاغلها، ولضعف قوتها، فلا جهاد ولا جمعة واجبة عليها ولا صلاة ولا صوم في حيضها ونفاسها، وهي أقرب إلى الخير من الرجل

---

[1] – سورة الفرقان الآية: 74.

[2] – سورة آل عمران الآية: 195.

لرقة عاطفتها ولين قلبها، تتأثر بالموعظة وتسابق إلى الخير بالإنفاق في سبله طمعاً في لجنة وخوفاً من النار، وحين ما تكون في

((217))

المسجد وقريباً من الرجال تستمع وتنصت ويمنعها الحياء من الحديث عن نفسها وبيتها، وما لابد منه للمرأة من كسوة وحلية وزينة وإذا المؤمنات حضرن مجالس الخير فلا يتعرض للفتنة ولا يتبرجن بزينة، ولكنهن يأتينها في ثياب الحشمة وجلابيب العفة لا متبخرات ولا متعطرات، بل حسبهن النظافة وجمالهن الخلقي والخُلُقي، وكان النساءُ في زمان النبي ﷺ يدخلن المسجد ويسمعن الخطبة وتقول إحداهن: ما حفظت سورة (ق والقرآن المجيد)) إلا من كثرة ما كان يقرؤها رسول الله ﷺ على المنبر، والمرأة أول من فكر في صنع المنبر ليقف عليه الخطيب ظاهراً للجميع، الرجال والنساء، حتى يرونه ويسمعونه، قالت امرأة من الأنصار: يا رسول الله إن ل ي غلاماً نجاراً أفآمره أن يصنع لك شيئاً تقف عليه إذا خطبت؟ قال: نعم إن شئت فصنعت له المنبر ثلاث درجات يقوم على اثنتين منها ويجلس على اللثالثة؛ وكانت الخيرة أم الدرداء تؤم النساء بالمسجد في صلاة التروايح وهن من العابدات المتنسكات، وروي عنها أنها دخلت على النبي ﷺ في المسجد وهو يقول: ما يوضع في الميزان أثقل من خُلُقٍ حسن. وتعليم المرأة في المسجد أسهل من تعليمها في البيت لأن الخطاب يوجه إلى الجماعات منهن ولا تكون الواحدة معنية به دون غيرها، وحيث قد أصبح الرجال جهالاً ومقصرين في التعليم فلا

((218))

معدل للمرأة عن حضور المسجد لثواب الجماعة، ولتعرف ما يجب عليها لربها ولزوجها ولبيتها ولأبنائها، ومنهن القانتات التائبات العابدات اللاتي كن يتخذن الحفش والخيمة في أطراف المساجد للاعتكاف وتلاوة القرآن، كما فعل ذلك أزواج النبي ﷺ في حياته وبعد موته، وربما درس بعضهن في المسجد وعلمت وتعلمت وسألت وأجابت، والتاريخ وكتب الحديث والأدب شاهدات بصدق ذلك وما أحسن المساجد التي تتخذ فيها ألأماكن الخاصة بالنساء يرين ولا يُرين، ووقت صلاة الصبح والعشاء وفي مثل زماننا الحاضر لا ينبغي مجيء المرأة إلى المسجد لما قد يترتب على ذلك إلا مع زوج أو محرم يراقبها ويحافظ عليها، وربما خرجت تريد المسجد فيما يظهر لأهلها وعدلت عنه إلى دار السينما، وربما وقف لها الشيطان بالمرصاد وقادها بزمامها إلى النار وبيوت الفجار، وحضور الجمعة آمن على المرأة من حضور غيرها وخاصة إذا حضر العجائز والنساء الصالحات وأخذت الكبيرة في حسن توجيه الصغيرة تعلمها الحشمة والأدب وتذكرها بسيرة أمهاتها الصالحات، وما كانت جدتها الصالحة وعمتها

الخيرة وخالتها الطيبة، فعن أم سنان الأسلية ﵂ قالت: كنا نخرج مع رسول الله ﷺ في الجمعة والعيدين، وعن أم عطية الأنصارية ﵂ قالت: ((أمرنا رسول الله

((219))

ﷺ أن نخرجهن في الفطر والأضحى العواتق والحيض وذوات الخدور، فأما الحيض فيعتزلن الصلاة)) وفي لفظ ((المصلى ويشهدن الخير دعوة المسلمين)) قلت: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب قال: ((لتلبسها أختها من جلبابها)) (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1].

الأئمة والمؤذنون

زينة المساجد وجمالها بأئمتها الصلحاء ومؤذنيها الأمناء قادة المصلين ودعاتهم إلى الخير (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[2] وهم المسؤولون عن مراقبة الأوقاف وانتظار المحافظين على الجماعة، ثم عن تسوية الصفوف وما به يحصل الخشوع وحسن التوجه إلى الله عز وجل، والإمام والمؤذن المحتسبان أعظم أجراً من الموظفين المجعول لهم راتباً شهرياً أو سنوياً ولا بأس باستئجار المؤذن ومجاعلة الإمام، بل يحسن جداً أن يكون لهما مرتب يكفيهما ويقوم بحاجتهما الضرورية وبعض الكماليات من نفقة وكسوة ومنزل وما لابد منه لتربية الأولاد وتعليمهم

((220))

وعليهما الورع والقناعة والزهد فيما في أيدي الناس، ويحافظ المؤذن قدر استطاعته على أول الوقت، ويكوون عارفاً بذلك بالعلامات الكونية أو الساعة المضبوطة مع جدول صحيح للتقويم السنوي في كل بلاد بحسبها، والمؤذن صيت الصوت متطهر يستقبل القبلة في الأذان والأقامة، عدل يرتل ألفاظ الأذان ويوالي ألفاظ الإقامة ويحافظ على السنة ويتجنب البدعة، ويستقيم على محل مرتفع إذا لم يكن مكبر صوت، وعن أبي سعيد الخدري ﵁ عن النبي ﷺ : ((لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)) وعن ابن عمر

---

[1] – سورة التوبة الآية:71.

[2] – سورة فصلت الآية:33.

ﷺ عن النبي ﷺ: ((يغفر للمؤذن منتهى صوته ويستغفر له كل رطب ويابس سمعه والمؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة، وثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة أيضاً: عبد أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أمَّ قوماً وهم به راضون، ورجل ينادي بالصلوات الخمس في كل يوم وليلة)) ولا تقام الصلاة إلا بإذن الإمام، وهو يسوي الصفوف ويخفف الصلاة غير مخل بالأركان والشروط لقوله ﷺ: ((إذا أم أحدكم الناس فليخفف فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة)) ويقرأ في الصبح والظهر من طوال المفصل وفي العصر والعشاء من أواسطه وفي المغرب من قصاره؛ ويكون الإمام فقيهاً في دينه وخاصة أحكام الصلاة

((221))

قارئاً مجوداً حسن الصوت، نظيف البدن والثوب، طيب الرائحة صباراً على التعليم قانتاً أواهاً حليماً يرفع صوته بالتكبيرات ويتم الركوع والسجود، فإنما جعل الإمام ليؤتم به، وإذا انتظر الداخلين ليدرك الركعة أو الجماعة فلا يطول ولا يفاضل بين الداخليين، ولا ينتظر الذي يخل بتكبيره الإحرام أو الذي يحسبها ركعة وهو لم يطمئن فيها قبل اعتدال الإمام، ويسبح في الركوع والسجود حتى يستريح من خلقه، ويأتون بالمأثور من ذكر ودعاء، وإذا قرأ الآيات من سورة طويلة اختارها للمناسبة وذكر بها المصلين خوفاً وطمعاً لا رياء ولا سمعة، ومن يرائي يرائي الله به، ومن سمَّع سمَّع الله به، وفي الحديث الشريف: ((من أم قوماً فليتق الله وليعلم انه ضامن مسؤول لما ضمن، وإن أحسن كان له من الأجر مثل أجر من صلى خلفه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً وما كان من نقص فهو عليه)) وعن طلحة ابن عبيد الله ﷺ أنه صلى بقوم فلما انصرف، قال: إني نسيت أن أستأمركم قبل أن أتقدم أرضيتم بصلاتي؟ قالوا: نعم ومن يكره ذلك يا ((حواري)) رسول الله ﷺ. قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((أيما رجل أم قوماً وهم له كارهون لم تجاوز صلاته أذنيه)) وإذا حضر الصلاة المتفاضلون في دينهم وعلمهم وسائر مواهبهم فالإمام الراتب مقدم عليهم، وحيث لا راتب فالأفقه، ثم الأقرأ لكتاب الله

((222))

ولا يؤم الرجل في سلطانه، وما أشد حاجتنا إلى الأئمة والمؤذنين الكمل في صفاتهم مع مراعاة ما يجب لهم وعليهم، وإنك اليوم لا تجد أكثر المساجد وما بها إلا مؤذن جاهل لحان أجش الصوت يمطط أو يحذف بعض الحروف أو يزيد فيها أو يمد في غير موضع المد، كالذي يزيد واواً بين لفظ الجلالة ولفظ أكبر، وكالذي يمد النون ويولد بعدها ألفاً أو ياءً في أشهد أن مُحَمَّداً رسول الله...

ومن الأئمة من يركض في الصلاة ركضاً، وينقر مثل الديك إذا سجد ولا يمد صلبه إذا اعتدل أو جلس بين السجدتين، ولا يحفظ من القرآن إلا قليلاً مشوشاً، ولا يفقه للصلاة حكماً ولا سراً، وما به لياقة إلا أنه تعمم وتشدق بالألفاظ وطقطق بالمسبحة وحمل مسواكاً ذراعاً أو نحوه، وكيف نجد الأكفياء ونطلب الأئمة الصالحين للإمامة ونريد منهم الانقطاع في المساجد وهم لا يأكلون إلا علماً وقرآناً، ولا يشربون إلا ماءً وهواءً ولا يتمتعون إلا بتقبيل أيديهم وهم بشر مثلنا يحتاجون مثل ما نحتاج إليه، وحرام أن يتقاضى الإمام أو المؤذن في مدينة آهلة بالسكان وفي مسجد يكثر فيه المصلون أربعين أو خمسين شلناً أفريقياً فأين النفقة؟ أو أجرة المنزل وقيمة الدواء؟ وما لابد منه للطبيب والمعلم؟ أنتركهم عالة على الناس؟ أو نسمح لهم بالسؤال والتسول؟ وهل آن للمسلمين إ يجاد

((223))

مدارس علمية دينية يتخرج فيها المدرس والخطيب والواعظ والمفتي والقاضي والمأذون الشرعي والإمام والمؤذن وسائر من يحتاج إليه في الوظائف الدينية؟ ومهما نطالب بحقوق الأئمة والمؤذنين وخدام المساجد فإنّا لا نريدهم ضعفاء مستكينين للحوادث معولين على صناديق الأغنياء وجيوبهم ولكن ليتجروا وليحترفوا وليكونوا أعزة على غيرهم في دينهم ودنياهم، وفي هذه الرسالة وأنا أشيد بكثرة المساجد في عدن وكثير من بلاد المسلمين ألوم إخواننا العدنيين وأبكي الدموع والدماء إذا دخلت بعض المساجد وعرفت أحوال أصحابها، فمن إمام أمي رث الهيئة إلى خطيب لا يدري ما يقول ولا يحسب خطبة الجمعة إلا ألفاظاً متعبداً بتلاوتها لا معدل عنه ولا يستبدل بها سواها، وقد أسأل عن دخل المسجد والأوقاف عليه فأعلم أنها كثيرة قادرة على جلب إمام ومؤذن صالحين لولا تساهل النظار وجهلهم وسوء تصرفاتهم في الأوقات التي عهد بها إليهم وهم المسؤولون عنها يوم القيامة (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1].

((224))

مساجدنا والأوقاف عليها

في كل بلدة إسلامية مساجد كثيرة في بعضها وقليلة في بعضها الآخر، وعليها من الأوقاف ما يقوم بإصلاحها والنفقة عليها، وقد تبلغ الأوقاف على المسجد الواحد مبالغ لا يكاد العقل يصدقها؛ وللعلماء في أمهات المدن كتب تاريخية وموسوعات علمية بأخبار

[1] - سورة الحجر الآيات:92- 93.

المساجد ومواقعها ومساحتها وأوقافها، ومن هذه الكتب: مساجد بغداد ودمشق والقاهرة وصنعاء، ولا يبعد أن يكون في الأندلس وشمال أفريقيا مثل ذلك. أما الحرمان الشريفان في مكة والمدينة، والجامع الأزهر بمصر، وجامع الزيتونة في المغرب، والقصاب في بومباي وتاج محل بدلهي، فكلها ذات أخبار والحديث عنها يطول، وأوقافها تبلغ الملايين من الجنيهات والروبيات، وفي كل يوم وملوك المسلمين وأغنياؤهم يبنون المساجد الجديدة ويقفون عليها الأوقاف الهائلة وبلغني أن هيئة الأمر بالمعروف في المملكة السعودية تملك لبناء المساجد وإصلاحها والإنفاق عليها نحو ألف وستمائة مليون ريال، وكلها من جلالة الملك سعود بن عبد العزيز، وذلك غير ما أنفق على الحرم المكي حالياً من خمسمائة إلى ستمائة مليون ريال، ويقال: إن النفقات على الحرم المدني تبلغ أو تقارب ثمانية عشر مليون جنيه استرليني، وإذا كان طلبة الأزهر وأساتذته لا يقلون عن ثلاثين ألفاً

((225))

وفيهم الذي يتقاضى شهرياً ثمانين جنيهاً مصرياً أو أكثر، وفي الطلاب من يأخذ ثلاثة جنيهات فما فوقها، فكم يا تراها تكون أوقاف الأزهر؟ وكم تغل سنوياً؟ ولو نظمت أوقاف الحرمين وجاء بها المسلمون من كل مكان لضاقت بها الخزائن وامتلأت منها جيوب العلماء، وكثر الطلاب واتسعت المعارف، وفي الأقطار الإسلامية الآسيوية والأفريقية الشرقية والغربية، لو تعتني حكوماتها ويفتش العلماء عن الأوقاف وأين ذهبت؟ وكيف تصرف حاصلاتها اليوم؟ لو كان ذلك ما خرب مسجد ولا تهدم ولا فرغ من المصلين والمعلمين والمتعلمين ولا نبعد في الكتابة عن الأوقاف والمساجد خارج اليمن، وذلك أمر موكول إلى أهله والمختصين به، ولكننا نتساءل عن صنعاء وحجة وصعدة وذمار وأب وجبله وزبيد وبيت الفقيه ثم عدن ولحج وتريم وسيون وغيرها من المدن الشهيرة، وفيها الألوف من السكان وفي بعضها مئات المساجد وعليها من الأوقاف ما لا يعلم مقداره إلا الله أو الحكام الظلمة والمتخوضون في مال الله بالباطل، فأين الأئمة الراشدون من أهل البيت وأوقافهم؟ وأين أروى بنت أحمد الصليحية وعامر بن عبد الوهاب الطاهري؟ وأين ملوك بني الرسول الظفر والمنصور والأشراف والمؤيد والمجاهد وأمهاتهم وزوجاتهم وابن حسين بن سلامة الحبشي، وغير هؤلاء من المحسنين؟ ليت شعري

((226))

كيف ضاعت مبراتهم ومحيت آثارهم؟ والتاريخ والكتب الرواة يشهدون بما لهؤلاء من المساجد والمدارس والربط والمكاتب، وما حبسوا عليها من الأموال الطائلة حتى أصبحت

الآذان تعرف عنها غير ما تعرف العيون، والعهد قريب ولا حكومة كافرة مستولية على هذه البلدان، نقول: إنها دمرت مساجدها أو نهبت أموالها، ولكنها ضاعت البصائر والسجلات واستأثر النظار بالمصالح وباعوا النظارة وأسندوها إلى الفساق، ولم يبالوا بشرط الواقف الذي هو كنص الشارع، والمسجد الذي فيه قبر أو لصاحبه قبة يأكل أبناءه وسدنته الأوقاف ويقولون: هذا لنا وليس لله فيه شيء، والله خبير بما يصنعون ويسرني من جهة كثرة المساجد والأوقاف عليها في عدن، ويسوؤني من جهة أخرى أن هذه الأوقاف غير منتظمة ومعظمها دائرة مهدمة ودخلها قليل، والقائمون بها لا يخضعون لقانون ولا حكومة شرعية تسألهم عما في أيديهم، وليعلم من يأتي وليستبق إلى الخيرات أصحابها نذكر بعض المساجد في عدن عام 1377 هجرية وهي المسجد القديم الذي بني على عهد عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي وهو الذي أصلحه حسين بن سلامة، وبعده عامر بن عبد الوهاب، وقد خرب واستولت على مكانه الحكومة الإنجليزية ولم تبق إلا منارته بين يدي الإمام في مصلى العيد أو ميدان الرياضة، ومنها مسجد أبان المنسوب إلى ولي الله إبراهيم بن الحكم بن أبان بن عثمان رضي الله

عنه، وإلى عمه كثير بن أبان، ويرجع تاريخه إلى ما قبل ألف ومائتين؛ ومسجد العسقلاني الذي بني حديثاً وينسب إلى الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي أقام في عدن ستة أشهر من سنة 806 هـ ولست أدري كيف نسب إليه وقد جدده الشيخ علي بن عبد الله اليافعي في العقد التاسع من القرن الثالث عشر، وفي سنة 1369هـ من أساسه وأعيد بناؤه على أحدث طراز وجمع له المحسنون نفقات بنائه اثنين وثمانين ألفاً وأربعمائة روبية وأشرف على هذا العمل الجليل الشيخ سعيد بن أحمد بازرعة وأخذه بالمقاولة الحاج مُحَمَّد عثمان ثابت اليمني وشكر الله سعي المحسنين، وقلت لأحد الأدباء: أرَّخْ المسجد في كلمات وجيزة، فقال: مسجدكم الأغر؛ ثم مسجد العيدروس نسبة إلى العالم الجليل والسيد الشريف أبي بكر بن عبد الله العيدروس باعلوي ومسجد حسين صديق الأهدل، ومسجد الشيخ عبد الله بن أبي بكر بن عمر بن سعيد الخطيب في شارع الزعفران، وهذه أشهر المساجد ومنها: مساجد بانصير وأبي الليل وجوهر والعراقي وعلوي والخوربي والشوذري وعبد الله عمر وابن علوان وحامد المهدلي وخواص وأحمد هندي وخدابخش وهو المعروف تاريخياً بمسجد الشجرة، وأبي قبة والمستشفى وثلاثة في الطويلة والبغدادي، وفي الخساف ثلاثة وعلي بهي وتقام الجمعة في ثلاثة عشر منها، وهناك

عـدة مسـاجد لا تقـل في كمياتهـا عـن عـدة مسـاجد المدينـة، وهـي في المعـلا والنـواهي والشـيخ عثمان والبريقة

((228))

ولها أئمة وخطباء وبعضهم يقيم فيها دروساً دينية بعد صلاة الصبح وبين العشاءين وأعظم ما تكون الدروس في شهر رجب، وهم يقرؤون صحيح البخاري أو بعض كتب الحديث الأخرى، وفي عدن لجنة أوقاف لا تتولى غير ستة مساجد، وفي النواهي لجنة أوقاف المساجد ونتمنى لها التوفيق، وأغنى هذه المساجد في عدن: أبان والعيدروس والشيخ عبد الله، وفي الشيخ عثمان مساجد العيدروس وزكو والسيد هاشم وأشهر الواقفين على المساجد إخواننا الهنود والشيخ علي حاجب أحمد، والشيخ مُحَمَّد حسن المصري، وقلما يقوم مسجد في العصر الحاضر إلا وتكون له دكاكين وبيوت جديدة حسبما يتيسر كالمسجد الجديد في المعلا، والمسجد الذي سيقام في الشيخ عثمان على ثلاثين دكان، وجزى الله المحسنين خيراً (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)[1] وبهذا تتم رسالتنا نحو المسجد وكان الفراغ منها يوم 24 المحرم 1377هـ الموافق 20 أغسطس 1957م وأسأل الله أن يتقبلها قبولاً حسناً وأن يثيبني عليها في الآخرة ثواباً من عنده مع النفع بها والانتفاع لقارئها والمقروءة عليها، إنه قريب مجيب (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً)[2] وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

---

[1] – سورة البقرة الآية: 197.

[2] – سورة الإسراء الآية:111.

مفهوم التطور والتجديد في الشريعة الإسلامية

للشيخ مُحَمَّد علوي المالكي الحسني

مفهوم التطور والتجديد في الشريعة الإسلامية

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد كثر الكلام في هذه الأيام عن الدستور الإسلامي ومحاولة تطبيق الشريعة وتحكيمها. وهذه المحاولة دعت إليها بعض الحكومات الإسلامية، وهي بذلك رائدة في هذا المجال. وهذا الأمر لا يحتاج إلى تردد أو تخوف، خصوصاً وأن الواقع أثبت النجاح المنقطع النظير الذي توصلنا إليه بفضل قيام حكومتنا السعودية السنية بذلك، ولا تزال بفضل الله نتفيّأُ ظلاله من الأمن والاطمئنان. وهذا أمر مشاهد نسأل الله أن يوفق حكامنا إلى ما فيه صلاح الإسلام والمسلمين.

وهذا بحث كتبناه بهذه المناسبة.

والله الهادي إلى سواء السبيل والحمد لله ربِّ العالمين.

مُحَمَّد علوي المالكي الحسني

الحاجة إلى هداية الله، وفشل العقل وحده

في إصلاح المجتمع

خلق الله الإنسان وأهله ليكون خليفة في الأرض، يعمرها بالخير والفضيلة والهدى، ويدعو إلى العدل والمساواة، والعطف والرحمة، والأخذ بيد الضعيف، وإغاثة الملهوف، وتوجيه المجتمع بقدر ما يستطيع إلى وسائل الفلاح والصلاح.

ولكي تتحقق الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشاداً للملأ الأعلى: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ)[1] لابد لقوة الخير في الإنسان من مدد يعينها ويقويها على سدَّ منافذ الشر والطغيان، وعلى استخدام الشهوة والغضب فيما يحفظ له نوعه وكيانه؛ ولا شك أنه لو ترك الإنسان ونفسه فإنه لا يستطيع أن يحفظها من الاندفاع إلى الشر وسبيل الضلال بما رُكِّبَ فيه من شهوة وغضب اندفاعاً يصل في كثير من المواطن إلى حدَّ استباحة انتهاك الأعراض، وسفك الدماء، وسلب الحقوق ملبياً ومستجيباً لبريق الدنيا وزخرفها وشهواتها ومغرياتها، فيغلب شَرُّهُ خَيْرُهُ،

وفساده صلاحه، عاجزاً عن تحقيق التوازن بين دواعي الخير ودواعي الشر؛ وتنعكس عندئذ حكمة خلقه وجعله خليفة في الأرض، وبذلك تصدق فيه نبوءة الملأ الأعلى حينما قال الله سبحانه وتعالى لهم: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)[2].

فظهر بهذا وجوب وجود مدد قوي ثابت يعين الإنسان على تحقيق التوازن بين قوة الخير والشر، ويدفعه بما رُكِّبَ فيه من عقل يعرف به الهدى من الضلال، والرشد من الغي، إلى الخير، يكون فيه خليفة في الأرض يعمرها وينميها، وينشر فيها روح الأمن والطمأنينة والاستقرار.

فما هو هذا المدد العظيم؟ ومن أي أصل ينبع؟ أقرب جواب يعتز به الفلاسفة، وهم الذين يعتبرون في نظر كثير من العلماء المفكرين الطبقة الراقية العالية المفكرة في المجتمع (إنه العقل).

---

[1] – سورة البقرة الآية: 30.

[2] – سورة البقرة الآية: 30.

فهو في نظرهم الذي يحدد موازين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، ويتخذ منه دستور الحياة ليسير على مقتضاه.

والحق أن هذا الجواب فاسدٌ، وأن العقل لا يستطيع أن يقود الإنسان إلى الحكمة المقصودة من خَلْقِهِ.

إن العقل لا يصح أن يكون مقياساً يحدد موازين الخير والشر، وينظم الحياة، لأن الإنسانية جربته حيناً من الدهر ولا تزال تتقلب في جمرة بين حرب حامية تأكل الأخضر واليابس، وتدمر الجهود التي تبذل في بناء الحضارات وإقامة المنشآت، وبين حرب باردة تملأ القلوب خوفاً وهلعاً. وهي في الحربين لا تعرف إنصاف مظلوم من ظالم، ولا تترفع عن استعباد الضعفاء وسلب الحقوق والحريات وتهديد الأمن والاستقرار. وهي في الحربين لا تتنسم روحاً من نسمات الروحية الفاضلة التي تعصم الإنسان من التبذل في نفسه، وتقيه الارتكاس في حمأة الإباحية الضالة والمادية المظلمة.

إن العقل لا يصلح أن يكون مقياساً يحدد موازين الخير والشر لأن العقول تتفاوت في إدراك الخير والشر، وفي حكمها على الأشياء ومعرفة حكمها، فيستحسن بعضها ما لا يستح سنه الآخر، ويستقبح بعضها ما لا يستقبحه الآخر.

إن العقل لا يصلح أن يكون مقياساً يحدد موازين الخير والشر لأن العقول عرضة لأن تطغى عليها في تفكيرها وتقديرها الشهواتُ والأهواء والتأثر بالشخصيات والإقليميات وسائر الأغراض الكامنة في النفس التي لا يستطيع أن ينتزعها ويطهر النفس منها علمٌ ولا فلسفة.

إن العقل لا يصلح أن يكون مقياساً لذلك، لأنه محدود الإدراك، لا يستطيع أن يحيط الغد وحوادث المستقبل على حسب ما دبره العليم الخبير بخلقه، فماذا بقي إذاً؟ لم يبق إلا الهداية السماوية التي تعهد الله بها عبادة، والتي فيها المدد الذي علم الله سبحانه أن عباده لا ينتفعون بمدد سواه، وهو المدد الذي وضعه أساساً للحياة الإنسانية وعلق به عمارة هذه الدنيا؛ وأكمل واشرف وأشمل رسالة للهداية هي آخر الشرائع السماوية، وهي: الشريعة الإسلامية.

مصدر التشريع وسلطته:

الشريعة الإسلامية هي أكمل وأشرف وأشمل رسالة للهداية، وهي الشريعة التي ختم بها شرائع السماء وجعلها خالدة، وكتب لها البقاء إلى أن يرث الله الأرض؛ لذا كانت ثابتة مستمرة، قوية البناء، محكمة النظام، وافية بحاجة الأفراد والجماعات.

ومعلوم أن الشريعة الإسلامية تحتوي على الأصلين العظيمين، والمصدرين الكريمين، الأول: كتاب الله العظيم وصراطه المستقيم، وحجته البالغة، وآياته الدامغة، ومنهله العذب الراوي من ظمأ الجهالة.

والثاني: السُنة النبوية المنيرة، الشاملة لكل خير وسعادة للبشر في دينهم ودنياهم؛ وهيما أضيف إلى رسول الله ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً. وهي قد ﷺ، وأوجب اتباعها والرجوع إليها؛ والعمل بمقتضاها، وأمر بطاعته ﷺ وجعل من تولى عن ذلك من الكافرين، وعلَّق كمال محبة بتمام لسنته ﷺ، وجعل طاعة النبي ﷺ في متابعة سنته طاعةً لله سبحانه وتعالى، كاتباع قرآنه، وبين أن جميع ذلك من الله، وأنه لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى، فالقرآن من الله والسنة من رسول الله ﷺ بأمر الله ورضاه، فحينئذ يصح أن نقول: إن الذي وضع الأحكام وأحلَّ الحلالَ وحرَّمَ الحرامَ هو الله سبحانه وتعالى.

لقد انتزع الإسلام سلطة التحليل والتحريم من أيدي الخلق أيًّا كانت درجتهم في ا لدين والدنيا، وجعلها من حق الرب سبحانه وتعالى وحده، لا أحبار ولا رهبان، ولا ملوك ولا سلاطين يملكون أن يحرموا شيئاً تحريماً مؤبداً على عباد الله، بل الله وحده هو صاحب الحق في أن يُحِلَّ ويحرم في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

قال الله سبحانه وتعالى: (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)[1].

وقال: (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ)[2].

وقال: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)[3].

وقال: (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ)[4].

وقد اعتبرت الشريعة أن من تجرأ على التحليل والتحريم، ولم يحكم بما أنزل الله فقد جاوز حدَّه، واعتدى على حق الربوبية في التشريع للخلق، وانه كافر وظالم وفاسق، فقال: (وَمَنْ لَمْ

---

[1] – سورة يوسف الآية: 40.

[2] – سورة الأنعام الآية: 119.

[3] – سورة النساء الآية: 105.

[4] – سورة الأعراف الآية: 3.

يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[1]، وقال: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[2]. وقال: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[3].

وأكد ذلك سبحانه وتعالى في موضع آخر بنفي الإيمان عمن لم يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند التشاجر في أي أمر، فقال

تعالى: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)[4].

وقد أكد الله تعالى هذا بتكرار أداة النفي والقسم، فقال: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ).

ثم شرط تعالى في هذا التحكيم أن يتقبلوه بسعة صدر، وطيب خاطر، من غير قلق أو اضطراب، فإن حصول الحرج والضيق عند ذلك من النفاق، ولذا قال: (ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ) وقد أمر الله تعالى بالانقياد انقياداً لا تردد ففيه أبداً فقال: (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً).

وأمر المؤمن أن لا يكون له اختيار مع حكم الله تعالى ورسوله ﷺ، وأنه إن اختار من الأحكام غير ما قضى به الله واختاره فقد ضل ضلالاً مبيناً، فقال سبحانه: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً)[5]

وقد وصف القرآن الكريم حال المؤمنين المنقادين لأوامر الله ورسوله ﷺ، المذعنين للأحكام الشرعية، فقال: (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)[6].
الْفَائِزُونَ)[6].

---

[1] – سورة المائدة الآية: 44.

[2] – سورة المائدة الآية: 45.

[3] – سورة المائدة الآية: 47.

[4] – سورة النساء الآية:65.

[5] – سورة الأحزاب الآية:36.

[6] – سورة النور الآيتان 51 – 52.

وقال في وصف ما يقابل المؤمنين، وهم المنافقون: (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1].

أما تحريم الحلال وتحليل الحرام، فذلك أعظم وأشدّ، إذ هو قرين الشرك بالله، قال الله تعالى: (وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ)[2].

الشريعة الإسلامية وواقع الحياة:

وشريعتنا – بحمد الله – تساير كل عصر، وتصلح لكل جيل، وتدور مع واقع الحياة، وفي أصولها التشريعية القوة الكاملة التي

تمدنا بتشريعات حية نامية متطورة تكفل للناس في مختلف بيئاتهم وعصورهم العدالة والاطمئنان والحياة الكريمة الطيبة.

وقد استطاعت الشريعة أن تقدم الدليل على صلاحيتها وقدرتها عندما أتيح له أن تطبق في دنيا الواقع، فكانت فترة تطبيقها فترة فاضلة توفرت فيها العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، وارتفعت فيها العليا منارة تضيء لأجيال الإنسانية المقبلة سَلَّمَ الخير والمجد، لقد نعم الناس بالحياة السعيدة، وتفرغوا لحمل رسالة تحرير العالم كله من أغلال الظلم، وكابوس الجهل، وظلمات الضلالة.

وإن واقع الأمم الأخرى التي تعمل بأنظمة مغايرة لهذا الدين ليشهد لهذه الشريعة بالسمو والكمال، إذ تضطر هذه الأمم أن تتنازل عن بعض ما في تشريعها ونظامها، وأن تستعير من الإسلام أموراً عديدة.

---

[1] – سورة النور الآيات 47 :50.

[2] – سورة النحل الآية:116.

فالشريعة الإسلامية تتسع لكل ما يجدُّ للناس من أقضية، وتقوم بتنظيم شؤونهم والوفاء بحاجاتهم مهما تباعدت ديارهم وتباينت أجناسهم واختلفت عاداتهم وطباعهم، ولا يجحد ذلك إلا من سفه نفسه.

((241))

ولكن لما كانت قضايا الناس ومسائلهم لا تقف عند حد، ولا تدخل تحت حصر، كان من الجهل وقصر النظر طلب النص الصريح من القرآن والسُنة الذي ينطبق على هذه الأمور المتجددة يوماً بعد يوم.

وهنا يتساءل الباحثون عن المسائل التي يمكن لهم فيها النظر والمراجعة والتغيير والتبديل والتي لا يمكن.

ويمكن أن تتضح هذه المسألة ويزول عنها أي إشكال إذا علم أن الأحكام في الشريعة الإسلامية من حلال وحرام ترجع إلى قاعدتين عظيمتين.

القاعدة الأولى:

أدلة قطعية وصلت إلينا عن طريق قطعي، فهي قطعية الثبوت، ويدخل تحت هذه القاعدة: النصوص التي وصلت إلينا بشكل متواتر ولا تحتمل في دلالتها أكثر من معنى واحد، كالأمر بالصلاة والنهي عن الزنا.

فهي مبادئ وأحكام قطعية لا يسع المسلم المؤمن أن يجحدها أو يشك فيهل، ولا احتمال فيها ولا خفاء، ولم يقع فيها خلاف بين الفقهاء.

((242))

وهي أصول هذا الدين، وأمهات الفضائل التي أجمع العالم الرشيد على حمدها واقتنع بجليل نفعها، ولذلك جعلها الله سبحانه وتعالى في عبارات جلية واضحة، ونصوص ببينة لا تقبل حرفاً ولا تأويلاً ولا جدلاً ولا مراءً، وجعلها أم الكتاب التي يدور حولها كل ما جاء فيه من أحكام، ويرجع إليها كل معاني عباراته، ولم يعذر أحداً في الخروج عليها، وحذر من التلاعب بتأويلها وتطويعها للأهواء والشهوات.

القاعدة الثانية:

أدلة ظنية لم يتوفر القطع في طريق وصولها إلينا، كأخبار الآحاد على اختلاف أنواعها؛ أو لم يتوفر القطع في دلالتها، كأن تدل على معنى مع احتمالها للمعنى آخر. وهذه يدخلها

الاجتهاد والنظر، ويدور المجتهد في فلك تفسيرها وبيان مدلولها فقط، ولا يخرج إلى حدَّ مخالفتها والخروج عليها بلا مبرر.

وهذه النقطة الدقيقة لابد من ملاحظتها، فالنص قد يحتمل أكثر من معنى واحد دون أن يكون ثمة ما يقطع بصحة معنى واحد منها دون المعاني الأخرى.

والطريق الذي يترجح به هذا المعنى المستفاد على المعن الآخر المستفاد من نص واحد هو: الاجتهاد والنظر والبحث.

((243))

كما أنه بالبحث والنظر والمراجعة يمكن ترجيح المعنى المرجوح في زمن آ×ر يقتضي ترجيحه لمصلحة.

أصول الكمال والسمو في الشريعة الإسلامية:

والناظر في الفقه الإسلامي وأصوله وقواعده لابد أن يسلم منصفاً برحابة أفق الشريعة وتمام اقتدارها وصلاحيتها على تنظيم حياة الناس، وتكلفها بمعالجة شؤونهم، وأنها لم تجر أحكامها على طريقة واحدة من التفصيل والبيان، بل عالجت بعض المسائل على استقلال، وأدمجت كثيراً من المسائل تحت قواعد كلية، وتركت للمستنبطين من أولي العلم تطبيق هذه القواعد الكلية على المسائل الجزئية، ما جَدَّ وما يَجِدُّ.

وعلى هذا نفهم قول الله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)[1] وبهذا المعنى ينبغي أن نفهم معنى التطور والتجديد في الشريعة الإسلامية، وهي رحمة محضة وعناية ربانية بهذه الأمة.

ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية على نظام يحفظ هذا الانتظام، وفي نسق يضمن التناسق بين الأصول والقواعد الثابتة وبين الحوادث والنوازل العصرية المختلفة. وهذا الانتظام والتناسق هو العامل الرئيسي الذي أراده الحق تبارك وتعالى لحفظ هذه الشريعة

((244))

وبقاء هذا الدين مصوناً عن عبث العابثين، وتخريب المخربين، وتحريف الغالبين، وانتحال المبطلين.

---

[1] – سورة الأنعام الآية: 38.

وإذا علمت هذا فاعلم أيضاً أن هذا الانتظام والتناسق يعتمد في جوهرة وسره على أصول يتصل بعضها ببعض، ويكمل بعضها بعضاً هي تاج التشريع الإسلامي، تاجه المتلألئ في جلال وكمال، وهي المحور الذي يرتكز عليه، وهي سمات وصفات وأسس التطور والتجديد والكمال.

الأول – فتح باب الاجتهاد:

أول تلك الأصول والركائز والسمات: فتح باب الاجتهاد، فالتشريع الإسلامي يقوم على الاجتهاد، وذلك لأن الأحكام التي وردت نصوصها في الكتاب والسنة معدودة ومحدودة، فقد ذكر العلماء ﷺ أن عدد الآيات التي هي أصول الأحكام في القرآن لا تزيد عن خمسمائة آية. و عدد الأحاديث التي هي أصول الأحكام خمسمائة حديث منتشرة في آلاف الأحاديث[1]، فأصول الأحكام في هذه الشريعة من القرآن والسُنة ألف نص هي أساس هذا التشريع الإسلامي الضخم الذي بقي إلى يومنا هذا يؤتي منافعه لأبناء هذه الملة.

((245))

ولقد عَلَّمَ القرآن المسلمين أن يجتهدوا، وأن يستنبطوا، وأن يسترشدوا بعلمائهم ومفكريهم، يقول الله سبحانه في محكم آياته: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)[2].

وهي دعوة صريحة إلى الاستنباط والاجتهاد، ولذلك حدثنا التاريخ عن الصحابة الفقهاء الذين عرفوا بالاجتهاد في الأحكام والأقضية في عهد رسول الله ﷺ.

وحدثنا التاريخ أيضاً عن الرسول ﷺ وكيف كان يدَّرب أصحابه على القضايا والأحكام، ويشجعهم على حرية التفكير، وحرية الاجتهاد، ويملأ قلبوهم ثقة وطمأنينة عند الخوف من الخطأ مع الاجتهاد.

فللمجتهد المصيب أجران، وللمخطئ أجر، والله سبحانه وتعالى يقول: (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)[3].

---

[1] – انظر ((إعلام الموقعين)). ((والإكليل)) للسيوطي ((ومغني المحتاج)) للخطيب الشربيني.

[2] – سورة النساء الآية: 83.

[3] – سورة الأحزاب الآية: 5.

وعلى هذه السماحة المشرقة والاجتهاد الكريم الواسع قامت حياة المسلمين منذ فجرهم الأول، فكان الصحابة رضوان الله عليهم

((246))

يجتهدون، ويشجعهم الرسول ﷺ على هذا الاجتهاد ويباركه، وتشربت نفوسهم الحرة مبادئ الإسلام، فكانوا يختلفون في فهمهم للقضايا وف ي فهمهم للأحداث، ولكنه اختلاف الأحرار، لا يعرفون للجاجةً ولا خصومة، ولا يتنابزون بالألقاب، ولا يتراشقون بالتهم؛ ولا يفكرون في أن يحجروا رأياً أو يقيدوا فكراً.

وأكبر شاهد ناطق موقفة ﷺ منهم يوم بني قريظة إذ قال لهم: ((ولا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)) فأدركهم وقت العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، قال بعضهم: بل نصلي ولم يرد منا ذلك، فذكر للنبي ﷺ فلم يعنف واحدة من الطائفتين، وعلق على ذلك ابن عبد البر بقوله: ((هذه سبيل الاجتهاد على الأصول عند جماعة الفقهاء)) كما سن الرسول ﷺ لولاته في الأمصار أن يجتهدوا، وكانوا يرون أن أكبر نعم الله على عباده هو أن يؤتيهم فهماً في القرآن، وفهماً في حديث رسول الله ﷺ، وفهماً في قضاياهم.

وبهذا الفهم الكامل لروح الإسلام، وبهذا الاجتهاد المتصل في يسر وسماحة وطلاقة ساير التشريع الإسلامي تطورات المسلمين من الجزيرة العربية إلى سهولة الأرض وقمم جبالها أينما كانت الحياة؛ فما أحس المسلمون بقصور التشريع، وما احتاجوا لحظة من

((247))

زمن – والدنيا في أيديهم – إلى قوانين من غير شريعتهم، ولا إلى مشرّعين من غير فقهائهم، بل كانوا مشرّعين لأنفسهم والإنسانية كافة، حتى ليقول (ويلز) في كتابه ((ملامح تاريخ الإنسانية)): إن أوروبا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية.

ومشت الحياة بالمسلمين رخاء طيبة، وحياتهم قوية عزيزة متطورة مع الخطو الإنساني السريع بفضل الإمدادات المتعاقبة من الدراسات الاجتهادية الحرة التي كانت سمة الإسلامي وطابعه المميز حتى انحرف الناس عن المنهج الرباني فانحرفت بهم المركب، وغرقت يوماً ونجت يوماً نجاة الغريق العريان.

الثاني – اعتبار المصلحة في التشريع:

ومن ركائز الكمال في الشريعة هو: اعتبار المصلحة في التشريع الإسلامي؛ وقد أشار العلامة عز الدين بن عبد السلام رحمه الله إلى هذا المعنى، فقال في كتابه ((قواعد الأحكام)): ((والتكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم، والله غني عن عبادة الكل، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تنصره معصية العاصين، وإن مصالح الآخرة لا تتم إلا بمصالح الدنيا)).

ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله: والمعتمد أن الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد، علم ذلك بالاستقراء، فإن الله تعالى يقول في بعثة الرسل، وهي الأصل، (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[1].

والتعاليلُ لتفصايل الأحكام من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، كقوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[2] وفي الصلاة (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)[3] وفي القبلة (فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ)[4] وفي القصاص (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)[5] وفي الجهاد (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا)[6] فكل شيء في التشريع الإسلامي معلل بخير الناس ومصالح حياتهم. وتلك حجة الله الكبرى في تشريعه على عباده، وتلك رحمته بين خلقه، فمن أدرك هذه الرحمة فقد فقه الإسلام وفقه تشريعه.

ولقد ربَّى رسول الله ﷺ أصحابه على هذا النهج، فكان يعلل لهم الأحكام على طريقة واضحة مشهورة بينة، كقوله: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة)) وهو حديث صحيح. وكقوله: ((كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي لأجل الدَّافة فادخروها)).

---

[1] – سورة النساء الآية: 165.

[2] – سورة البقرة الآية: 183.

[3] – سورة العنكبوت الآية: 45.

[4] – سورة البقرة الآية: 150.

[5] – سورة البقرة الآية:179.

[6] – سورة الحج الآية: 39.

والدافـة: قـوم مـن الأعـراب يسـيرون جماعـات، فلمـا هبطـوا المدينـة أيام عيـد الأضـحى أمـر الرسـول ﷺ صـحابته أن لا يـدخروا لحـوم أضـاحيهم ليـدفعهم إلى التصـدق بهـا علـى هـؤلاء القـوم الـذين وفـدوا علـى مـدينتهم؛ وسـأله بعـض أصـحابه عـن بيـع الرطـب بالتمـر فقـال: ((أيـنقص الرطب إ ذا ييس؟ فقالوا نعم، فقال: فلا إذن)).

وهـو ﷺ كـان يعلـم أن الرطـب إذا يـبس نقـص وزنـه، ولكنـه تغاضـى عـن علمـه لـيعلم أصـحابه فقـه التشـريع، ولـيعلمهم أن العلـة في تحـريم البيـع هـو رجحـان كفـة علـى كفـة؛ وفي هـذا ظلـم لا ترضـاه عدالـة الإسـلام، ويقـول ﷺ في الصـيد: ((فـإن وقـع في المـاء فـلا تأكـل منـه لعـل المـاء أعـان على قتله)).

جعل علة التحريم خشية أن يكون الصيد قد مات مختنقاً.

وبهـذا جـاء التشـريع الإسـلامي تشـريعاً أصـيلاً يحـترم العقـول احترامـه للمنطـق، ويـدير أحكامـه علـى العلـة القائمـة، فاكتسـب المرونـة الـتي تجعلـه تشـريعاً خالـداً ناميـاً رابيـاً لا يقـف ولا يجمـد عندما تنبثق في وجهه الأقضية والمسائل الطارئة.

يقـول ابـن القـيم في ((إعـلام المـوقعين)): ((إن شـريعة الله مبناهـا في الحكـم مصـالح العبـاد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة

كلهـا، ومصـالح كلهـا، وحكـم كلهـا، فكـل مسـألة خرجـت عـن العـدل إلى الجـور، وعـن الرحمـة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة)).

فشـريعة الله الخالـدة كـائن حـيٌّ تتسـع أحكامهـا للمصـالح العامـة بشـرط أن لا يكـون في ذلـك إهدار حكم إلهي، أو اعتداء على قاعدة إسلامية، أو تبديل لشريعة الإسلام.

الثالث – العناية بالقواعد الكلية الجامعة:

من أصول الكمال في الشريعة الإسلامية: العناية بالقواعد الكلية الجامعة.

أقامـت الشـريعة دعـائم كليـة وقواعـد جامعـة ينبـني علـى كـل دعامـة منهـا أصـول وأحكـام يسـتخرجها العـارف بطبيعـة النـوازل، العـالم بمقصـد الشـارع في أمثالهـا، ومـن هـذه القواعـد الجامعـة مـثلاً: قاعـدة العبـادات؛ وهـي أن الله سـبحانه وتعـالى لا يُعبـد إلا بمـا شـرع، ولـذلك كانـت العبـادات كلهـا توقيفيـة لا تعلـم إلا مـن جهـة الله تعـالى، لأنـه هـو الـذي يعلـم مـا يرضـيه ومـا لا

يرضيه، وقد بين في كتابه على لسان رسوله ﷺ كل ما يتعلق بذلك، فعبادة الله تكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وباتباع السلف الصالح.

((251))

قاعدة المعاملات:

وهي أن المعاملات طلق حتى يعلم المنع، وعليه فما سكت عنه الشارع، ولم يرد عنه أمر به أو نهي عنه أو تخيير، فهو محل نظر، وخلاصة ما قيل في هذا الباب هو أن ما سكت عنه الشارع من المعاملات ولم يشتمل على ضرر يكون الأصل فيه الصحة، ودليل هذه الوجهة هو أن العقود والمعاملات تنبني على عادات الناس وعرفهم، ولذلك فهي تجري على ذلك ما لم يأت عنه نهي، ولهذا قال الله تعالى: (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ)[1] وهو يقضي أن كل شيء حلال إلا ما فصل تحريمه في القرآن والسنة، فكل شرط أو عقد أو معاملة سكت عنها فإنه لا يجوز القول بتحريمها حتى يرد دليل على منعها، أو يظهر اشتمالها على ضرر لأن سكوته عنها إنما هو رحمة لا نسيان كما روى الترمذي عن سلمان الفارسي ﷺ أن رسول ﷺ قال: ((الحلال ما أحل الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا لكم) ومثله ما أخرجه الداراقطني عن أبي ثعلبة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله فرض فرائض فلا تضيَّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها)).

ومن هذه الأحاديث يُعلم أن الأصل في الأشياء الإباحة

((252))

حتى يرد دليل خاص يدل على خلافها. وهذا معنى قول علماء التشريع: (المعاملات طلق حتى يعلم المنع)[2].

وهناك دعائم أخرى مشهورة اعتنى العلماء بجمعها وترتيبها وتصنيفها وشرحها ونظمها خدمة كبرى –

منها: المشقة تجلب التيسير.

---

[1] – سورة الأنعام الآية: 119.

[2] – انظر ((المحلي)) لابن حزم: 42/1، ((وإعلام الموقعين)) لابن القيم، ورسالة الشيخ عبد السميع إمام، وكتب الأصول.

ومنها: الضرر يزال.

ومنها: الأمور بمقاصدها.

ومنها: اليقين لا يزال بالشك.

ومنها: العادة محكمة.

وطرق وضع هذه القواعد هي باستخراج القواعد العامة الفقهية لكلّ باب من أبواب الفقه، ومناقشتها وتطبيق الفروع عليها؛ وأول من فتح هذا الباب: سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رحمة الله حيث أرجع الفقه كله إلى قاعدة واحدة، وهي: اعتبار المصالح ودرء المفاسد، وألف ذلك كتابين، يدعى أحدهما: بالقواعد الصغرى؛ والآخر: بالقواعد الكبرى كما قاله السيوطي في ((الأشباه والنظائر النحوية)).

((253))

فجاء العلامة بدر الدين مُحَمَّد الزركشي رحمه الله فتبعه في القواعد، وألف كتاباً ضمنهُ القواعد الفقهية، وقبله كان الشيخ صدر الدين مُحَمَّد بن عمر المعروف بابن الوكيل المتوفي سنة716هـ. رحمه الله ألف كتاباً في ((الأشباه والنظائر)) وتبع فيه ابن عبد السلام، ثم جاء التاج السبكي فحرر كتاب ابن الوكيل في ذلك بإشارة من والده التقي السبكي، وجمع أقسام الفقه وأنواعه و لم يجتمع ذلك في كتاب سواه، ثم جاء العلامة سراج الدين عمر بن علي الملقن الشافعي المتوفي سنة 804هـ. فألف كتاباً في ((الأشباه والنظائر)) والتقطه فيه من كتاب التاج السبكي رحمه الله، ثم جاء الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي فنقح جملة من القواعد في كتابه ((شوارد الفوائد في الضوابط والقواعد)) ثم عمد إلى كتاب أوسع يضم جملة من العلوم الفقهية يقال لمجموعها: ((الأشباه والنظائر)).

الرابع – الدعوة إلى فتح باب العلم:

من أصول الكمال في الشريعة: فتح باب العلم، بالتأكيد على فضله، والتحريض على اكتسابه، وبيان شرف أهله. ويمكن القول بأن من مفاخر الإسلام أنه أكبر مناصر للعلم، وأعظم محرض على اكتسابه، وكانت أول فقرة نزلت من القرآن تتصل بالقراءة والعلم.

((254))

ومهما بلغت درجة الإنسان في العلم والمعرفة فلا ينبغي له أن يحسب أنه وصل القمة أو بلغ النهاية، بل عليه أن يعتقد أن فوق كل ذي علم عليم، وليس في ذلك دفع إلى القعود

بالهمة عن الاكتشاف والاكتساب، بل معناه حثُّ الهمة والتحريض على المزيد (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)[1].

والمتعلم في الإسلام مفروض عليه أن يشيع بعلمه على غيره، فلا يبخل به، ولا يكتمه، لأن كاتم العلم مهدد بالعقاب فيلجم بلجام من نار، والمتعلم في الإسلام مفروض عليه ألا يقنع بما حصل له من علم، وألا يغتر بما وصل إليه، وألا يستنكف عن معرفة ما لا يعلم، من السؤال عما يجهل (فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)[2].

وقضية العلم في الإسلام أشهر من أن تذكر أو تحصر، وآيات الكتاب وأحاديث سيد المرسلين ﷺ فيها دلائل واضحات تشير بوضوح إلى جملة كبيرة من المسائل التي رفعت شأن العلم والعلماء والمتعلمين بالقواعد الكلية.

الخامس – عدم وجوب الالتزام بمذهب معين:

من أصول الكمال في الشريعة الإسلامية: المرونة وعدم الجمود في التزام رأي معين، أو مذهب خاص فيما شأنه الاجتهاد والنظر،

لأن النص الشرعي قد يحتمل أكثر من معنى واحد دون أن يكون ثمة ما يقطع بصحة معنى واحد منها دون المعاني الأخرى.

والطريق الذي يترجح به هذا المعنى المستفاد على المعنى الآخر المستفاد من نص واحد هو: الاجتهاد والنظر والبحث.

كما أنه بالبحث والنظر والمراجعة يمكن ترجيح المعنى المرجوح في زمن آخر يقتضي ترجيحه لمصلحة.

ولم يوجب علينا الشرع التزام معنى ظهر رجحانه عند إمام أو عالم مهما تغيرت الأحوال واختلفت الأزمنة.

بل عذر الخلق إذا ما اختلفوا فيها، ورفع عنهم الحرج، ومنح المخطئ منهم في اجتهاده أجراً والمصيب أجرين تشجيعاً للبحث والتأميل لاستجلاء ما فيه المصلحة الراجعة للجميع.

---

[1] – سورة طه الآية: 114.

[2] – سورة النحل الآية: 43.

ولذلك وقع الخلاف في هذه المسائل والأحكام، وهو رحمة الله على هذه الأمة، وأن من فضل الله على الناس في هذا الاختلاف تكثير الطرق الموصلة للنجاة، كما أن قلة الأصول في الحكم نعمة أخرى قصدها صاحب الشريعة حتى كان ينهي أصحابه أن يكثروا من سؤاله الأشياء على أصلها وهو الحل والإباحة ((ابن عابدين: 1-109)).

((256))

ولم يكن أئمة الدين والفقه يلزمون الأخذ بمذاهبهم والتزام العمل بها، بل كانوا يرون غضاضة من هذا الخلاف، وكان الواحد منهم إذا رأى المصلحة لا يأنف أن يرجع إليها.

فأبو حنيفة مثلاً كان يفضل الصدقة على حج التطوع، فلما حج ورأى مشقته عاد عن قوله هذا إلى تفضيل الأخير، ولمحمد رأي في النجاسات عدل عنه لما ذهب إلى مرو — ورأى بلوى الناس بها.

ومالك أيضاً كان يقول بأشياء ثم رجع عنها.

والإمام الشافعي، إمام المذهب الشهير، لما انتقل من العراق إلى مصر فأنشأ مذهباً جديداً وترك مذهبه الأول، إلا بضعاً وعشرين مسألة منه.

ولهذا كان السلف الصالح من العلماء يعذر بعضهم بعضاً، إي: إذا ما اختلفوا فيها؛ ولا يعيب أحد رأياً رآه غيره، ولا يخفى موقف الإمام مالك الذي للم يرض للخليفة هارون الرشيد أن يجبر جميع المسلمين على العمل بكتابه ((الموطأ)) مع شدة تحري الإمام مالك في روايته له وموافقة علماء الدين عليه، وعلل مالك رفضه هذا بقوله: إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد، وقد يكون عند بعضهم من الأحاديث ما لم يبلغني، ولو بلغني لغيرت شيئاً مما دونته.

((257))

ولهذا كان الإمام المجتهد ينهى من يستفتونه أن يتخذوا فتواه ديناً يقلدونه، أو أن يجعلوه سبباً للتفرقة، وبناءً على ذلك كان بعضهم يعمل باجتهاد غيره ترخصاً أو موافقة لجماعة المسلمين.

ومن هذا ما روي عن الإمام أحمد رحمه الله: كان يرى أن الحجامة أو الفصد تنقض الوضوء؛ فسئل عمن رأى الإمام احتجم وقام إلى الصلاة ولم يتوضأ هل يصلي الإمام أحمد خلفه؟

فقال: كيف لا أصلي خلف مالك وسعيد بن المسيَّب.

وكان أبو حنيفة وأصحابه يرون الوضوء من خروج الدم، ولكن أبا يوسف ((صاحب أبي حنيفة)) رأى هارون الرشيد احتجم، وكان مالك أفتى هارون بأنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم فصلى أبو يوسف خلفه ولم يعد الصلاة.

وروي أن الشافعي ﷺ ترك القنوت في الصبح لما صلى مع جماعة الحنيفية في مسجد إمامهم بضواحي بغداد، فقال كثير من الناس: فعل ذلك أدباً مع الإمام.

وأيضاً كان كبار علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم من مجتهدي السلف يتحاشون أن يسموا آراءهم الاجتهادية: حكم الله أو شرع الله، بل كان أعظمهم قدراً وأوسعهم علماً يقول: هذا مبلغ

علمي واجتهادي، فإذا كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان.

وكان مما يوصي به النبي ﷺ أمير الجيش قوله: ((وإذا حاصرت قوماً فأرادوا أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرس أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟)) ((رواه أحمد ومسلم)) قال ابن القيم في ((إعلام الموقعين)): ((لا يجوز للمفتي أن يقول: هذا حكم الله، أو أحل الله كذا، أو حرم الله كذا تبعاً لشيء وجده في الكتاب الذي تلقاه عمن قلده، بل يقول: هذا قول فلان)).

وعلى هذا المنهج الفريد الحميد، وبتلك الروح الخالصة المخلصة الصادقة سار أئمة السلف الصالح ﷺ، فكانوا بهذا أقرب في الوصول إلى الصواب، وأسرع بلوغاً إليه إذ لمحوه، وأقوى تمسكاً به إذا أدركوه، وكان شعارهم جميعاً في ذلك هو أن الرجوع إلى الحق من أمهات الفضائل، وكان من أثر ذلك في علاقة بعضهم ببعض نمو روح التسامح فيما بينهم، وقوة المحبة والأخوة في الله وفي سبيل الحق والتعاون على كل ما يوصل إلى رضا الله وإلى سعادة الأمة.

فبارك الله لهم في أعمارهم وأعمالهم وحفظها من أن تضيع في

جدل عقيم سقيم ليس له من باعث سوى العناد للرأي والانتصار للمذهب مهما بعد عن الحق أو ظهر خطؤه.

وحفظهم سبحانه كذلك من التخاصم والتحاسد، ومن كب ما يفسد القلوب ويحبط الأعمال، فنفعهم بأعمالهم ونفع الأمة بها، وها هي آثارهم لا زالت مناراً يهتدي به من أراد سلوك طريقهم، وأنموذجاً لمن وهبه الله ما وهبهم من فقه في الدين، وحرص على تحري الحق، وأراد أن ينفع كما نفعوا، ويثمر كما أثمروا.

و لعل من أسباب نجاحهم أنهم يغترفون من نهر واسع الجنبات عميق الغور، ذلك هو كتاب الله تعالوسنة رسوله ﷺ يرتوي منه كل منهم على قدر استعداده، ولا يقابل من غيره بعتاب ولا ملام.

وكان بعضهم يفهم في الآية أو الحديث فهماً، ويفهم غيره ف يهما فهماً آخر، فيناقش كلٌّ صاحبه بالتي هي أحسن، فإن كانت النتيجة اتفاقاً حمداً لله تعالى، وإن كانت الأُخرى عذر كل صاحبه، وانصرفا صديقين متحابين م ع ملاحظة أن اختلافهم هذا كان من اعترافهم جميعاً بحجية هذه الأدلة جملة ووجوب الرجوع إليها، وأن التعبد بها حجيتها إنما ثبت بدليل قطعي متواتر، وأن إنكار جملة هذه الأدلة – وإن كانت تفيد الظن

كفر صريح إذ هو في الحقيقة إنكار للدليل القطعي الذي أمر بوجوب اعتبارها.

وأحب هنا أن أنبه على مسألة مهمة يقع فيها كثير ممن يظن به الخير، وهي عدم التفريق في إنكار الآحاد بين إنكار خبر واحد في مسألة بخصوصها وبين إنكار جملة الآحاد قائلين في كلا الأمرين عند المحاجة والمباحثة: إن منكر الآحاد لا يكفرقائلين في كلا الأمرين عند المحاجة والمباحثة: إن الآحاد لا يكفر بل يفسق. وهذا خطأ أو جهل، إذ يدخل في ذلك إنكار السنُة النبوية كلها إلا شيئاً يسيراً – والواجب أن نفرق بين إنكار الآحاد جملة واحدة لأنها آحاد، وبين إنكار خبر واحد بلا مبرر أو عذر، ونقول: إن منكر الآحاد ((أي: جنس الآحاد)) جملة واحدة كافر، لأنه في الحقيقة منكر للسنة النبوية، إذ هي أغلبها آحاد، وإن منكر خبر أو نحوه في مسألة بخصوصها فاسق إذا كان بلا مبرر أو عذر يقتضي ترك الأخذ به، فينبغي ملاحظة هذه النقطة.

تنبيه:

هذا الذي ذكرناه في المسألة الخامسة من عدم وجوب الالتزام بمذهب معين ليس معناه أننا ندعو إلى نقض التقليد وهدم المذاهب، حاشا وكلا، بل إننا نرى أن الدعوة إلى ذلك من البدع التي تهدد الشريعة الإسلامية وتهدم الفكر الديني. وإنما نقصد بكلامنا هذا

أهل العلم؛ وأما العامي فنرى أنه لا مناص له من التقليد، ولا مانع من اتباع مذهب معين من أحد المذاهب المتبوعة بلا تعصب ولا تعنت، كما أن المطلوب من أهل العلم أن يعتنوا بمعرفة الأدلة والأصول التي استنبط منها أئمتنا الأحكام والفروع، وعليهم أن يبينوا ذلك لمن يجدون فيه الاستعداد والأهلية من المستفتين ليربطوها بالفقه الاجتهادي عملياً والتزاماً، وبالكتاب والسُنة استدلالاً.

فما المانع من التقليد في مسألة لم يظهر لنا دليلها جلياً مع التماس العذر للإمام المجتهد فيما قال ممل لم يظهر لنا دليله؟

إننا نرى أنه لا يجب على المقلد أن يعرف الدليل، ولا يجب علينا أن نلزم الناس بتلقي الفقه مع الأدلة والبراهين، لكن من وجدنا فيه الاستعداد لتلقي ذلك شجعناه على السير فيه، وأخذنا بيده وأوقفنا على الأدلة وربطناه بالأصول.

وهذا في الواقع يزيده محبة في إمامه، وارتباطاً به، وثقة بما عنده، واستمساكاً برأيه واطمئناناً إلى اجتهاده.

معني التطور في الشريعة:

وهذه المرونة والتطور والمسايرة في الشريعة قد يفهمها قوم على

غير المراد، ويذهب بهم الوهم إلى تصور أن الإسلام لا يرد شيئاً مما يجدو يحدث كائناً ما كان، مهما لاح لهم بزعمهم صلاحه، وتراءى لهمهم فلاحه في غير عرض على قواعد التشريع وركائز الأحكام ودلائله، ثم في عدم تدقيق أيضاً لهذا الذي يحدث، هل النفع فيه حقيقي وهل صلاحه متأكد؟

والذي يجب في هذا هو تصحيح التصور، وتصفية النظر، والغوص على الحجج والدلائل إلى الأعماق حتى لا نقع في شر من حيث نريد الخير، وكم من مريد للحق لن يصيبه؛ نعم إن صدر الإسلام رحب، ومجاله فسيح، ولكنه ليس يلزم من هذا أن يتقبل كل جديد دون تحقيق بالقبول، حقيق أن الإسلام يقبل أشياءً ويرفض أشياءً، ففيه الحل والحرمة والوجوب والكراهة. فعلى المطالعين أن يعلقوا على الكاتبين الإسلاميين – وفقهم الله – مرمى كلماتهم، ومعزى عباراتهم من غير تسرع إلى التزام ما ليس مراداً مما قد يسبق إلى الأوهام وتسوء به الأفهام.

تحديد معنى الاجتهاد:

وتحديد معنى الاجتهاد في الإسلام ليس تضييقاً بل هو ضبط لقواعده وحماية له لابد منها، وتنظيم لطرقه وترتيب لأصوله وتمييز لأفراده وإخراج للمتطفلين الأدعياء من الذين يحسبهم الظمآن

((263))

ماءً حتى إذا جاءهم لم يجدهم شيئاً، ولذلك يقرر أئمة الأصول أن الاجتهاد لما كان مرتبة عظمى شرعية، ودرجة كبرى علية فإنه يحتاج إلى سعة في العلم وغزارة في المادة ومعرفة تامة بأنواع الأدلة الشرعية. ومن هنا كان على مُدَّعي الاجتهاد المطلق في هذه العصور الأخيرة أن يراجع نفسه ويتبصر في دعواه، فقد يرى بعد التثبيت أنه جاهل بمقدار الرتبة التي يدعيها، أو جاهل بمقدار نفسه؛ وهو في كل ذلك ليس معذوراً، وقد جاء رجل يملأ شدقيه فخراً بدعوى الاجتهاد، ويريد الاستنباط من الكتاب والسُنة العربيين، وهو لا يعرف قراءة العبارةسالمة من اللحن، بل ولا يعرف علم النحو أصلاً الذي هو مفتاح العربية، فبالله كيف يصح من أمثال هؤلاء دعوى الاستنباط، كاستنباط السلف الصالحين، أو أن يكونوا في عداد لمجتهدين؟!

ولسنا نـدَّعي غلق باب الاجتهاد، بل هو مفتوح على مصراعيه إلى يوم القيامة، ولكن لمن كان أهلاً لذلك وتحقق بأهلية الاستنباط وعرف ما يجب أن يعرفه من ناسخ ومجمع عليه، فإن فضل الله واسع، والمواهب منح، والله ذو الفضل العظيم، نعم: قد يهب الله تعالى لبعض عباده فتحاً في القرآن وفهماً في السنة النبوية يؤهله لمراجعة بعض المسائل، أو البحث في بعض القضايا،

((264))

أو استظهار فهم جديد، أو الوصول إلى معرفة بع ض الحقائق، أو معرفة حكم بعض النوازل والوقائع وتأصيلها إلا أن ذلك لا يسمو به في مجموعة إلى درجة الاجتهاد المطلق، بل يكون باحثاً أو صاحب نظر ورأي، فدعوى ممن ليس أهلاً له كلمة حق أريد بها باطل، وموضوع فتنة عن حلية الحق عاطل، وتدليس للحق وتنفير عن متابعة السُنة والجماعة ومخالفة الجمهور.

وكم بلينا معشر المسلمين بجهلاء يحبون تفريق كلمة الدين، ويلزمون الأئمة المتقدمين، ويوقدون نار الفتنة، ويشوهون سمعة العلماء، ويحبون المخالفة في كل شيءٍ وراءه المصالح، وإطاعة للشيطان، وحباً للمادة، وطلباً للرياسة، وتفريقاً للكلمة، وتشويشاً على العوم فيدخلون

عليهم من باب الحث على النظر والبحث وطلب الأدلة إلى قضية أن ((الاجتهاد واجب والتقليد حرام)) هذه القضية على ما هي عليه فيبقى العامي متخبطاً في متاهات من العلم الموهوم والبحث المزعوم، فلا بقي على ما هو عليه ولا هم علموه ليصنعوا منه مجتهداً، ومن ذا الذي يقول بأن الاجتهاد واجب على جميع الناس، وفيهم العوم والجهلاء وأرباب الصنائع فإن كان يعترف بوجود العوام المحتاجين إلى التقليد فلا شك أن تقليد العوام لأهل القرون الثلاثة السابقين من الأئمة الأكابر أولى وأحق

((265))

من تقليد غيرهم، فقد شهد النبي ﷺ لهم بالخيرية فقال: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)).

وهي شهادة صادقة فيهم ﷺ مع كونهم انضبطت مذاهبهم، وصفت مشاربهم، وتحررت أقوالهم وفتاويهم عن أتباعهم نقلاً صحيحاً أو متواتراً خلفاً عن سلف، فكيف يترك اتباع هؤلاء العلماء إلى تقليد من لا يعرف مواقع الإجماع ولا أسرار التشريع ولا كيفية الاستنباط؟!

وليس القصد من هذا النيل من شخصية ذاتية أو تحقير أحد بعينه، فإن ذلك أمر لا يُعني به العاقل، ولا يتألم منه الجاهل – ما لجرح بميت إيلام – إنما القصد من ذلك إرشاد المسلمين وتنبيه المتعلمين لتقدير السلف الصالحين، والحث على جمع الشمل وتوحيد الكلمة، فإن ذلك أكمل وأهم وأحق ما بذلت لهم الهمم، ونحن أحوج إلى الوئام من تفرق يذهب القوة والاستعداد فتتداعى علينا الأمم تداعي الأكلة على القصاع ونحن في غمرة ساهون.

تهمة باطلة وظن فاسد:

وقد ظن بعض القاصرين ممن لم يتثقفوا بالثقافة الإسلامية الصحيحة: قصور الشريعة الإسلامية عن الوفاء بحاجة البشر في كل زمان ومكان، وصوروا هذا التحديد لسلطة التشريع في الإسلام

((266))

تقييداً، فوصفوا الشريعة بالجمود الخمود، وادَّعوا زوراً وبهتاناً أنها لا تصلح لهذا الزمان، ولا يمكن أن تساير روح العصر، وأن المسلمين مضطرون أن يلجؤوا إلى القوانين الوضعية لتنظيم مجتمعهم وسياستهم بجانب علمهم بأحكام الفقه الشرعي الذي وصل إليه فقهاء العصور الأولى من الإسلام. وذلك أنه كلما اتسع العمران وارتقت العلوم والصناعات، وتشعبت مذاهب الحياة تجددت حوادث ونبتت مشاكل، وعرضت شؤون لم يكن للناس عهد بها من

قبل، ولذا زعموا أنه لا يمكن الاكتفاء بالشريعة دون غيرها، ولا يمكن الاقتصار على ما شرعته، فراحوا يتخبطون في الاستمداد من القوانين الوضعية ويعتبرونها أصلاً ومصدراً يساوي الشريعة. وأخذوا يحللون الحرام ويحرمون الحلال بما يناسب في نظرهم وتفكيرهم الحال زماناً ومكاناً دون تفريق بين أصل وفرع وظن وقطع.

إن صدور مثل هذه الفرية من أعداءٍ الإسلام أمر ليس بغريب ولا مستنكر لأن أعداء الإسلام لم تكفهم الحروب السافرة والمؤامرات المدمرة التي تسفك فيها الدماء وتنتهك الأعراض، وتسلب الأموال، وتضاع الحقوق، بل شنوا حروباً أخرى هي حرب الأكاذيب والمفتريات والتمويه والتضليل، وتشويه الحقائق، وقلب الأوضاع، وخلق النقائص.

((267))

لكن العجيب أن يصدر مثل هذا من أبناء بلدتنا، ممن يتكلمون بألسنتنا وينسبون إلى الإسلام ويحسبون عليه في تنكر ظاهر لشريعتهم بعد أن اعترف بها وسلم بسعة أفقها أعداء الإسلام، فهذا مؤتمر القانون المقارن المعقود في لاهاي سنة 1937م. الذي اجتمع فيه مفكرون وباحثون غربيون من مختلف بلاد العالم يقرر:

1 - اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العالمي.

2 - اعتبار الشريعة الإسلامية شريعة حية.

3 - اعتبارها قائمة بذاتها ليست مأخوذة من غيرها.

ولا شك أن هؤلاء الذين ينتسبون إلى الإسلام من أعظم دسائس الاستعمار، وأخطر مؤامراته ومخططاته التي أراد بها تهديم المجتمع الإسلامي والإتيان عليه من القواعد، إذ ألقي في أذهانهم - لما رضعوا في دياره ونشؤوا في أحضانه — أن من أكبر أسباب انحطاط المسلمين اليوم وتخلفهم عن ركب الحضارة إنما هو تمسكهم بدينهم، وأن دين الإسلام هذا لا يتفق مع العلم، وأن التمسك به لا يؤدي إلى التقدم والتطور بل يقف حجر عثرة في سبيل ذلك كله ((هكذا قال أعداء الإسلام)) فتأثر بهذه الفكرة الجهلة من أبناء المسلمين، وأجروا أقلامهم للاستعمار وأذنابه، وقد فات هؤلاء الدساسين الفرقُ الشاسع بين ديننا ودينهم، وأن دينهم ورجاله وقفوا قبل

((268))

فترة من الزمان في وجه لنهضة الحضارية الأوروبية، وعرقلوا تقدمها، وقادوا حركة التخلف فوقفوا من دينهم موقف العدو الحاقد، لكن ديننا ورجاله وقادته أقاموا صرح الحضارة الإسلامية الخالدة في التاريخ، وهم الذين حركوا العالم من نومه وجهله، فقادوا حركة النهضة؛ فينبغي أن نقف من ديننا موقف الصديق القائد لا موقف العدو الحاقد.

وهؤلاء كبار رجال القانون والفكر في أوروبا يعلنون في الندوة العلمية المنعقدة في الرياض في شهر صفر سنة 1392هـ. يعلنون إعجابهم بأحكام الشريعة الإسلامية وما سمعوه م الحقائق عنها وحقوق الإنسان فيها، وقال رئيسهم ((المستر ماك برايد)) الأستاذ في جامعة دبلن، ووزير خارجية إيرلندا السابق: من هنا ومن هذا البلد الإسلامي يجب أن نعلن حقوق الإنسان لا من غيره من البلدان. وقال زميله: إن أحكام القرآن في حقوق الإنسان هي لا شك تفوق على ميثاق حقوق الإنسان.

هذا وبالله التوفيق والهداية إلى أقوم طريق وصلى الله وسلم على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه، والحمد لله ربَّ العالمين.

– 5 –

ترغيب الأغنياء في فضل السخاء وذم البخل

للشيخ رشيد التادفي الحلبي

((271))

ترغيب الأغنياء في فضل السخاء وذم البخل

الحمد لله الذي وصف ذاته العلية بالكريم، فقال تعالى: (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)[1] ومدح أصحاب الكرم، فقال تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)[2]؛ والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرة نبيهم ﷺ والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيقول العبد الفقير إلى مولاه، رشيد النادفي الحلبي: نظرت في هذا الزمان فرأيت أكثر الأغنياء بل عامتهم غلب عليهم الشح حتى إن بعضهم منع الزكاة ولم يخش قوله تعالى: (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لانْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)[3].

وقوله ﷺ: (إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما

((272))

يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يُحاسِبُهُم حساباً شديداً ويُعذبهم عذاباً أليماً)[4].

فألهمني الله تعالى أن أجمع أربعين حديثاً من كلام سيد المرسلين ﷺ في فضل السخاء وذم البخل راجياً منه تعالى أن ينتفع بها الأغنياء وغيرهم، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

1 -قال رسول الله ﷺ: ((السخي قريبٌ من الله قريبٌ من الناس قريبٌ من الجنةِ بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيدٌ من الناس بعيدٌ من الجنة قريبٌ من النار، ولجاهل سخيٌّ أحبُّ إلى الله من عابد بخيل))[5].

---

[1] – سورة الانفطار الآية: 6.

[2] – سورة الحشر الآية: 9.

[3] – سورة التوبة الآية:35.

[4] – رواه الطبراني عن علي وحسنه المنذري.

[5] – رواه الترمذي عن أبي هريرة، والبيهقي عن جابر، والطبراني عن عائشة وحسنه المنذذري.

2 -وقال ﷺ: ((السخاء شجرةٌ من أشجار الجنة أغصانها متدليات في الدنيا فمن أخذ بغصنٍ منها قاده ذلك الغُصْنُ إلى الجنة والبخل شجرة من أشجار النار أغصانها متدليات في الدنيا فمن أخذ بغصنٍ منها قاده ذلك الغصنُ إلى النارِ))[1].

3 -وقال ﷺ: ((إذَا كانتْ أُمراؤُكم خِيَارَكُم وأغنياؤُكم سُمحاءَكم، وأمرُكُم شورى بَيْنَكُم فظهر الأرْضِ خيرٌ لكُم مِنْ بطنِهَا وإذا كانت أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطنُ الأرض خيرٌ لكم من ظهرها))[2].

4 -وقال ﷺ: ((ما جُبِل وَليٌّ لله عزَّ وجل إلا على السخاء وحُسن الخُلق))[3].

5 -وقال ﷺ: ((إن الله استخلص هذا الدين لنفسه فلا يصلح لدينكم إلا السخاءُ وحسنُ الخُلُقِ، ألا فزينوا دينكم بهما))[4].

6 -وقال ﷺ: ((إن في الجنة بيتاً يقالُ له: بيتُ الأسخياء))[5].

7 -وقال ﷺ: ((الخيرُ أسرعُ إلى البيت الذي يؤكلُ فيه من الشفرةِ إلى سنام العيرِ))[6].

8 -وقال ﷺ: ((لا خيرَ فيمنْ لا يُضيَّف))[7].

9 -جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ: ((فقال إني مجهودٌ، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالتْ: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماءٌ ثم أرسل إلى أخرى فقالتْ مثل ذلك، حتى قُلنَ كُلهنَّ مثل ذلك لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماءٌ، فقال ﷺ: من يُضَيَّفْ هذا الليلة رحمة الله، فقام رجلٌ من الأنصار – أبو طلحة – فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله،

---

[1] – رواه الدارقطني والبيهقي عن علي، وابن عدي والبيهقي عن أبي هريرة، وأبو نعيم عن جابر، والخطيب عن أبي سعيد، وابن عساكر، والديلمي عن معاوية ورمز السيوطي لحسنه.

[2] – رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن غريب، وضعفه المنذري، وقال الواعظ: حديث ضعيف منجبر.

[3] – رواه أبو الشيخ وضعفه المنذري.

[4] – رواه الطبراني، والدارقطني، والأصبهاني، والخرائطي عن عمران بن الحصين، وضعفه الهيثمي والمنذري، ورمز السيوطي لضعفه.

تنبه: قال النووي: قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم: يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعاً.

[5] – رواه الطبراني وأبو الشيخ عن عائشة، وحسنه المنذري والواعظ.

[6] – رواه ابن ماجه واللفظ له عن ابن عباس، وأبو الشيخ عن جابر، وابن أبي الدنيا عن أنس، وضعفه المنذري، ورمز السيوطي لحسنه.

[7] – رواه الإمام أحمد والبيهقي، وحسنه المنذري، ورمز السيوطي لحسنه.

فقال لامرأته: هل عندك شيءٌ؟ فقالت: لا إلا قوت صبيان، قال: فعلليهم بشيء فإذا أرادوا العشاء فنوميهم، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل))[1].

وفي رواية إذا هو ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه قال: فقعدوا وأكل الضيف، وباتا طاويين، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فقال ﷺ: قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما: زاد في رواية فنزلت هذه الآية: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)[2].

10 -وقال ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[3].

((275))

11 -وقال ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفهُ، جائزته يومهُ وليلتهُ، والضيافةُ ثلاثة أيامٍ، وما بعد ذلك فهو صدقةٌ، ولا يحلُّ له أن يثوي عندهُ حتى يخرجه))[4].

12 -وقال ﷺ: ((أيما ضيفٍ نزل بقوم فأصبح الضيفُ محدوماً فله أن يأخذ بقدر قراهُ ولا حرج عليه))[5].

13 -وقال ﷺ: ((إذا دَخلَ الضيفُ على القوم دخل برزقه وإذا خرج بمغفرة ذنوبهم))[6] أي: الصغائر.

14 -وقال ﷺ: ((إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤنة وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة))[7].

15 -وقال ﷺ: ((إن مفاتيح الرزق متوجهةٌ نحو العرش فينزل الله تعالى على الناس أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كَثَّر كُثِّرَ لهُ ومن قلل قُلِّلَ لهُ))[8].

---

[1] – رواه البخاري في الأدب المفرد ومسلم، واللفظ له عن أبي هريرة.

[2] – سورة الحشر الآية: 9.

[3] – رواه الإمام أحمد والبخاري واللفظ له، ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة.

[4] – رواه الإمام مالك والبخاري ومسلم وأبو داود واللفظ له والترمذي وابن ماجه عن أبي شريح.

[5] – رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبي هريرة، وحسنه المنذري.

[6] – رواه الديلمي وأبو الشيخ عن أنس، ورمز السيوطي لضعفه.

[7] – رواه الحكيم الترمذي والبزار والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة، ورمز السيوطي لصحته وحسنه العزيري.

[8] – رواه الدارقطني عن أنس، ورمز السيوطي لضعفه.

16 -وقال ﷺ: ((ما فتح رجل باب عطية بصدقة أو صلة إلا زاده الله تعالى بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله تعالى قلة))[1].

17 -وقال ﷺ: ((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتَّر على عياله))[2].

18 -وقال ﷺ: ((إن الله تعالى جميلٌ يُحبُ الجمالَ، سخيٌّ يُحبُ السخاءَ، نظيفٌ يحبُ النظافةَ))[3].

19 -وقال ﷺ: ((إن الله تعالى كريمٌ يحبُ الكرمَ ويُحبُ معالي الأخلاق ويكره سَفْسَافَها))[4].

20 -وقال ﷺ: ((أولُ ما يُوضعُ في ميزانِ العبدِ نفقتهُ على أهلِهِ))[5].

21 -قال ﷺ: ((أطعموا طعامكُم الأتقياء وأولوُا معرفكم المؤمنين))[6].

((277))

22 -وقال ﷺ: ((اتقوا النار ولو بشق تمرةٍ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبةٍ))[7].

23 -وقال ﷺ: ((ما من يوم يصبحُ العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخرُ: اللهم اعطِ ممسكاً تلفاً))[8].

24 -وقال ﷺ: ((قال الله تبارك وتعالى يا ابن آدم أنفِقْ أُنفق عَلَيْكَ))[9].

25 -وقال ﷺ: ((أنفق ولا تُحصِ، فيحصي الله عليك، ولا تُوعِ فيوعي الله عليك))[10].

---

[1] – رواه الإمام أحمد والبيهقي والطبراني عن أبي هريرة، وصححه الهيثمي، ورمز السيوطي لحسنه,

[2] – رواه الديلمي عن جبير بن مطعم، ورمز السيوطي لضعفه.

[3] – رواه ابن عدي عن ابن عمر، ورمز السيوطي لضعفه.

[4] – رواه الطبراني, وأبو نعيم والحاكم والبيهقي عن سهل بن سعد، ورمز السيوطي لصحته.

[5] – رواه الطبراني عن جابر ورمز السيوطي لضعفه، وصححه الواعظ، وسكت عنه الهيثمي، وضعفه المنذري.

[6] – رواه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والديلمي عن أبي سعيد، ورمز السيوطي لحسنه، وحسَّنه العزيزي.

[7] – رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن عدي بن حاتم، قال: سمعت رسول الله.. الخ ورواه الطبراني والضياء عن أنس.

[8] – رواه البخاري ومسلم وابن حبان والطبراني عن أبي هريرة.

[9] – رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم واللفظ لهن والخطيب عن أبي هريرة.

[10] – رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أسماء بنت أبي بكر.

26 -وقال ﷺ: ((يا ابن آدم إن تبذُل الفضلَ خيرٌ لكَ وإن تمسكه شرٌ لكَ، ولا تلامُ على كفافٍ، وابدأ بمنْ تعول، واليدُ العليا خيرٌ من اليدُ السفلى))[1].

27 -وقال ﷺ: ((إياكم والشُّحَّ، فإنما هلك من كان قبلكم بالشُحَّ، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا))[2].

28 -وقال ﷺ: ((اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماتٌ يومَ القيامة واتقوا الشحَّ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم))[3].

29 -وقال ﷺ: ((لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جنهمَ في جوفِ عبدٍ أبداً ولا يجتمع شحٌ وإيمان في قلبِ عبدٍ أبداً))[4].

30 -وقال ﷺ: ((الشحيحُ لا يدخُل الجنة))[5] قال الحفني في حاشيته على الجامع الصغير عند قوله ﷺ: ((الشحيحُ لا يدخُل الجنة)) أي: أصلاً إن كان المرادُ أنه بخيل بالزكاة مع استحلال ذلك، فإن لم يستحل كان المرادُ: لا يدخلها إلا بعد التطهير بالنار أو بالعفو، وإن كان المرادُ أنه بخيل بفعل الصدقات، فالمرادُ: لا يدخلها مع السابقين بل يتأخر بالحشر خمسمائة عام أ هـ..

31 -وقال ﷺ: ((خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق))[6].

32 -وقال ﷺ: ((خلقَ جنةَ بيده، ودَّلى فيها ثمارها وشقَّ فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال لها: تكلمي، فقالت: قَدْ أفلَحَ المؤْمِنُونَ؛ فقال: وعزتي وجلالي لا يجاورُني فيك بخيلٌ))[7].

---

[1] – رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي أمامة.

[2] – رواه أبو داود والحاكم وصححه، واقره الذهبي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ورمز السيوطي لصحته، وصححه الواعظ.

[3] – رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد، ومسلم واللفظ له عن جابر، وحسنه المنذري، ورمز السيوطي لصحته.

[4] – رواه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم واللفظ له وصححه عن أبي هريرة وحسنه المنذري.

[5] – رواه الطبراني والخطيب والديلمي عن ابن عمر، قال: سمعت... الخ وضعفه المنذري، ورمز السيوطي لضعفه.

[6] – رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي عن أبي سعيد، وضعفه المنذري، ورمز السيوطي لضعفه.

[7] – رواه أبو داود والحاكم وصححه، والطبراني وابن أبي الدنيا عن ابن عباس، وحسنه المنذري، ورمز السيوطي لصحته، وقال الواعظ: حسن صحيح.

33 -وقال ﷺ: ((هُمُ الأخسرون ورب الكعبة، فقلتُ: يا رسولَ الله، فداكَ أبي وأمي مَنْ هُمْ الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، وقليلٌ ما هم))[1].

34 -وقال ﷺ: ((إذا أراد الله بقومٍ خيراً ولى أمرهم الحكماء وجعل المال عند الأسخياء؛ وإذا أ راد الله بقوم شراً وَّلى أمرهُم السفهاءَ وجعل المال عند البخلاءِ))[2].

((280))

35 -وقال ﷺ: ((طعام السخيَّ دواءٌ وطعام الشحيح داءٌ))[3].

36 -وقال ﷺ: ((لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ آتاه الله مالاً فهو ينفقُهُ آناء الليل وآناء النهار))[4].

37 -وعن قيس بن سلع الأنصاري رضي عنه: ((أن إخوته شكوه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنهُ يبذَّر ماله ويبسط فيه، قلتُ: يا رسول الله، آخذ نصيبي من الثمرة فأنفقهُ في سبيل الله وعلى من صحبني، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: أنفق ينفق الله عليك ثلاث مرات، فلما كان بعد ذلك خرجت في سبيل الله ومعي راحلة قال وأنا أكبر أهل ببيتي اليوم وأيسره))[5].

38 -وكان سعد بن عبادة ﷺ يقول: اللهم ارزقني مالاً أجود به فإنهُ لا يصلح الفعال إلَّا المالَ.

39 -وقال ﷺ: ((نِعمَ المال الصالحُ للرجُلِ الصالح))[6].

((281))

---

[1] – رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم واللفظ له، والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي ذرَّ.

[2] – رواه أبو داود واللفظ له، عن الحسن البصري، ورواه ابن لال ولديلمي عن مهران، وحسنه المنذري، قال المناوي: إسناده جيد.

[3] – رواه الخطيب واللفظ له، وابن حبان والحاكم والدارقطني وابن عدي والديلمي عن ابن عمرو، ورمز السيوطي لحسنه، قال العزيزي: رواته ثقات.

[4] – رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والطبراني عن ابن عمر.

[5] – رواه الطبراني، وسكت عنه الهيثمي.

[6] – رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وأبو يعلي والقضاعي عن عمرو بن العاص، وصححه الهيثمي.

عن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قالَ: ((ألا أحدثكم عن الخِضر عليه السلام؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: بينما هو ذات يومٍ يمشي في سوق بني إسرائيل أبصرهُ رجل مكاتب، فقال: تصدق عليَّ بارك الله فيك، فقال الخضر عليه السلام: آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكون، ما عندي شيء أعطيكه، فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقت عليَّ، فإني نظرتُ السماحة في وجهك، ورجوت البركة عندك، فقال الخضر عليه السلام، آمنت بالله ما عندي شيء أعطيكه، ألا تأخذني فتبيعني؟ فقال المسكين: وهل تستطيع هذا؟ قال: نعم، أقول لقد سألتني بأمرٍ عظيم، أما إني لا أخيبك بوجه ربي بعني، قال: فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيءٍ، فقال له: إنك إنما اشتريتني التماس خير عندي فأوصني بعمل، قال: أكره أن أشقَّ عليك، إنك شيخٌ كبير ضعيف، قال: ليس تشق عليَّ، قال: قم فانقل هذه الحجارة وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم، فخرج الرجل لبعض حاجته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة، قال: أحسنت وأجملت وأطقت ما أرك تطيقه، قال: ثم عرض للرجل سفر، فقال: إني أحسبك أميناً فاخلفني في أهلي خلافة حسنة، قال: وأوصني بعمل، قال: إني أكره أن أشق عليك، قال: ليس تشقُّ عليَّ، قال فاضرب من اللبن

((282))

لبيتي حتى أَقْدُمَ عليك، قال: فخرج الرجل لسفره، قال: فرجع الرجل وقد شُيِّدَ بناؤه، قال أسألُكَ بوجه الله ما سبيلُك وما أمرُك؟ قال: سألتني بوجه الله ووجه الله أوقعني في هذه العبودية، فقال الخضر عليه السلام: سأخبرك من أنا؛ أنا الخضر الذي سمعت به، سألني مسكين صدقة فلم يكن عندي شيء أعطيه، فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتي فباعني، وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلدة لا لحم له ولا عظم يتقعقع))[1].

فقال الرجل: آمنت بالله، شققت عليك يا نبي الله ولم أعلم، قال: لا بأس أحسنت وأتقنت، فقال الرجل: بأبي أنت وأمي يا نبي الله احكم في أهلي ومالي بما شئت، أو اختر فأُخلي سبيلك ومت أمرك؟ قال: سألتني بوجه الله ووجه الله أوقعني في هذه العبودية، فقال الخضر عليه السلام: الحمد لله الذي أوقعني في العبودية ثم نجاني..)).

رواه الطبراني، وحسَّنه الهيثمي، وضعَّفه المنذري.

---

[1] – أي: يضطرب ويتحرك.

خاتمة نسأل الله حسنها

ولنختم هذه الرسالة في كلام بعض الصالحين:

قالت عائشة ﵂: الجنةُ دارُ الأسخياء، والنارُ دارُ البخلاء.

جاءت امرأة إلى الإمام الليث بإناء صغير تطلب منه فيه عسلاً، وقالت: إن زوجي مريض. فأمر لها براوية ملآنة عسلاً. فقيل له:إنها طلبت قدحاً صغيراً. فقال: إنما طلبت على قدْرها، ونحن أعطيناها على قدْرنا.

جاء رجل إلى سعيد بن العاص ﵁ يسأله شيئاً، فأمر له بخمسمائة، وأطلقه؛ فقال الغلام مستفهماً من سعيد: دنانير أو دراهم؟ فقال سعيد: ما أدرت إلا الدراهم، ولكن حيثما ترددت أنت في ذلك، فغَيِّرها دنانير. فجلس الرجل يبكي، فقال له سعيد: ما يبكيك؟ فقال: ابكي على مثلك تحت التراب.

إلى كل فتاة تؤمن بالله

للشيخ الدكتور مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي

((287))

الحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، سبحانك اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىنفسك.

وصل اللهمُ أفضل صلواتك على خاتم رُسُلك وأنبيائِكَ سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

واشرح اللّهُم صدري، ويسر لي أمري، وارزقني نعمة الإخلاص، وقني فتنة النفس والهوى، وجنبني مزالق الشيطان، إنك نعم المولى ونعم النصير.

((288))

مقدمة

رُب ضارة نافعة، ورُب عمل استهدف شيئاً فأتى بنقيضه!.

كتب كاتب معروف، في مجلة ذائعة معروفة يدعو إلى تحطيم ما أقامته الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة من حواجز الخلطة، وأقنعه الستر والاحتشام، وأخذ يتصيد لذلك من الأدلة ما يطمع أن يكون فيه لبس وغموض، يصرفان الناس عما ينطوي عليه من دلالة الحق.

فكان من آثار ذلك ما لم يتوقعه الشيخ الذي كتب، ولا المجلة التي نشرت، وأذاعت.

بل كان أن تنبه أكثر المسلمين من ذلك، إلى عظيم تقصيرهم وتهاونهم في جنب الله بصدد هذا الأمر الخطير، والتفتت جمهرة كبرى من الفتيات والنساء المسلمات الصادقات، إلى حقيقة الحكم الإلهي الثابت في حق المرأة، مما يتعلق بسترها واحتشامها وعلاقتها بالرجال، وراحت تتأمل في ذعر ووجل، الأرض التي

((289))

تقف عليها، وبعد ما بينها وبين ساحة الإسلام ودائرة الآداب الإسلامية.

ونشر الكتاب المسلمون – زادهم الله توفيقاً وأجزل لهم المثوبة والأجر – في أكثر البلاد العربية ورسائل في بيان الحق الذي نص عليه كتاب الله، وأوضحته سنة الله ﷺ، والتقى عليه أئمة المسلمين، مما يتعلق بهذا الصدد ولم تكن رسالتي هذه غلا مشاركة بسيطة في ذلك.

وسرعان ما ظهر أثر الدعوة الصادقة إلى الحق، تفاعلاً معه، وانصباغاً به، وانعطافاً إليه.

وللحق دائماً شارة يعرف بها، يتبينها كل مخلص في طلبه، صادق في الاتجاه إلى فهمه. وللباطل دائماً ميعة والتواء يتبينها كل ذي نظر وفهم، مهما جاء مكتسياً به من أقنعة الحق والرشاد.

الحق يناجي العقل دائماً، أما الباطل فإنما يحاول أن يتسلل خفية منه إلى رغائب النفس!.. والحق يتعامل بالأدلة والبراهين الحرة، أما الباطل فيستعين للوصول إلى نفوس الناس بالكاريكاتير الساخر أو التشويه الكاذب أو الصور المستبشعة!..

والحق قد يأتي ثقيلاً في وطأته على النفس، ولكنه يتسم في مقابل

((290))

ذلك بالترفع عن أي غرض خفي أو حاجة مستكنة. أما الباطل فقد يكون خفيفاً في وطأته على النفس، ولكنه يستبطن في مقابل ذلك غرضاً خفياً يستهدف إليه بكيد وخداع.

وأثقل ما في الباطل أن صاحبه يصطنع له من البراهين ما يعلم أنه ليس إلا مصانعة وتلبيساً، فهو لا يفتأ يصانع في الكلام ويشقق له المذاهب والأشكال، طمعاً في أن يصدق الناس ظاهر ما يقول، ويذهلوا عن باطن ما يهدف إليه.

يقول صاحب المجلة المذكورة، دفاعاً عن صاحبه الشيخ فيما كتب يدعو إليه، وتحليلاً لأسباب الردود الكثيرة التي فندت أقواله ومفاهيمه العجيبة: ((.. قصص بالطبع تشق على من نشأ بين الحجب الكثاف، وعلى من آمن يقدم الحجاب)).

يقول الرجل هذا، وكأنه لا يعلم العكس أيضاً، وهو أن القصص الدالة على مشروعية الحجاب تشق على من نشأ في أجواءٍ من الاختلاط الفاحش وآمن بأحقية ذلك وقدمه!..

ولم ينس الرجل أن يدعم دفاعه هذا، بريشة الفنان الذي يستعين به لتجسيد أبرز الأفكار في مقالاته، فاستخرج من خياله صورة فتاة اتخذت من أشكال الستر والصيانة أبشع ما تشمئز منه

النفس، وينبو عنه الذوق. وهو يعلم، كما يعلم كل عاقل، أن الفنان الذي فعل هذا، يستطيع لو شاء أن يستخرج من خياله صورة فتاة اتخذت من أشكال هذا الستر أجمل ما تستسيغه الفطرة ويتفق معه الذوق.

يا أخي القارئ: إن الذي يملك من البيان ما يخيل به إليك أن العسل [وهو من ألذ وأنفع ما عرف من الطيبات] شيءٌ بشع مستقذر تعافه النفس، بليغ في أرباب البلاغة والبيان، ولكنه بدون ريب يصرفك عن الحقيقة إلى عكسها.

وإن الذي يملك من الإخلاص لك ما ينبهك به إلى أن في تلك الكأس البديعة من الشراب الرائق العذب، سمًّا ناقعاً قد يودي بحياتك، يحرمك من لذة عاجلة ولا ريب. ولكنه بدون شك صديق مخلص يستأهل منك كل ود وتقدير.

وبعد، فحسب الحق انتصاراً، أن الآلاف التي طبعت من هذا الكتاب، نفدت خلال الأشهر الأربعة من ظهوره، وأن رغبة حقيقية تلح في إعادة طبعه، وأن كل فتاة منصفة آمنت

بالله ورسوله، وقد اعترفت بالحق الذي فيه وإن لم تكن متلبسة به، وفندت ذلك الباطل وإن كانت أسيرة له.

الدكتور/ مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي

إلى كل فتاةٍ تؤمنُ بالله

وإنما أعني بالفتاة التي تؤمن بالله، تلك التي أيقنت بوجودها إلهاً واحداً لا شريك له في ذاته وصفاته، وأيقنت أنه النافع فلا نافع سواه، وانه الضار إذا شاء فلا ضار سواه. إله مرجع الناس كلهم في يوم عظيم لا ريب فيه، يكشف فيه الحجاب عن كل غيب مستور وحقيقة خافية، يوم الحسرة والندامة لمن كان قد اغتر يدنياه وفرط في جنب الله، ويوم الغبطة والسعادة لمن كان قد فهم الدنيا على حقيقتها، فاخذ منها عوناً لسلوك السبيل إلى مرضاة الله.

فلا جرم أني لا أعني بها تلك التي سمعت بالله ولم تفهم عنه شيئاً، وورثت كلمة الإيمان شعاراً على اللسان ولم تستيقن مضمونها عقيدة في الجنان. قد يتكرر اسم الله على لسانها في اليوم عشرين مرة، ولكنها لا تنبه لسلطانه وبالغ سطوته في الشهر أو العام مرة واحدة.

إذا ذكرت به أو فكرت فيه لم تعلم عنه شيئاً سوى أنه –كما يقولون – حقيقة خفية كبرى، كالذي كانوا يسمونه: الأثير، لا يدرون عنه شيئاً سوى أنه سر خفي من أسرار هذا الوجود. فلو

((293))

كان لإيمانها بالأثير من سلطان على سلوكها ولون حياتها، لكان لإيمانها بالله عليها مثل هذا السلطان.

مثل هذا الإيمان، لا يسمى إيماناً إلا على سبيل المشاكلة والمجاز.

مثل هذا الإيمان لا يورث القلب أي خشية، ولا يقود صاحبه إلى أي اتجاه، ولا شأن له بتقويم شيء من مظاهر الحياة والسلوك.

ومثل هذا الإيمان الرخيص منثور بكثرة في مجتمعات أوروبا وفي ربوع أمريكا، وتراه يسير جنباً إلى جنب مع كل ما تفوز به تلك المجتمعات، من الفساد الخلقي، والتعقد النفسي، والاستغراق المطلق في سكرة الحياة المادية الجانحة!.

فأنا إنما أتجه بحديثي في هذه الرسالة إلى كل فتاة آمنت بالله إيماناً إرادياً حراً منبثقاً عن رضاها القلبي وشعورها النفسي، ويقيني أن مجتمعنا بكثير ممن يتمتعن بهذا الإيمان.

أتجه إلى كل فتاة تؤمن في قرارة قلبها بالله هذا الإيمان لأقول لها.

إن أمر وجودنا في هذه الحياة جد وأخطر من الجد!..

فلا يحجبنك عن تصور عاقبتها أي لون من ألوان مغرياتها، ولا ينسينك هوانها كثرة ما ترين من المتعلقين بها. ولا تنسي أن

((294))

الناس إنما يجتازون إلى الله، في هذه الدنيا بساعة امتحان، سواء علموا ذلك أم جهلوا، وربما طالت هذه الساعة أو قصرت، ولكنها على كل حال ليست أكثر من ساعة امتحان.

وإذا كان الاجتياز بهذه الساعة الامتحانية قدراً مشتركاً بين الرجال والنساء على السواء، فإن المرأة تمتاز عن الرجل بحمل عبء آخر شديد الخطورة في الدنيا وعظيم الأثر في العقبى!..

فالمرأة بالإضافة إلى كونها تشترك مع الرجل في اجتياز هذه الساعة الامتحانية، تعتبر مادة من أهم موادها الامتحانية ذاتها!..

ذلك لأن الشهوات على اختلافها هي المنزلق الامتحاني الذي بسط الله به وجه هذه الدنيا. وإنما المرأة – بتقرير الله تعالى وصريح بيانه – أول نوع من أنواع هذه الشهوات. أليس هو القائل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)[1].

فقد عد الله النساء في أول مراتب الشهوات التي وضعها زينة وابتلاء في طريق الناس. ولولا أنها تفوق سائرها في الخطورة

((295))

والأهمية، لما جعل مرتبتها في الذكر قبلهن جميعاً.

وإذاً، فالمرأة في حياة الإنسان أخطر ابتلاء دنيوي على الإطلاق.

وسر ذلك، أن جميع الآثام التي حظرها الله تعالى على عباده، ليس بينها وبين الإنسان أي الانسجام فطري. فالظلم بأنواعه المختلفة محرم، ويُعين الإنسان على تجنبه أن الفطرة الإنسانية تشمئز منه. وشرب الخمر محرم، ويهون من أمر تحريمها أن الفطرة الإنسانية الأصيلة تعافها، وكذلك السرقة والغش والغيبة والنميمة وبقية المحرمات الأخرى، كلها لا يتفق مع مقتضيات

---

[1] – سورة آل عمران الآية:14.

الفطـرة الإنسـانية السـليمة، ولا يجـنح إلى شـيء منهـا إلا مـن ابتلـي بشـذوذ أو انحـراف في طبيعتـه وفطرته لسبب من الأسباب التي قد تطرأ في حياة الإنسان.

وإنمـا يسـتثنى مـن هـذا العمـوم شـيءٌ واحـد فقـط، هـو الغريـزة الجنسـية في كـل مـن الرجـل والمـرأة، فهـي علـى الـرغم مـن كونهـا تـدفع إلى ارتكـاب محظـور، يعـد في ذروة المحـاظير الشـرعية – مـا لم ينضـبط بحـدود وقيـود معينـة – تعتـبر مـن أخـص مسـتلزمات الفطـرة الإنسـانية وأهـم متطلباتهـا، ولا سبيل لأي إنسان (ما دام إنساناً طبيعياً لا شذوذ فيه) إلى أن ينفك عنها أو يسمو فوقها.

((296))

ومن خلال هذه المقارنة تستطيعين أن تدركي بأن الشهوة الجنسية في الإنسان أخطر ابتلاءٍ ديني في حياته. إذ في الوقت الذي تقف الفطرة الإنسانية فيه عوناً على تطبيق حكم الله بالنسبة لمختلف المعاصي والمنكرات، فإنها تقف بالنسبة للشهوة الجنسية مثيرة لها، أو عاجزة – في أحسن الأحوال – أن تكبح جماحها أو تقلل شيئاً من هياجها.

وبناءً على ذلك العلاج الإسلامي بالنسبة لسائر المعاصي يكمن في مزيد من الابتعاد عنها والاستعلاء فوقها. أما بالنسبة لأمر الجنس خاصة فقد كان العلاج هو الارتواء منه وامتناع الغريزة به ولكن ضمن حدود مرسومة معينة لا يتجاوزها.

فهذا معنى قولنا: إن المرأة أخطر مادة امتحانية في حياة الرجل على الاطلاق.

وربما تقولين: ولماذا لا يعتبر الرجل أيضاً أخطر مادة امتحانية في حياة المرأة، مادام الشعور الجنسي شائعاً بينهما، وبذلك يتساوى عبئ كل من الرجل والمرأة وتتكافأ مهامها؟!..

والجواب: إن الفاطر الحكيم ﷻ أقام فطرة المرأة على أسس نفسية جعلت منها مطلوبة أكثر من أن تكون طالبة، فهي

((297))

مهما استشعرت إلحاحاً غريزياً في كيانها، تظل ميالة – بدافع من عوامل أصيلة لديها – إلى أن تتحصن بمركز الانتظار والاستعلاء، وأن تفرض على الرجل ظروفاً وأسباباً تجعله يلح في طلبها والسعي وراءها، وبذلك المرأة فتنة للرجل أكثر من أن يكون الرجل فتنة لها.

وقد قرر رسول الله ﷺ هذه الحقيقة باختصار في قوله: ((ما تركت بعدي فتنة اضر على الرجال من النساء)) متفق عليه.

وإذ قد فرغنا من إيضاح هذه الحقيقة، فلعلمي أن أمر هذه الفتنة التي ابتلي ببها الرجل – تشديداً وتهويناً – عائد إليك.

فالمرأة تستطيع إذا شاءت أن تجعل من شأن نفسها بلاءً صاعقاً للرجل، لا يكاد يجد سبيلاً للنجاة منه. وتستطيع أن تجعل من شأن نفسها عوناً له على السير في طريق السلامة والنجاة.

وكم من أمة كانت ذات شأن وسلطان بين سائر الأمم فتضاءل شأنها ثم تهاوى سلطانها، بما شاع بينها من الإباحية والتفسخ الأخلاقي. ولم يكن عامل ذلك كله إلا المرأة!. وما قصة انمحاق الدولة الرومانية والمزدكية والحضارة الهندية عن الناس ببعيد.

ومن هنا كان أخطر الوظائف الإسلامية التي كلف الله بها المرأة، أن تغمد سلاح فتنتها أمام الرجال ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً حتى لا يقعوا في رهق من أمر هذا البلاء أو الامتحان.

وقد تم الإجماع على أن المرأة لا تحرز رضى الله تعالى عنها بعمل من الأعمال الصالحة، كما تحرزه بالسعي في سبيل يعين الرجل على الاستقامة الخلقية وضبط نوازعه الشهوانية، ولا تتسبب لغضب الله تعالى عليها بعمل من الأعمال المحرمة كما تتسبب إلى ذلك بالسعي في سبيل تثير في الرجل نوازعه الشهوانية وتقصيه عن أسباب الاستقامة والعفة الخلقية.

وما كان أكثر أهل النار النساء – بإخبار النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح – إلا لجملة عوامل من أهمها: أنهن لا يتقين الله تعالى في هذه الوظيفة الخطيرة التي أناطها الله تعالى بهن.

وأنت تعلمين أيتها الأخت المؤمنة بالله، أن أهم ما يخيف الغرب – بشطريه الأوروبي والأميركي – من المسلمين إنما هو إسلامهم!..

فلقد علم قادته، نتيجة دراسات موضوعية مستوعبة، أن

النهضة الأوروبية لم تشرق في حياتهم إلا يوم أن غربت فاعلية الإسلام وقوته من حياة المسلمين.

فلولا ما ساد العالم الإسلامي من ظلام الابتعاد عن منهج الإسلام وحكمه، لما أشرق في العالم الأوروبي ضياءُ شيءٍ من المعارف والعلوم، ولما أمكنته الفرصة من الاستفادة من ذلك.

ونتيجة لهذا اليقين المستقر في أعماقهم، فإنهم لا يسعون للمحافظة على مكاسب نهضتهم هذه بوسيلة أهم وأخطر من العمل الدائب، بكل الوسائل الممكنة، على أن يظل المسلمون بعيدين عن إسلامهم، تائهين عن تاريخهم ومصدر أمجادهم، وعلى أن يشغلوا عن جوهر الإسلام وحكمهخ بكل ما يصلح أن يكون تعويضاً لهم عن ذلك..

وما أظنك بحاجة إلى دليل يكشف لك عن صدق هذه الحقيقة، فقد باتت همسات القادة والمفكرين الغربيين حول ذلك، مسموعة في كل بيئة ومحيط، بل لقد تحولت- لحسن الحظ – إلى صرخات عالية مسموعة، يستطيع أن يسمعها من كانت له أقل مشاركة في الثقافة المعاصرة.

ومع ذلك، فلعل من الخير أن أذكرك بأنموذج من هذا الهمس

((300))

الذي انقلب أخيراً إلى صوت واضح مسموع، يتنبه كل متبصر بطبيعة العصر الذي يعيش فيه.

إليك هذه المقاطع من كتاب (إلى أين يتجه الإسلام؟ Whither Islam) الذي اشترك في تأليفه جماعة من المستشرقين من مختلف الأجناس، وأشرف على جمعه وتأليف بحوثه والتقديم لها والتعليق عليها المستشرق الإنجليزي وأحد مستشاري وزارة الخارجية الإنجليزية هـ.أ.ر. جيب.

يقرر جيب في المقدمة الخطيرة التي كتبها لهذا الكتاب – وهي طويلة تبلغ مائة صفحة – أن العوامل الإقليمية المختلفة لم تستطع أن تؤثر في وحدة الحضارة الإسلامية، أو أن تنال منها على تعاقب الأزمان وتباين الأصقاع، مما جعل العالم الإسلامي كتلة سياسية خطيرة وجعل منه عالماً مترامي الأطراف يحيط بأوروبا إحاطة محكمة تعزلها عن العالم.

ثم يشرح كيف أن الغرب قد نجح في كسر هذا الطوق وتفتيت الحضارة الإسلامية والقضاء على وحدتها. ويقول في أعقاب ذلك: ((وهكذا، فإن الموازين الدينية والتعاليم الأخلاقية في الإسلام، آخذة في التحول، وأن هذا التحول يتجه نحو تقريبه من الموازين الغربية في الأخلاق التي هي في الوقت نفسه متمثلة في التعاليم الأخلاقية للكنيسة المسيحية)).

((301))

ويقرر جيب بعد ذلك أن النشاط التعليمي والثقافي عن طريق لمدارس العصرية والصحافة، قد ترك في المسلمين – من غير وعي منهم – أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد. ثم يعقب على ذلك بقوله: ((وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركته محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار)).

ثم إن جيب يجزم بعد ذلك مغتبطاً بأن ((العالم الإسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينياً في كل مظاهر حياته ما لم يطرأ على الأمور عوامل ليست في الحسبان)).

ولكنه يعود فيظهر فزعه من احتمال ظهور دفع إسلامي جديد يبطل مفعول هذه الثمرات الغربية كلها، فيقول: ((ولكن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة. فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً، قبل أن يتبين من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرهم. فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد))[1].

فماذا كان السلاح الأول الذي استعمله الغربيون لتفتيت الحضارة الإسلامية وتحويل الأخلاق الإسلامية عن وجهتها الإسلامية الأولى؟

إن أمضى سلاح شهره الغرب لتحقيق هذه الغاية إنما هو: عنصر المرأة.

فلقد علموا، ما نعلمه نحن اليوم، من أن الشبهات العقلية لا يمكنا أن تفعل في عقول المسلمين عشر ما يمكن أن تفعله في نفوسهم الإثارات الجنسية، وإذا كان من شبه فكرية يطرحونها فلا مناص من أن يكون بين يدي ذلك ومن خلفه دوافع أو آثار شهوانية له المرأة.

فمن أجل ذلك الغزو الفكري للمسلمين – مهما تنوعت مظاهره – على عنصر هام لا بديل عنه، هو المرأة بكل ما يمكن أن يُستغلَّ فيها من عوامل الفتنة والتأثير والإغراء، ومن أسباب الإقصاء بها عن رعاية النشءِ والأسرة.

وما أظن أنك بحاجة إلى عرض الأدلة المسهبة على هذه الحقيقة أيضاً. فقد باتت دلائل ذلك مكشوفة واضحة يعرفها ويتناقلها كل من كانت له مشاركة بسيطة في ثقافة العصر ومعرفة طبيعته.

ومع ذلك، فلأضع بين يديك هذا الأنموذج من كلام المنصر والمستشرق المعروف ((جسب)):

((إن مدارس البنات في البلاد العربية هي بؤبؤ عيني. لقد شعرت

[1] – من كتاب: إلى أين يتجه الإسلام. وانظر الجزء الثاني من كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور مُحَمَّد مُحَمَّد حسين. من ص 197 إلى 213.

دائماً بأن مستقبلنا في سورية إنما هو بتعليم بناتها ونسائها. لقد بدأ نشاطنا في ذلك على ضعف، ولكن ها هي ذي قد أثارت اليوم اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيات التبشيرية))[1].

ولا أظن أن أي إنسان وقاه الله من لوثة الجنون في عقله، يمكنه أن يتصور بأن مدارس البنات هي بؤبؤ عيني ((جسب)) لشدة ما يغار على مصلحة البلاد الإسلامية أو العربية، ولشدة ما يهمه شأنها ويخلص في حب الخير لها!.

لقد كانت بؤبؤ عينيه، لأنه كان يدرك مدى للمرأة من أثر في تقويم حياة الجيل أو إفسادها. وإذاً فلابد من الاعتماد على مدارس البنات والسيطرة من هناك على تربيتهن وتوجيه سلوكهن.

ولكن كيف اتخذ قادة الغزو الفكري من عنصر المرأة سبيلاً لتحقيق الغاية التي كانوا، ولا يزالون يستهدفونها؟

والجواب باختصار. إنهم ساروا إلى ذلك في خط معاكس لكل ما قد قضى به الإسلام من حكم في حق المرأة!..

ولقد انطلت هذه الحيلة، التي باتت اليوم قديمة ومكشوفة، على عقول طائفة كبيرة من ناشئة المسلمين وقادتهم. حتى باتوا يتصورون حقاً بأن سر تخلف المسلمين إنما يكمن في هذا الحجاب الذي تسدله المرأة على وجهها أو تفيض منه على مفاتنها، وأنه ليس بيننا وبين أن نلحق بركب المدنية الحديثة ونتساوى مع من حولنا من شعوب العالم الراقي إلا أن نضاعف أيدي الرجال العاملين بمثلها من أيدي النساء العاملات.

ولقد بات الحديث بعد ذلك عن حكم الإسلام في لباس المرأة وعملها وتعلمها، مثار استهجان أو محل استشكال، بل بات ذلك دليلاً عند هؤلاء الناس على أن الإسلام يشد أهله إلى الوراء بدلاً من أن يدفع بهم إلى التقدم والصعود في مدارج الرقي.

وزاد البلاء خطورة ما ظهر حول وخلف هؤلاء الناس، من متلاعبين بنصوص الشريعة الإسلامية وأحكامها، ابتغاء الحصول على مأرب دنيوي، أو اتقاء خسارة مركز أو زعامة أو منصب؛ وإنما نصوص الشريعة ألفاظ كألفاظ القوانين، فكما أن المحامي الذي يطمع في كسب

---

[1] – التبشير والاستعمار لمصطفى الخالدي وعمر فروخ: 87.

مـالي معـين لا يعجـزه شـيءٌ عـن أن يـؤول المـواد القانونيـة ويتلاعـب بألفاظهـا ودلالتهـا، فكـذلك العالم الذي لا يبالي

((306))

بغضـب الله تعـالى وألـيم عقابـه لا يعجـزه شـيءُ عـن أن يـؤول نصـوص الشـريعة ويتلاعـب بألفاظها ودلالاتها.

ولقـد كـان مـن نتيجـة هـذا الـبلاء أن زادوا سـواد الشـر الـذي خطـط لـه الغـرب، بواسـطة مـن ضـللتهم فتـاوى هـؤلاء المتلاعبـين، فـانحرفوا عـن المـنهج الإلهـي بنيـة حسـنة، وتاهـوا عـن الصـراط السـوي مـن وراء تقليـدهم لهـؤلاء الكـبراء. فقـد ظنـوا أنهـم إنمـا يـدلونهم علـى صـراط الله فـإذا هـم يقودونهم إلى مهاوي الشقاء الأبدي الأليم!.

وبعـد، فهـذه هـي المشـكلة، لخصـتها لـك في هـذه المقدمـة الـتي كـان لابـد منهـا. والقصـد أن نتجه بعد ذلك إلى سبيل منطقي قريب لحلها.

وإنمـا السـبيل المنطقـي إلى ذلـك أن نبـين حكـم الله تعـالى في لبـاس المـرأة وعملهـا وتعلمهـا، نقيـاً عـن زيارات المتزيِّـدين، صـافياً عـن شـوائب المبـدلين أو المتلاعبـين. والمفـروض أنـني إنمـا أخاطـب في هـذه الرسـالة –كمـا قلـت –كـل فتـاة تتمتـع بإيمـان صـادق بالله. ومـن ثم فهـي لا تبغـي مزيـداً على معرفة حكم الله عز وجل بدق ة ويقين في هذا الموضوع.

((307))

ومـع ذلـك فـإنا إذا انتهينـا مـن ذلـك، عرضـنا لمختلـف المشـكلات والعوائـق الـتي تختلـق وتوضـع في طريق تنفيذ هذا لحكم الإلهي الخطير.

هـل هـي حقـاً مشـكلات؟ وهـل حقـاً بترتيـب علـى الأخـذ بحكـم الله تعـالى في هـذا الأمـر قيـام سـد منيـع بيننـا وبـين الانطـلاق صـعداً في مـدارج التقـدم والرقـي؟.. ولسـوف نعـالج ا لموضـوع – بإذن الله – بتجـرد خـالص، وتحـرر كامـل عـن أي لـون مـن ألـوان العصـبية، حـتى إذا تجلـى لنـا الحق، لم يحل بيننا وبين الأخذ به أي مانع.

ولا ضـير علينـا، بعـد أن نعلـم حكـم الله تعـالى، مـن أن نـتلمس نتـائج تطبيـق هـذا الحكـم مـن حيـث كـلا جـانبي النفـع والضـر. فـإن اكتشـاف نتـائج النفـع فيـه يزيـد إيماننـا يقينـاً، ويكسـبنا العـبرة المفيـدة بالنسـبة لسـائر الأحكـام الإلهيـة الأخـرى، كمـا أن اكتشـاف أي نتـائج ضـارة فيـه – علـى فـرض ذلـك – يعطينـا صـلاحية النظـر والاجتهـاد في الأمـر، فـإن حكـم الله تعـالى لا يمكـن أن

يتلبس به أي ضرر أو مفسدة حقيقية، ومن قواعدنا التشريعية الكبرى قول رسول الله ﷺ: ((لا ضَرر ولا ضِرار)).

ورجائي منك أيتها الأخت المؤمنة أن تتلقي ما أقولُهُ لك بميزان من الوعي الفكري السليم، والنظر العقلي المتحرر عن أي تبعية

((308))

أو داعية من الدواعي الشهوانية – فإن الشهوة ما ينبغي لها أن تتحكم بناصية البحث، وبميزان من الرقابة الحية لإيمانك بالله عز وجل.

نسأل الله تعالى أن يقينا من شرور أنفسنا، وأن يوفقنا لاستعمال عقولنا، وأن يجنبنا مزالق الشياطين كلهم. وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق إنه خير الفاتحين.

وهذا هو كلام حُكم الإسلام

وأعوذ بالله أن أقول: حكم الإسلام، ثم أخلط به شيئاً من رأيي، أو بعضاً مما قد تشتهيه نفسي. وأعوذ بالله من أن ألبس على الناس ما لا يمكن أن يلتبس على الله، فأجمل قولاً تنزع إليه نفسي بزينة زائفة من الدين لا يرضى عنها ربي!..

إن الكتاب يستطيع إذا شاء أن يخلط بين رأي باطل تشتهيه نفسه، وحق واضح قد قضى به ربه، ولكنه إنما يخلط بذلك على الناس أو فئة منهم. أما في علم الله عز وجل – وهو الرقيب على كل شيءٍ – فإن الحق لا يعتريه بذلك أي تبدل ولا اختلاف. وكل ما قد يكون جناةُ الكاتب بتلبيسه الذي أقدم عليه، أنه تحمل أوزاراً مما قد اقترفه الناس في جنب الله، اعتماداً على ما قد أفتاهم به من الحكم الذي خيل إليهم أنه حكم الله.

((309))

وما أغنى الكاتب المؤمن بالله واليوم الآخر عمن يذلل عنقه لأوزار يتحمل عن الناس تبعاتها، ليجد يوم القيامة أليم نتائجها وسوء مغباتها. وما أغناه عن أن يجعل نفسه واحداً من أولئك الذين يدأبون على تضليل الناس عن معالم الحق الإلهي، حتى إذا اجتمع الناس لليوم الذي لا ريب فيه، واكتشف هؤلاء المضللون عظم الخديعة التي أبعدوا بها عن الحق، اتجهوا إلى

ربهم يقولون: (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً)[1].

أجل، فأنا أعوذ بالله من أن أزعم للناس أني أحدثهم عن حكم الإسلام في شأن من شؤون المرأة، ثم أنحاز بهم إلى سبيل هوىً من أهواء النفس أو غرض مما قد تستدعيه مصالح الدنيا، فأكون بذلك واحداً من هؤلاء الكبراء الذين يقفون غداً أمام محكمة الله عز وجل، وقد تعلق المغرورون والمخدوعون من الناس، يطلبون لهم من الله عز وجل مزيداً من العذاب، ومزيداً من اللعن والعقاب.

((310))

وقائع الأحوال ليست دليلاً على أي حكم شرعي

وإنما يؤخذ حكم الإسلام من نص ثابت في كتاب الله تعالى، أو حديث صحيح من سنة رسوله مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام، أو قياس صحيح عليها، أو إجماع التقى عليه أئمة المسلمين وعلماؤهم.

فلا جرم أن التصرفات الفردية من آحاد الناس، أو ما يسميه الأصوليون بـ ((وقائع الأحوال))[2] لا يعتبر أساساً أو دليلاً لأي حكم شرعي صحيح، سواء أكان هؤلاء الآحاد من الصحابة أو التابعين أو ممن دونهم. بل المقطوع به عند المسلمين جميعاً أن تصرفاتهم هي التي توزن – صحة وبطلاناً – بميزان الحكم الإسلامي؛ وليس الحكم الإسلامي هو الذي يوزن بتصرفاتهم ووقائع أحوالهم.

((311))

---

[1] – سورة الأحزاب الآية: 67- 68.

[2] – وقائع الأحوال وقضايا الأعيان هي عبارة عن مواقف فردية وقعت في عصر التشريع، على خلاف مقتضى أدلة العموم، كقول رسول الله ﷺ لأبي بردة وقد أراد أن يضحي بعناق: تجزئك ولا تجزئ أحداً بعدك. وكتزويجه أحد أصحابه فتاة بما معه من القرآن، أي بدون من المال العيني، وكاعتباره شهادة خزيمة بمنزلة شاهدين، وكمسحه ﷺ على عمامته في الوضوء. فهذه وأمثالها لا يقام عليها أحكام عامة، لأنها وردت متأثرة بأسباب استثنائية خاصة. فبقيت محصورة في نطاق الحال الذي ظهرت فيه، ولم يجز أن يمتد لها ذيل من التشريع العام المتجاوز لطبيعة تلك الحال. ومن أبرز قرائن وقائع الأحوال أنها تأتي معارضة لعموم حكم كلي لا شبهة فيه، من أجل سبب استثنائي لو نقبت عنه لاكتشفته (راجع الإحكام للآمدي: 70/2 والموافقات للشاطبي: 260/3 والمستصفى للغزالي 68/2).

ولو كان لتصرفاتهم آحاد الصحابة أو التابعين، مثلاً، قوة الدليل على حكم شرعي، دون حاجة الاعتماد على دليل آخر، لبطل أن يكونوا معرضين للخطأ و العصيان، ولكانوا مثل رسول الله ﷺ معصومين عن الوقوع في أي خطيئة أو انحراف. ومعلوم بالبداهة أن الأنبياء والرسل هم وحدهم المعصومون من الزلل والآثام، وأما من دونهم من الناس فما منهم إلا من ردَّ ورُدَّ عليه، وحق عليه قرار الله تعالى: كل بني آدم خطاء.

وبناءً على ذلك فإنما يكون السبيل إلى معرفة حكم الله تعالى في موضوع المرأة، بتلمس قرار كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ في ذلك، فإذا انتهينا إلى هذا القرار ورأيناه مؤيداً بفهم العلماء العاملين من أئمة الكتاب والسنة، فذلك هو الحكم الإلهي الذي يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يؤثر عليه بنسخ أو تحوير أو تقييد أن نجد آحاداً من الناس يخالفونه، من أي طبقة أو سوية كانوا.

كل ما عدا الوجه والكفين من المرأة عورة:

وقد كانت المرأة في العصر الجاهلي، تحرص على إظهار زينتها أمام الرجال، ولكنها لم تكن تبالغ في ذلك كشأن المرأة في الأمم الأخرى.

و قد كان الجيد والنحر وجمة الشعر من أبرز مفاتنها عناية وظهوراً أمام الرجل.

فلما جاء الإسلام، وتنزلت أحكامه الشرعية تترى، نزل في حق المرأة ولباسها قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)[1].

ونزل أيضاً في حقها قوله ﷻ:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[2].

---

[1] – سورة الأحزاب الآية:59.

[2] – سورة النور الآية:31.

((213))

ونـزل أيضـاً خطـاباً لنسـاء النـبي ﷺ، ولكـن بأسـلوب يعـم سـائر النسـاء المسـلمات عـن طريـق القياس الجلي، أو ما يسميه الأصوليون بـ ((تنقيح المناط)) قوله عز وجل:

(وَقَـرْنَ فِي بُيُـوتِكُنَّ وَلا تَبَـرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الْجَاهِلِيَّـةِ الْأُولَى وَأَقِمْـنَ الصَّـلاةَ وَآتِـينَ الزَّكَـاةَ وَأَطِعْـنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)[1].

فطبيعـة هـذه التعـاليم، كمـا تـرين، عامـة لسـائر المسـلمات، ولـيس فيهـا مـا يـدعو إلى أن تكـون خصوصـية لنسـاء النـبي عليـه الصـلاة والسـلام. وإنمـا جـاء الخطـاب لهـن خاصـة، تشـريفاً لهـن، وإلماحاً بأنهن أولى النساء بالانصياع لهذه الأوامر والتعليمات.

ف قـد دلـت الآيات بصـريح البيـان، علـى أن ذلـك التـبرج الـذي كانـت قـد تعـودت عليـه المـرأة العربيـة في جاهليتهـا، قـد أصـبح أمـراً محظـوراً وسـلوكاً محرمـاً، وأن عليهـا أن لا تكشـف مـن زينتهـا ومفاتنها أمام الغرباء إلا ما يظهر منها بطبيعة الحال وتقع في حرج وضيق من محاولة ستره.

وتلاحظـين كيـف وضـع البيـان الإلهـي هـذا الحكـم ضـمن إطـار بارز مـن الخطـورة والاهتمـام، عندما عدد أصناف الأقارب والناس الذين

((214))

يسـتثنون مـن عمـوم هـذا الحكـم، صـنفاً صـنفاً، وبتفصـيل لا مزيـد عليـه، رغـم مـا يغلـب علـى الأسـلوب القـرآني مـن الاعتمـاد علـى الإجمـال في بيـان معظـم الأحكـام الشـرعية، وتـرك التفصـيل فيه لبيان السنة المطهرة!.

فمـن أجـل ذلـك، أجمـع أئمـة المسـلمين كلهـم – لم يشـذ عـنهم أحـد – علـى أن مـا عـدا الوجـه والكفـين مـن المـرأة داخـل تحـت وجـوب السـتر، إذ الظـاهر الـذي قـد تتحـرج المـرأة مـن سـتره، لا يعـدو – مهمـا أردنا التسـاهل – أن يكـون الوجـه والكفـين علـى حالـة طبيعيـة لا زينـة فيهـا.. وقـد أمـر الله بسـتر مـا عـدا هـذا الظـاهر م جيـد ونحـر وشـعر وغـير ذلـك بـنص قـاطع صـريح. فلـم يقـع بـين أئمـة المسـلمين – مـن ذلـك – في أي عصـر مـن العصـور خـلاف في أنـه يحـرم علـى المـرأة أن تكشـف أمـام الأجانـب عنهـا – وهـم مـن عـدا الأصـناف الـذين اسـتثنيهم الآيـة – شـيئاً غـير الوجه والكفين من أي جزءٍ من أجزاءٍ جسمها.

تحقيق العلماء في الوجه ذاته:

---

[1] – سورة الأحزاب الآية:33.

إلا أن محل البحث والنظر فيما بينهم، إنما كان في أمر الوجه نفسه. وقد انقسم العلماء في ذلك إلى فريقين:

فأما الفريق الأول: فقد فسر ما ظهر من الزينة في الآية المذكورة، بزينة الثوب وأطراف الأعضاء وما قد يبدو معها كالخاتم ونحوه. فبقي الوجه والكفان داخلين في عامة ما يحظر كشفه، وعليه فلا يجوز للمرأة أن تكشف حتى وجهها وكفيها أمام غير من استثناها الله تعالى من أصناف الأقارب ومن يلوذ بهم[1].

ويستدل أصحاب هذا التفسير، وهم الحنابلة وبعض الشافعية، على ما ذهبوا إليه بالأدلة التالية:

1 -قول الله تعالى: (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)[2] والآية وإن كانت نازلة في حق نساء النبي ﷺ، إلا أن الحكم ليست له أي خصوصية بهن، والعلة فيه موجودة في جميع النساء. فالفرق بينهن وبين سائر النساء في ذلك ساقط عن الاعتبار أو أن الحكم شامل لجميع النساء عن طريق القياس الجلي، وهو ما يسمى أيضا بالقياس الأولى.

2 -ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في باب ما يلبس المحرم من الثياب: (لا تلثم المرأة ولا تتبرقع ولا تلبس ثوباً بورس ولا زعفران) ومثله ما رواه في الموطأ عن نافع أن عبد الله بن

عمر رضي الله عنهما كان يقول: ((لا تنقيب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين)). فما معنى المرأة عن أن تتبرقع أو أن تنتقب أثناء الإحرام بالحج، لو لم تكن في عامة أحوالها الأخرى مبرقعة؟.

3 -ما رواه البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أردف الفضل بن العباس يوم النحر خلفه – وفيه قصة الخثعمية التي وقفت تسأل رسول الله ﷺ – فطفق الفضل ينظر إليها، فأخذ النبي عليه الصلاة والسلام بذقن الفضل فحوَّل وجهه عنها. قالوا:

---

[1] – انظر تفسير البيضاوي عند تفسير قوله تعالى: إلا ما ظهر منها، والمغني لابن قدامة: 23/7، ومغني المحتاج في شرح منهاج الطالبين: 128/3.

[2] – سورة الأحزاب الآية: 53.

فلولا أن وجهها عورة لا يجوز نظر الرجل الأجنبي إليه، لما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك بالفضل، أما المرأة ذاتها فقد كان عذرها في كشفه أنها كانت محرمة بالحج.

4 -ما رواه مسلم عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((إياكم والدخول على النساء)) فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: ((الحمو الموت)). والحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقاربه.

فلولا أن المرأة بمجموعها عورة بالنسبة للأجانب من الرجال، لما أطلق النبي ﷺ النهي عن دخولهم عليهن، إذ النهي يشمل مختلف ما عليه من حالات، مادامت بادية الوجه كما هو شأن كل امرأة في بيتها. ولقد انسحب الحكم كما نرى حتى على

((317))

أخي الزوج فلا يجوز له هو الآخر أن يدخل على امرأة أخيه. ولو كان الوجه غير عورة لاستثني – تسهيلاً للأحماء – أن تكون المرأة ساترة لما عدا الوجه والكفين من أجزاء جسمها.

5 -ما أخرجه عبد الرزاق في مصنفه وغيره عن أم سلمة ﷺ قالت: لما نزلت آية الحجاب خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان وجوهن بفضول أكسيتهن، وإلا لم يتأت تشبيههن بها.

6 -ما أخرجه مسلم وغيره عن أنس بن مالك أن سليم صنعت حيساً (نوع من الحلوى) وأرسلت به إلى رسول ﷺ بمناسبة زواجه من زينب بنت جحش، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه، وجلسوا يأكلون ويتحدثون ورسول الله ﷺ جالس، مولية وجهها إلى الحائط إلى أن خرجوا.

والحديث واضح الدلالة على المطلوب. لا يقال: إن هذا قد يكون حكماً خاصاً بزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام. لأن الفرق بين زوجات النبي ﷺ وسائر النساء المسلمات، فيما يتعلق بالحجاب، إنما هو فرق زمني فقط، ذلك أن مشروعية الحجاب تمت في حق نسائه عليه الصلاة والسلام أولاً، ثم إنها عمت سائر النساء بعد حين.

((318))

وإذا كان وجوه نساء النبي ﷺ عورة بالنسبة للأجانب من الرجال – وهن أمهاتهن كما تعلمين – فلأن يكون ذلك من بقية النساء عورة أيضاً، من باب أولى.

7 -ما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في سبب إجلاء النبي عليه الصلاة والسلام ل يهود بني قينقاع عن المدينة، من أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ((ما يجلب إلى السوق للبيع)) فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت تكشف بعض جسمها فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين فقتله.. الخ. فلولا أن الحجاب الشرعي سابغ للوجه، لم يكن أي دافع إلى تسير هذه المرأة في الطريق ساترة وجهها، ولولا أنها قد فعلت ذلك تديناً لما وجد اليهود ما يدفعهم إلى مغايظة شعورها الديني بذلك.

وأما الفريق الثاني: فقد فسر ((ما ظهر منها)) بالوجه والكفين، إذ هما الظاهر الذي قد تتحرج المرأة من استدامة ستره، وهما الظاهر الذي تكشفه المرأة في الصلاة، فينبغي أن يكون الحكم في النظر مثله.

((319))

ولكن أصحاب هذا التفسير – وهم المالكية والحنفية وبعض الشافعية[1] – شرطوا لجواز كشف المرأة وجهها أن لا يكون ذلك في حالة تثير الفتنة بأن تكون مزينة أو بارزة الجمال، وأن لا تظهر أمام فساق يغلب على الظن أنهم لا يغضون من أبصارهم كما أمر الله، بل ينقادون لدوافع أهوائهم وشهواتهم. فإن فقد أحد الشرطين كان عليها أن تستر وجهها درءاً للفتنة بالنسبة للحالة الأولى وإزالة للمنكر الذي تسبب به في الحالة الثانية. وإنما يكون إزالة المنكر في مثل هذه الحال بأن تمنع الفساق من النظر إليها، أو بأن لا تخرج من بيتها إلى هؤلاء الناس، أو بأن تحجب وجهها عنهم، وهو أيسر الأسباب الثلاثة.

وعلى هذا، فإن كل ما ورد الأحاديث الصحيحة الدالة على الانتقاب، مما قد احتج به الفريق الأول، يفسر حالة الخوف من الفتنة، أو يفسر بالرغبة في الحيطة والورع، والراجح أن أكثر نساء الصحابة والتابعين فيهن من الورع وحب الحيطة في دين الله ما يدفعهن إلى الانتقاب.

((320))

محل الإجماع ونتيجة الخلاف:

---

[1] – انظر أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي: 1357/3، وأحكام القرآن للجصاص: 289/3، والدر المختار في باب الحظر والإباحة: 244/5 من حاشية ابن عابدين.

فقد تحصل من هذا الكلام أن أئمة المسلمين كلهم قد أجمعوا على ما يلي:

أولاً: لا يجوز أن تكشف المرأة، أمام غير الذين استثناهم الله عز وجل، شيئاً أكثر من وجهها وكفيها.

ثانياً: لا يجوز لها أن تكشف الوجه والكفين أيضاً، إذا علمت أن حولها من قد ينظر إليها النظر الذي نهى الله عنه، بأن يتبع النظرة النظرة، ولا تستطيع أن تزيل هذا المنكر إلا بحجب وجهها عنه. وعلى هذه الحالة يحمل ما نقله الخطيب الشربيني عن إمام الحرمين من اتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات الوجه[1].

وقد صرح بهذا القيد القرطبي، فيما نقله عن ابن خويزمنداد من أئمة المالكية: أن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك[2].

وقال صاحب الدر المختار من الحنفية: وتُمنع المرأة الشابة من

كشف الوجه بين الرجال، لا لأنه عورة، بل لخوف الفتنة، ولا يجوز النظر إليه بشهوة[3].

وهكذا، فقد ثبت الإجماع عند جميع الأئمة ((سواء من يرى منهم أن وجه المرأة عورة، كالحنابلة، ومن يرى منهم أنه غير عورة كالحنفية والمالكية)) أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها عند خوف الفتنة بأن كان ممن حولها من ينظر إليها بشهوة. ومنذا الذي يستطيع أن يزعم بأن الفتنة مأمونة اليوم، وأنه لا يوجد في الشوارع من ينظر إلى وجوه النساء بشهوة؟

ثالثاً: اتفقوا على جواز كشف المرأة وجهها، ترخصاً، لضرورة تعلم أو تطب أو عند أداء شهادة أو تعامل من شأنه أن يستوجب الشهادة.

فهذه النقاط الثلاثة محل إجماع لدى الأئمة وعامة الفقهاء.

ثم إنهم اختلفوا فيما وراء هذه الأحوال، وهو أن تكون إليها بريبة – وهذا فرض وهمي اليوم – فقد ذهب بعضهم، كما رأينا، إلى أنه لا حرج عليها في ذلك، وذهب آخرون إلى أنه يجب عليها أن تستر وجهها مطلقاً.

---

[1] – مني المحتاج: 129/3.

[2] – تفسير القرطبي: 228/12.

[3] – الدر المختار على هامش ابن عابدين: 284/1.

هـذا هـو حكـم الإسـلام في لبـاس المـرأة. اتفقـت عليـه كلمـة علمـاء المسـلمين كلهـم، معتمـدين في ذلـك علـى نصـوص واضـحة صـريحة في كتـاب الله تعـالى، وأحاديـث ثابتـة صـحيحة مـن سُـنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

فـإذا عثـرنا بعـد ذلـك علـى وقـائع وتصـرفات فرديـة لـبعض نسـاء الصـحابة أو التـابعين أو غـيرهم، تخـالف هـذا الـذي أجمـع عليـه الأئمـة ممـا دل عليـه صـريح الكتـاب والسُـنة، فإنهـا وقـائع محجوبـة بالحكـم المـبرم الـذي دل عليـه إجمـاع الأئمـة وصـريح الكتـاب والسـنة؛ وحاشـا أن يكـون حكم الله هو المحجوج بها.

وإذا تبـين لـك هـذا، فلتعلمـي أن مصـادر الشـريعة الإسـلامية لا تحـدد شـكلاً أو نوعـاً معينـاً مـن اللبـاس الـذي يجـب أن تلبسـه المـرأة. وإنمـا المطلـوب أن يكـون سـابغاً لجسـمها، لا يـبرز شـيئاً مـن مفاتنـه، ولا يحكـي أي جـزء مـن أجزائـه، وكمـال الثـوب طـولاً أن يصـل إلى الكعبـين، فـإن ارتفع عنه كره، وإن كان القدمان مستورين بجورب سميك.

عملها وتعلمها:

أمـا أن تباشـر المـرأة عمـلاً مـا، تسـتدر بـه الـرزق لنفسـها أو لأسـرتها، أو أن تعكـف علـى علـم مـن العلـوم المفيـدة تدرسـه وتتعلمـه – فلـيس للإسـلام فيـه إلا الحكـم العـام الـذي يشـمل المـرأة والرجل على السواء.

فـإن عثـرت علـى حالـة ينهـي فيهـا الإسـلام المـرأة عـن أن تعمـل خـارج بيتهـا أو تـتعلم، فـذلك لمـا قـد يصـحبه مـن ارتكـاب لـبعض المحـاظير؛ كـأن لا تلتـزم أحكـام السـتر والاحتجـاب عـن الأجانـب مـن الرجـال علـى النحـو الـذي أوضـحناه، أو كـأن يكـون عملهـا يسـتلزم قطـع أو تضـييق سـبيل الاكتسـاب علـى الرجـال، فيترتـب علـى ذلـك نشـوء اضـطراب في نظـام المسـؤوليات المنوطـة بالرجال لقضايا الأسرة خاصة والمجتمع الإسلامي عامة.

والمسـألة في ذلـك محكومـة بالقاعـدة الأصـولية المعروفـة: ((مـا لا يـتم الواجـب إلا بـه فهـو واجب وما يترتب عليه محرم فهو محرم)).

فالعمـل مهمـا كـان شـريفاً، يغـدو غـير شـريف، إذا اسـتدعى مـن المـرأة أن تخـرج عـن سـلطان سـترها، وأن تتـبرج أمـام الأجانـب مـن الرجـال. بـل هـو محـرم بالنسـبة لكـل مـن الرجـل والمـرأة معـاً، إذ هـو كمـا يسـتلزم مـن المـرأة الوقـوع في إثم التـبرج أمـام الرجـل، فهـو يسـتلزم مـن الرجـل الوقـوع في

إثم التبرج أمام الرجل، فهو يستلزم من الرجل الوقوع في إثم مخالطتهن ودوام النظر إليهن، والتعرض للافتتان بهن.

والعمل مهما كان مباحاً في أصله، يغدو بالنسبة للمرأة غير مباح، إذا تبين أنه اضطراباً في نظام المسؤوليات ا لاجتماعية التي وزعها الإسلام بين الرجال والنساء.

((224))

وبيان ذلك أن الشارع ﷻ نظم اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة عن طريق إخضاعه لضوابط الزواج وتنظيماته الشرعية. ولا يمكن أن يتحقق هذا النظام إلا بإيجاد وضع يجعل من أحد الجنسين غاية مطلوبة فقط ويجع ل الجنس الآخر طالباً لتلك الغاية ساعياً وراءها. فمن خلال هذا الوضع يمكن فرض النظام المذكور، وإقامته جسراً وحيداً لابد من عبوره والخضوع لكل ما فيه من ضوابط وحدود، بحيث لا يصل الباحث إلى غايته من الجنس الآخر إلا من هذا الطريق وحده.

فأيهما ينبغي أن يكون المطلوب.. الرجل أم المرأة؟

إن الوضع السليم الذي يضمن تحقيق النظام المذكور، محصور في أن تكون المرأة هي المطلوبة دائماً، وأن يكون الرجل هو الطالب لها والساعي وراءها.

ذلك لأن المرأة إذا كانت في و ضع يجعلها هي الساعية للبحث عن زوج لها، فقدت بذلك أخص سماتها الفطرية التي تتعلق بالجنس. فقد أقام الله تعالى تكوينها النفسي على نحو يجعلها متعة للرجل أكثر من أين يكون الرجل متعة لها، بل جعل سعادتها في شعورها بأنها كذلك وبأن الرجل منساق للخضوع لهذه المزية التي فيها. ولذلك كان الشأن في عبارات التودد والاستعطاف أن تأتي – في

((325))

أعم الأحوال من جانب الرجل، وأن يكون من المرأة تجاه ذلك دلال لا يصرف وتأثر لا يترامى أو يتهالك.

هذا شيء.. والشيء الثاني أن ضوابط التنظيم المذكور تفقد سلطانها، بل وجودها، إذا وجد الرجل أن المرأة هي التي تسعى إليه وتتعرض له هنا وهناك. فأي أمر يدعوه إلى أن يلتزم تجاهها بالشروط والقيود الشرعية التي المحنا إليها، وهي تسعى إليه بالعرض والرجاء؟.. ومتى كان قانون العرض والطلب متفقاً مع هذا المنطق المقلوب؟..

في أكثر أنحاء أوروبا نشأت أوضاع فرضت على المرأة أن تكون هي الطالبة للزوج والباحثة عنه في كثير من الأحيان، فما الذي ترتب على ذلك؟

من السهولة بمكان أن تعلمي الجواب، عندما تعلمين كم تسقط المرأة هناك من سقطة ويلهو بها من رجل، ريثما تعثر على الزوج الذي هو الزوج الحقيقي!..

الذي ترتب على ذلك، أن الرجال نظروا، فوجدوا فرص المتعة الخلفية الميسورة قد كثرت أمامهم، بفضل بحث النساء عن أزواج لهن في المجتمع. وأعجبهم الوضع.. فازدادوا تثاقلاً وزهداً في الزواج، لتزداد النساء بحثاً وسعياً وراءهم.

((326))

وهكذا كان سعي المرأة في البحث عن الزوج أهم سبب من أسباب فقدها له!..

وانتشرت موجة الإباحية لعدة عوامل، ولكن هذا العامل أهم واحد فيها. وتفسخت الأسرة وتهاوت أركانها لعدة عوامل، ولكن ما من شك أن هذا العامل أخطر واحد فيها، وفقدت المرأة هناك سعادتها، إذ فقدت أجمل وأغلى أحلامها، وهو الانضواء في عش زواج هانئ سعيد لعدة أسباب، ولكن ما من ريب أن هذا السبب كان في مقدمتها.

إذاً، ما من ريب أن ضبط اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة بنظام الزواج الشرعي، لا يتم إلا في أوضاع تفرض على الرجل أن يكون هو الطالب للزوجة، وتفرض على المرأة أن تكون هي المطلوبة.

فما هي الأوضاع التي تضمن تطبيق هذا الغرض؟..

ليس ثمة أي ضمانة لذلك إلا بواسطة تطبيق سياسة الشريعة الإسلامية في نظام الإنفاق!.. فالرجل هو المسؤول عن نفقة المرأة سواء أكان والدها أو زوجها أو أي قريب آخر لها. والمرأة تأخذ مهرها كاملاً من الزوج نِحْلَةً كما أمر الله عز وجل، ول س للزوج

((327))

أن يفرض عليها أي تعاون أو شركة فيه، فضلاً عن أن يحملها – بطريقة ما – على أن تتقدم هي إليه بالمهر. ونتيجة لذلك كان نصيب الرجل من الميراث ضعف نصيب المرأة منه، لأن نصف نصيب الرجل من ذلك، أو أكثر، يقتطع منه تحت سلطان هذا النظام الإلهي، ليضاف إلى نصيب المرأة.

وأثر هذا التنظيم المالي في حراسة المبدأ المذكور واضح جداً.

فإن الشأن – في المسلمَّات الاقتصادية – أن الذي يطالب الآخر بشيءٍ، يُقرّ إليه، وهذا الإقرار يعتبر حجة للآخر في أن يطالبه بالأجر أو القيمة. ومعنى ذلك أن الطالب للشيء هو الذي يبذل الثمن.

فإذا علم كل من المرأة والرجل أن الثاني هو المطالب بنفقات الزواج من مهر وإنفاق، لم يكن للمرأة من سبيل عندئذ للتقدم والطلب، لأن طلبها يعني – حينئذ – إعلان حاجتها إلى الزوج ومهره معاً، وهو وضع معكوس في ميزان تبادل المنافع وقانون العرض والطلب. وهكذا ينحصر السعي المادي لإقامته ركن الزوجية في الرجل فقط، وعندئذ يسهل حصره في سبيل الضوابط الشرعية التي ألمحنا إليها.

((328))

أما إذا اصطلح المجتمع على أن تكون نفقات الزواج من مهر وغيره شركة بين الزوجين، أو حقاً على الزوجة وحدها كما هو الحال في بعض جهات أوروبا، فإن الأمر عندئذ ينعكس بالتدريج: يتثاقل الرجل عن المبادرة إلى الزواج، ويخفي رغبته في ذلك، طمعاً في عروض أفضل!. وتزداد المنافسة من الطرف الآخر؛ إذ كان سبيل الفوز بالزوج هو الغنى الأوفر والعروض الأفضل، ثم تتوالد بعد ذلك النتائج السيئة الأخرى[1].

وكأني بك تستعجلين قائلة: لقد ابتعدنا كثيراً عن أصل البحث وإنما كان أصل الكلام في أن عمل المرأة مهما كان مباحاً في ذاته فإنه يغدو محرماً إذا كان من شأنه أن يخلق اضطراباً في ميزان المسؤوليات الاجتماعية الموزعة بين الرجل والمرأة. فما علاقة هذا الحديث الطويل كله بعمل المرأة؟ وأين هو أثر عملها في خلق الاضطراب المذكور؟

نقول: إن نتيجة حديثنا الطويل أيقنا فيه بأن المرأة

((329))

ينبغي أن تظل مطلوبة فقط، وأن الرجل يجب أن يكون هو الطالب لها، وأن ضمان ذلك لا يكون إلا بأن يكون الرجل هو الباذل والمنفق – نتيجة هذا الحديث هو أن نتساءل:

---

[1] – لسنا نقصد بهذا، التحذير عن أ ي تعاون يقوم بين الزوجين في سبيل حياة رغيدة لهما، بل نقول: إن هذا التعاون مكرمة تدعو إليها الشريعة الإسلامية وتحبذها، ولكنها تدعو إليها في النطاق الأخلاقي وفي حدود الرغبة الشخصية التي تتم بعد توفر المحبة والتآلف بين الزوجين، لا على الصعيد القانوني الملزم، وفيما بين شخصين ليس بينهما من الصلة إلا فكرة الاستفادة والانتفاع.

فكيف السبيل إلى أن يظل الرجل هو المتحمل لعبء هذه النفقات، وإلى أن لا تستدرج المرأة إلى مشاركة الرجل فيه أو أن لا تقوم في ذلك مقامه؟

والجواب: إن الضمانة الكبرى لبقاء الأمور على نهجها السوي، هي أن لا تنزل المرأة إلى ميدان العمل من أجل الرزق إلا في أضيق الظروف والحالات الضرورية.

لأن المرأة عندما تشترك مع الرجل وتنافسه في تنمية المال وجمعه؛ إنما تضيق من سبيل ذلك على الرجل بلا شك. فتضطرب بذلك الصلة بين التزاماته المادية ومجالاته الكسبية، بسبب ضيق هذه الثانية وبقاء الأولى على ما هي عليه، فتتولد من ذلك مشكلة بل معضلة، سرعان ما يبدو لأرباب النظر السطحي أن لا حل لها سوى جعل المرأة شريكة مع الرجل في غرم النفقات كما أصبحت شريكة له في غنيمة الكسب!.

وإذاً فإن اشتراك المرأة مع الرجل في الكسب المطلق ((أي دون تقييد بحالات الضرورة)) هو أهم الدوافع إلى اشتراكها معه في

((330))

نفقات الزواج، وهو بالتالي أهم الدوافع إلى أن يتحول الأمر عن سبيله الطبيعي، فتصبح المرأة ((بالتدرج)) هي الباحثة عن الزوج والمبادرة إلى طلبه. وعندئذ فقط ستفقده، لتجد في مكانه خليل اليوم واليومين، بل صاحب الساعة والساعتين!..

ونتيجة لهذا كله نقول: إن عمل المرأة في اكتساب الرزق، يعد في جوهره من المباحات التي لا فرق فيها بين الرجل والمرأة. ولكنه يكتسب بعد ذلك حكم الحرمة إذا ترتب عليه محرم. وإنما يترتب عليه ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن تفقد المرأة بذلك قدرتها على الاحتجاب عن الرجال على النحو الذي أمر الله تعالى به، وتشيع بينها وبينهم الخلطة الفاحشة.

الثاني: أن يتسبب عن ذلك الاضطراب الذي شرحناه فيختل بذلك الميزان الشرعي الذي يسير عليه قانون الزواج، فتنشأ عنه المخاطر المخيفة التي ألمحنا إليها. فعند ذلك ينقلب المباح إلى محرمات لا مزية فيه، إذ الأمور بنتائجها القريبة أو البعيدة لا بأشكالها وصورها الجامدة.

((331))

شُبَهٌ عِلميَّة مُصْطنَعة

إن فيما أوضحته لك من حكم الله تعالى في لباس المرأة وتعلمها وعملها، مقروناً بالأدلة الواضحة التي لا مجال ففيها لبس ولا تأويل – لكفاية وبلاغاً، لمن صدق الله عز وجل في طلب معرفة حكمه، وصدق مع نفسه ومع الناس في الإيمان بأن القرآن كلام الله عز وجل، وأن مُحَمَّداً نبيه المرسل إلى العالم كله بشيراً ونذيراً.

أما من كان على شُعبة من النفاق في إيمانه بالله، أو في طلب معرفة حكمه، أو في السعي لنيل مرضاته، فإنه يستطيع أن يقحم في كل سطر مما ذكرناه شبهة وإشكالاً، ويستطيع أن يستثير من بطون كتاب الله ومن منثور سنته ما قد يتعلق به في إثبات عكس ما قلناه، وإن كان يعلم عند نفسه أنه كاذب في ذلك!.

وصناع التأويل في الكلام، والتلاعب بالألفاظ ليست عسيرة، أتقنها بنو إسرائيل من قبل لنيل عَرَضٍ من الدنيا قليل، ويتقنها كثير من المحامين اليوم لجمع مزيد من البضاعة نفسها، كما يتقنها كثير من المشتغلين ببضاعة العلم الشرعي، ليتجملوا بذلك أمام من يملكون – في الظاهر – رعايتهم ودفعهم في سلم المناصب الدنيوية الفانية.

((232))

يقول الإمام الشاطبي في كتابه ((الموافقات)) بعد أن استعرض صوراً ونماذج من حيل المبطلين في التلاعب بنصوص الأدلة والتحايل على قواعد الأحكام:

((ولذلك لا تجد فرقة من الفرق الضالة، ولا أحداً من المختلفين في الأحكام يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة، وقد مر من ذلك أمثلة. بل قد شاهدنا ورأينا من الفساق من يستدل على مسائل الفسق بأدلة ينسبها إلى الشريعة المنزهة. وفي كتب التواريخ والأخبار من ذلك طرف ما أشنعها في الافتئات على الشريعة.

وانظر في مسألة التداوي من الخمار[1] في درة الغواص للحريري

---

[1] – حاصل المسألة أن حامد بن عباس (وزير المقتدر العباسي) سال علي بن عيسى في ديوان الوزارة عن دواء الخمار،وكان علق به، فأعرض عنه، فسأل قاضي القضاة أبا عمرو فقال: قال الله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال النبي عليه الصلاة والسلام: (استعينوا في الصناعات بأهلها) والأعشى هو المشهور بهذه الصناعة في الجاهلية وقد قال:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

ثم تلا أبو نواس في الإسلام فقال:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

((333))

وأشباهها، بل قد استدل بعض النصارى على صحة ما هم عليه الآن بالقرآن، ثم تخيل فاستدل على أنهم مع ذلك كالمسلمين في التوحيد، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

فلهذا كله على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل[1])).

ولكن ليس معنى هذا الذي نقوله، أن الطالب لمعرفة الحق يضيع بين تلبيس المخادعين ونصيحة العلماء الصادقين، فإن الصادق في طلب الحق لا يعدم أن يجد دلائل الحق في محكمات النصوص الواضحة النيرة، فإن تاه عن معرفة هذه النصوص لم يعدم أن يجد دلائله فيما اجتمع عليه السلف الصالح خلال القرون الماضية، فإن لم يعلم شيئاً عن أخبار السلف، لم يعدم أن يجد دلائله في استقامة العالم الذي يفتنه وحسن سيره وسيرته بين الناس وثباته أمام مزالق الفتن والأهواء. فإن عدم من حقائق إسلامه ما يبصره بشيء من هذا كله، فإن بلاءه من نفسه قبل أن يكون من مكيدة المخادعين أو مكر المضللين. إذ لا يكون المسلم حقاً إلا بعد

((334))

أن يكون على شيء من البصيرة بدينه بحيث تشير له – ولو من بعد – إلى معالم الحق، وتحذره – ولو في الجملة – من مهاوي الضلال. وهو مكلف باكتساب هذا القدر من البصيرة الإسلامية، إذا كان حقاً يريد الإسلام والخضوع من خلاله لحكم الله.

وإذا كان هذا هو واجب كل مسلم يمر فوق قنطرة هذه الحياة، فإن واجب من استودع الله لديهم شيئاً من خصائص العلم أو طاقة التنبيه والبيان ممن يبايعون الله على الصدق معه والنصيحة لدينه، أن يعينوا عامة المسلمين على استحصال هذه البصيرة الإسلامية العامة، وأن يكشفوا لهم عن زغل العلم ومكائد المضلين كلما انتصب أمامهم شيءٌ من ذلك على الطريق.

فأسفر وجه حامد بالجواب، والتفت إلى علي بن عيسى قائلاً:

ما ضرك لو أجبت كما أجاب قاضي القضاة وقد استظهر بالآية والحديث؟! أ.هـ .

ولا ريب إن هذا مجون دنيء من قاضي القضاة شأنه شأن المجون الذي يصدر عادة عن كثير من أمثاله من الفساق والمستهترين.

[1] – الموافقات للشاطبي: 76/3و 77.

أجل، إن على شتى فئات المسلمين وطبقاتهم أن يتعاونوا لمعرفة الحق، وأن يأخذ بعضهم بحجز بعض إتقاء الانزلاق في غضب الله، والانحراف إلى شباك الشياطين، فبذلك ينعزل المضللون وتتعرى مكائدهم فلا ينخدع بها أحد.

وما أحسب أن ثمة موضوعاً يلقي فيه المضللون بكل ثقلهم، ابتغاء تلبيس بالباطل وتضييع معالم الحكم الإلهي فيه، أخطر وأهم من موضوع المرأة. وما رأيت مجلة من المجلات أو صحيفة من الصحف التي لا شأن لها بالإسلام من قريب أو بعيد،

إلا وتلبس مسوح الدين وتتربع على أريكة الإرشاد الديني عندما يتقدم إليها من جاء يحمل لها شبهة فيما يتعلق بشأن المرأة التقطها من بعض كتب التاريخ أو اختلقها اختلاقاً من بعض مصادر التشريع، حيث تنشره باسم الدين وهديه في صفحاتها الأولى، حتى إذا جاء من ينبهها إلى أنها شبهة ملفقة أو أكذوبة مدبرة، أسرعت فخلعت مسوحها وركلت منبر الإرشاد الديني بقدمها ونسيت تبجيلها المصطنع للرسول ﷺ إذ كانت تنسب إليه الأضاليل، وتصامَّت وتعامت عن تذكرة الحق بعدما اتخذت من نفسها مطية ذلولاً لمكيدة باطلة صلعاء[1].

فما هي هذه الشبه؟

---

[1] – تلقت مجلة العربي، فيما نعلم، عشرات الأبحاث والكلمات، مختصرة ومطولة، كلها تعقيب على مقال للشيخ أحمد حسن الباقوري الذي أوهم الناس في تلك المجلة إباحة اختلاط النساء بالرجال على نحو ما يتم في مجتمعنا اليوم. والكثير من هذه الكلمات يتسم بالموضوعية واللطف والابتعاد عن التجريح الشخصي. ولكن كبير القائمين على هذه المجلة رفض أن يدرك قيمة شرف الكلمة وحرية الفكر، فأصم أذنيه وأعمى عينيه عن جمعها. فعل ذلك حرصاً منه على الخديعة التي طرحها الباقوري بين الناس أن لا تنكشف فيظهر الحق الأبلج من ورائها!.

والشيء الذي غاب عن كبير القائمين على هذه المجلة، أن الناس رجلان: رجل منحط في شهواته وإباحيته، فهو لا ينتظر فتوى الباقوري ولا إذاعة ((العربي)) لها، وآخر أسلم وجهه لله فهو حريص – ما أمكنه الأمر – على السير في سبيل مرضاة ربه، فهو لا يمكن أن يولي وجهه شطر ((العربي)) أو الباقوري ليأخذ حكم الله منهما.

لقد رحب الرجل بمنطق التمويه فأطلقه بين آلاف الناس، وضاق ذرعاً بصوت الحق فأجهد نفسه في خنقه واطراحه، ولكن لا التمويه عاش تمويهاً ولا الحق مات مختنقاً.

مئات الناس في كل بلد مسلم أوسعوا التمويه صفعاً وتجريداً بمنطق الأمانة والعلم، حتى تعرى فوق منبره ومات، ثم اجتمعوا على الحق إعلاء وإبانة وتصعيداً، حتى عاد أقوى مما كان في النفوس وأوضح مما كان في العقول.

والخسارة، إنما هي خسارة ذي شيبة تذكره بالموت الذي يكمن وراء أ ذنه، والرب الذي يرقب دقائق أنفاسه، ولكن لغو الدنيا لا يكاد يدعه يصحو إلى شيء!.

إنـني سأستعرضـها معـك أيتهـا الأخـت المسـلمة. فـإن في معرفتهـا علـى حقيقتهـا مـا يزيـد إيمانـك بالحـق الإلهـي الـذي أوضـحناه، ومـا يزيـدك حـذراً مـن كيـد المضـللين وأكاذيـب المـؤتفكين، وإن في ذلـك أيضـاً مـا يغنيـك ببصـيرة ثاقبـة تميـز لـك الحـق عـن الباطـل حـتى وإن جـاء هـذا الثـاني – في بعض ألأحيان – مقنعاً بشارات الدين ورسومه.

الشـبهة الأولى: حـديث تعلـق بـه بعضـهم لإثبـات أن المـرأة لهـا أن تختلط بالأجانـب عنهـا كمـا تشـاء، ودون أن تتكلـف لـذلك أي سـتر أو احتجـاب. وهـو مـا رواه مسـلم ((عـن أنـس رضـي الله عنـه أن جـاراً لرسـول الله ﷺ فارسـياً كـان طيـب المـرق –كنايـة عـن طيـب الطعـام – فصـنع لرسول الله ﷺ، ثم جاء يدعوه. فقال: وهذه؟..

لعائشة، فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: لا؛ ثم عاد يدعوه، فقال

((337))

رسول الله ﷺ: وهذه؟ قال، نعم في الثالثة، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله)).

فهـذا الحـديث لا يـدل ممـا نحـن فيـه علـى أكثـر مـن شـيءٍ واحـد، وهـو أن رسـول الله ﷺ اصـطحب عائشـة معـه إلى بيـت الرجـل الفارسـي، وهـو كمـا دلـت أحاديـث كثـيرة أخـرى علـى اصـطحاب الصـحابة نسـاءهم إلى المسـاجد، وكمـا دلـت أحاديـث أخـرى علـى زيارة كثـير مـن الصـحابة لأمهـات المـؤمنين عامـة وعائشـة ﵂ خاصـة، مـن أجـل روايـة الحـديث، أو أخـذ الفتـاوى، أو السـؤال عـن بعـض أحـوال النـبي عليـه الصـلاة والسـلام. فـأي تعـارض تـرين بـين هـذه الدلالـة الـتي لا إشـكال فيهـا ولا نـزاع، والحكـم الإلهـي القاضـي باحتجـاب المـرأة عـن الرجـال والآمر لهم إذا جاؤوا يسألونهن حاجة أن يسألوهُّن من وراء حجاب؟!.

أمـا أن يـرفض رسـول الله ﷺ الاسـتجابة لـدعوة الفارسـي إلا أن تصـحبه عائشـة ﵂، فشـيءٌ ثابـت لا إشـكال فيـه ولا منقصـة. بـل إن فيـه الصـورة البـارزة لجميـل خلقـه ﷺ مـع أهلـه وعظـيم رحمتـه وعاطفتـه تجاههـا. فقـد كانـت تمـر الأيام الطويلـة المتتابعـة ولا يسـتوقد في بيـت رسـول الله ﷺ نار لطعام، وإنما طعامه عليه الصلاة والسلام أهله –كما تروي عائشة ﵂ – الأسودان:

((338))

التمـر والمـاء. أفيـترك رسـول الله ﷺ أهلـه – وهـي إنمـا ترضـى بالشـظف أسـوة بـه – لـيجلس مـن ورائهـا إلى مائـدة شـهية عـامرة عنـد جـاره الفارسـي؟!.. مـا كـان خلـق رسـول الله ﷺ ليرضـى بذلك!..

وما رضي ذلك أيضاً عندما دعاه جابر – وقد كان الجوع يمتص أحشاءه سائر أصحابه عند حفر الخندق- إلى عناق صغير لا يملأ قصعة ثريد، حتى استاق أمامه كافة أصحابه، فقدمهم على نفسه، وثرد اللحم أمامهم بيده، واتخذ مكانه، خادماً لهم، خلف قدر الطعام، لا يرضى أن يأكل حتى يستوثق أنهم قد شبعوا؛ وإن الحجر لمعصوب من الجوع على بطنه..

وأما أن يكون في ذلك ما يدل على أن عائشة ﵂ ذهبت مع رسول الله ﷺ متبرجة، وجلست أمام الفارسي سافرة واختلطت ((العائلات)) على نحو ما يتم اليوم في الأسر الإسلامية التي لا سلطان لدين الله على حياتها – فهو شيءٌ لا سبيل في الحديث لأي دلالة عليه. وحمل الحديث على هذا المعنى كحمل الشر ق على أن يولد من داخله الغرب!..

إن الذي يفسر الكيفية التي ذهبت عليها عائشة مع رسول الله ﷺ إذ ذاك، إنما هو قول الله عز وجل:

(وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)[1] وقوله ﷻ: (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)[2] وقوله تعالى: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ)[3] الآية.

والذي يفسر ويشرح هذه الكيفية أيضاً هو الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أنس بن مالك ﵁ ((أن أم سليم صنعت حيساً – نوع من الحلوى – وأرسلت به إلى رسول الله ﷺ بمناسبة زواجه من زينب بنت جحش، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه، وجلسوا يأكلون ويتحدثون ورسول الله ﷺ جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط إلى أن خرجوا)).

ومن العبث العجيب بدين الله تعالى أن نتعامى عن هذه النصوص التي تشرح لنا الحالة التي ذهبت عليها عائشة مع النبي عليه الصلاة والسلام إلى دار الجار الفارسي، لنتعمد في شرحها على خيال من يتخيل أنها ذهبت كما ذهب بنت الحضارة الغربية اليوم: متزينة متبرجة متعطرة!.. ثم نجعل من هذا الخيال حجة دامغة، ثم نبني عليها شريعة ثابتة، ثم ننسخ بها كافة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي استعرضناها معاً قبل قليل!.

فتلك هي قصة الشبهة الأولى. وما هي بشبهة ولكنها تضليل رخيص.

---

[1] – سورة الأحزاب الآية: 33.

[2] – سورة الأحزاب الآية: 53.

[3] – سورة النور الآية: 31.

الشبهة الثانية: ما رواه البخاري عن سهل، قال: لما عرَّس[1] أبو أسيد الساعدي دعا النبي ﷺ وأصحابه، فما صنع لهم طعاماً ولا قربه إليهم إلا امرأته أم سيد، بلت تمرات في تور – إناء – من حجارة، من الليل، فلما فرغ النبي ﷺ من الطعام أماثته له أي – هرسته بيدها – فسقته، تتحفه بذلك.

فلقد تعلق بهذا الحديث أيضاً من اشتهى أن لا يكون على المرأة من حرج في أن تستقبل الضيوف من أصدقاء زوجها أو أهلها فتخدمهم بنفسها، وتقدم لهم الضيافة والشراب بيدها، وتجالسهم للتفكه والحديث، على نحو ما هو واقع في كثير من البيوتات التي انحسرت عنها ظلال الفضيلة وسلطان الدين.

وأنت تعلمين أن المنكر في الأمر ليس عبارة عن تقديم المرأة فنجان القهوة إلى الضيوف، وإنما المنكر ما قد يصاحب ذلك من العري والزينة اللتين تظهر المرأة بهما، وليس الشأن فيما تعارف عليه الناس اليوم في تقديم فنجان القهوة، وإنما الشأن كل الشأن في المظهر الخلاب الذي تتقدم به المرأة مع فنجان القهوة!.

ولقد علم الفقهاء وعلماء المسلمين جميعاً، أنه لا ضير في أن

تتقدم المرأة بسترها الإسلامي الكامل الذي شرحنا حدوده فتقدم إلى ضيوف في دارها طعاماً أو شراباً تكرمهم به، وزوجها أو قريبها جالس.

وهذا هو الذي وقع من امرأة أبي أسيد في حفل عرسه. فقد قال ابن حجر عند شرح هذا الحديث: ولا يخفى أن محل ذلك عند أمن الفتنة ومراعاة ما يجب عليها من الستر[2].

وليس كثيراً في حفل يحضره رسول الله ﷺ، أن تكرم العروس مقدم رسول الله ﷺ، فتتولى بنفسها إكرام رسول الله ﷺ وتقديم الضيافة إليه. وليس في ذلك ما يشينها، كما أنه ليس فيه ما يلصق به عليه الصلاة والسلام أي منقصة.

إنما الشين واقع، فيما لو عثر المتعلق بذا الحديث على أنها برزت أمام الرجال سافرة بادية الجسم والزينة، وهذا ما لا يمكن أن يعثر عليه، وما لا دليل له في الحديث.

---

[1] – قال في الفتح: كذا و قع بتشديد الراء، وقد أنكره الجوهري، فقال: أعرس، ولا تقل: عرس.

[2] – فتح الباري: 200/9.

لقد ظهر الكثير من نساء الصحابة في صفوف القتال يضمدن الجرحى ويسقين العطاش، ومنهن أم سليم ﷺ، فمن قال إن ذلك دليل إذاً على ان المرأة لا حرج عليها في أن تختلط

((342))

بالرجال كما تشاء وأن تتزين أمامهم كما تريد؟! بل لقد قال كثير من الفقهاء: إن للمرأة أن تتولى منصب القضاء فيما يحق لها الشهادة فيه، وقالوا: إن لها أن تتولى منصب الفتوى. فمنذا الذي يستطيع أن يزعم – اعتماداً على أثارة من علم – بأن للمرأة إذاً أن تتحرر من قيد الستر والحجاب، وأن تأخذ حظها من متعة الزينة والمظهر أمام من تشاء؟!..

قامت العروس بنفسها، تقدم الشراب إلى رسول الله ﷺ. إذاً فللمرأة أن تعرض زينتها ومفاتنها أمام الرجال!.. هل هذا إلا كم يقول: لقد شرع الله التجارة بالمال والسعي في الأرض من أجل الرزق، إذاً فللتاجر أن يرابي ويغش، وأن يخدع ويغبن!.. ومنذا الذي عرف الإسلام ثم لم يعرف أنه قد جمع للناس أطراف المصالح كلها عندما شرع لهم السبيل إليها، صافية من كدورات الشر، خالية من بواعث الفساد مكلوءة بقيود التحذير من الإنحراف؟

هل يريد صاحب هذه الشبهة من الشارع الحكيم ﷻ، أن يجعل من المرأة رجساً لا تسير في طريق، ولا تعالج مشكلة، ولا تتعاون مع الرجل في أمر، وعندئذ فقط يفهم معنى قوله: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)[1]؟.. إذاً فأين هو من أبرز مزية عظمى

((343))

للإسلام، إذ تناول من شؤون الناس وأحوالهم كل ما فيه مصلحة حقيقية لدين أو حياة أو عقل أو نسل أو مال، فشرعه وندب إليه، وشذب عنه كل ما قد علق أو اتصل به أسباب الشر والفساد، دون أن يترك سبيلاً لتأثير أحدهما على الآخر، إذا أمكن الفصل بينهما وتيسر للإنسان أن يختار منهما ما يشاء؟.

إنها ليست شبهة تحتاج إلى بحث، ولكنها –كما ترين – شبكة صياد لا تحتاجين معها إلا إلى حذر واتقاء.

الشبهة الثالثة: إن في شهيرات نساء الإسلام، على اختلاف طبقاتهن، كثيراً ممن لم يضربن علة وجوههن الحجاب، رغم ما عرف به، من شدة الاختلاط بالرجال.

---

[1] – سورة النور الآية: 31.

ولقد عمد المروجون لهذه الشبهة إلى التاريخ وكتب التراجم، ينقبون فيهما، بحثاً عن مثل هؤلاء النساء، حيث التقطوا أسماء عدد من النساء لم يكنَّ يُبالين – فيما نقلته الأخبار عنهن – أن يظهرن سافرات أمام الرجال، وأن يلتقين معهم في ندوات علمية وأدبية دون أي تحرز أو تحرج. فذكروا منهن عائشة بنت طلحة التي لم تكن تستر وجهاً عن أحد مطلقاً، والسيدة سكينة بنت

((344))

الحسين التي كان لها مجلسها وندوتها الأدبية التي كان يلتقي فيها صفوة الأدباء والشعراء، وهند بنت النعمان بن بشير التي كانت تبرز في كثير من المناسبات أما الرجال سافرة الوجه، والسيدة زوجة عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، والسيدة خرقاء العامرية وفاطمة بنتها اللتان كان لهما مجلسهما المشهود أثناء موسم الحج، حتى أحبها ذو الرمة وأنشد فيها من عيون روائعه الشعرية، وولادة عشيقة ابن زيدون الذي كان يغشى منتداها الأدبي المشهور!.

بأخبار مثل هؤلاء النساء، احتج صاحب هذه الشبهة على أن الشريعة الإسلامية لم تقيد المرأة بأي ستر أو احتجاب، ولم تمنعها من أن تخالط الرجال في مجالسهم وأنديتهم دون أي فارق بينهاوبينهم..

فأي مصدر من مصادر الشريعة تعتبر مثل هذه الأخبار؟.. أهي كتاب، أم سنة، أم إجماع، أم قياس.. وما علمنا وراء هذه المصادر الأربعة دليلاً يثبت به تشريع!..

وإذا كانت تراجم آحاد الناس وأحوالهم دليلاً شرعياً متبعاً فما لنا لا نقول بحل شرب الخمر وقد وجد في الصحابة والتابعين وخلفاء المسلمين من شربها؟.. بل ما لنا لا نقول بحل الفاحشة وقد وجد في الصحابة والتابعين ومن بعدهم من قد ارتكبها؟..

((345))

وما لنا نردد ما قاله رسول الله ﷺ: كل بني آدم خطاءٌ، إذا كنا نعد أخطاء بني آدم حجة وتشريعاً؟.

إن من بديهيات الإسلام أن تصرفات أحد من الناس لا تعتبر دليل تشريع إلا أن يكون رسولاً أوحي إليه بشرع من الله عز وجل، فإن كلاً من أعماله وأقواله وصفاته وإقراره يعتبر مصدر تشريع، فهل كان هؤلاء النساء اللاتي التقط صاحب الشبهة أخبارهن، رسولات من الله إلى الناس؟

ومهما يكن من شأنهن في نظر صاحب الشبهة، فقد كان إلى جانب كل منهن سواد أعظم من النساء المتحجبات الساترات لزينتهن عن سائر الأجانب من الرجال. فلماذا لا يكون حال هذه الجمهرة العظيمة هي الحجة في هذا الشأن بدلاً من حال القلة اللاتي جمعهن صاحب الشبهة من شتى الطبقات والعصور؟

أجل.. لقد كانت عائشة بنت طلحة تأبى أن تحجب وجهها، وقد كان زوجها مصعب بن الزبير يلومها على ذلك بين الحين والآخر. وإنا لنرى في إنكار مصعب عليها من الدليل على الحق الذي نقول، أضعاف ما في تصرفها من الدليل على الباطل الذي يروجون له.

((346))

ولقد كانت فاطمة العامرية أيضاً –كما قالوا – تكشف وجهها أمام الرجال حتى افتتن بها ذو الرمة، وصاغ كثيراً من قصائدها تغزلاً بها أو تشوقاً إليها، ولقد كانت ولادة أيضاً لا تبالي أن تستقبل الأدباء والشعراء في منتداها الأدبي بادية الوجه والمحاسن، حتى تولّه بها ابن زيدون. ولكنا نرى والله افتتان ذي الرمة بالأولى وتولّه ابن زيدون بالثانية من الدليل على حق الذي شرعه أحكم الحاكمين وإضعاف ما في استهتار كل منهما من الدليل على ما يشتهيه المبطلون!.. إن صح بينهما وجه للمقارنة والمفاضلة الشكلية!.

وحصيلة هذا الكلام كله، أن الدليل الشرعي إنما هو آية من كتاب الله، عن رسول الله، أو إجماع أهل الحل والعقد من المسلمين، أو قياس على حكم ثبت بدليل من تلك الأدلة الثلاثة. فهذه الأدلة هي التي تتحكم في تصرفات الناس وشؤونهم، وليست تصرفات الناس هي التي تتحكم فيها بأي نسخ أو تحوير أو تفسير.

وهذا كلام بينٌ مفهوم لا يغيب إلا عمن كان صاحب غرض أو عصبية أو هوى، فهو يتجاهل البديهيات كي يقفز من فوقها إلى الأمر الذي يبغيه والهوى الذي يشتهيه.

((347))

الشبهة الرابعة: دليل اجتهادي، يعتمد في الشكل- على قاعدة أصولية مشهورة وهي ((تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان))[1] ويسير في النظر والاجتهاد على الطريقة التالية:

لم تكن الحياة فيما مضى قائمة على أساس التصنيع وسلطان الآلة؛ فلم تكن الحاجة ماسة إلى تكاثر الأيدي العاملة وتضافرها، وقد كان التشريع – سواء فيما يتعلق بشأن المرأة وغيرها

[1] – هذه القاعدة هي كل ما يحفظه ويعرفه المفتونون بالحياة العصرية الجديدة من قواعد الشريعة الإسلامية وأصولها.

– متفقاً مع طبيعة تلك الحياة، ومتسقاً مع مقتضيات تلك المرحلة الحضارية، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى خروج المرأة من بيتها إلا في حالات اضطرارية نادرة.

ولكن الحياة لما تطورت بعد ذلك تطورها الهائل العجيب، وأصبحت الآلة محور النمو الحضاري عند سائر الأمم والشعوب، وغدا التصنيع ضرورة لابد منها لمقاومة أسباب التخلف، أصبحنا بحاجة ماسة إلى حشد كل يد عاملة، والاستفادة من كل طاقة إنسانية للحاق بحركة الالة وإدارة عجلة التصنيع. وإنما يكون ذلك باشتراك المرأة التي هي نصف المجتمع مع الرجل في قيادة هذه الحياة الجديدة والاستفادة من طبيعتها. ولا يمكن أن تشترك المرأة معه

((348))

في شيء من مرافق الحياة الجديدة وهي مقيدة بقيود الستر والحجاب. وهكذا تبدل الزمن الذي نشأ في ظله الحكم الشرعي السابق، فاقتضى الأمر أن يتبدل الحكم معه تطبيقاً لقاعدة ((تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان)).

فهذه شبهة اجتهادية يرددها اليوم كثير من الناس، وبعضهم يدرك وجه المغالطة فيها، ولكنه يخادع المسلمين بها، وبعضهم يحسبها دليلاً شرعياً صحيحاً فيمضي بها ويفتي بين الناس على أساسها!..

والحقيقة أنه لا القاعدة الأصولية التي يحتجون بها ذات صلة أو علاقة بهذا الموضوع، ولا التطور الصناعي المزعوم مستوجب لكل هذا الذي يدَّعون.

مثل هذا الكلام يقال في أمة تشكو مصانعها الوفيرة العامرة الفراغ من الأيدي التي تديرها، أو في أمة تبحث فيما بينها فلا تجد شاباً واحداً يتسكع على ناصية شارع أو يجتر البطالة في زاوية أحد المقاهي. ومعلوم أن مثل هذه الأمة لم تظهر بعد حتى في دول الدرجة الأولى بهذا الاعتبار.

يظن هؤلاء الناس أن المرأة في أوروبا وأمريكا إنما تشترك مع الرجل في العمل من أجل أن يتعاونا للحاق بالآلة التي لا تتوقف، فيحلو

((349))

لهم – بناء على هذا الوهم – أن يستعيضوا عن التخلص الحقيقي من واقع ما يعانونه من التلخف والعجز، بمجرد المحاكاة والتقليد في أمر تهواه النفوس وتركن إليه النوازع الجنسية عند

الإنسان. فيمضون يسلكون إلى التقدم الصناعي أو الحضاري هذا السبيل الشهواني وحده، وكأنهم قد فتحوا بذلك مغاليق الدنيا كلها!. وبديهي أن هذا الظن خطأ من أساسه.

إن اشتراك المرأة مع الرجل في مجالات الكسب في أوروبا ونحوها، يرجع إلى دافعين:

أولهما: تفاقم سلطان الإباحية والمتعة الجنسية، حتى لم يعد يصبر الرجل عن المرأة والعكس، في أي طور من أطوار العمل أو شأن من شؤون الحياة. فالرجل حريص على أن تكون المرأة إلى جانبه في الوظيفة التي يقوم بها والمعمل الذي يشتغل فيه، والمتجر الذي يتردد عليه، والمطعم الذي يغشاه، والشارع الذي يسير فيه. وهو بطبيعته وضع شاذ يتسبب في شقاء أكثر مما يتسبب في إسعادهما.

ثانيهما: دافع الشح والتكالب المادي، والرجل الغربي يعاني اليوم من هذا الشح الشيء المذهل العجيب!.. فرب الأسرة، لا يرى ما يدعوه للإنفاق على ابنته، طالما يعتقد أنها قادرة على أن

تذهب فتشتغل في أي وظيفة أو معمل أو مطعم أو فندق!..

وكذلك الزوج، لا يرى ما يدعوه للإنفاق على الزوجة التي بوسعها أن تنطلق فتأتي بالمال من أي مكان.

وهكذا، البذخ الشديد من جانب، يستلزم الشح والبخل الشديدين من جانب آخر!.. لأن أولهما لا يأخذ حظه إلا بالاعتماد على الثاني.

إن على مروجي هذه الشبهة أن يدركوا ما يمكن أن يدركه كل مفكر، من انصهار الغرب في أتون المادة حول الذات الإنسانية بكل خصائصها وأشواقها ونوازعها الخلقية إلى ما يشبه كتلاً ممسوخة من المادة! فهي تتحرك وتذهب وتجيء في فلك المادة وسلطانها، فلا جرم إن كان ما يسمى هناك قد انصهر في ذلك الأتون أيما انصهار. فأي قيمة أو معنى يبقى لذات الأسرة وتماسكها عندهم، إذا كان انتشارها يعني تحول كل جزءٍ من أجزائها إلى عمل آلي يحقق رقماً معيناً؟!.

وهكذا، فالأسرة في أوروبا عنوان لا مسمى له على الصعيد الغالب اليوم، وقد انعكست آثار ذلك على مجتمعاتها العامة. وباتت تنذرها بدمار مذهل رهيب.

وسبحان من قضى أن يعيد التاريخ نفسه!..

فلقد كان هلاك الرومان، بسبب تفاقم الإباحية وأمر الجنس، واستتبع ذلك نفس النتيجة التي تعاني أوروبا منها اليوم: الشح الشديد من جانب، والبذخ الشديد من جانب آخر. ولقد أطلق فيلسوفها الحكيم (كانون) صيحة النذير دون أي جدوى ذلك حين قال:

((يا أيها الرومان، لقد سمعتموني كثيراً ما أشكو من إسراف الرجال والنساء والعامة والمشترعين أيضاً.. ولقد سمعتموني كثيراً ما أقول: إن الجمهورية مصابة بداءين متناقضين: الشح والبذخ!. وهما الداءان اللذان قلبا الممالك العظيمة رأساً على عقب))[1].

فهذه هي دوافع اشتراك المرأة مع الرجل في مختلف مجالات الكسب والعمل، يعلمها كل متبصر عاقل. وليست شيئاً مما يسمى بضرورة اللحاق بعجلة الآلة والسيطرة على حياة التصنيع وما إلى ذلك.

وإذا كانت هذه هي الدوافع الحقيقية، فما لنا نجنُّ وراء تقليد أصحابها، وليس هذا فحسب، بل نرفع الرأس بذلك عالياً،

متخيلين أنَّا لما قلدناهم في هذا الأمر أصبحنا مثلهم في كل نهضة ينهضونها وفي كل تقدم يحرزونه!..

إن أهم الحكم التي اقتضت تشريع آداب المرأة في ديننا الإسلامي؛ إنما هو المحافظة على قدسية الأسرة وكيانها، فكيف نصطنع الاجتهاد في دين الله والاعتماد على قواعد شرعية فيه، ابتغاء الوصول إلى نهاية يتحطم فيها كيان الأسرة، وتتهاوى قدسيتها، وتضيع فيها عن رشد أخلاقيتها الفاضلة؟.

فهذه هي الشبهات التي يتمسك بها من يضيق ذرعاً بحجاب المرأة وسترها، ولا أظن أن ثمة مزيداً عليها ولو علمت أنه قد يوجه مزيد، لبحثت عنه عرضته للنظر والتقويم.

وقد رأيت أن هذه الشبهات كلها، إن هي إلا حواجز مصطنعة لإبعاد الحكم الإسلامي الواضح الصريح عن مجال الرؤية السليمة الصافية، يعلم هذا حتى أولئك الذين يروجون هذه الشبهات ويحتجون بها. ولكنهم يراقبون ألسنتهم أن لا تنطق بشيء من كوامن هذا العلم. فهم في ذلك كما قال الله عز وجل عن طائفة من أشباههم:

---

[1] – دائرة المعارف لفريد وجدي: 618/8.

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً...)[1].

((353))

ولو أنَّا حاربنا هؤلاء الذين يدندنون بشبههم هذه في كل معترك ومجال، وفرضناها حججاً سليمة – وما هي كذلك، وإنهم ليعلمون أنها ليست كذلك – فإنها لا تؤيّد شيئاً من هذا الواقع المنحرف الرهيب الذي انساقت إليه جمهرة كبرى من الفتيات والنساء المسلمات.

أي شبهة من هذه الشبهات المختلفة تجيز للفتاة – على تخيل صحتها – أن تخرج إلى الشارع بادية النحر والذراعين والفخذين! أم أي شبهة منها تفتي المرأة المسلمة بأن تسامر ضيوفها وتكرمهم بما لديها من فنون الزينة والإغراء، كما هو الواقع في كثير من البيوتات المسلمة اليوم؟!.

إذاً، فإن الأمر الذي نشكو منه اليوم، انحراف ديني واجتماعي خطير لا مجال لإنكاره والتردد فيه، ولا علاقة لهذه الشبه – مهما كانت – بتسويغه.

ولا ريب أن هذا الواقع الرهيب ذو خطر أجلى وأشد من خطر الفتاة المتسترة في نظر من يرى أن تسترها شيءٌ زائد على ما قد جاء به الشرع. لا يماري في هذه الحقيقة إلا مكابر من طراز نادر وعجيب.

((354))

وإذاً فلنتساءل: أيهما تعتبر مشكلة محتاجة منا إلى معالجة وحل: المرأة التي تحتاط لدينها تبالغ في تحقيق مرضاة ربها، فتفيض على جسمها مزيداً من الستر، وتفيض منه على وجهها وسائر أطرافها، مخافة أن يتأملها ناظر بشهوة فتكون هي المسببة له بذلك فتبوء بإثمها وإثمه، أم المرأة تتأول حجاب الجسم بعفة النفس، وتتخذ من كشف بعض شهيرات النساء عن وجوههن دليلاً على زيف الحجاب من أساسه، فتنطلق بين الرجال عارضة من جسمها كل ما فيه من زينة وفتنة وإغراء، دون أن تتقيد من ذلك كله بحدٍّ إلا ما تفرضه ((المواديلات)) المتناسخة التي ترعاها دور الأزياء الأوروبية في مظاهرها واليهودية الصهيونية في باطنها؟!.

أجل، أيتها الأخت المفكرة: أيهما تعتبر مشكلة فكرية واجتماعية وخلقية تحتاج اهتمام وحل؟..

---

[1] – سورة النمل الآية: 14.

أليس من أعجب العجب أن نجد طائفة من كتابنا – وهم مسلمون بألسنتهم – وكثيراً من مجلاتنا – وهي مطبوعة بطابع التوحيد والإيمان – تجعل من الحيطة في دين الله والاهتمام الصادق بشرع الله مشكلة المشكلات وكبرى المصائب، فتجرد لها الأقلام وتستعين لحلها بالصور المغرية آناً والساخرة آناً آخر، وبالإيحاءات والمعالجات النفسية المختلفة، كل ذلك من أجل أن طائفة من

((355))

الفتيات المسلمات – وهن قلة على كل حال – دفعتهن الحيطة في دين أو التمسك بشرع الله، فأسدلن الحجاب على وجوههن أو على ما سواه من بقية أعضاء الجسم، دون أن يشفع للواحدة منهن أنها قد تساهم مع ذلك في خدمة مجتمعها ورعاية أمتها، وتقوم في مجال النشاط الثقافي والاجتماعي الصحيح، بما لا تقوم به الأخريات – ثم لا يستشعر هؤلاء الكاتبون أو هذه المجلات، في المقابل، بأي مشكلة أو خطيئة تحتاج إلى معالجة وتقويم في مظهر هذه الكثرة الكاثرة من النساء والفتيات اللاتي وقعن أسيرات تحت حكم بيوت الأزياء الحديثة التي تعمل جاهدة على أن تتحكم بلباس المرأة في العالم الأوروبي والأمريكي عامة وف ي هذا الشرق الإسلامي خاصة!!..

أليس من أعجب العجب أن نرى طائفة من الكتاب – وهم مسلمون بألسنتهم – يتعلقون بما قد يعثرون عليه من الوقائع الفردية لحال بعض نساء التاريخ الإسلامي، ليسوغوا به هذا الواقع الأليم الذي لا يقره دين سماوي صحيح ولا خلق إنساني سليم، ولا ينطوي إلا على شر خطير، طالما تنادى المصلحون لمعالجته، وغالط بعضهم بعضاً في الإشارة إلى مصدره – ثم لا يعرجون على شيء من حكم الله الواضح الصريح إلى مصدره – ثم لا يعرجون على شيء من حكم الله الواضح الصريح في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، والمجمع عليه عند

((356))

أئمة المسلمين، ليتخذوا منه وسيلة إلى إصلاح شيء من هذا الفساد العظيم، وتخفيف قدر ولو يسير من بلاءٍ هذا التعري الذي انحرفت إليه الأسرة المسلمة دون أن تجد في طريقها أي مقاومة ولا تنبيه؟!..

عشرات الأبحاث والمقالات تنشر بين الحين والآخر في الغمز واللمز والسخرية من بقايا حجاب الفتاة المسلمة، وهو لم يقدم إلى الناس إلا الفائدة والخير، ولا يكتب في مقابلها بحث واحد يلفت فيه النظر إلى ضرام هذه النار التي تتقدم في كل بيت وتندلق إلى كل شارع

ومجتمع، وهو لم يقدم إلى جيل هذه الأمة، بل إلى شباب العالم كله، إلا أخطر أسباب الهلاك والدمار!!.

((357))

أقوال لا رصيد لها

ومهما يكن من أمر هذه الشُبه الباطلة، فإن الأعداء هذا الدين حججاً وأقوالاً أخرى يتأملون أن يدعموا بها باطلهم!.. ولكنها أقوال لا رصيد لها من المعنى الذي يمكن أن يتقبله العقل السليم. إنها من نوع ما يسميه علماءُ المنطق بالسفسطة التي لها شكل الحجة وليست لها حقيقتها!..وهي أقوال يراد بها إخضاع النفس أكثر مما يراد بها إقناع العقل.

وما أكثر ما ضلت فتيات مؤمنات، عن رشد العقل، بهذه الأقوال المرصوفة الخادعة؛ وما أكثر ما تبين لهن أنها أباطيل خادعة ولكن ذلك لم يتبين لهن إلا بعد أن تجاوز الأمر بهن إلى نهاية لا طاقة لهن على الرجوع عنها، بل إلى أودية سحيقة لا سبيل لهن إلى التسامي فوقها!.

وإنني- أيتها الأخت المؤمنة – سأعرض لك جميع هذه الأقوال بزخرفها الخادع، ثم أجردها أمامك من زيفها اللصيق لترى عظيم ما فيها من الخداع والتضليل، حتى إذا تبين لك ذلك، كنت

((358))

أقدر على الصمود في وجه الباطل الذي تتعرضين له، وأكثر ثباتاً وصلابة على الحق الذي تعتزين به.

يقولون لك: إن عفة الفتاة حقيقة كامنة في ذاتها، وليست غطاءً ويسدل على جسمها، وكم من فتاة محتجبة عن الرجال في ظاهرها، وهي تمارس معهم البغي والفجور في سلوكها، وكم من فتاة حاسرة الرأس سافرة الوجه لا يعرف السوء سبيلاً إلى نفسها أو سلوكها.

وأقول لك: إن هذا صحيح. فماكان للثياب أن تنسج لصاحبها عفة مفقودة، ولا أن تخلق له استقامة معدومة، ورب فاجرة سترت فجورها بمظهر سترها. ولكن من هذا الذي زعم أن الله إنما شرع الحجاب لجسم المرأة ليخلق الطهارة في نفسها أو العفة في أخلاقها؟. ومن هذا الذي زعم أن الحجاب إنما شرعه الله ليكون إعلاناً بأن كل من لم تلتزمه فهي تنحط في وادي الغواية مع الرجال؟..

إن الله ﷻ إنما فرض الحجاب على المرأة محافظة على عفة الرجال الذين قد تقع أبصارهم عليها، لا حفظاً على عفتها من الأعين التي تراها!.. ولئن كانت تشترك معهم هي الأخرى في هذه الفائدة في كثير من الأحيان، فإن فائدتهم من ذلك أعظم

((359))

وأخطر. وإلا فهل يقول عاقل – تحت سلطان هذه الحجة المقلوبة-: إن للفتاة أن تبرز عارية أمام الرجال كلهم مادامت ليست في شك من قوة أخلاقها وصدق استقامتها؟!..

إن بلاء الرجال بما تقع عليه أبصارهم من مغريات النساء وفتنتهن هو المشكلة التي أحوجت المجتمع إلى حل، فكان في شرع الله ما تكفل به على أفضل وجه. وبلاء الرجال، وإذا لم يجد في سبيله هذا الحل الإلهي، ما من ريب سيتجاوز بالسوء إلى النساء أيضاً. ولا يعني عن الأمر شيئاً أن تعتصم المرأة المتبرجة عندئذ باستقامة في سلوكها أو عفة في نفسها. فإن في ضرام ذلك البلاء الهائج في نفوس الرجال ما قد يتغلب على كل استقامة أو عفة تتمتع بها المرأة إذ تعرض من فنون إثارتها وفتنتها أمامهم.

ويقولون لك: إنه إذا شاع الاختلاط بين الرجل والمرأة، تهذبت طباع كل منهما، وقامت بينهما بسبب ذلك صداقات بريئة لا تتجه إلى جنس ولا تنحرف نحو سوءٍ!.. أما إذا ضرب بينهما بسور من الاحتجاب، فإن نوازع الجن س تلتهب بينهما وتغزي كلاً منهما بصاحبه!.. فيشيع من ذلك الكبت في النفوس والسوء في الطباع!.

((360))

وأقول لك: صحيح أن مظاهر الإغراء قد تفقد بعض تأثيراتها بسبب طول الاعتياد وكثرة الشيوع. ولكنها إنما تفقد ذلك عند أولئك الذين خاضوا غمارها وجنوا من ثمارها، خلال مرحلة طويلة من الزمن، فعادوا بعد ذلك وهم لا يحفلون بها. وبديهي أن ذلك ل يس لأنهم قد تساموا فوقها، ولكن لأنهم قد بشموا بها، ولأنهم يشبعون كل يوم منها.

إن رؤية المناظر والمواقف الجنسية المثيرة في بلدة كالسويد مثلاً، تعتبر أمراً عادياً لا يثير استغراباً ولا استهجاناً بالنسبة لأولئك الذين نشؤوا وعاشوا في تلك الأجواء. فهل يعني ذلك أنهم قد تجاوزوا طبيعة التأثر بدواعي الانحراف وأسبابه ، فهم لا ينحطون إليها ولا يتأثرون بها؟!.. أي مجنون من الناس يقول هذا؟..

كلنا يعلم أن هذا الذي يمر بالمشاهد الجنسية المكشوفة هناك، غير عابئ بها ولا ملتفت إليها، قد تجده بعد ساعة يمارس العملية نفسها في مكان آخر. وهكذا فإن عدم الاكتراث والتأثر بمظاهر الإغراء، إنما هو نتيجة انتشار اللذة رخيصة في كل مكان، وليس نتيجة فهم معين أو جديد لما قد تبصره عيناه.

والـذي يتصـور تحقـق الزاهـد في الجـنس، دون أن يكـون نتيجـة لانتشـاره وإباحتـه، إنمـا كمـن يتصور إمكان زهد الجائع في

((361))

الطعـام بمجـرد أن تتنـاثر أطباقـه الشـهية أمـام عينيـه في واجهـات المحـلات عـن يمـين الشـارع ويساره.

وإنمـا ((الصـداقة)) كلمـة يطلقهـا هـؤلاء النـاس علـى تلـك الفـترات الـتي يلـتقط فيـه الأصـدقاء أنفاسهم بعد انجراف طويل في أدغال الحيوانية والإباحية المطلقة.

وإنها لحقيقة ثابتة يعرفها ((الأصدقاء)) قبل أن يعرفها الآخرون!

والكبـت! .. أيهمـا يـورث الكبـت؟ : أن يخـرج الشـاب إلى شـأنه مـن وظيفـة أو عمـل أو دراسـة، فـلا تقـع عينـه علـى مـا يثير شـيئاً مـن كـوامن غريزتـه، فيعـود إلى بيتـه هـادئ الـنفس مسـتريح البـال نشـيط الفكـر، أم أن يخـرج مـن بيتـه فتسـتقبله مغـريات الجـنس مـن كـل جانـب وصـوب وبكـل أسـلوب وفـن، فتهتـاج نفسـه وتثـور غرائـزه، حـتى إذا دنا ليمتـع نفسـه ويشـبع غريزتـه اصـطدم بحواجز القانون ورقابة البوليس وشهامة الزوج أو القريب؟..

أجـل.. أيهمـا يـورث الكبـت؟ .. لقـد سـألت هـذا السـؤال شـاباً جامعيـاً أعلـن أمـامي عـن تقدميتـه المطلقـة، وتعلـل بالكبـت والألفـاظ المشـابهة الأخـرى، فغـص بالجـواب!. ولكـني أجبـت عنه فقلت: للعلك لا تريد أن تثور على الحجاب والستر فقط، وإنما أنت تهدف

((362))

إلى الثـورة علـى مـا وضـعته الشـرائع والقـوانين مـن ضـوابط الصـلات الجنسـية بـين الرجـل والمـرأة، ابتغـاء الوصـول إلى إباحيـة مطلقـة يشـترك فيهـا الإنسـان مـع أخيـه الحيـوان تخلصـاً مـن الكبـت الذي نتحدث عنه!..

فـإذا كـان الأمـر كـذل، فـلا تتحـدث عـن الحجـاب ونقـده، قبـل أن تبحـث بجـرأة، مـع الأزواج والآباء وشـرائع الله وقـوانين الأرض وفطـرة الغـيرة الطبيعيـة عنـد الإنسـان، في مشـروعك الحيـواني الـذي تـدعو إليـه، حـتى إذا اسـتجابوا لـك جميعـاً، آن لـك حينئـذ أن تثـور علـى حجـاب لا لـزوم إليه محتجاً بما تستعمله من ألفاظ الكبت ومرادفاته المحفوظة.

و يقولـون لـك: إن حجـاب المـرأة عـائق عـن مشـاركتها الرجـل في نهضـتة الفكريـة والثقافيـة والاجتماعيـة، وإنمـا أولى الخطـوات إلى أي نشـاط فكـري أو اجتمـاعي أن تسـفر الفتـاة عـن

وجهها وتحطم ما بينها وبين الرجل من حواجز واعتبارات. كما أن أول السبيل للقضاء على ملكاتها واستعداداتها الفكرية والاجتماعية المختلفة أن تحبس نفسها في قفص هذا الحجاب، وتضع بينها وبين الرجل حاجزاً مما تسميه الستر والآداب!..

((363))

وما يتحدث أحدهم عن جهل المرأة وتخلفها إلا ويجعل من صورة المرأة المحتجبه مظهرا لذلك، وما يتحدث عن ثقافة المرأة وتقدمها ونشاطها الفكري والاجتماعي إلا ويجعل من صورة المرأة العارية أو السافرة مظهراً لذلك!.

وأقول لك: إنني أجزم بأن هذا التلازم المختلق إن هو إلا بهتان كبير لا أساس له ولا دليل عليه!..

إنني أقرر لك وأنا شاهد عيان – أن في فتياتنا الجامعيات متحجبات بحجاب الإسلام، مستمسكات بحكم الله عز وجل، وهن أسبق إلى النهضة العلمية والثقافية والنشاط الفكري والاجتماعي من سائر زميلاتهن المتحررات.

لقد رأينا الكثير من مظاهر التبذل والعري في أفريقيا وبعض جهات أوروبا، وما رأيناها تبعث بشيء من سحر النهضة العلمية والنشاط الفكري والثقافي!! ولقد رأينا، في مقابل ذلك، الكثير من مظهر المحافظة على شرع الله وحكمه في المظهر والزينة واللباس، دون أن ينحط هذا المظهر بصاحباته عن أوج الرقي الفكري والحركة الثقافية الناشطة.

وأن كل مطلع على التاريخ، يعلم أن تاريخنا الإسلامي مليءٌ بالنساء المسلمات اللاتي جمعن بين الإسلام أدباً واحتشاماً وستراً،

((364))

وعلماً وثقافة وفكراً. وذلك بدءاً من عصر الصحابة فما دون ذلك، إلى عصرنا الذي نعيش فيه.

إن التخلف له أسبابه، والتقدم له أسبابه. وإقحام شريعة الستر والأخلاق في الأمر، خدعة مكشوفة ثقيلة لا تنطلي إلا على متخلف عن مستوى الفكر والنظر الحر.

ونحن لا نشك أنه قد التقى في بعض الأحيان التخلف الفكري والثقافي عند المرأة بمظهر الستر والصيانة والاحتجاب كشأن المرأة اليوم في بعض أطراف الجزيرة العربية، ولكن مما لا شك فيه أن هذا التلاقي لم يكن أمراً ضرورياً وليس بينهما أي لزوم حتمي. وإنما هو واقع

اتفاقي ساعدته ظروف استعمارية وفكرية معينة. وليس أسهل على المصلحين إذا أرادوا الإصلاح الحقيقي، من أن يفصلوا بين الواقعين بوعي إسلامي سديد، يؤيد الستر والاحتشام، ويدفع إلى التزود من العلوم والثقافة النافعة، ويجعل من كل منهما عوناً للآخر.

ويقولون لك: إن الفتاة التي تحبس نفسها عن الناس وراء حجاب، إنما تحرم بذلك شبابها بل حياتها من سعادة الزواج. فالشاب إنما يقبل على الفتاة التي يعجب بها، وإنما يعجبه منها – قبل كل شيء – جمالها وما يتصل به من مظاهر شخصيتها.

((365))

وأنى له أن يطمئن إلى ذلك منها إذا لم يتهيأ له أن يراها ويخلط نفسه بطرف من شأنها وطباعها؟.. وكيف يتهيأ لله ذلك إذا كانت تأبى إلا أن تحبس نفسها عنه وراء ستور البرقع والحجاب؟

تلك هي حجة ألأمهات لبناتهن، تحسب الواحدة منهن أنها تجلب الخير بذلك لابنتها، وتقرب السبيل لها إلى اختيار فتى أحلامها. ويزيدها في ذلك اندفاعاً إغراءات جنود الشيطان من حولها، يستغلون لديها هذه الرغبة، فيزيدون من مخاوفها إن تزينت ابنتها بلباس الإسلام، ويدعمون آمالها إن هي تحررت منه وانساحت بين صفوف الشباب تعرض من زينتها عليهم وتخلط نفسها بهم!..

وأقول لك: إنها لخدعة باطلة توحي بعكس الواقع والحقيقة!.. خدعة يصيغها دعاة الباطل على علم، وتنطلي على أفكار الفتيات وأمهاتهن جهلاً وخداعاً..

ولو تأملت الواقع الذي نعيش فيه، ل رأيت نسبة الإقبال على الأسر والفتيات المحافظات للزواج منهن أكثر بما يقارب الضعف من الإقبال على الأسر المتحررة اللاتي بطبقن الوصفة الخادعة التي اغتررن بها. بل إن الزواج – عموماً – يشيع بين الأسر المحافظة المتدينة أكثر مما يشيع بين الأسر بنسبة تزيد على الضعف،

((366))

يعلم تفصيل ذلك كل من يرجع إلى الإحصاءات المفصلة في هذا الشأن.

ولأوضح لك الأسباب القريبة والبعيدة لهذه الحقيقة، حتى تزدادي يقيناً بحكمة الخالق جل جلاله، وبأن الإنسان لن يجد مصلحته مكلوءة بعناية وحفظ إلا في تطبيق شرع الله عز وجل:

إن الشاب في مجتمعنا، لا يعدو أن ينتمي إلى أحد صنفين:

الصنف الأول: متدين في الجملة، فهو متقيد بآداب الإسلام ومعظم أحكامه ولاسيما الاجتماعية منها والبارزة. فالشاب من هذا الصنف لابد أن يتزوج فيما بين العشرين والثلاثين من عمره، لا يستثنى من ذلك إلا أصحاب الظروف الاستثنائية الخاصة. والزواج في اعتبار مثل هذا الشاب بمثابة ساعة الإفطار للصائم، يحشد له جميع آماله الدنيوية في الحياة، ويجعل منه ركيزة سعادته كلها!..

والشاب من هذا الصنف يبحث عن الفتاة كما يحبها، ولكن ضمن دائرة الستر والصيانة التي آمن بها ونشأ في داخلها. وحتى لو ندَّت به الظروف عن هذه الدائرة في بعض الأحيان لأسباب مما قد يمتحن به الشاب، فإنه لا يطمئن لفتاة ستصبح أما لأولاده إلا إذا رأى طابع الدين والستر جلياً وأصيلاً في حياتها.

وهذا الشاب لن يصطدم بمشكلة الجهل بشكلها أو عدم الاطمئنان إلى خلقها، فإن شريعة الله عز وجل قد حلت لله المشكلة عندما شرعت له، بل أمرته أمر إرشاد وندب أن ينظر إليه ا ويكلمها، حتى إذا شعر من نفسه أنه لم ينل حظاً كافياً في المرة الأولى لمعرفتها وتبين ما ينبغي أن يطمئن إليه منها، كان له أن يعاود النظر ثانية وثالثة.

الصنف الثاني: متفلت عن سلطان الدين وأحكامها، فهو لا يبالي أن يمتع نفسه بحظوظها كلما تسنى له ذلك لا فرق بين أن ينالها من حل أو حرام!., فالشاب من هذا الصنف إن تزوج، فهو إنما يدخر زواجه إلى أواسط عهد الكهولة أو آخرها. ولن تجد واحداً من هؤلاء تزوج قبل سن الخامسة والثلاثين!.. إلا أن يكون ذلك لظروف استثنائية نادرة.

والزواج في اعتبار مثل هذا الإنسان كرجوع السائح إلى داره بعد نزهة استنفدت المتعة فيها كل نشاطه وطاقاته، حتى إذا أدركه الملل والجهد، عاد إلى داره يبغي فيها الراحة والهدوء!.. فهو وقد نال من صنوف اللذات مغنماً من بدون مغرم – إنما يريد من الزوجة الآن أن تعينه في راحة ينشدها أو قرار يتطلبه، أكثر من أن يريد بالزواج متعة يشترك مع الزوجة فيها، وسعادة يلتقي مع الزوجة على ارتشافها!..

وما أكثر ما تظاهر بالرغبة في الزواج من قبل، فانجذبت الفتيات إليه من هنا وهناك، كل تعرض له ما عندها من زينة ورقة وجمال، على مذهب هؤلاء المخدوعات اللائي يحسبن أن الفتاة لا يمكن أن تعثر على الزواج الذي تبغيه إلا في الشارع الذي تتعرى فيه، فتذوق من هذه

وتلك وتيك.. ونال ما يبغيه منهن –كما قلنا – غنيمة بدون مغرم. إ ذ تلهى بكل منهن خليلة اليوم ثم نبذها حليلة الغد!..

وبين الرجل والمرأة فارق في التسابق إلى حظوظ النفس، قلما يتبينه الناس، تكون المرأة هي الخاسرة فيه دائماً!.. إذ المرأة مهما تحللت عن قيود الدين والآداب، فإنها لا تصل إلى قمة سعادتها إلا في ظلال بيت تصبح أماً سعيدة فيه. والرجل مهما كان شأنه إنما تهفو نفسه إلى نعيم لذته عن كدورة الغرامة أو المسؤولية أو الجهد، ولا يفطم نفسه عن التعلق بذلك إلا دين يتحكم بمجامع قلبه. فإذا فقد الدين فإن الرجل والمرأة يلتقيان على مائدة تكون المرأة دائماً هي الطرف المغلوب فيها!..

وحصيلة هذا الكلام كله: واقع مشاهد ملموس لا يحتاج لرؤيته إلا تأمل وانتباه. وهو أن نسبة الذين يقبلون على الزواج من الشبان المتدينين تزيد على ضعف نسبة من يقبلون عليه من

المتحللين أو المتحررين. والمتدينون لا يتزوجون إلا في الحجر الصالح ولا يتعلقون إلا بجمال زانه خلق وستر ودين. ونتيجة لذلك فإن العنوسة لا تشيع – في أعم الأحوال – إلا في الأسر التي شاءت أن تنفلت عن منهج الدين وحكمه وتربيته.

يا أختي المؤمنة: إن فيما أوضحته لك ما يكفي لإقناعك بالمنطق – بالمنطق الذي لا التواء فيه – بأن اتباع شريعة الله تعالى لا يضمن لك بلوغ مرضاة الله فحسب، بل هو يضمن إلى جانب ذلك تحقيق أسباب سعادتك الدنيوية كلها. والسعادة ليست في تحقيق الخيال الذي تتصورين، وإنما في الواقع الذي يورثك الطمأنينة ويشيع في حياتك الارتياح والرضى.

أما وقد تبين لك كل ذلك، فقد آن لك تنهضي لاستجابة حكم مولاك العظيم، وأن تصطلحي مع الله عز وجل بعد طول نسيان وتنكر له، فتتخذي من صراطه سبيلاً إليه ومن حبه شفيعاً بين يديه.

دعي انتقاد الناس وحسابهم، فإن حساب الله غداً أشد وأعظم!

ترفعي عن السعي إلى مرضاتهم وتحقيق أهوائهم، فإن التسامي إلى مرضاة الله أسعد لك وأسلم.

ولسوف – تجدين وأنت تعزمين على الرجوع إلى صراط الله – من يحاول أن يرهق مشاعرك تخديراً تحت وطأة هذه ((التقاليع)) التي أحاطت بك كما تحيط خيوط العنكبوت بضحيتها الحبيسة، وأن يذكرك بفلانة التي كانت تبرز مفاتنها أمام الرجال، وفلانة التي كان لها ((صالونها)) الأدبي البارز بين الناس!.

وأما فأذكرك بالحكم الإلهي الواضح الذي نقلته لك بأمانة، وبهذا الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ إذ يقول:

[صنفان من أمتي قط: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة – أي كسنام الجمال – لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا][1].

ولسوف تجدين أيضاً من يذكرك بجمال هذه الدنيا ومغريات الارتواء من لذائذها وزينتها. ولكني أذكرك بخطورة عقباها، وجسامة ما ينتظرك من آثارها ونتائجها.. أذكرك بيوم الديان، إن كنتن قد آمنت بوجوده.. أذكرك باليوم الذي يصدق فيه قول الله تعالى وهو يخاطب طائفة كبيرة من الناس:

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)[2] أذكرك بهذا كله فإن ذلك أدعى إلى أن تتلمسي لنفسك سعادة الدنيا والآخرة معاً.

ودعيني أذكرك أخيراً، بأن جميع هؤلاء الخادعين إنما ينظرون فيما ينصحون لك بزعمهم إلى أمر أنفسهم وحاجة شهواتهم. ولو أني أردت لنفسي حظها، لفعلت مثلهم ولانضممت إلى حزبهم، فأنا رجلٌ ف ي نفسي من هوى الرجال وشهواتهم مثل الذي عندهم جميعاً. ولكني والله لا أريد أن أبوء بإثمي وإثمك يوم القيامة!..

أريد أن تكوني باستقامتك على الحق، حسنة في ميزاني، وأن أكون؛ بما أذكرك به من الحق، حسنة في ميزانك. أريد لي ولك شيئاً أقدس وأسعد من كل شهوة ولذة وهوى.

أ ريد لي ولك مرضاة الله.

---

[1] – رواه مسلم والإمام أحمد.

[2] – سورة الأحقاف الآية: 20.

((372))

كلمة أخيرة، يجب أن أتجه بها إلى اللواتي استيقنت أفئدتهن الحق الذي بينته، غير أن الواحدة منهن تشعر ببعد النقلة بين الواقع الذي تعيش فيه والحق الذي آمنت به، فتركن آسفة إلى وضعها الذي تعيش فيه، وتعتذر إلى الله أو إلى الناس بأنها عاجزة عن مثل هذا القفز البعيد!.

وهكذا فإن في الناس طائفة كبيرة من المنحرفين والمنحرفات، لا يمسكهم على انحرافهم ويمنعهم من السعي إلى إصلاح حالهم إلا ما يرونه من بعد الفجوة وعمقها بين الكمال الذي يسمعون عنه والواقع الذي يعيشون فيه.

ولكن هذا التصور خاطيءٌ. فإن الفاصل الذي بين الحق والباطل إنما يتمثل في الفرق بين أدنى طرف من الباطل وأول درجة من درجات الحق، وفرق ما بينهما لفتة صغيرة وحركة بسيطة.

إن الحق الذي أوضحناه في الصفحات الماضية، ليس نهاية مستقلة تقبع في قمة السمو والكمال، ولكنه سُلم ذو درجات

((373))

متقاربة، تبدأ أولاها عند طرف الباطل الذي تعيشين فيه وتقف الأخيرة عند نهاية الكمال الذي يشدك إليه تشريع الله وحكمه. وإنما المطلوب منك – بعد أن تنبهت إلى الحق وآمنت به – أن تتحركي صاعدة في درجاته، لا أن تقفزي قفزة واحدة إلى نهايته.

إذا كنت لا تملكين من الطاقة والإرادة، أو الظروف المساعدة، ما تفرضين به على نفسك حجاباً سابغاً للجسم والوجه، فلتفرضي على نفسك ما دون ذلك مما تساعدك عليه الظروف والأحوال، وإذا كنت لا تجدين طاقة كافية لتغيير أي شيء من لباسك وهيئتك مهما كانت منحرفة وبعيدة عن رضى الله عز وجل، فلتفرضي على نفسك ما دون ذلك أيضاً من أداء العبادات المفروضة وتلاوة شيءٍ من كتاب الله تعالى بتدبر خلال كل صباح ومساء. وإذا كنت عاجزة عن الارتباط حتى بهذا القدر من سبيل الإصلاح، فلتفرض على نفسك ما دون ذلك، من استشعار خطورة الحال التي أنت فيها والالتجاء إلى الله تعالى بقلب صادق واجف، تسألينه العون والقوة. فإن صدق الالتجاء إلى الله تعالى ينبوع النصر والتوفيق. وما سار إنسان إلى الحق بادئاً بخطورة من هذه الخُطَا، متجهاً إلى الله بصدق وعزم إلا وفقه الله تعالى في السير إلى نهاية الطريق والوصول إلى مجامع ذلك الحق.

((374))

وإنما المصيبة كل المصيبة أن تعلمي الحق وتؤمني به، ثم لا تتجهي إليه بخطوة ولا بعزم، كأن الأمر ليس مما يعنيك في شيء، أو كأن الذي شرع هذا الحق وأمر به لن تطولك يده ولن يبلغ إليك بطشه وسلطانه، أم كأن الآخرة وما فيها أهون من أن يتخلى الإنسان في سبيلها عن شيءٍ من أمانيه وأهوائه!.

مثل هذه الحال يعتبر أعظم سبب لاستمطار غضب الله تعالى والتعجيل بعقوبته. وعقوبته الدنيا لا تتمثل هنا في بلاءٍ عاجل يحيق بالإنسان، وإنما تتمثل في انغلاق العقل وقسوة القلب، فلا يؤثر في أحدهما تذكير ولا تخويف ولا تنبيه، مهما كانت الأدلة واضحة والنذر قريبة. حتى إذا جاءه الموت، وتخطفه وهو على هذه الحال، فينقلب إلى الله تعالى وقد تحول انغلاق عقله وقسوة قلبه إلى ندم يحرق الكبد، في وقت لا ينفع فيه الندم ولا رجوع فيه إلى الوراء.

وقد عبر الله تعالى عن هذه العقوبة وسببها بقوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)[1].

((375))

فإذا كنت تؤمنين بالله، فلا ريب أنك تؤمنين بشريعته وباليوم الآخر الذي هو يوم الحساب والجزاء.

وإن من مستلزمات هذا الإيمان: أن تضعي الكلام سردته عليك في هذه الرسالة موضع الجد والاهتمام من تفكيرك، حتى إذا ايقنت أني لم أخدعك بباطل من القول، ولم أ ضع بين يديك إلا الحقيقة الصافية التي يتمثل فيها حكم الله عز وجل –كان عليك أن تنهضي إلى تطبيق هذا الحكم بالسير في مراحلة المتدرجة. فإن رأيت أن حبال الدنيا وأهوائها وتقاليد الصديقات والقريبات تشدك إلى الخلف وتصدك عن النهوض بأمر الله، فلا أقل من أن تفيض الحسرة في قلبك من ذلك، فيسوقك الألم إلى باب الله تعالى وأعتاب رحمته لتعرضي له ضعفك وتجأري إليه بالشكوى أن يهبك من لدنه قوة وتوفيقاً وأن يمنحك العون لتتحرري عن سلطان نفسك، وسلطان التقاليد والعادات، وسلطان الأقارب والصديقات.

---

[1] – سورة الكهف الآية:57.

أمـا إن لم يـنهض بـك الإيمـان إلى هـذا ولا إلى ذاك، ولم يتحـرك القلـب الـذي وراء ضـلوعك بأي تأثـر واهتمـام لكـل هـذا الـذي حـدثتك بـه – فلتكـوني في شـك مـن إيمانـك بوجـود الله تعـالى، ولتعلمي أنك تسيرين – إن استمر بك الحال – إلى نهاية رهيبة ليس منها مخلص ولا مفر!.

((376))

ولتعلمـي أن سـكر هـذه الـدنيا مهمـا كـان لذيـذاً، فيوشـك أن تفجـأك منهـا سـاعة صـحو وانتباه، وإنها والله لقريبة منك.

ولتعلمـي أن مـذاقها مهمـا كـان طيبـاً فـإن في نهايتهـا غصـة سـتأخذ منـك بالحـق، وإنهـا والله لمقبلة إليك.

ثم اعلمـي أنـه مـا مـن شـاب يبتلـى منـك اليـوم بفتنـة تغريـه أو تشـغل لـه بالـه، كـان بوسـعك أن تجعليه في مأمن منها، إلا أعقبك منها غداً نكال من الله عظيم.

فـاذكري في آخـر هـذه الرسـالة مـا قـد نبهتـك إليـه في أولهـا، مـن أن المـرأة في حيـاة الرجـل أخطـر ابـتلاءٍ دنيـوي لـه علـى الإطـلاق، فـاجعلي مـن تقـوى الله تعـالى في سـلوكك، عـوناً للرجـل علـى السـعي في سـبيل مرضـاة الله، ولا تجعلـي مـن الإمعـان في معصـية الله عـوناً لـه علـى السـير في طريـق الشيطان.

والله المستعان في الهداية والتوفيق

تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية والاختلاط المستهتر

للشيخ الدكتور مُحَمَّد بن لطفي الصباغ

((379))

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا الله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن هذه الرسالة هي في الأصل كلمة ألقيتها من إذاعة الرياض فاستمع إليها الناس، وأبلغني كثير منهم عن سرورهم منها ورغبتهم في أن توسع وتنشر.. ولكنني لم أجد الوقت لتنفيذ هذه الرغبة، حتى عمدت كلية الهندسة في جامعة الرياض[1] إلى طبعها في رسالة ضمن نشرات لجنة النشاط الثقافي، ووزعتها على الناس.. جزى الله الإخوة الأكارم في هذه الكلية الذين قاموا بذلك أحسن الجزاء، وتداولتها الأيدي، وبلغني أن بعض الأفاضل طبعوها

((380))

على الآلة الكاتبة وزعوها، ثم طبعت في شركة الطباعة العربية السعودية جزى الله القائمين عليها كل خير.

وقد نظرت فيها خلال رحلة معي المراجع الكافية، فزدت فيها بعض الزيادات، وكتبت لها هذه المقدمة، وإن لهذا الموضوع أهمية كبرى، لأن وضع المرأة يدل على طبيعة الأمة.. فمظهرها ومعاملتها يبرزان هوية المجتمع ويقرران مستقبل الأمة.

وإن الكيد الذي يكادُ للمسلمين كان قسم كبير منه موكولاً إلى المرأة، لإفسادها وإخراجها إلى ميدان الفتنة والابتذال.. ولقد كانت المرأة هي الخاسرة في هذه المؤامرة القذرة، وبخسارتها العظمى فقد المجتمع توازنه وسعادته، وأمنه وراحته.

وإنني من أجل هذا أقدم الرسالة نصيحة والد إلى بناته وفتياته، أحذرهن من الخطر لماحق، والمانة الضخمة، والضياع في الدنيا والآخرة، والسقوط في نظر الناس جميعاً: فاسقين وصالحين.

أقدمها وأنا في سن الخمسين، ولا همَّ لي إلا أن أجنب أمتي المزيد من الأخطار مما رأيت وسمعت خلال تجربتي الطويلة.

---

[1] – جامعة الملك سعود حالياً.

إن هنـاك تآمـراً رهيبـاً ضـد المـرأة المسـلمة يقـوم بـه ناس لا يخـافون الله ولا يخشـون العـار ولا الفضيحة، لأنهم متدينين غيورين،

((381))

فلـيس لكثـير مـنهم زوجـات ولا بنـات، ولا يتقنـون يومـاً يسـألون فيـه عمـا يعملـون، وإن كـان لبعضهم زوجات وبنات فليس عندهم من الغيرة شيء حتى ولا التي توجد عند بعض الحيوان.

أمـا نحـن، فـإن ديننـا هـو الـذي يحملنـا علـى أن نسـدي النصـح خالصـاً لبناتنـا وأخواتنـا وأمهاتنا، وننذرهن من العاقبة الوخيمة التي تنتظرهن إن هنَّ فرَّطْنَ في حق دينهنَّ.

إن الـدعوة لخـروج المـرأة مـن البيـت لتخـالط الرجـال جـر المآسـي والكـوارث[1] وقـد بـدأ براقـاً جـذاباً لتكـون المـرأة زهـرة المجتمـع وواسـطة العقـد المكرمـة.. ولكـن انتهـى بهـا الأمـر إلى المهانـة لتكون

((382))

---

[1] – وإليك هاتين الحادثتين اللتين نشرتهما صحيفة الأخبار:

(*) اتهم طالب بحقوق الزقازيق بمحاولة قتله زميلته لرفضها الاستجابة لحبه والابتعاد عنه، طعنها عدة طعنات بسكين حادّ في داخل الكلية، فأصابها إصابات خطيرة، ونقلت إلى المستشفى، وتم إلقاء القبض على الطالب.

جريدة الأخبار 1979/12/17م

(*) تقدم والد فتاة عمرها 18 سنة بإبلاغ النيابة العامة يتهم طبيباً بإجهاض ابنته ووفاتها بعد نقلها في حالة خطيرة إلى مستشفى القصر العيني. وأمام محكمة الجنايات برياسة المستشار شاكر تركي، وعضوية: أحمد حماده وأنور الجبالي، شهدت شقيقة المجني عليها، وهي طالبة بالجامعة، أن شقيقتها كانت تعمل عاملة ((سويتش)) بعيادة أحد الأطباء المشهورين، ووطّد علاقته معها منذ 6 شهور، وحملت رغم أنها بكر، وعندما أصبحت في الشهر ال رابع توسلت إلى طبيب آخر لإجهاضها وليمنع عنها الفضيحة، فأخذ منها ثمانية جنيهات وأجرى العملية.. ولكن الفتاة شعرت بآلام حادة، وعرضت حالتها على طبيب آخر فحولها للقصر العيني حيث أ خرج من بطنها بقية أجزاء من الجنين.. وبعد 15 يوماً ماتت الفتاة.

فحكمت المحكمة بحبس الطبيب سنة مع إيقاف التنفيذ، لأن الطبيب حاول إجهاض الفتاة بدافع الإنسانية.

الأخبار 1978/4/19

أقول: أوردت القصة لذكر أدلة واقعية على ما تتعرض له المرأة من أخطار في عملها تنال من كرامتها وفتها بل وحياتها.

ولكن الخبر يحتمل جوانب أخرى للتعليق: ماذا صنعوا بالطبيب الزاني؟ وما حكم هذا الأب المجرم؟...و....

كانسة للطرقات، وخادماً في الخمارات، وربما تعرضت في خروجها هذا إلى ما يهدد عفتها ويقضي على مستقبلها، إن المسؤولية تقع على الرجال والنساء من المؤمنين المتقين، ولابد من أن تنطلق صيحات الخير في وجوه الحائرين، ولكلمة سلطان وأي سلطان. اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

مُحَمَّد بن لطفي الصباغ

الرياض في ربيع الأول عام 1400.

تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية

والاختلاط المستهتر

إن الخلـوة بالمـرأة الأجنبيـة، والاخـتلاط المسـتهتر بـين الرجـال والنسـاء حـرام في ديـن الله، وهمـا من عوامل الهدم لأخلاق أمتنا الاجتماعية والأسرية، ومدعاة لغضب الله وعذابه.

فلنتـق الله في بناتنـا وزوجاتنـا، ولـنعلم أننـا مسـؤولون عـنهن بـين يـدي الله الـذي ائتمننـا علـيهن، قـال الله تعـالى: (قُـوا أَنْفُسَـكُمْ وَأَهْلِـيكُمْ نَاراً وَقُودُهَـا النَّـاسُ وَالْحِجَـارَةُ عَلَيْهَـا مَلائِكَـةٌ غِـلاظٌ شِـدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[1].

لقـد حـرم الإسـلام ذلـك تحريمـاً قاطعـاً – بغـض النظـر عـن المسـتوى الخلقـي للرجـل والمـرأة – فـالخلوة حـرام ولـو كانـت بـين أصـلح الخلـق وأتقـاهم وبـين أيـة امـرأة أجنبيـة، كمـا حـرم الاخـتلاط المستهتر، رعاية منه لمصالح الناس الدنيوية والأخروية لأنه بذلك يصونهم عن الوقوع في الحرام.

((384))

ومـما شـاع لـدى نفـر مـن الموسـرين اليـوم اسـتخدام الرجـال في البيـوت؛ وقيـامهم بشـؤون البيـت الداخلية ومخالطتهم للنساء.

يخـرج الرجـل مـن بيتـه إلى عملـه.. أو إلى صـديقه.. أو إلى أي شـأن مـن شـؤونه، وقـد تـرك زوجتـه مـع الخـادم الشـاب الـذي يتفجـر حيويـة ونشـاطاً وقـوة، وربمـا لا يكـون معهمـا أحـد مـن النـاس، وهـي لا تسـتتر منـه، وقـد رفعـت الكلفـة بينهمـا، فهـي تأمـره وتناديـه وتنهـاه، وهـو بحكـم عملـه يسـتجيب.. والشـيطان يجـري مـن ابـن آدم مجـرى الـدم، ومـا خـلا رجـل بامـرأة إلا وكـان الشيطان ثالثهما، يحببه إليها ويحببها إليه حتى تقع الجريمة...

والمثـيرات – في هـذه الأيام –كثـيرة جـداً، لاسـيما بعـد انتشـار وسـائل الإعـلام علـى نطـاق واسـع[2] مـن إذاعـة وتليفزيـون ومسـجلات وفيـديو وصـحافة مصـورة ومجـلات مثـيرة تتصـل بالجنس.

وقـد يكـون هـذا الخـادم وسـيماً، وقـد يكـون لـزوج مسـناً أو قبيحـاً أو ضـعيفاً أو شرسـاً مخاصماً.. فماذا تكون النتيجة إن لم يكن خوف الله مسيطراً على الجانبين؟.

---

[1] – سورة التحريم الآية: 6.

[2] – وقد زاد من انتشارها رخص ثمنها وخفة حجمها ووجودها في السيارات وعموم استعمالها، فإنك تسمع صوتها ليلاً ونهاراً فإن نجا منها امرؤٌ في بيته، سمع في الطريق ومن بيوت الجيران الشيء الكثير.

((385))

وهذا القرآن الكريم يحدثنا عن تجربة تعرض لها سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام، عندما كان في بيت العزيز.. لقد تعرض للفتنة المغرية: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ...)[1].

ولولا أن عصمة الله تبارك وتعالى، فأراه برهان ربه لكان الأمر المستبشع.

وكذلك ما شاع لدى فئة من أتباع الغرب ممن لا يخافون الله، ولا يرعون حرماته، من استقبال المرأة صديق زوجها في حال غيابه، والسماح له بالدخول إلى بيتها، والجلوس معه ومؤانسته والتبسط معه في القول، وممازحته.. وما إلى ذلك.

إن هذه خلوه محظورة ممنوحة شرعاً، ولا يجوز التساهل بها بحجة الثقة بالصديق والزوجة، وليست تحمد عواقبها، ولا يمكن أن يرضى بها إلا إنسان مريض القلب، فاقد الغيرة، عديم المروءة.

ومثله وأشدّ منه أن تسافر المرأة وحدها، أو مع السائق أو الخادم، وكذلك أن تذهب المرأة إلى الطبيب وحدها[2] وتتحقق خلوة

((386))

محظورة فيكشف بحكم مهنته عن مواضع في جسدها، ثم يبالغ في الاستفسار بالأسئلة التي تقود إلى الحرام.

وقريب من ذلك ما يفعله بعض الناس من ترك زوجته أو ابنته مع السائق يذهب بها أنّى شاءت، ولا يدري أحد عن طبيعة الحديث الذي يدور بينهما في داخل السيارة إلا الله.

وكذلك فإن الجلسات العائلية –كما يدعونها – التي يختلط الرجال بالنساء وهنّ في أتم زينة، وقد ألقين الحجاب وأظهرن المفاتن بحجة أنهم أصدقاء، وقد يكون في هذه الجلسات تبادل الحديث المبتذل، والمزاح الهابط، ولنكتة اللاذعة، والتعريض بأمور خاصة. إن كل ذلك مما لا يجيزه دين الله، وهو يعرض كيان الأسرة إلى الانهيار، ويبدل الودّ بين الزوجين إلى تنافر.

---

[1] – سورة يوسف الآية: 23.

[2] – نشرت جريدة الشرق الأوسط في عددها (136) تاريخ 1978/12/11م: أن محكمة ((هايغ)) في هولاندا طلبت من الطبيب ((يوهان بردغ)) دفع حوالي 700 جنيه استرليني كغرامة مالية بعد أن حاول اغتصاب إحدى مريضاته.

فلقد تقوضت علاقات التراحم والانسجام العائلي في عدد من الأسر بسبب الاختلاط المستهتر.. إذ من المحتمل أن تستيقظ غيرة أحد هؤلاء المختلطين وذلك عندما يرى زوجته تمازح صديقه فتثور ثائرته، ويتهمها بأنها كانت تنظر إليه بعين مملوءة بالإعجاب والعاطفة والميل.. ويتحول جو البيت من ردّ وثقة إلى خصام واتهامات، وقد تنتهي الحياة المشتركة إلى الطلاق وتشتت الأسرة،

((387))

وإن لم تقع مثل هذه النتائج المدمرة فلابد أن يبق أثر ذلك حساسية مفرطة وشكًّا متزايداً يحطم السعادة.

وأود أن أنقل هنا كلاماً ذكره أستاذنا الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله، فقد ساق أقوالاً لبعض الدارسين الأوروبيين فيها عظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال شيخنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله:

((فمن المعلوم تاريخياً أن من أكبر أسباب انهيار الحضارة اليونانية تبرج ومخالطتها للرجال، ومبالغتها في الزينة والاختلاط، ومثل ذلك حصل تماماً للرومانيين، فقد كانت المرأة في أول حضارتهم مصونة محتشمة، فاستطاعوا أن يفتحوا الفتوح؛ ويوطدوا أركان إمبراطوريتهم العظيمة، فلما تبرجت المرأة وأ صبحت ترتاد المنتديات والمجالس العامة وهي في أتم زينة وأبهى حلة، فسدت أخلاق الرجال، وضعفت ملكتهم الحربية وانهارت حضارتهم انهياراً مريعا)).

ثم نقل عن دائرة معارف القرن التاسع عشر قولها:

((كان النساء عند الرومانيين محبات للعمل، مثل محبة الرجال له، وكن يشتغلن في بيوتهن، أما الأزواج والآباء فكانوا يقتحمون

((388))

غمرات الحروب، وكان أهم أعمال النساء بعد تدبير المنزل: الغزل وشغل الصوف)).

((ثم دعاهم بعد ذلك داعي اللهو والترف إلى إخراج النساء من خدورهن ليحضرن معهم مجالس الأنس والطرب، فخرجن كخروج الفؤاد من بين الأضالع، فتمكن الرجل لمحض حظ نفسه من إتلاف أخلاقهن، وتدنيس طهارتهن، وهتك حيائهن، حتى صرن يحضرن المراقص، ويغنين في المنتديات، وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الأول في تعيين رجال السياسة

وخلعهم، فلم تلبث دول الرومان على هذه الحالة حتى جاءها الخراب من حيث تدري ولا تدري)).

ثم قالت دائرة المعارف:

((إنا لسنا أول من لاحظ هذا الأثر السيئ الذي يحدثه حب النساء للزينة يوماً فيوماً على أخلاقنا، فإن أشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهذا الموضوع الخطير، فكيف النجاة من هذا الداء الذي يقوض مدينتنا الحالية ويهددنا بسقوط سريع جداً وإن شئت فقل: بانحطاط لا دواء له؟)).

ومن الملاحظ أن عقلاء الأوروبيين بدأوا يحذرون قومهم من المصير الذي انتهى إليه الرومان نتيجة الإفراط في تبرج المرأة واختلاطها

((389))

فنجد العلامة ((لويز برول)) يقول في مجلة المجلات (المجلد 11) تحت عنوان: الفساد السياسي، ما يأتي:

((إن فساد الأسس السياسية وجد في كل زمان، ومن الغريب المدهش أن عوامله في الزمن الغابر هي ذات عوامله في الزمن الحاضر؛ يعني أن المرأة كانت العامل الأقوى في هدم الأخلاق الفاضلة)).

ثم أخذ هذا العالم يقارن بين العلامات المنذرة اليوم وبين ما كان في عهد جمهورية الرومان، حتى قال:

((لقد كان الرجال السياسيون في آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون صحبة النساء ذوات الطبائع الخفيفة، اللائي كان عددهن بالغاً حدّ الكثرة، فصار الحال اليوم كما كان في ذلك العهد، ترى الناس اندفعوا في تيار الحب البالغ حد الجنون وراء البذخ واللذات)).

وقالت الكاتبة الإنجليزية ((اللادي كوك)) في جريدة ((الإيكو)): ((إن الاختلاط يألفه الرجال، ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها، وعلى كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا، وههنا البلاء العظيم على المرأة)). ثم قالت:

((أما آن لنا أن نبحث عما يخفف – إن لم نقل: يزيل – هذه المصائب العائدة بالعار على المدينة الغربية؟ أما ن لنا أن نبحث عما يخفف – إن لم نقل: يزيل – هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية؟ أما آن لنا أن نتخذ

((390))

طرقاً تمنع ألوف الآلاف من الأطفال الذين لا ذنب لهم، بل الذنب على الرجل الذي أغرى المرأة المجبولة على رقة القلب)).

((يا أيها الوالدان لا يغرنكما بعض دريهمات تكسبها بناتكما باشتغالهن في المعامل ونحوها ومصيرهن إلى ما ذكرنا، علموهن الابتعاد عن الرجال، أخبروهن بعاقبة الكيد الكامن لهن بالمرصاد، لقد دلنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من حمل الزنا يعظم ويتفاقم حيث يكثر اختلاط الرجال بالنساء؛ ألم تروا أن أكثر أمهات أولاد الزنا من المشتغلات في المعامل والخادمات في البيوت، وكثير من السيدات المعرضات للأنظار، ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية للإسقاط لرأينا أضعاف ما نرى الآن؟! لقد أدت بنا هذه الحال إلى حدّ من الدناءة لم يكن تصورها في الإمكان.. وهذا غاية الهبوط بالمدنية))[1].

إن الإسلام لم يفرض الحجاب على المرأة إلا ليصونها عن الابتذال والتعرض للريبة والفحش، وعن الوقوع في الجريمة. فكيف يجوز لامرأة مسلمة بالله واليوم الآخر أن تخالف أمر الله وترفع الحجاب أمام رجل أجنبي بحجة أنه خادم.. أو سائق..

((391))

أو طبيب.. أو بائع.. أو خياط. أو صديق الزوج.. أستاذ سواء كان في قاعة الدرس أو في درس خاص.. أو ما إلى ذلك؟؟.

وكيف يرضى امرؤ يتقي الله ويخشاه بأن تخلو زوجته أو ابنته مع رجل أجنبي عنها؟؟ إن الإسلام حظر الجريمة ومنع أسبابها المؤدية إليها، لأن من فرط في الأسباب وقع في الجريمة، ومن حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

---

[1] – منقول عن كلمة للأستاذ السباعي رحمه الله في هذا الموضوع نشرتها جمعية الإصلاح الاجتماعي في الكويت سنة 1387هـ (1967م) من ص 10 إلى ص 13.

ألا وإن لكل ملك حمىً، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كُلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)).

وهناك نوعان من الاختلاط يتهاون فيهما كثير من الصالحين، ولابد من أن نشير ههنا إلى أنهما معولان يهدمان في كيان مجتمعنا الإسلامي:

أما أولهما: فهو الاختلاط في التعليم، وهو بعد أن اتسع نطاق التعليم ليس ضرورة يتعين اللجوء إليها لقلة الطلاب والأساتذة كما كان يتذرع بها الذين بدأوا هذه السنة السيئة، وأن من أضراره ما نلمسه في الواقع الذي نعيش فيه وتتسرب بعض أنبائه إلى الصحف.. إنه إفساد للخلق وهبوط بالتعليم، وصرف للطاقات في غير مجال الدرس والتعليم.

وإننا عندما نستطيع أن نمنعه في بلادنا الإسلامية كلها، وفي جميع مراحل التعليم نكون قد بدأنا الخطوة المتقدمة حقاً، ولا يعني ذلك أن نمنع تعليم المرأة أبداً. إن التعليم حق للمرأة كما هو حق للرجل، لكن في حدود الشرع المطهر.

إن هذه الكلمة المخلصة التي أطلقها، وأرفع بها صوتي أرجو أن تأخذ طريقها إلى التنفيذ، يجب أن ينتهي عهد التقليد والتبعية والهدم إلى غير رجعة.

يجب أن يمنع الاختلاط في التعليم طاعة لأمر ربنا، ورعاية لأخلاق أبنائنا وبناتنا، وسعياً للمزيد من تحصيل العلم والمعرفة.

وأما ثانيهما: فهو الاختلاط في العمل، وهو أمر يقع فيه كثير من الطيبين والطيبات، ولا ينتبه عدد منهم إلى أنه اختلاط غير مشروع، فلا ينكرون هذا المنكر حتى في قلوبهم، وإذا آلت إلى أحدهم سلطة يستطيع بها أن يمنع هذا الشر، أو يكفكف من غلوائه؛ فإنه لا يفعل شيئاً، لأنه لم يحس بأن مثل هذا الوضع غير مشروع.. ترى بعضهم يرسل ابنته أو زوجته لتعمل في وسط مختلط دون أن تكون هناك حاجة ملزمة ولا ضرورة مستحكمة.

نعم، إن للمرأة الحق في أن تعمل، كما يدل على ذلك قوله تعالى: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ)[1].

---

[1] – سورة النساء الآية: 32.

ولكن عملها هذا مشروطٌ بأن يكون ضمن حدود الشريعة، وذلك بألا يكون هذا العمل إلى الفتنة، وألا تكون طبيعة عملها مخاطبة الرجال، وإلانة القول لهم حتى تتألفهم لصالح العمل الذي تقوم به، وأن تكون هي ملتزمة بالحجاب والحشمة.

هناك مجالات ممتازة لعمل المرأة، كالتعليم والتوليد والطب للنساء.. فكم هو جميل أن نجد طبيبات متخصصات في الأمراض كلها، ولا تعالج الطبية منهن إلا النساء.

وعملها في مثل هذه المجالات لا يقدم لها المنفعة الخاصة فحسب، بل يقدم للأمة كلها النفع الكبير. إذن فالعمل للمرأة بعيداً عن

الرجال أمر لا يمانع فيه الشرع.. ولكن ينبغي أن يبقى في حدود الضرورة والمحافظة على تنفيذ أحكام الله.

إن عمل المرأة خارج البيت يحدث اختلالاً في الحياة الزوجية دون شك، وإن الوضع الطبيعي للمرأة أن يكون عملها في البيت، وعمل البيت عبءٌ يسير، وإنه ليحتاج إلى تفرغ تام، لاسيما إن هناك أطفال.

أما إن لم يكن هناك ضرورة، فإن عملها –كما ذكرنا – ضارٌّ مؤذٍ أشد الإيذاء، ذلك أن العمل يكون قد استنفذ طاقتها، فتعود إلى بيتها ضجرة متوترة الأعصاب لا تستطيع احتمال كلمة من زوجها ولا من أولادها[1] وغالبا ما تكون العلاقات بين الزوجة العاملة وزوجها قائمة

---

[1] – نشرت جريدة الأخبار ما يلي:

((المرأة التي كانت تصرخ بأعلى صوتها للمطالبة بمساواتها بالرجل، أصبحت الآن تصرخ لحمايتها من مضايقة الرجال في العمل.. إن المرأة عندما دخلت مجال العمل وجدت نفسها وسط غابة من الرجال.. وكما تقول (جلوريا تيانم) مديرة تحرير مجلة (إم إس): إن المرأة وجدت نفسها في هذا المجال للخطر.. وتذكر ((جلوريا)) أن هناك مئات الحالات التي ظهرت في أوروبا وأمريكا لنمو ظاهرة الخوف والتوتر لدى المرأة العاملة لدرجة أصبحت عامة بشكل مثير.. وقد نشرت عشرات القصص التي تروى بساطة مدى التهديد الذي تقع فيه المرأة في غابة الرجال.

وتستطرد (جلوريا) قائلة: إن هذه الظاهرة قد نوقشت في مؤتمر عام عقد في نيويورك حيث روت عشرات النساء كيف تحطمن في عملهن لأنهن رفضن تحقيق رغبات الرجال الذين كن يعملن معهم)).

جريدة الأخبار 1977/11/11م

ونشرت الأخبار في عددها بتاريخ 977/5/20 عن مراسلها جلال عيسى في جنيف ما يلي: ((أكد خبراء طب الصناعات أن العمل يضعف من أنوثة المرأة، وقالوا: إنه لا يشترط أن يكون العمل شاقاً بل إن الأعمال المكتبية

على أساس مادي بحت.. وكثيراً ما تنشأ خلافات حادة تبدد جو الود والحب، وإذا قدمت المرأة من دخلها شيئاً من المساعدة فَقَدَ الرجلُ قوامته ومسؤوليته، ولم تعد المرأة – بحكم غيابها عن المنزل – قادرة على رعاية البيت وتنشئة الأولاد.

((396))

و ينبغي أن نقنع بناتنا – لنحول بينهن وبين مخاطر الاختلاط في العمل – بأنه ليس من الضروري أن يستتبع تعلم المرأة أن تعمل خارج المنزل.

فلتتعلم بناتنا ما شئن من العلوم ليتوسع إدراكهن، وتكبر عقولهن، وليشاركن في بناء الجيل المسلم المجاهد الجديد.. وإنها لمهمة جليلة!!..

ومثل الذين يتهاونون في الخلوة والاختلاط الآثم بدعوى أنهم رُبُّوا على الاستجابة لنداء الفضيلة ورعاية الخلق، مثل قوم وضعوا كمية من البارود بجانب نار متوقدة ثم ادعوا أن الانفجار لا يكون لأن على البارود تحذيراً من الاشتعال والاحتراق.. إن هذا خيال بعيد عن الواقع ومغالطة للنفس وطبيعة الحياة وأحداثها.

هذا وقد بطلت الدعوى التي يزعم قائلوها أن الاختلاط يكسر الشهوة، ويهذب الغريزة، ويزيل هذا الجنون الجنسي، ويخفف من الكبت، ويبعد الفساد، وبطلان هذه الفرية قائم متحقق بزيارة عابرة لأي بلد من بلاد أوروبا.. إن مثل هذه الزيارة تقنع من كان متردداً في تكذيب هذا الإدّعاءِ.. فلقد زاد الاختلاط من توقد الشهوة وعرامها.. وزاد من الفساد.

((397))

ومثله مثل الظمآن يشرب من ماءِ البحر فلا يزيده شربه إلا عطشاً على عطش.

وإليك مثالاً واحداً – وما أكثر الأمثلة – على أن حياة الغرب تردت إلى الحضيض: فقد ذكرت جريدة ((الشرق الأوسط في عددها رقم 147، تاريخ 4-12-1987م)) أن الطالب الأمريكي ((جو فوتس)) والبالغ من العمر 19 عاماً قد أطلق النار على أستاذة ((جيمس بونجي)) داخل قاعات الدروس في مدرسة ((سانتا مونيكا)) في كاليفورنيا، فأرداهُ قتيلاً على الفور، وذكر بيان لرجال الشرطة صدر في وقت لاحق أن خلافاً قديماً كان قد نشب بين الطالب وأستاذه بسبب التنافس على حب إحدى الطالبات.

والذهنية وتحمل المسؤولية لها نفس التأثير ..)) وقال: ((إن ما تعانيه المرأة العاملة من متاعب نفسية أثناء العمل ينعكس على حياة الأسرة، وأكد أن العمل يؤثر أيضاً على الرغبة الجنسية لدى المرأة)). وفي الخبر أيضاً تفصيلات أخرى.

إن الاختلاط لا يحقق للمرأة أي احترام، لأن ما يبدو من الاهتمام بالمرأة في الجلسات المختلطة ليس في حقيقته إلا احتقاراً للمرأة وزارية بها، لأنهم ينظرون إليها على أنها متعة، ولو كانت عجوزاً لما اهتموا بها أبداً.. أما الإسلام فهو الذي يقدرها حقّ قدرها، ويوجب احترامها أُمًّا، ورعايتها بنتاً، وإكرامهاً زوجة، والمحافظة عليها جارة وأختاً مسلمة.

فانتبهن يا بناتي العزيزات، يا بنات هذا الجيل، إن الرجل لا يحترم إلا المرأة التي تحترم فضيلتها وعفتها وحجابها.. ولا يرى

((398))

في المتبرجة المختلطة بالرجال إلا ألعوبة يطاف من حولها للتلهي بها والاستمتاع.

والشيء الغريب العجيب أن أولئك الذين أخذوا يستعيرون حياة الفرنجة لم يستطيعوا أن يتخيلوا عن تصورات أمتهم وقيمها وأعرافها على الرغم من محاولات المائعين المنحلين الكثيرة لزحزحة الأمة عن تقاليدها ومثلها، ولم يدرك المتفرنجون هذه الحقيقة إلا بعد وقوع النكبة الممضة والتعاسة الدائمة.

إن الإسلام عالج هذا الموضوع بصورة جذرية.

1 -فقد جاء الأمر بغض البصر، قال تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1].

((399)

وعد الشرعُ نوعاً من أنواع الزنا، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: ((كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة: العينان زناهما النظر، والرجل زناها الخُطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذب)) (رواه البخاري وأبو داود والنسائي).

---

[1] - سورة النور الآيتان: 30-31.

وفي رواية لمسلم وأبي داود: (واليدان تزنيان، فزناهما البطش، والرجلان تزنيان، فزناهما المشي، والفم يزني فزناه القُبل)).

إن في تسمية هذه المحرمات زناً، تبشيعاً لهذه المعاصي، وتنفيراً منها، وتخويفاً للناس من الوقوع فيها لما استقر في نفوس المسلمين من استعظام جريمة الزنا وكونها من السبع الموبقات؛ فهذه المعاصي مع أنها محرمة لذاتها فهي محرمة لسدّ الطريق التي تؤدي إلى تلك الفاحشة المقيتة؛ وهذا ما عرف في الفقه الإسلامي بسدّ الذرائع.

2 -وجاء الأمر بتحريم الخلوة بالمرأة حتى لو كان الرجل من أقارب الزوج.. فعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي رحم)). (رواه البخاري ومسلم).

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: ((إياكم والدخول على النساء)) فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال ﷺ:

((400))

((الحمو الموت))[1] (رواه البخاري ومسلم) والحمو هو قريب الزوج.

3 -إن في تأديب الله لزوجات رسوله مُحَمَّد ﷺ وتحديد علاقتهن بالرجال عظةً بالغة ودرساً عظيماً. فلنستعرض الآيات التي تحدثت عن ذلك ففيها الكفاية لمن أراد الهداية:

- قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)[2].

- وقال تعالى: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً، وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً)[3].

---

[1] - قال أبو عبيدة في معناه: يعني فليمت ولا يفعلن ذلك.

[2] - سورة الأحزاب الآية:59.

[3] - سورة الأحزاب: 33-34.

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ[1] وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً)[2].

((401))

وزوجات رسول الله ﷺ هن أمهات المؤمنين، وهنّ موضع الاحترام والتكريم، وهنّ محرمات على المسلمين، وقد بلغن منزله في الدين والتقوى ليس فوقها منزله، وفي بيوتهن تتلى آيات الله والحكمة، ويشهدن تنزّل الوحي والتطبيق العملي للإسلام في مصدريه: الكتاب والسُّنة، والصحابة جيل مثالي، إلى أعلى مستوىً يمكن أن يبلغه جيل، وقد شهد لهم رسول الله ﷺ بالفضل، و رضي الله عنهم ورضوا عنه، قال تعالى:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[3].

ومع ذلك فقد حدد الله علاقة هؤلاء الزوجات بأولئك الرجال

((402))

الأفاضل على نحو ما نطقت به الآيات الكريمة التي أوردناها: فلقد أمرن بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، ويلزمن بيوتهن، ولا يتبرجن تبرج المرأة في الجاهلية، وبألا يخضعن في القول في مخاطبة الرجال فيطمع الذي في قلبه مرض، بل يتكلمن بمقدار الضرورة، وقد قرن تبارك وتعالى هذا بأمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، ولقد كان ذلك كله (لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) وأمر المسلمين – إذا أرادوا أن يسألوهن متاعاً – أن يسألوهن من وراء حجاب، فيحدثونهن من خلف ستار يفصل بينهم وبينهن، ويقول الله تعالى: (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ).

ولا يقولن قائل: إن هذا خاص بزوجات النبي ﷺ دون سائر المسلمين؛ إن هذا مطلوب من المسلمات جميعاً، كما هو مطلوب من أمهات المؤمنين، وذلك من وجهين:

---

[1] – أي: نضجه.

[2] – سورة الأحزاب الآية:53.

[3] – سورة التوبة الآية:100.

الأول: أن رسول ﷺ قدوة للمسلمين، وسلوكه مدرسة متبعة، يقول تبارك وتعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)[1].

((403))

الثاني: إذا كان مثل هذا الاحتياط في السلوك والمعاملة مطلوباً من أمهات المؤمنين وهنَّ كما ذكرنا من الاستقامة والتقوى، ولهن ما قررنا من الحرمة وجلالة القدر عند جميع المؤمنين الصادقين فالمسلمات الأخريات أحوج إلى الأخذ بهذا الاحتياط.

هذا وإني أرى ألا تخلو هذه الكلمة المتواضعة من التنبيه إلى رأي خاطئ يقع فيه كثير من الناس، بعضهم مخطئ عن اجتهاد، وأكثرهم مغرض دساس، وذلك عندما يعمدون إلى الاستشهاد بحوادث أوردتها كتب السنة فيريدون أن يعموها ويسحبوها على ما يقع اليوم من اختلاط مستهتر هدام، فقد كتب بعضهم[2] مقالات في صحف ومجلات، وردّ عليهم آخرون في مقالات ورسائل، ولست أريد أن أدخل في تفصيلات الردّ عليهم، ويكفيني هنا أن أنبه إلى هذه القولة الباطلة، ون أكشف عن القصد السيء عند أكثر القائلين بها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فلننتبه يا عباد الله، ولندرأ عن أنفسنا الوباء والخطر قبل حلوله لنحذر مكر الشيطان.. فإنه شر مستطير على أنفسنا وأهلينا وأمتنا.

((404))

ولنستجب لدعوة الله تعالى نسعد في الدنيا والآخرة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[3].

والحمد لله رب العالمين ..

---

[1] – سورة الأحزاب الآية:21.

[2] – من هؤلاء الأستاذ أحمد حسن الزيات والشيخ أحمد حسن الباقوري وغيرهما.

[3] – سورة الأنفال:24-25.

– 8 –

يا بنتي

للشيخ علي الطنطاوي

((407))

يا بنـتي، أنا رجـل يمشـي إلى الخمسـين، قـد فـارق الشـباب، وودع أحلامـه وأوهامـه، ثم إني سـحت في البلـدان ولقيـت النـاس، وخـبرت الـدنيا، فـاسمعي مـني كلمـة صـحيحة صـريحة مـن سـني وتجـاربي، لم تسـمعيها مـن غـيري، لقـد كتبنـا وناديـنا نـدعو إلى تقـويم الأخـلاق، ومحـو الفسـاد، وقهـر الشـهوات حـتى كلـت منـا الأقـلام، وكلـت الألسـنة، ومـا صـنعنا شـيئاً منكـراً ، بـل إن المنكـرات لتـزداد، والفسـاد ينتشـر، والسـفور والحسـور والتكشـف تقـوي شـرته، وتتسـع دائرتـه، ويمتـد مـن بلـد إلى بلـد، حـتى لم يبـق بلـد إسـلامي (فيمـا أحسـل) في نجـوة منـه، حـتى الشـام الـتي كانـت فيهـا الملاءة السـابغة، وفيهـا الغلـو في حفـظ الأعـراض، وسـتر العـورات، قـد خـرج نسـاؤها سـافرات حاسـرات، كاشـفات السـواعد والنحـور. مـا نجحنـا ومـا أظـن أننـا سـننجح. أتـدرين لمـاذا؟ لأننـا لم نهتـد إلى اليـوم إلى الإصـلاح، ولم نعـرف طريقـه، إن باب الإصـلاح، أمامـك أنـت يا بنـتي، ومفتاحه بيدك، فإذا آمنت بوجوده، وعملت على دخوله، صلحت الحال، صحيح أن الرجل

((408))

هـو الـذي يخطـو الخطـوة الأولى في طريـق الإثم، لا تخطوهـا المـرأة أبـداً؛ و لكـن لـولا رضـاك مـا أقـدم، ولـولا لينـك مـا اشـتد، أنـت فتحـت لـه، وهـو الـذي دخـل، قلـت للـص: تفضـل.. فلمـا سـرقك اللـص، صـرخت: أغيثـوني يا ناس، سـرقت.. ولـو عرفـت أ ن الرجـال جميعهم ذئاب وأنـت النعجـة لفـررت فـرار النعجـة مـن الـذئب، وأنهـم جميعـاً لصـوص لاحترسـت مـنهم احـتراس الشـحيح من اللص.

وإذا كـان الـذئب لا يريـد مـن النعجـة إلا لحمهـا، فالـذي يريـده الرجـل أعـز عليـك مـن اللحـم علـى النعجـة، وشـر عليـك مـن المـوت عليهـا: عفافـك الـذي بـه تشـرفين، وبـه تعيشـين؛ وحيـاة البنـت الـتي فجعهـا الرجـل بعفافهـا، أشـد بمائـة مـرة مـن المـوت علـى النعجـة الـتي فجعهـا الـذئب بلحمها.. إي والله، وما رأي شاب فتاة إلا جردها بخياله من ثيابها ثم تصورها بلا ثياب.

إي والله، أحلـف لـك مـرة ثانيـة، ولا تصـدقي مـا يقولـه بعـض الرجـال، مـن أنهـم لا يـرون في البنـت إلا خلقهـا وأدبهـا، وأنهـم يكلمونهـا كـلام الرفيـق، ويودونهـا ودّ الصـديق، كـذبٌ والله، ولـو سمعـت أحاديـث الشـباب في خلـواتهم، لسـمعت مهـولاً مرعبـاً، ومـا يبسـم لـك الشـاب بسـمة، ولا يلين لك كلمة، ولا يقدم لك

((410))

خدمة، إلا وهي عنده تمهيد لما يريد، أو هي إيهام لنفسه أنها تمهيد: وماذا بعد؟ ماذا يا بنت؟ فكري!

تشتركان في لذة ساعة، ثم ينسى هو، وتظلين أنتِ أبداً تتجرعين غصصها، يمضي (خفيفاً) يفتش عن مغفلة أخرى يسرق منها عرضها، وينوء بك[1] أنت (ثقل) الحمل في بطنك، والهم في نفسك، والوصمة على جبينك؛ يغفر له هذا المجتمع الظالم، ويقول: شاب ضَلَّ ثم تاب. وتبقين أنت في حمأة الخزي والعار طول الحياة، لا يغفر لك المجتمع أبداً؛ ولو أنك إذ لقيتيه نصبت له صدرك، وزويت عنه بصرك، وأريتيه الحزم والإعراض.. فإذا لم يصرفه عنك هذا الصيد، وإذا بلغت به الوقاحة أن ينال منك بلسان أو يد، نزعت حذاءك من رجلك، ونزلت به على رأسه، لو أنك فعلت هذا، لرأيت من كل من يمر في الطريق عوناً لك عليه، ولما جرؤ بعدها فاجر على ذات سوار، ولجاءك (إن كان صالحا) تائباً مستغفرا، يسأل الصلة بالحلال: جاءك يطلب الزواج.

والبنت، مهما بلغت من المنزلة والغنى والشهرة والجاه، لا تجد أملها الأكبر وسعادتها إلا في الزواج، في أن تكون زوجاً صالحة، وأما مرموقة، وربة بيت سواء في ذلك الملكات والأميرات، وممثلات هوليود ذوات الشهرة والبريق الذي يخدع كثيرات من النساء، وأنا أعرف أديبتين كبيرتين في مصر والشام، أديبتين حقاً، جمع لهما المال والمجد الأدبي، ولكنهما فقدتا الزواج، ففقدتا العقل وصارتا مجنونتين، ولا تحرجيني بسؤالي عن الأسماء، إنها معروفة!

الزواج أقصى أماني المرأة ولو صارت عضوة في البرلمان، وصاحبة السلطان. والفاسقة المستهترة لا يتزوجها أحد وحتى الذي يغوي البنت الشريفة بوعد الزواج، إن هي غوت وسقطت تركها وذهب إذا أراد الزواج، فتزوج غيرها من الشريفات، لأنه لا يرضى أن تكون ربة بيته وأم بنته، امرأة ساقطة.

والرجل ذا كان فاسقاً داعراً، إذا لم يجد في سوق اللذات بنتاً ترضى أن تريق كرامتها على قدميه، وأن تكون لعبة بين يديه؛ إذا لم يجد البنت الفاسقة، أو البنت المغفلة التي تشاركه في الزواج على دين إبليس، وشريعة القطط في شباط، طلب أن تكون زوجته على سنة الإسلام. فكساد الزواج منكن يا بنات لو لم يكن الفاسقات ما كسدت سوق الزواج ولا راجت

[1] – هذا هو التعبير الأفصح، قال تعالى: (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة).

سوق الفجور.. فلماذا لا تعملن؟ لماذا لا تعمل شريفات النساء على محاربة هذا البلاء؟ أنتن أولى به وأقدر عليه منا، لأنكن أعرف بلسان المرأة وطرق إفهامها، لأنه لا يذهب الفساد إلا أنتن: البنات العفيفات الشريفات، البنات الصينات الدينات، في كل بيت من بيوت الشام بنات في سن الزواج لا يجدن زوجاً، لأن الشباب وجدوا من الخليلات ما يغني عن الحليلات، ولعل هذا في غير الشام أيضاً.. فألفن جماعات منكن من الأديبات والمتعلمات ومدرسات المدرسة وطالبات الجامعة تعبد أخواتكن الضالات إلى الجادة؛ فخوفنهن الله، فإن كن لا يخفنه، فحذرنهن المرض؛ فإن كن لا يحذرنه، فخاطبنهن بلسان الواقع، قلن لهن: إنكن صبايا جميلات يقبل الشباب عليكن، ويحومون حولكن، ولكن هل يدوم عليكن الصبا والجمال؟ ومتى دام في الدنيا شيء يدوم على الصبية صباها، وعلى الجميلة جمالها، فكيف بكن إذا صرتن عجائز محنيات الظهور، مجعدات الوجوه؟! من يهتم يومئذ بكن؟ ومن يسأل عنكن؟ أتعرفن من يهتم بالعجوز ويكرمها ويوقرها؟ أولادها وبناتها، حفدتها وحفيداتها. هنالك تكون العجوز ملكة في رعيتها، ومتوجة على عرشها على حين تكون (الأخرى..) أنتن أعرف بما تكون عليه!

((412))

فهل تساوي هذه اللذات تلك الآلام ؟ وهل تشترى بهذه البداية تلك النهاية؟

وأمثال هذا الكلام، لا تحتجن على من يدلكن عليه، ولا تعدمن وسيلة هداية أخواتكن المسكينات الضالات، فإن لم تستطعن ذلك معهن، فاعملن على وقاية السالمات من مرضهن، والناشئات الغافلات من أن يسلكن طريقهن.

وأنا لا أطلب منكن أن تعدن بالمرأة المسلمة اليوم بوثبة واحدة إلى مثلما كانت عليه المرأة المسلمة حقاً، لا وإني لأعلم أن الطفرة مستحيلة في العادة، ولكن أن ترجعن إلى الخير خطوة خطوة، كما أقبلتن على الشر خطوة خطوة، إنكن قصرتن شعرة شعرة، ورققتن الحجاب، وصبرتن الدهر الأطوال، تعملن لهذا الانتقال، والرجل الفاضل لا يشعر به، والمجلات الداعرة تحث عليه، والفساق يفرحون به حتى وصلنا إلى حال لا يرضى بها الإسلام، ولا ترضى بها النصرانية، ولم يعملها المجوس لاذين نقرأ أخبارهم في التاريخ إلى حالا تأباها الحيوانات.

إن الديكين إذا اجتمعا على الدجاجة اقتتلا غيرةً عليها وذودا عنها، وعلى الشواطئ في الإسكندرية وبيروت رجال مسلمون، لا يغارون على نسائهم المسلمات أن يراهن الأجنبي، لا أن يرى

((413))

وجوههن.. ولا أكفهن.. ولا نحورهن.. بل كان كل شيء فيهن! كل شيء إلا الشيء الذي يقبح مرآة ويجمل ستره، وهو السوأتين وحلمتا الثديين.. وفي النوادي والسهرات (التقدمية) الراقية، رجال مسلمون يقدمون نساءهم المسلمات للأجنبي، ليراقصهن، ويضمهن حتى يلامس الصدر الصدر، والبطن البطن، والفم الخد، والذراع ملتوية على الجسد، ولا ينكر ذلك أحد..

وفي الجامعات المسلمة شبان مسلمون يجالسون بنات مسلمات متكشفات، باديات العورات، ولا ينكر ذلك المسلمون ولا الأمهات المسلمات، وأمثال هذا كثر، لا يدفع في يوم واحد ولا بوثبة عاجلة، بل بأن نعود إلى الحق، من الطريق الذي وصلنا منه إلى الباطل، وجدناه الآن طويلاً – وإن من لا يسلك الطريق الطويل الذي لا يجد غيره لا يصل أبداً – وأن نبدأ بمحاربة الاختلاط، لأن الرسول ﷺ، يقول:

((لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما)) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

وقال ﷺ: ((لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم)) متفق عليه.

السفور إن اقتصر على الوجه – كما خلق الله الوجه – نقبل به،

((414))

وإن كنا نرى الستر أحسن وأولى، وأما الاختلاط فشيء آخر؛ وليس يلزم من السفور أن تختلط الفتاة بغير محارمها، وأن تستقبل المرأة السافرة صديق زوجها في بيتها، أو أن تحييه إن لقيته في الترام، أو لقيته في الشارع، أو أن تصافح البنت رفيقها في الجامعة أو أن تصل الحديث بينهما وبينه، أو أن تمشي معه في الطريق، وتستعد معه للامتحان، وتنسى أن الله جعلها أنثى وجعله ذكراً، وركب في كل منهما الميل إلى الآخر، فلا تسطيع هي ولا هو ولا أهل الأرض جميعاً، أن يغيروا خلقة الله، وأن (يساووا) بين الجنسين، أو أن يمحوا من نفوسهم هذا الميل، وأن دعاة المساواة والاختلاط باسم المدنية قوم كذابون من جهتين: كذابون لأنهم ما أرادوا من هذا كله إلا إمتاع جوارحهم، وإرضاء ميولهم، وإعطاء نفوسهم حظها من لذة النظر؛ وما يأملون به من لذائذ أخر، ولكنهم لم يجدوا الجرأة على التصريح به، فلبسوه بهذا الذي يهرفون به من هذه الألفاظ الطنانة، التي ليس وراءها شيء: التقدمية والتمدن والحياة الجامعية، وهذا الكلام الفارغ (على دويه) من المعنى فكأنه الطبل.

وكـذابون، لأن أوروبا الـتي يأتمـرون بأمرهـا، ويهتـدون بهـديها، ولا يعرفـون الحـق إلا بـدمغتها عليها، فليس الحق عندهم الذي

((415))

يقابـل الباطـل ولكنمـا جـاء مـن هنـاك: مـن باريـس، ولنـدن، وبـرلين؛ ونيويـورك، ولـو كـان الـرقص والخلاعـة، والاخـتلاط في الجامعـة، والتكشـف في الملعـب، والعـري علـى السـاحل؛ والباطـل مـا جـاء مـن هنـا: مـن الأزهـر، وأمـوي، وهاتيـك المـدارس الشـرقية، والمسـاجد الإسـلامية، ولـو كـان الشـرف والهـدى والعفـاف والطهـارة، طهـارة القلـب وطهـار الجسـد؛ إن في أوروبا وفي أمريكـا، كمـا قـرأنا وحـدثنا مـن ذهـب إليهـا، أسـراً كثـيرات لا ترضـى بهـذا الاخـتلاط ولا تسـيغه، وإن في باريـز (باريـس يا ناس) آباء وأمهـات لا يسـمحون لبنـاتهم الكبـيرات أن يسـرن مـع شـاب، أو أن يصـحبنه إلى السـينما، بـل هـم لا يـدخلونهن إلا إلى روايات عرفوهـا وأيقنـوا بسـلامتها مـن الفحـش والفجـور، اللـذين لا يخلـو منهمـا مـع الأسـف واحـد مـن هـذه التهريجـات والصـبيانات السـخيفة الـتي تسـميها شـركات مصـر الهزيلـة الرقيعـة الجاهلـة بالفـن السـينمائي مثـل جهلهـا بالدين، تسميها أفلاماً.

يقوملـون: إن الاخـتلاط يكسـر شـره الشـهوة، ويهـذب الخلـق، وينـزع مـن الـنفس هـذا الجنـون الجنسـي، وأنا أحيـل الجـواب علـى مـن جـرب الاخـتلاط في المـدارس، روسـيا الـتي لا تعـود إلى دين، ولا تسمع رأي شيخ ولا قسيس، ألم ترجع عن هذه التجربة لما رأت

((416))

فسـادها وأمريكـا، ألم تقـرأوا أن مـن جملـة مشـاكل أمريكـا ازدياد نسـبة ((الحـاملات)) مـن الطالبـات! فمـن يسـره أن يكـون في جامعـات مصـر والشـام وسـائر بـلاد الإسـلام مثـل هـذه المشـكلة؟ وأنا لا أخاطـب الشـباب ولا طمـع في أن يسـمعوا، أنا أعلـم أنهـم قـد يـردون علـيّ، ويسفهون رأيي لأني أحرمهم من لذائذ ما صدقوا أنهم وصلوا إليها حقاً.

ولكـن أخـاطبكن أنـتن يا بنـاتي المؤمنـات الـدينات، يا بنـاتي الشـريفات العفيفـات، إنـه لا يكـون الضـحية إلا أنـتن، فـلا تقـدمن نفوسـكن ضـحايا علـى مـذبح إبلـيس، لا تسـمعن كـلام هـؤلاء الـذين يزينـون لكـون حيـاة الاخـتلاط باسمـة الحريـة والمدنيـة والتقدميـة والحيـاة الجامعيـة، فـإن أكثـر هـؤلاء الملاعـين لا زوجـة لـه ولا ولـد، ولا يهمـه مـنكن إلا اللـذة العارضـة، أمـا أنا فـإني أبـو أربع بنات، فأنا حين أدافع عنكن أدافع عن بناتي، وأنا أريد لكن الخير ما أريد لهن.

إنه لا شيء مما يهرف به هؤلاء يرد على البنت عرضها الذاهب، ولا يرجع لها شرفها المثلوم، ولا يعيد لها كرامتها الضائعة، وإذا سقطت البنت لم تجد واحداً منهم يأخذ بيدها، أو يرفعها من سقطتها، إنما تجدهم جميعاً يتزاحمون على جمالها، ما بقي فيها

((417))

من جمال، فإذا وّلى، ولّوا عنها كما تولى الكلاب عن الجيفة التي لم يبق فيها مزعة لحم!

هذه نصيحتي إليك يا بنتي، وهذا هو الحق، فلا تسمعي لهم، واعلمي أن بيدك أنت لا بأيدينا معشر الرجال، بيدك مفتاح باب الإصلاح، فإذا شئت أصلحت نفسك، وأصلحت بصلاحك الأمة كلها.

والسلام عليكن ورحمة الله وبركاته.

يا فتاة تكلمي

الأستاذ عارف الشيخ

أختـــاه يـــا بنـــت الخلـــيج تحشـــمي ... لا ترفعـــي عنـــك الخمـــار فتنـــدمي
هـــذا الخمـــار يزيـــد وجهـــك بهجـــة ... وحـــــلاوة العيـــــنين أن تتلثمـــــي
صـــــوني جمالـــــك إن أردت كرامـــــة ... كـــيلا يصـــول عليـــك أدنـــى ضـــيغم
لا تعرضـــي عـــن هـــدي ربـــك ســـاعة ... عضـــي عليـــه مـــدى الحيـــاة لتغنمـــي
مـــا كـــان ربـــك جـــائراً في شـــرعه ... فاستمســـكي بعـــراه حتـــى تســـلمي
ودعـــــي هـــــراء القـــائلين ســـفاهة ... إن التقـــدم في الســـفور الأعجمـــي
إيـــاك إيـــاك الخـــداع بقـــولهم : ... سمـــراء يـــا ذات الجمـــال تقـــدمي
إن الـــذين تـــبرؤوا عـــن ديـــنهم ... بهـــم يبيعـــون العفـــاف بـــدرهم
حلـــل التـــبرج إن أردت رخيصـــة ... أمـــا العفـــاف فدونـــه ســـفك الـــدم

*****

بنـــت الجزيـــرة مـــا أرى لـــك شـــيمة ... هـــذا التـــبرج يـــا فتـــاة تكلمـــي
أرأيـــت أمتنـــا بـــدون حضـــارة ... حتـــى أتيـــت لنـــا بشـــرعة ((وليـــم))؟
وتبعـــت ((مـــاري)) في جميـــع خصـــالها ... فخرجـــت ســـافرة كـــأن لم تعلمـــي
العـــري مرتعـــه وخـــيم فاحـــذري ... وتـــداركي البنيـــان قبـــل تهـــدم
حســـناً أيـــا ذات الـــدلال فـــإنني ... أخشـــى عليـــك مـــن الخبيـــث المجـــرم
لا تعرضـــي هـــذا الجمـــال علـــى الـــورى ... إلا لـــــزوج أو قريـــــب محـــــرم
لا ترســـلي الشـــعر الحريـــر مـــرجلاً ... فالنـــاس حولـــك كالـــذئاب الحـــوّم
لا تمنحـــــي المستشـــــرقين تبســـــماً ... إلا ابتســـــامة كاشـــــر مـــــتجهم

*****

أنـــــا لا أحبـــــذ أن أراك طليقـــــة ... شـــرقاً وغربـــاً في الجنـــوب ومشـــأم
كـــــلا ولا أن تصـــــبحي محبوســـــة ... في قعـــــر بيـــــت بالجهالـــــة مظلـــــم
أنـــــا لا أريـــــد بـــــأن أراك جهولـــــة ... إن الجهالـــــة مـــــرة كـــــالعلقم
فتعلمـــــي وتثقفـــــي وتنـــــوري ... والحـــــق يـــــا أختـــــاه أن تتعلمـــــي

لكـــــنني أمســـــي وأصـــــبح قـــــائلاً أختـــاه، يـــا بنـــت الخلـــيج تحشـــمي

- 9 -

الحجاب والسفور

للأستاذ حامد مُحَمَّد الشيال

تقديم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ((مُحَمَّد)) وآله وصحبه وسلم.

وبعد: فقد تدارك الله عزَّ وجل هذه الإنسانية بهداية الإسلام في الدور الذي بلغت فيه الإنسانية سن الرُشد، فأخذ الإسلام بيدها في طريق العدل والقصد، وجنبها من كل شيء طرفي الإفراط منه والتفريط، وكلما جربت الإنسانية الأخذ بتعاليم هذه الهداية على وجهها لمست السعادة بيدها وسارت في طريق القوَّة والرضى والهناء.

ونحن اليوم في طور تهاون فيه المسلمون بتعريف الإنسانية هداية دينهم على وجهها، بعد تقصيرهم في العمل بها، فقام الذين يفهمون الإسلام على غير ما جاء به يوجهون إليه التهم من ناحية السُّنن التي سنَّها للمرأة في المجتمع، فكان حقاً على كل وفي لهداية الإسلام من أبنائه العارفين به أن يرفع للإنسانية مشعل هدايته ينير لها طريق السلامة.

وصديقي الفاضل الأستاذ حامد أفندي مُحَمَّد الشيال من هذه الفئة المباركة الوفيَّة لهداية الإسلام، وطالما فكر في موضوع الأسرة وما للمرأة من حقوق وما عليها من واجبات. وهذه المحاضرات ثمرات ناضجة من ثمرات تفكيره. وأرجو أن تكون هذه اللؤلؤة الحلقة الأولى من سلسلة مؤلفات عظيمة النفع إن شاء الله تعالى.

محب الدين الخطيب

((425))

الحجاب والسفور

أيُّها السادة:

أول ما تكون المرأة في أدوار حياتها أملاً باسماً، ثم زهرة زاهية، ثم وردة يانعة، ثم هي شمس في الأفق، ثم هي بعد ذلك بناء ملغز لا ندري أحسن حصين هي أم سجن مظلم مخيف؟

فهي أمل الحياة الباسم منذ تضمها ذراعاً الوالدة الحنون، وهي الزهرة الزاهية حين تدرج وتدب، وهي الوردة اليانعة تملأ الجو شذى معطراً حين تشب وتكون محط الأنظار، وهي شمس في الأفق لا ندري أشمس إشراق هي أم شمس غروب، لأن الشمس في مشرقها يتشابه منظرها بمنظر الغروب، ثم هي بعد ذلك بناء ملغز، فإما أن تكون حصن الزوج والأبناء الحصين، وإما تكون للجميع السجن المظلم المخيف.

فهي والحالة هذه ترتبط بالرجل في جميع أدوار حياته وحياتها: بين سمعها وبصرها ينشأ الطفل، وتحت رعايتها يكبر، وبآدابها وأخلاقها يتغذى، وهي الحب والإخلاص والوفاء، هي منار

((426))

الفضيلة ومجمع الأخلاق الكريمة، هي موئل الرجل وعونه في شدته، ثم هي نوره وبصيرته، بعينها يبصر وبرأيها يسعى ويدبر، وبعطفها وحنانها يغالب الحياة وينتصر. لذلك عني بها الإسلام أيها السادة وشرع لها أعدل تشريع وأقومه. ولا يزال العالم يتقدم في مدنيته يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وقرناً بعد قرن دون أن يصل إلى احترام الإسلام لها، ومع ذلك عميت أعين أعداء الإسلام عن هذه الفضائل وراحوا يتهمونه بظلم المرأة، والإسلام يتعالى عن الظلم علواً كبيراً. قال الأفاكون: إن الإسلام ظلم المرأة في كثير، لا يستطيع مثلي في وقفة كهذه أن يتكلم عنها جميعها، لذلك رأيت أن أتكلم عن: ظلم المرأة في حجابها.

((427))

الحجاب

قبل أن أتكلم في موضوع الحجاب الذي قتله الكتَّاب بحثاً وتمحيصاً، أريد أن أعرفه تعريفاً شرعياً إسلامياً.

فالحجاب في الإسلام ليس هو البرقع الشفاف الذي لا يكاد يحجب من الوجه إلا كما تحجب الكأس من الخمر، وإنما الحجاب الشرعي هو الستر عن غير المحارم من الرجال خشية الفتن وابتغاء تجنب الفساد.

ولقد قال أنصار السفور، أو قُل: دعاة المفسدة: إن الحجاب لم يكن موجوداً بين نساء الإسلام في عهد النبي ﷺ ولا أيام صحابته رضوان الله عليهم أجمعين، وإنما هو عادة أجنبية انتقلت إلى نساء العرب عن طريق التقليد ثم اتخذته شعاراً دينياً والدين الإسلامي بريءٌ منه. وفي الحق إنه لقول باطل لا يقوم على دليل وليس له من الصحة نصيب، نعم إن نساء الإسلام لم يكن الحجاب معروفاً عندهن بادئ ذي بدء وكن سافرات كعادة الجاهلية الأولى فلما نزلت بية الحجاب: (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)[1].

((428))

كان الحجاب، وكذلك كل عادة جاهلية لم يقلع العرب عنها إلا بأمر الله تعالى، ينزل به الوحي الأمين على حضرة المصطفى ﷺ؛ حتى لقد خيف أن يكون الأمر بالحجاب شاملاً حتى عن الأزواج والأبناء والأهل والأقارب، فأنزل الله آيته الكريمة: (لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ)[2]. فكانت الآية الشريفة دليلاً ناطقاً على أن الإسلام دين طهر ثم هو دين يسر لا عسر.

منذ ذلك الحين أيها السادة، والمسلمون جميعاً متمسكون بالحجاب وفي مقدمتهم حضرة النبي ﷺ، فأمروا نساءهم أن يضربن الحجاب بينهن وبين الرجال غير المحارم. وإني لأذكُر حادثة وردت في الحديث الشريف تدل صريحة على شرعية الحجاب منذ عهد النبي ﷺ:

---

[1] – سورة الأحزاب الآية: 53.

[2] – سورة الأحزاب الآية: 55.

((روي عن أم سلمة قالت: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونه بنت الحرث إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه بعدما أمرنا بالحجاب، إذ قال رسول الله ﷺ: احتجبا منه. فقلنا يا رسول الله: أليس أعمى لا يبصرنا؟ قال رسول الله ﷺ: أفعمياوتان أنتما، ألستما تبصرانه؟)).

((429))

هذا الحديث أيها السادة، يفهم منه أولاً ضرورة غض بصر المرأة عن الرجل كما يغض الرجل بصره عن المرأة، وثانياً وجود الحجاب بين نساء الإسلام في عهد النبي ﷺ وانتشاره والتمسك به حتى في صلاتهن مع الجماعة، فقد جاء في صحيح البخاري عن عروة ﷺ أن عائشة ﷺ قالت: ((لقد كان رسول الله ﷺ يصلي الفجر فيشهد معه نساءٌ من المؤمنات متلفعات في مروطهن ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد)). أما في الحج أيُّها السادة فقد أمر الدين بكشف وجوه النساء فقط لأن الفتنة بعيدة عن النفوس في هذا الموقف الرهيب وأن النظر كليل في مثل هذه الوقفة المهيبة.

أيها السادة، سردت لكم قليلاً من أوامر الدين الحنيف الحكيم الخاصة بوجوب الحجاب، ولم يكن الإسلام في ذلك ظالماً، وإنما كان محارباً للفتنة خشية أن تعم، وللشهوة لئلا تهدم الفضيلة وتخرب عامر البيوت، وللشرف أن تقتله الرذيلة. فحسبك أن تقف بنفسك وقفة قصيرة فتعرض أمام مخيلتك أن الزمان قد دار دورة عكسية، فإذا المرأة والرجل سيان في الشوارع والمنتديات والمجامع لا حجاب بينهما، وأنك قد تخرج مع سيدة إلى نزهة كما تخرج الآن مع أحد إخوانك ومعارفك، وقد تخلو بها في

((430))

حديقة غناء يحيط بكما النرجس والورود ثم حدثني بربك بماذا تحدثك نفسك مهما كنت تقياً ورعاً؟ ثم كم يكون عدد ضحايا الشرف والفضيلة في مثل هذه المواقف الكثيرة الاحتمال؟ تصور كل ذلك ثم احكم إذن أي القانونين أحفظ للفضيلة وارعى للخلق القويم: الدين الإسلامي الآمر بالحجاب، أم التمدين الحديث الذي لا يرى في ذلك عيباً، وإن شئت فقل: إنه يرى فيه المساواة والعدالة!

على أنني أيُّها السادة لست أدري وربي، أهم يتهمون الإسلام بظلم المرأة حين شرع لها الحجاب؟ أم هم يستشهدون به على بطلان ذلك الحجاب؟ فبينما نسمع من ناحية أن الإسلام ظلم المرأة في حجابها، إذ نسمع من جانب آخر أن الإسلام لم يقرر الحجاب مطلقاً،

وإنما بدعة مبتدعة يجب محاربتها. كذب الفريقان وربي حين يختلفان وحين يتفقان، فكلاهما دعاة لباطل سواء زينوه بالطين أو بالعجين.. ولكن هل يدلنا القوم على مصدر اهتمامهم بالمرأة وعنايتهم بها؟ أيدلنا القوم على سبب هذه الجهود لمتواصلة في سبيل الدعوة للسفور؟

ألفضيلة يرفعونها أم لرذيلة يبتغونها؟ ألعفة يرعونها، أم لطهارة يدنسونها؟ الأسرة يشيدون بناءها، أم لبيئة يخربونها؟ وأخيراً ألدين يدعون أم للشهوة يخضعون؟

((431))

أيها السادة، يقولون: إن الحجاب قيد المرأة وقعد بها عن الاشتغال في مهام الحياة حتى صارت خاملة؛ وقيد نهضتها فانحطت مداركها، وقعد بها عن العلم فأصبحت مصدر الشقاء العام لجهلها.

تعالوا إذن يا دعاة السفور ومحاربي الحجاب والقائلين بأن الحجاب سور بين المرأة وبين رقيها لعدم اختلاطها بالرجل واشتراكها معه في مهام الحياة ومشاقها، تعالوا حدثونا أي هذه الأعمال تريدون المرأة على القيام بها؟ ألقضاء تريدون أن تحملوها عبئه، أم قيادة الجيوش، أم المتاجرة، أم السياسة، أم تهذيب الناس وتعليمهم، أم حرث الأرض وسقيها، أم كنس الشوارع ورشها، أم تشييد المباني وحفر الترع وإصلاح الجسور؟ سلوهم أيها السادة، أي شيء من هذه الأعمال يريدون المرأة على أن تقوم به؟ ثم سلوهم ومن ذا الذي إذن يقوم بالحمل والولادة؟ من ذا الذي يقوم بتربية الطفل وتغذيته ورضاعته والسهر على راحته والمحافظ على صحته؟ من ذا الذي يقوم بالطهي والنظافة وإدارة أعمال المنزل وما أعدت له المرأة بطبيعتها؟ سلوهم كل ذلك فلعلهم يستشعرون من أنفسهم القيام بهذه الوظائف بدل المرأة أو لعلهم يجيبونكم: إن المرأة تقوم به أيضاً مع تكليفها بتلك ألأعمال الأخرى التي تشارك الرجل فيها،

((432))

وهنا فاسألوهم أي الفريقين أظلم للمرأة: الإسلام الذي خصص للمرأة أعمالها الطبيعية التي خلقت لها فحسب، أم التمدين الكاذب الذي يدعو إلى إثقالها فوق متاعبها هي من خصائص الرجل وطبيعته؟

لعلهم أيها السادة يضربون لكم الأمثال بنساء ولّين الحكم في التاريخ أو قمن بقيادة الجيوش. أجيبوهم بأن ذلك نادر لا حكم له وقد قضت به الضرورات، والضرورات تبيح المحظورات، ولا يصح أخذ النادر أو ما قضت به الضرورة قاعدة عامة للمجموع.

قد يحدثونكم أيضاً عن نساء الريف وما يشتركن فيه مع الرجل من رعي وسقي وزرع وحصد، فقولوا لهم: أولئك قوم دفعهم الفقر واضطرتهم الحاجة إلى حياة لا يرتضونها أبداً يوم يستبدل الله فقرهم غنى.

قد يحدثونكم بعد ذلك عن المرأة الغربية الآن، وأنها فاقت المسلمة في رقيها وحضارتها بسبب سفورها؛ فقولوا لهم: لنا ديننا ولهم دينهم، لنا فضائلنا وأخلاقنا ولهم تقاليدهم وأخلاقهم، لنا العزة والشرف ولهم ما يشاؤون.

قولوا لهم: اذهبوا إلى القوم في ديارهم ثم اخبروا حالتهم بأنفسكم وبعد ذلك حدثونا أي علم هذا وأي تمدين ذلك الذي

((433))

يجعل الشرف على إصبع شيطان؟ ثم قولوا لهم: لا خير في علم بغير شرف، ولا خير في تمدين بغير فضيلة، ثم قولوا لهم بعد ذلك: إن الإسلام مجمع العلوم قديمها وحديثها ومثوى التمدين في كل عصر ولكن لو أخذتم به وأخذ به نساؤكم. أما أن تتهموا الإسلام بجهلكم وهو بعيد عن نواظركم ولم تتغذ به أرواحكم ونفوسكم فذلك حرام عليكم.

أيها السادة، حدثتكم في كل ما سبق عن الحجاب ووجوبه شرعاً وعقلاً، وبينت لكم بطلان رقي المرأة بسفورها. والآن أحدثكم عن أثر الحجاب السفور ليكون لكم من ذلك برهان ملموس يؤيد ما قرره الشرع الشريف.

فأما الحجاب فلا أعلم فيما أعلم أنه ترك أثراً سيئاً في أمة من الأمم أو في جماعة من الجماعات ولا في بيئة من البيئات ولا في أسرة من الأسر. لا نراه قتل عفافاً ولا جرح كرامة ولا هتك ستراً ولا استباح شرفاً. بل نراه يقف دائماً سداً منيعاً بين البغاة وما يبتغون، بين دعاة الفسوق وما توسوس لهم به الشياطين. بين ذوي المفسدة وبين الشرف التليد. بين ذوي الشهوة وبين العفاف المصون، بين الممتلئة نفوسهم بالشهوة البهيمية وبين هناء العلائلات

((434))

الآمنة، بين الشيطان وبين حياة الإنسان. ذلك اثر الحجاب نلمسه كل يوم وفي كل بيئة.

أما أثر فلست أنا أيها السادة الشخص الذي يستطيع أن يحدثكم عنه، وإنما هي المحاكم الملأى بالقضايا. هي النيابة المشتغلة ليلها بجرائم انتهاك الأعراض. هي الحدائق والمتنزهات مأوى دعاة السفور والداعيات، بل هي الأم والأخت والزوجة تحدثكم عن أثر السفور يوم

تتحدث شياطين الخيال في أندية المحال بأنها خرجت سافرة متزينة غضة بضَّة ناعمة موردة ناعسة متخطرة هيفاء القد مشدودة الخصر، فرمقتها العيون من كل صوب وجرحتها الكلمة الفاجرة وسيق إليها الغزل وزفت إليها المدائح فإذا هي تميل طوعاً أو كرهاً وإذا هي ختلي بواحد ممن أعجل بها وأعجبت به، ثم إذا العفاف بعد ذلك قتيل الشهوة وإذا الفضيلة تنتحب، وإذا الشرف ضائع مفقود. ثم أخيراً وإذا السيدة الجليلة تضمها أمواج البحر الخضم أو يقطع أحشاءها السم الزعاف تخلصاً من حياة كلها عار وفضيحة، وإذا السيد المحترم يجري مطلقاً في هواء الخاطئة والتمدين الكاذب.

كل ذلك – وغير ذلك كثير – يحدثكم أيها السادة عن أثر السفور. ولست أحدثكم فيما أحدثكم به عن خيال، كلا فهو كله جد

((435))

واقع، وإذا أعوزكم البرهان القاطع فتصفحوا المجلات الأسبوعية تجدوا الدليل الواضح على صحة ما أقول.

إذن أيهما بعد كل ذلك أطهر للمرأة وأعدل: الإسلام الآمر بالحجاب، أم التمدين الكاذب القاضي بالسفور؟

بقي علينا أيها السادة، أن نقول كلمة عن تعليم المرأة؛ وهل يقف الحجاب سداً دون تعلمها وثقافتها أم لا؟

أما أنا فلست أعلم فيما أعلم أن الحجاب كان داعياً للجهل عدواً للعلم، ولست أرى دليلاً يقوم على صحة تلك الدعوى الباطلة، بل على العكس نعلم أن نساءً مؤمنات كنَّ يتعلمنَ العلم في المساجد وهن مؤتزرات، بل وكن يلقين دروساً علمية يحضرها كثير من الرجال وهن كذلك غير سافرات، ولسنا نعلم غير ذلك دليلاً يقوم على العكس، اللهم إلَّا إذا اتخذوا من انحطاط المرأة المسلمة اليوم دليلاً على أن ذلك نتيجة حجابها، مع أن الواقع يخطئ ذلك أيها السادة، ذلك لأن حرمان المرأة من العلم إنما كان سبباً لانحطاطها وكذلك كانت هذه الجهالة عامة بين طبقات الأمة كلها رجالها ونسائها منذ قبضت يد الغني على الدرهم فلم يصرفه في مكافحة الجهل، يوم نام العامل عن العمل وظن الضوءَ

((436))

أما الدين الإسلامي الحنيف. أما الدين الذي أمر بالحجاب فلم ينه عن طلب العلم بل أمر به ولو كان بالصين، ولكن وقد تعرضنا لهذه النقطة فأي علم يصلح للمرأة؟ هل هو

القراءة والكتابة لتحسن قراءة الروايات وإنشاء الرسائل؟ أتاريخ العصابات ونابليون لتخترق الصفوف هاتفه ملوحة؟ كلا أيها السادة لسنا نطلب للمرأة غير الدين تعليماً، نريدها فقيهة متشرعة، نريدها حافظة للقرآن عالمة بالحديث، نريدها واقفة على تفاصيل تاريخ النبي ﷺ وأصحابه الأكرمين لتغذي الروح بتلك الفضائل قبل أن تغذي الجسم.

نريدها المرأة التي قيل عنها: أخطأ رجل وأصابت امرأة، نريدها عائشة في قومها.

نريدها: ((المرأة التي تهز المهد بيمينها والعالم بيسارها)).

نريدها: امرأة إذا جلست إلى أترابها فلا تتحدث عن زيها وزينتها وإذا خلت إلى نفسها فلا تفكر في رفيقها وجمالها وقده واعتداله.

لا نريدها: امرأة في الحسن والقبيح، وكفانا وربّي أيها السادة تقليداً فقد أفسدنا التقليد إفساداً لا أظن بعده إفساداً، أو رأيتم إلى تلك الملابس ترتديها المرأة فلا تكاد تستر منها إلا إلى

الركبة أو ما فوقها حتى إذا جلست في الترام ظهر من جسمها ما أمر الله به أن يستر؟!

أو ما سمعتم في العام الفارط صيحات الجرائد الدينية وهي تستغيث من رقص نساء مسلمات مع رجال أمر الله أن يحتجبن عنهم سراً أو علانية وفي المقاهي والنوادي؟ اللهم رفقاً بعبادك إنهم ضلوا عن صراطك المستقيم فأغواهم الشيطان نسأل الله الهداية إلى طريق النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم..

الخلاصة

أيها السادة، يتضح من كل ما سبق أن الإسلام مجمع الفضيلة كلها، إليه يرجع العقل والحكمة، شرع فعدل، وقدر فأحكم، اتبعه أمم خلت كانت أسوأ منا حالاً وأكثر فسوقاً فسرعان ما تبدلت الحال فيها غير الحال واستبدلت الذل بالعزة، وفي رأيي أننا وقد بلغنا من المفسدة أبعد درجاتها لو عدنا إلى العمل بالدين الحنيف لاستبدلنا ذُل الأسر بنعيم الحرية، وكان لنا شأن غير هذا الذي نقاسيه (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).

حجاب المرأة ولباسها في الصلاة وغيرها

لشيخ الإسلام أبي العباس

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام

ابن تيمية النميري الحراني

((441))

قال الشيخ أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى:

فصل في اللباس للصلاة

وهو أخذ الزينة عند كل مسجد، الذي يسميه الفقهاء: ((باب ستر العورة في الصلاة)) فإن طائفة من الفقهاء ظنوا أن الذي يُستر في الصلاة عن أعين الناظرين هوة العورة، وأخذوا ما يستر في الصلاة من قوله تعالى: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) ثم قال: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) يعني الباطنة (زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)[1] الآية، فقالوا: يجوز لها في الصلاة أن تبدي الزينة الظاهرة دون الباطنة.

والسلف قد تنازعوا في الزينة الظاهرة على قولين:

فقال ابن مسعود ﷺ، ومن وافقه: هي الثياب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، ومن وافقه: هو ما في الوجه واليدين، مثل الكحل والخاتم، وعلى هذين القولين تنازع الفقهاء في النظر إلى المرأة الأجنبية.

((442))

فقيل: يجوز النظر لغير شهوة إلى وجهها ويديها، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي، وقول في مذهب أحمد.

وقيل: لا يجوز، وهو ظاهر مذهب أحمد. قال: كل شيء منها عورة حتى ظفرها، وهو قول مالك .

وحقيقة الأمر أن الله تعالى جعل الزينة زينتين: زينة ظاهرة، وزينة غير ظاهرة.

وجوز لها إبداء زينتها الظاهرة لغير الزوج، وذوي المحارم.

وأما الباطنة، فلا تبديها إلا للزوج، وذوي المحارم.

---

[1] – سورة ا لنور: الآية، 31 وتمامها: ((أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)).

وكانوا قبل أن تنزل آية الحجاب، كان النساء يخرجن بلا جلباب، يرى الرجال وجهها ويديها، وكان إذ ذاك يجوز لها أن تظهر الوجه والكفين، وكان حينئذ يجوز النظر إليها، لأنه يجوز لها إظهاره.

ثم لما أنزل الله عز وجل آية الحجاب بقوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ)[1] حجب النساء عن الرجال. وكان ذلك لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش ﷺ، فأرخى النبي ﷺ الستر، ومنع أنسًا أن ينظر.

ولما اصطفى صفية بنت حيي رض الله عنها بعد ذلك، عام خيبر. قالوا: إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإلا فهي مما ملكت يمينه، فحجبها. فلما أمر الله أن لا يسألن إلا من وراء حجاب، وأمر أزواجه

((443))

وبناته ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن. والجلباب: هو الملاءة، وهو الذي يسميه ابن مسعود ﷺ وغيره: الرداء. وتسميه العامة: الإزار – وهو الإزار – الكبير الذي يغطي رأسها وسائر بدنها.

وقد حكى عبيدة وغيره أنها تدنيه من فوق رأسها فلا تظهر إلا عينها، ومن جنسه النقاب. فكان النساء ينتقبن.

وفي ((الصحيح)): ((إن المحرمة لا تنتقب ولا تلبس القفازين)). فإذا كن مأمورات بالجلباب لئلا يعرفن[2]، وهو ستر الوجه، أو ستر الوجه بالنقاب. كان حينئذ الوجه واليدان من الزينة التي أمرت أن لا تظهرها للأجانب.

فما بقي يحل للأجانب النظر إلى الثياب الظاهرة. فابن مسعود ﷺ ذكر آخر الأمرين. وابن عباس ﷺ أول الأمرين. وعلى هذا أن لها أن تبدي الزينة الباطنة لمملوكها. وفيه قولان:

قيل: المراد الإماء، أو الإماء الكتابيات، كما قاله ابن المسيب، ورجحه أحمد وغيره .

وقيل: هو المملوك الرجل، كما قاله ابن عباس ﷺ وغيره،

---

[1] – سورة الأحزاب الآية: 59.

[2] – الآية تقول: (ذلك أدنى أن يعرفن) وتقدير (لا) فيها خلاف الأصل، ولا مبرر له، فإن المعنى بدونها مستقيم. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر. ونحوه في ((تفسير ابن جرير)).

وهو مذهب الشافعي وغيره، وهو الرواية الأخرى عن أحمد، فهذا يقتضي جواز نظر العبد إلى مولاته.

وقد جاءت بذلك أحاديث[1]، وهذا لأجل الحاجة لأنها محتاجة إلى مخاطبة عبدها أكثر من حاجتها إلى رؤية الشاهد والعامل والخاطب.

فإذا جاز نظر أولئك، فنظر العبد أولى. وليس في هذا ما يوجب أن يكون محرماً يسافر بها، كغير أولي الإربة، فإنهم يجوز لهم النظر، وليسوا محارم يسافرون بها.

فليس كل من جاز له النظر، جاز له السفر بها، ولا الخلوة بها، بل عبدها ينظر إليها للحاجة، وإن كان لا يخلو بها ولا يسافر بها، فإنه لم يدخل في قوله ﷺ: ((لا تسافر المرأة إلا مع زوج أو ذي محرم)) فإنه يجوز له أن يتزوجها إذا عتق، كما يجوز لزوج أختها أن يتزوجها إذا طلق أختها.

والمحرم: من تحرم عليه على التأبيد، ولهذا قال ابن عمر رضي الله عنهما: سفر المرأة مع عبدها ضيعة.

فالآية رخصت في إبداء الزينة لذوي المحارم وغيرهم ، وحديث السفر ليس فيه إلا ذوو المحارم، وذكر في الآية (أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ)[2] و (غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ)[2] وهي لا تسافر معهم.

وقوله: (أَوْ نِسَائِهِنَّ)[2] قالوا: احتراز عن النساء المشركات، فلا

تكون المشركة قابلة للمسلمة، ولا تدخل المشركة معهن الحمام.

لكن قد كن النسوة اليهوديات يدخلن على عائشة وغيرها، فيرين وجهها ويديها، بخلاف الرجال، فيكون هذا في الزينة الظاهرة في حق النساء الذميات، وليس للذميات أن يطلعن على الزينة الباطنة، ويكون الظهور والبطون بحسب ما يجوز لها إظهاره.

ولهذا كان أقاربها تبدي لهن الباطنة، وللزوج خاصة ليست للأقارب.

---

[1] – قلت: ذكرت بعضها في التعقيب على كتاب الحجاب للعلامة المودودي، وهو مطبوعة في آخر كتابه المذكور.

[2] – سورة النور الآية: 31.

وقوله: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)[1] دليل على أنها تغطي العنق، فيكون من الباطن – لا الظاهر – ما فيه من القلادة وغيرها.

فصل

فهذا ستر النساء عن الرجال. وستر الرجال عن الرجال، والنساء عن النساء في العورة الخاصة، كما قال ﷺ: ((لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة)) وكما قال ﷺ: ((احفظ عورتك إلا عن زوجتك أو ما ملكت يمينك)).

قلت: فإذا كان القوم بعضهم في بعض؟

قال: ((إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يراها)).

قلت: ((فإذا كان أحدنا خاليا؟ قال: ((فالله أحق أن يستحيا منه))[2] ((ونهى أن يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، والمرأة إلى المرأة

((446))

في ثوب واحد))[3] وقال عن الأولاد: (مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع))[4].

فهذا نهي عن النظر والمس لعورة النظير، لما في ذلك من القبح والفحش، ,أما الرجال مع النساء، فلأجل شهوة النكاح، فهذان نوعان:

والصلاة نوع ثالث: فإن المرأة لو صلت وحدها، كانت مأمورة بالاختمار. وفي غير الصلاة يجوز لها كشف رأسها في بيتها، فأخذ الزينة في الصلاة لحق الله، فليس لأحد أن يطوف بالبيت عُريانًا ولو كان وحده بالليل. ولا يصلي عُريانًا ولو كان وحده، فعلم أن أخذ في الصلاة لم يكن لتحتجب عن الناس، فهذا نوع، وهذا نوع.

وحينئذ فقد يستر المصلي في الصلاة ما يجوز إبداؤه في غير الصلاة، وقد يبدي في الصلاة ما يستره عن الرجال.

---

[1] – سورة النور الآية: 31.

[2] – حديث حسن، أخرجه أحمد وغيره.

[3] – متفق عليه.

[4] – صحيح أخرجه أبو داود وغيره من طريقين.

فالأول مثل المنكبين، فإن النبي ﷺ نهى أن يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء[1] فهذا لحق الصلاة، ويجوز له كشف منكبيه للرجال خارج الصلاة.

وكذلك المرأة الحرة تختمر في الصلاة، كما قال النبي ﷺ: ((لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار))[2] وهي لا تختمر عند زوجها ولا

((447))

عند ذوي محارمها، فقد جاز لها إبداء الزينة الباطنة لهؤلاء، ولا يجوز لها في الصلاة أن تكشف رأسها لا لهؤلاء ولا لغيرهم.

وعكس ذلك الوجه واليدان والقدمان، ليس لها أن تبدي ذلك للأجانب على أصح القولين، بخلاف ما كان قبل النسخ، بل لا تبدي إلا الثياب.

وأما ستر ذلك في الصلاة، فلا يجب باتفاق المسلمين، بل يجوز لها كشف الوجه بالإجماع، وإن كان من الزينة الباطنة. وكذلك اليدان يجوز إبداؤها في الصلاة عند جمهور العلماء، كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وكذلك القدم يجوز ابداؤه عند أبي حنيفة، وهو الأقوى، فإن عائشة ﵂ جعلته من الزينة الظاهرة. قالت: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَر منها)[3] قالت: الفتخ: حلق من فضة تكون في أصابع الرجلين. رواه ابن أبي حاتم، فهذا دليل على أن النساء كن يظهرن أقدامهن أولاً، كما يظهرن الوجه واليدين، فإنهن كن يرخين ذيولهن، فهي إذا مشت قد يظهر قدمها. فإنها لم يكن يمشين في خفاف وأحذية. وتغطية هذا في الصلاة فيه حرج عظيم، وأم سلمة ﵂ قالت: تصلي المرأة في ثوب سابغ يغطي قدميها، فهي إذا سجدت قد يبدو باطن القدم.

وبالجملة فقد ثبت بالنص والإجماع أنه ليس عليها في الصلاة أن تلبس الجلباب الذي يسترها إذا كانت في بيتها، وإنما ذلك إذا خرجت،

((448))

وحينئذ فتصلي في بيتها، وإن بدا وجهها ويداها وقدماها. كما كن يمشين أولاً قبل الأمر بإدناء الجلابيب عليهن، فليست العورة في الصلاة مرتبطة بعورة النظر، لا طرداً ولا عكساً.

---

[1] – متفق عليه.

[2] – صحيح أخرجه أبو داود وغيره.

[3] – سورة النور الآية: 31.

وابن مسعود ﷺ لما قال: الزينة الظاهرة هي الثياب، لم يقل: إنها كلها عورة حتى ظفرها. بل هذا قول أحمد، يعني به أنها تستره في الصلاة، فإن الفقهاء يسمون ذلك ((باب ستر العورة)) وليس هذا من ألفاظ الرسول ﷺ، ولا في الكتاب والسنة أن ما يستره المصلي فهو عورة، بل قال تعالى: (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)[1] ونهى النبي ﷺ أن يطوف بالبيت عُرياناً[2] فالصلاة أولى. وسئل عن الصلاة في الثوب الواحد،فقال: ((أو لكلكم ثوبان؟))[3] وقال في الثوب الواحد: ((إن كان واسعاً فالتحف به، وإن كان ضيقاً فأتزر به))[4] ونهى أن يصلي الرجل في ثوب واحد ليس على عاتقه منه شيء[5] فهذا دليل على أنه يؤمر في الصلاة بستر العورة الفخذ وغيره، وإن جوَّزنا للرجل النظر إلى ذلك.

فإذا قلنا على القولين، وهو إحدى الروايتين عن أحمد: إن العورة هي السوءتان، وإن الفخذ ليست بعورة.

فهذا في جواز نظر الرجل إليها، ليس في الصلاة والطواف، فلا

يجوز أن يصلي الرجل مكشوف الفخذين، سواء قيل: هما عورة أولا، ولا يطوف عرياناً، بل عليه أن يصلي في ثوب واحد، ولابد من ذلك، إن كان ضيقاً ائتزر، وإن واسعاً التحف به، كما أنه لو صلى وحده في بيت كان عليه تغطية ذلك باتفاق العلماء.

وأما صلاة الرجل بادي الفخذين مع القدرة على الإزار، فهذا لا يجوز، ولا ينبغي أن يكون في ذلك خلاف، ومن بنى هذا على الروايتين في العورة، كما فعله طائفة فقد غلطوا. ولم يقل أحمد ولا غيره: إن المصلي يصلي على هذه الحال، كيف وأحمد يأمره بستر المنكبين؟ فكيف يبيح له كشف الفخذ؟! فهذا هذا.

وقد اختلف في وجوب ستر العورة إذا كان الرجل خالياً، ولم يختلف في أنه الصلاة لابد من اللباس.

---

[1] – سورة الأعراف الآية: 31.

[2] – متفق عليه.

[3] – متفق عليه.

[4] – حديث صحيح.

[5] – صحيح وتقدم.

لا تجوز الصلاة عرياناً مع القدرة على اللباس باتفاق العلماء، ولهذا جوز أحمد وغيره للعراة أن يصلوا قعودًا ويكون إمامهم وسطهم، بخلاف خارج الصلاة، هذا الستر لحرمة الصلاة، لا لأجل النظر، وقد قال النبي ﷺ في حديث يهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال: قلت: يا رسول الله، فإذا كان أحدنا خالياً؟ قال: ((فالله أحق أن يستحيا منه من الناس))[1].

فإذا كان هذا خارج الصلاة، فهو في الصلاة أحق أن يستحيا منه، فتؤخذ الزينة لمناجاته سبحانه وتعالى، ولهذا قال ابن عمر رضي الله

عنهما لغلامه نافع لما رآه يصلي حاسراً: أر أريت لو خرجت إلى الناس، كنت تخرج هكذا؟ فقال: لا قال: فالله أحق أن يتجمل له.

وفي الحديث الصحيح لما قيل للنبي ﷺ: الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً؟ فقال: ((إن الله جميل يحب الجمال))[2].

وهذا كما أمر المصلي بالطهارة والنظافة والطيب، فقد أمر النبي ﷺ ((أن تتخذ المساجد في البيوت وتنظيف وتطيب[3] وعلى هذا، فيستتر في الصلاة أبلغ مما يستتر الرجل من الرجل، والمرأة من المرأة)).

ولهذا أمرت المرأة أن التخمر في الصلاة. وأما وجهها ويداها وقدماها[4]، فهي إنما نهيت عن إبداء ذلك للأجانب. لم تنه عن إبدائه للنساء، ولا لذوي المحارم، فعلم أنه ليس من جنس عورة الرجل مع الرجل، والمرأة مع ا لمرأة التي نهي عنها لأجل الحياء وقبح كشف العورة، بل هذا من مقدمات الفاحشة، فكان النهي عن إبدائها نهياً عن مقدمات الفاحشة، كما قال في الآية: (ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)[5] وقال في آية الحجاب: (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)[6] فننهي عن عن هذا سدًّا للذريعة، لا أنه عورة مطلقة. لا في الصلاة ولا غيرها: فهذا هذا.

---

[1] – حسن وتقدم.

[2] – رواه مسلم.

[3] – صحيح أخرجه أبو داود وغيره.

[4] – في الأصل:

[5] – سورة النور الآية: 30.

[6] – سورة الأحزاب: 53.

وأمر المرأة في الصلاة بتغطية يديها بعيد جدًّا، واليدان تسجدان كما يسجد الوجه[1] والنساء على عهد النبي ﷺ إنما كان لهن قمص، وكن

((451))

يصنعن الصنائع والقمص عليهن، فتبدي المرأة يديها إذا عجت وطبخت وخبزت، ولو كان ستر اليدين في الصلاة واجباً لبينه النبي ﷺ، وكذلك القدمان، وإنما أمر بالخمار فقط مع القميص، فكن يصلين في قميصهن وخمرهن.

وأما الثوب الذي كانت المرأة ترخيه، وسألن عن ذلك النبي ﷺ، فقال: ((شبراً)) فقلن، إذاً تبدو سوقهن؟ فقال: ((ذراع لا يزدن عليه)) وقول عمر بن ربيعه:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذويل

فهذا كان إذا خرجن من البيوت، ولهذا سئل عن المرأة تجر ذيلها على المكان القذر. فقال: ((يطهره ما بعده))[2] وأما في نفس البيت فلم تكن تلبس مثل ذلك. كما أن الخفاف اتخذها النساء بعد ذلك بعد لستر السوق إذا خرجن، وهن لا يلبسنها في البيوت، ولهذا قلن: إذًا تبدو سوقهن، وكان المقصود تغطية السوق، لأن الثوب إذا كان فوق الكعبين بدا الساق عند المشي.

وقد روي: ((أعرو النساء يلزمن الحجال))[3] يعني إذا لم يكن لها ما تلبسه في الخروج لزمت بيتها.

وكن نساء المسلمين يصلين في بيوتهن، وقد قال النبي ﷺ: ((لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وبيوتهن خير لهن))[4] ولم يؤمرن مع

((452))

القمص إلا بالخمر، لم تؤمر بسراويل، لأن القميص يغني عنه، ولم تؤمر بما يغطي رجليها، لا خف ولا جورب. ولا بما يغطي يديها، لا بقفازين ولا غير ذلك.

---

[1] – وفي ذلك حديث صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما.

[2] – حديث رواه أبو داود وغيره.

[3] – ضعيف.

[4] – متفق عليه.

فدل على أنه لا يجب عليها في الصلاة ستر ذلك إذا لم يكن عندها رجال أجانب. وقد روي الملائكة لا تنظر إلى الزينة الباطنة، فإذا وضعت خمارها أو قميصها، لم ينظر إليها. وروي في ذلك حديث عن خديجة ﵂[1]، فهذا القدر – القميص والخمار – هو المأمور به لحق الصلاة. كما يؤمر الرجل إذا صلى في ثوب واسع أن يلتحف به، فيغطي عورته ومنكبيه.

والمنكبان في حقه، كالرأس في حق المرأة، كأنه يصلي في قميص، أو ما يقوم مقام القميص، وهو في الإحرام لا يلبس على بدنه ما يقدر له، كالقميص، والجبة، كما أن المرأة لا تنتقب، ولا تلبس القفازين، وأما رأسه فلا يخمره.

ووجه المرأة فيه قولان في مذهب أحمد وغيره، قيل: إنه كرأس الرجل فلا يغطي. إنه كيديه، فلا يغطي بالنقاب والبرقع ونحو ذبك مما صنع على قدره، وهذا هو الصحيح، فإن النبي ﷺ لم ينه إلا عن القفازين والنقاب.

وكن النساء يدنين على وجوههن ما يسترها من الرجال من غير وضع ما يجافيها عن الوجه، فعلم أن وجهها كيدي الرجل ويديها، وذلك أن

((453))

المرأة كلها عورة كما تقدم، فلها أن تغطي وجهها ويديها، لكن بغير اللباس المصنوع بقدر العضو، كما أن الرجل لا يلبس السراويل، ويلبس الإزار، والله سبحانه أعلم.

ومن كلامه رحمه الله تعالى – في جوابه واستنباطه من معاني سورة النور – في معنى ما تقدم قوله[2].

المرأة يجب أن تصان وتحفظ بما لا يجب مثله في الرجل، ولهذا خصت بالاحتجاب، وترك إبداء الزينة، وترك التبرج.

فيجب في حقها الاستتار باللباس والبيوت ما لا يجب في حق الرجل، لأن ظهور النساء سبب الفتنة، والرجال قوامون عليهن.

قال تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)[1] الآية إلى قوله: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[2] فأمر الله سبحانه الرجال والنساء بالغض من البصر، كما أمرهم جميعاً بالتوبة.

---

[1] – ولا يصح.

[2] – كان هذا الكلام في الأصل تعليقاً، فاخترنا أن يكون عنواناً.

وأمر النساء خصوصاً بالاستتار، وأن لا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن، ومن استثناه الله تعالى في الآية، فما ظهر من الزينة هو الثياب الظاهرة. فهذا لا جناح عليها في إبدائها، إذا لم يكن في ذلك محذور آخر، فإن هذه لابد من إبدائها. وهذا قول ابن مسعود ﷺ وغيره، وهو المشهور عن أحمد.

((454))

و قال ابن عباس رضي الله عنهما: اللوحة واليدان من الزينة الظاهرة، وهي الرواية الثانية عن أحمد، وهو قول طائفة من العلماء، كالشافعي وغيره.

وأمر سبحانه النساء بإرخاء الجلابيب لئلا يعرفن ولا يؤذين، وهذا دليل على القول الأول. وقد ذكر عبيدة السلماني وغيره أن نساء المؤمنين كن يدنين عليهن الجلابيب من فوق رؤوسهن حتى لا يظهر إلا عيونهن لأجل رؤية الطريق.

وثبت في ((الصحيح)) أن المرأة المحرمة تنهي عن الإنتقاب والقفازين، وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي لم يحرمن، وذلك يقتضي ستر وجوههن وأيديهن.

وقد نهي الله تعالى عما يوجب العلم بالزينة الخفية بالسمع أو غيره، فقال: (وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)[3] وقال: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)[1] فلما نزل ذلك عمد نساء المؤمنين إلى خمرهن، فشققنهن[4] وأرخينها على أعناقهن.

والجيب: هو شق في طول القميص، فإذا ضربت المرأة بالخمار على الجيب، سترت عنقها.

وأمرت بعد ذلك أن ترخي من جلبابها. والإرخاء إنما يكون إذا خرجت من البيت، فأما إذا كانت في البيت فلا تؤمر بذلك.

((455))

---

[1] – سورة النور الآية: 30 وتمامها: (إن الله خبير بما يصنعون).

[2] – سورة النور الآية: 31.

[3] – سورة النور، الآية: 31.

[4] – كذا الأصل، ولعل الصواب: فشققنها.

وقد ثبت في ((الصحيح)) أن النبي ﷺ لما دخل بصفية، قال أصحابه: إن أرخي عليها الحجاب فهي من أمهات المؤمنين، وإن لم يضرب عليها الحجاب فهي مما ملكت يمينه، فضرب عليها الحجاب.

وإنما ضرب الحجاب على النساء لئلا تُري وجوههن وأيديهن.

والحجاب مختص بالحرائر دون الإماء، كما كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ وخلفائه، أن الحرة تحتجب، والأمة تبرز، وكان عمر ﷺ إذا رأى أمة مخمرة ضربها، وقال: أتتشبهين بالحرائر أي لَكاع! فيظهر من الأمة رأسها ويداها ووجهها.

وقال تعالى: (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ)[1] فرخص للعجوز التي لا تطمع في النكاح أن تضع ثيابها، فلا تلقي عليها جلبابها ولا تحتجب، وإن كانت مستثناه من الحرائر لزوال المفسدة الموجودة في غيرها، كما استثنى التابعين غير أولي الإربة من الرجال في إظهار الزينة لهم في عدم الشهوة التي تتولد من الفتنة.

وكذلك الأمة إذا كان يخاف بها الفتنة، كان عليها أن ترخي من جلبابها وتحتجب، ووجب غض البصر عنها ومنها.

وليس في الكتاب والسنة إباحة النظر إلى عامة الإماء، ولا ترك احتجابهن وإبداء زينتهن، ولكن القرآن لم يأمرهن بما أمر الحرائر. والسنة فرقت بالفعل بينهن وبين الحرائر، ولم تفرق بينهن وبين الحرائر

((456))

بلفظ عام. بل كانت عادة المؤمنين، أن تحتجب منهم الحرائر دون الإماء. واستثنى القرآن من النساء الحرائر القواعد، فلم يجعل عليهن احتجاباً. واستثنى بعض الرجال، وهم غير أولي الإربة، فلم يمنع من إبداء الزينة الخفية لهم لعدم الشهوة في هؤلاء. فأن يستثني بعض الإماء أولى وأحرى، وهن من كانت الشهوة والفتنة حاصلة بترك احتجابها وإبداء زينتها، وكما أن المحارم أبناء أزواجهن ونحوه ممن فيهن شهوة وشغف لم يجز إبداء الزينة الخفية له. فالخطاب خرج عاماً على العادة، فما خرج به عن العادة خرج به عن نظائره. فإذا كان في ظهور الأمة والنظر إليها فتنة، وجب المنع من ذلك. كما لو كانت في غير ذلك.

---

[1] – سورة النور الآية: 60.

وهكذا الرجل مع الرجال، والمرأة مع النساء. لو كان في المرأة فتنة للنساء، وفي الرجل فتنة للرجال، لكان الأمر بالغض للناظر من بصره متوجهاً، كما يتوجه إليه الأمر بحفظ فرجه.

فالإماء والصبيان إذا كان حساناً تخشى[1] الفتنة بالنظر إليها، كان حكمهم كذلك، كما ذكر ذلك العلماء.

قال المروَّذي: قلت لأبي عبد الله – يعني أحمد بن حنبل– : الرجل ينظر إلى المملوك؟ قال: إذا خاف الفتنة لم ينظر إليه. كم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلاء.

((457))

قال المروذي: قلت لأبي عبد الله يعني: أحمد بن حنبل: الرجل ينظر إلى المملوك؟ قال: إذا خاف الفتنة لم ينظر إليه، كم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلاء. و قال المروذي: قلت لأبي عبد الله: رجل تاب وقال: لو ضرب ظهري بالسياط ما دخلت في معصية، إلا أنه لا يدع النظر. فقال: أي توبة هذه؟!

قال جرير ﷺ: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة.

فقال: ((اصرف بصرك))[2].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبي وسويد، قالا: حدثنا إبراهيم بن هراسة، عن عثمان بن صالح، عن الحسن، عن ذكوان قال: لا تجالسوا أولاد الأغنياء، فإن لهم صوراً كصور النساء، وهم أشد فتنة من العذارى، وهذا الاستدلال[3] والقياس، والتنبيه بالأدنى على الأعلى.. إلى أن قال:

وكذلك المرأة مع المرأة، وكذلك محارم المرأة مع ابن زوجها، وابنه، وابن أخيها، وابن أختها، ومملوكها عند من يجعله محرماً متى كان يخاف عليه الفتنة أو عليها، توجه الاحتجاب، بل وجب.

---

[1] – في الأصل: تخشى.

[2] – رواه مسلم.

[3] – كذا الأصل، ولعل الصواب:وهذا من باب الاستدلال.

وهذه المواضع التي أمر الله بالاحتجاب فيها، مظنة الفتنة، ولهذا قال تعالى: (ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)[1] فقد تحصل الزكاة والطهارة بدون ذلك، لكن هذا أزكى. وإذا كان النظر والبروز قد انتفى فيه الزكاة والطهارة لما

((458))

يوجد في ذلك من شهوة القلب واللذة بالنظر، كان ترك النظر والاحتجاب أولى بالوجوب.

وروى الجماعة إلا مسلماً، أن النبي ﷺ لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وقال: ((أخرجوهم من بيوتكم، وأخرجوا فلاناً وفلاناً)) يعني المخنثين، وقد ذكر بعضهم أنهم كانوا ثلاثة: بيم، وهيت، وماتع على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى. إنما تخنيثهم وتأنيثهم ليناً في القول، وخضاباً في الأيدي والأرجل، كخضاب النساء، ولعب كلعبهن.

وفي ((سنن أبي داود)) عن أبي يسار القرشي[2] عن أبي هاشم، عن ابي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ أتي بمخنث وقد خضب رجليه ويديه بالحناء، فقال: ((ما بال هذا؟)) فقيل: يا رسول الله يتشبه بالنساء. فأمر به فني إلى النقيع[3] فقيل: يا رسول الله، ألا نقتله؟ فقال: ((إني نهيت عن قتل المصلين)).

فإذا كان النبي ﷺ قد أمر بإخراج مثل هؤلاء من البيوت، فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه، والاستماع به، وبما يشاهدونه من محاسنه، وفعل الفاحشة الكبرى به، شرٌّ من هؤلاء، وهذا أحق بالنفي من بين أظهر المسلمين وإخراجه عنهم.

فإن المخنث فيه إفساد للرجال والنساء، لأنه تشبه بالنساء، فقد تعاشره النساء ويتعلمن منه وهو رجل فيفسدهن، ولأن الرجال إذا مالوا

((459))

إليه، فقد يعرضون عن النساء، ولأن المرأة إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل هي، وتتشبه بالرجال، فتعاشر الصنفين، وتختار هي مجامعة النساء، كما يختار هو مجامعة الرجال.

---

[1] – سورة النور الآية: 30.

[2] – قال في ((الخلاصة)): مجهول.

[3] – موضع قرب مكة.

والله سبحانه قد أمر في كتابه بغض البصر، وهو نوعان: غض البصر عن العورة، وغضها عن محل الشهوة.

فالأول: كغض الرجل بصره عن عورة غيره. كما قال النبي ﷺ: ((لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة)).

ويجب على الإنسان أن يستر عورته، كما قال لمعاوية بن حيدة: ((احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك)).

قلت: فإذا كان أحدنا مع قومه؟ قال: ((إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يراها)).

قلت: فإذا كان أحدنا خالياً؟ قال: ((فالله أحق أن يستحيا منه من الناس[1])).

ويجوز كشفها بقدر الحاجة، كما تنكشف عند التلخي.

ولهذا إذا اغتسل الرجل وحده، بحيث يجد ما يستره، فله أن يغتسل عُريانا، كما اغتسل موسى عرياناً وأيوب، وكما في اغتساله ﷺ يوم الفتح، واغتساله في حديث ميمونة.

وأما النوع الثاني من النظر، كالنظر إلى الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية، فهذا أشد من الأول. كما أن الخمر أشد من الميتة والدم ولحم الخنزير، وعلى صاحبها الحد.

وتلك المحرمات إذا تناولها مستحلاً لها[2] كان عليه التعزيز، لأن هذه المحرمات لا تشتهيها النفوس كما تشتهي الخمر، وكذلك النظر إلى عورة الرجل، لا يشتهى كما يشتهى النظر إلى النساء ونحوهن، وكذلك النظر إلى الأمرد بشهوة، هو من هذا الباب.

وقد اتفق العلماء على تحريم ذلك، كما اتفقوا على تحريم النظر للأجنبية وذوات المحارم بشهوة.. إلى أن قال:

فصار النظر إلى المردان ثلاثة أقسام:

احدهما: ما تقترن به الشهوة، فهو محرم بالاتفاق.

---

[1] – حديث حسن، وتقدم.

[2] – يعني استحلالاً بالفعل غير مضطر إلي تناولها، فهذا يُعَزَّر. وأما لو استحلها اعتقاداً فيكفر اتفاقاً.

والثاني: ما يجزم أنه لا شهوة معه، كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن، وابنته الحسنة، وأمه الحسنة، فهذا لا تقترن به شهوة، إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس، ومتى اقترن به الشهوة، حرم.

وعلى هذا نظر من لا يميل قلبه إلى المردان، كما كان الصحابة ﷺ، وكالأمم الذين لا يعرفون هذه الفاحشة، فإن الواحد من هؤلاء لا يفرق من هذا الوجه بين نظره إلى ابنه، وابن جاره، وصبي أجنبي، لا يخطر بقلبه شيء من الشهوة، لأنه لم يعتد ذلك، وهو سليم القلب من قبل ذلك.

وقد كانت الإماء على الصحابة يمشين في الطرقات متكشفات الرؤوس، ويخدمن الرجال مع سلامة القلوب. فلو أراد الرجل أن يترك

الإماء التركيات الحسان يمشين بين الناس في مثل هذه البلاد والأوقات، كما كان أولئك الإماء يمشين، كان هذا من باب الفساد.

وكذلك المرد الحسان لا يصلح أن يخرجوا في الأمكنة والأزقة التي يخاف فيها الفتنة بهم، إلا بقدر الحاجة، فلا يمكّن الأمرد الحسن من التبرج، ولا من الجلوس في الحمام بين الأجانب، ولا من رقصه بين الرجال، ونحو ذلك مما فيه فتنة للناس، والنظر إليه كذلك.

وإنما وقع النزاع بين العلماء في القسم الثالث من النظر، وهو النظر إليه بغير شهوة. لكن مع خوف ثورانها، ففيه وجهان في مذهب أحمد: أصحهما وهو المحكي عن نص الشافعي وغيره أنه لا يجوز. والثاني: يجوز. لأن الأصل عدم ثورانها، فلا يحرم بالشك، بل قد يكره. والأول هو الراجح، كما أن الراجح في مذهب الشافعي وأحمد أن النظر إلى وجه الأجنبية من غير حاجة لا يجوز، وإن كانت الشهوة منتفية. لكن لأنه يخاف ثورانها، ولهذا حرم الخلوة بالأجنبية، لأنها مظنة الفتنة. والأصل أن ما كان سبباً للفتنة فإنه لا يجوز. فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدّها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة.

ولهذا كان النظر الذي قد يفضي إلى الفتنة محرماً، إلا إذا كان لحاجة راجحة، مثل نظر الخاطب والطبيب وغيرهما. فإنه يباح النظر للحاجة، لكن مع عدم الشوة. وأما النظر لغير حاجة إلى محل الفتنة، فلا يجوز.

وأما الأبصار فلابد من فتحها والنظر بها. وقد يفجأ الإنسان ما ينظر إليه بغير قصد فلا يمكن غضها مطلقاً، ولهذا أمر تعالى عباده بالغض منها، كما أمر لقمان ابنه بالغض من صوته.

((462))

وأما قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ)[1] الآية فإنه مدحهم على غض الصوت عند رسوله ﷺ مطلقاً. فهم مأمورون بذلك، ينهون عن رفع الصوت عنده ﷺ، وأما غض الصوت مطلقاً عند رسول الله ﷺ، فهو غض خاص ممدوح، ويمكن للعبد أن يغض صوته مطلقاً في كل حال، ولم يؤمر العبد به، بل يؤمر برفع الصوت في مواضع. إما أمر إيجاب، أو استحباب.

فلهذا قال تعالى: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) [2] فإن الغض في الصوت والبصر: جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه. فبالسمع يدخل القلب، وبالصوت يخرج منه، كما جمع العضوين في قوله تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ)[3] فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور. واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور، هذا رائد القلب وصاحب خبرة وجاسوسه، وهذا ترجمانه.

ثم قال تعالى: (ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)[4] وقال: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)[5] وقال: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)[6] وقال في آية الاستئذان: (وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ)[7] وقال: (فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)[8]

((463))

---

[1] – سورة الحجرات الآية: 3.

[2] – سورة لقمان الآية: 19

[3] – سورة البلد الآيتان: 8،9.

[4] – سورة النور الآية: 30.

[5] – سورة التوبة الآية: 103.

[6] – سورة الأحزاب الآية: 33.

[7] – سورة النور الآية: 28.

[8] – سورة الأحزاب الآية: 53.

وقال: (فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ)[1].

وقال النبي ﷺ: (اللهم طهر قلبي من خطاياي بالماء والثلج والبرد)[2] وقال في دعاء الجنازة: ((واغسله بماء وثلج وبرد، ونفقه من خطاياه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس))[3].

فالطهارة والله أعلم، هي من الذنوب التي هي رجس.

والزكاة تتضمن معنى الطهارة التي هي عدم الذنوب. ومعنى النماء بالأعمال الصالحة، مثل: المغفرة والرحمة، ومثل: النجاة من العذاب، والفوز بالثواب، ومثل: عدم الشر وحصول الخير.

وأما نظر الفجأة، فهو عفو إذا صرف بصره. كما ثبت في ((الصحاح))[4] عن جرير رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: ((اصرف بصرك)) وفي ((السنن)) أنه قال لعلي رضي الله عنه: ((يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الثانية))[5] وفي الحديث الذي في ((المسند)) وغيره: ((النظر سهم مسموم من سهام إبليس)) وفيه: ((من نظر إلى محاسن امرأة ثم غض بصره، أورث الله قلبه حلاوة عبادة يجدها إلى يوم القيامة))[6] أو كما قال.

ولهذا يقال: إن غض البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها، كالمرأة، والأمرد الحسن، يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر: إحداها: حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه الله. فإن من ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه[7].

وأما الفائدة الثانية من غض البصر: فهو يورث نور القلب والفراسة، قال تعالى عن قوم لوط: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)[1] فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعمى البصيرة، وسكر القلب، بل جنونه.

---

1 – سورة المجادلة الآية: 12.

2 – رواه البخاري.

3 – رواه مسلم.

4 – كذا الأصل، ولعل الصواب ((الصحيح)): يعني ((صحيح مسلم)).

5 – إسناده جيد.

6 – حديث ضعيف، كذا الذي قبله.

7 – كما ثبت في حديث رواه أحمد بسند صحيح.

وذكر الله سبحانه آية النور عقيب غض البصر فقال: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[2] وكان ((شاه بن شجاع الكرماني)) لا تخطيء له فراسة، وكان يقول: ومن عمر ظاهرة باتباع السنة، وباطنة بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، وذكر خصلة خامسة أظنه هو أكل الحلال؛ لم تخطيء له فراسة، والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، فيطلق نور بصيرته ويفتح عليه باب العلم والمعرفة، والكشوف، ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة، فإن الأثر الذي يخالف هواه، يفرق الشيطان

من ظله. ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه.

وإن الله جعل العزة لمن أطاعه، والذلة لمن عصاه. فقال الله تعالى: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[3] وقال تعالى: (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[4] ولهذا كان من كلام الشيوخ: الناس يطلبون العز بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله. وكان السحن البصري يقول: وإن هملجت بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال، فإن ذل المعصية في رقابهم. أبى الله إلا أن يذل من عصاه، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعصيته. وفي دعاء القنوت: ((إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت)).

وأما أهل الفواحش الذين لا يغضون أبصارهم، ولا يحفظون فروجهم، فقد وصفهم الله بضدّ ذلك، من السكرة، والعمه، والجهالة، وعدم العقل، وعدم الرشد، والبغض، وطمس الأبصار. هذا مع ما وصفهم به من الخبث، والفسوق، والعداون، والإسراف، والسوء،

---

[1] – سورة الحجر الآية: 72.

[2] – سورة النور الآية: 35.

[3] – سورة المنافقون الآية: 8.

[4] – سورة آل عمران الآية: 139.

والفحش، والفساد، والإجرام. فقال عن قوم لوط: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)[1] فوصفهم بالجهل وقال: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)[2] وقال: (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)[3] وقال:

(لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ)[4] وقال: (أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)[5]وقال: (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)[6] وقال: (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)[7] وقال: (أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ)[8] إلى قوله: (انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)[9] إلى قوله: (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)[10] وقوله: (مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)[11].

بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك، كما قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)[12] ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله، وضعف الإيمان. والله تعالى إنما ذكره في القرآن عن امرأة العزيز المشركة، وعن قوم لوط المشركين، والعاشق المتيم يصير عبداً لمعشوقه، منقادا إليه، أسير القلب له.

والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

---

[1] – سورة النمل الآية: 55.

[2] – سورة الحجر الآية: 72.

[3] – سورة هود: 78.

[4] – سورة يّس الآية: 66.

[5] – سورة يّس الآية: 19.

[6] – سورة الأعراف الآية: 84.

[7] – سورة الأنبياء الآية: 74.

[8] – سورة العنكبوت الآية: 29.

[9] – سورة العنكبوت الآية: 30.

[10] – سورة العنكبوت الآية: 34.

[11] – سورة الذريات الآية:34.

[12] – سورة البقرة الآية: 165.

خاتمة نسأل الله حسن الخاتمة

ذكر العلامة الشهيد الشيخ سليمان بن عبد الله ابن شيخ الإسلام مُحَمَّد ابن عبد الوهاب عليهم الرحمة في حواشي ((المقنع)) فوائد في أحكام النظر، نذكر منها الفائدة الثالثة. قال:

لا يجوز له، أي الرجل الأجنبي النظر إلى الأحنبية قصداً، وهو المذهب.

وقال القاضي: يحرم النظر إلى ما عدا الوجه والكفين، لأنه عورة، ويباح له النظر إليها مع الكراهة إذا أمن الفتنة ونظر بغير شهوة، وهذا مذهب الشافعي.

قال في ((الإنصاف): وهذا الذي لا يسع الناس غيره، خصوصاً للجيران، والأقارب غير المحارم الذين نشأ بينهم.

قلت: وفي هذا نظر لا يخفى على متأمل عرف أصول الشرع ومقاصده، وأنه بما فيه صلاح الخلق في الدنيا والآخرة. فكيف يطلقونه عل النظر، ويجرئون الفساق على مقاصدهم؟! لا سيما في هذه الأزمنة، فإن الفاسق ينظر إلى ما اشتهى، لا سيما إذا كان المنظور إليه مثله، ويدعى مع ذلك أنه ينظر بلا شهوة.

فالصواب حسم، وسد الذريعة، ولذلك قال ﷺ لما سئل عن

نظر الفجأة ((اصرف بصرك، فإنما لك الأولى وليست لك الثانية))[1] وما ذكره العلامة الشيخ سليمان هو التحقيق عليه عند أهل التقوى والنظر الصحيح.

ولا ينبغي للرجل الحازم أن يهمل محارمه بالاتصال بالرجال الأجانب، ولو كانوا من أهل بيت واحد وعائلة واحدة، فإن دواعي الشر غالبة، والشيطان يغري بعضهم ببعض، لا سيما إذا كانت المرأة غير متعلمة، جاهلة بعواقب الشر والفساد.

---

[1] – هما حديثان: الأول: في مسلم عن جرير، قال: سالت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: ((اصرف بصرك)). والثاني: عند أبي داود والترمذي قوله: ((يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة)).

ولا شك أن تعليم المرأة أمر دينها وما يصلح شؤونها في تدبير منزلها، وتربية أولادها، أمر ضروري لا ينازع فيه إلا من لم يعرف حقائق الأمور.

ونحن نعلم بالتأمل أن المرأة الناشئة في بيت رجل صالح مرشد، خير وأفضل من المرأة الناشئة في بيوت الجهال الغافلين عما أراده الله من طاعته وعبادته.

وأيضاً إذا كانت المرأة متعلمة، وعالمة بأحكام الدين، فاستفادة النساء منها أتم من الرجال، كما لا يخفى، وكثير من أئمة الإسلام أخذوا العلم عن نساء عالمات كاتبات، يعرف ذلك م له عناية بقراءة تراجم العلماء، ولم ينكر أكابر العلماء عليهن تعلم العلم ومعرفة الكتابة، وفساد النساء ليس من تعلم الكتابة، ولكنها من الجهل وسوء التربية والإهمال، ومخالطة الرجال، والسفور للأجانب برفع الحجاب. وفي ((رسالة شمس الحق)) و ((رسالة شيخ الإسلام)) ما بين الصواب في هذا الباب.

إليك أيتها الأخت المسلمة

خمس رسائل موجهة

إلى طالبات الجامعة

رسالة الإستقامة

أختي المسلمة:

قال الله تعالى في كتابة الكريم

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1].

إليك – أيتها الأخت المسلمة – إذا تلتحقين بالجامعة السنة أول كنت مرة.

فالجامعة، وما أدراك ما الجامعة؟

العلم والأدب، والإنحلال والإباحة.

الاستقامة، والعفة، والطهارة، والميوعة، والفجور، والرذيلة، كل ذلك في وسط تيارات متناقضة من المذاهب والأفكار، فانظري – أيتها الأخت – بعين ونظرة متبصرة مع أي تيار ستنساقين.

أخاطبك – أيتها الأخهت المسلمة – وأنا واثق بأنك في موقف العلو.. استقامة وعفة إلا أن هذا لا يعني أن أكون شديداً في تحذيرك، قاسياً في نصحي لك قبل أن تتيهي أو تنحرفي أو تسقطي، فالتيار جارف، والضلال مستمر، والفتنة تدع الحليم حيران.

إن دخولك المسجد وتأديتك الصلاة لهو دليل قاطع على أنك فتاة عاقلة ورزينة، تستحقين كل تقدير وإكبار، وهو تعبير صادق على أنك فتاة عفيفة ومستقيمة، وفي ذلك ما يشعر من أصل طيب، ومنبت كريم.

فحافظي – أيتها الأخت – على أصالتك واستقامتك، وعفتك وطهارتك.

أنت إذ تعيشين في وسط موبوء تترددين عليه صباح مساء، لا تزالين مهددة بالانزلاق والانحراف مالم تملكي السيطرة على عواطفك، ومالم تراقبي الله في جميع تصرفاتك.

فاحذري – أيتها الأخت المسلمة – أن تسيري في طريق يؤدي بك إلى الانزلاق أو الانحراف.

---

[1] – سورة التوبة الآية: 71.

احـذري – أيتهـا الأخـت - أن تقيمـي علاقـات مـع إنسـان كائنـاً مـن كـان، بريئـة كانـت أو آثمة.

أنـت فتـاة مسـلمة فينبغـي أن تكـوني واعيـة، ففكـري – أيتهـا الأخـت – جيـداً في عواقـب الأمـور ونتائجهـا، قبـل أن تتجرعـي مرارتهـا، وقبـل أن تعضـي أصـابعك نـدماً، وقبـل أن تبكـي دمـاً، واسألي من سار في هذا الطريق قبلك، بحثاً عن لذة قصيرة، أعقبت الماً، وأورثت ندماً.

إن نضـارة وجهـك – أيتهـا الأخـت - سـتذوي، وبريـق عينيـك المـتلألىء سـيخبو، وكـبرياءك سيتحطم، عندما تسلكين طريقاً منحرفة، ينكرها

((473))

الشرع والعرف والدين، ولن تكون إلا على حساب سمعتك وشرفك.

اذكـري – أيتهـا الأخـت – أن لـك ربًّا، إن سـتر عليـك مـرات فقـد يفضـحك مـرة، عنـدما تخالفين أمره، وتقتربين من الوقوع في الاحشة وفي المعصية وفي الحرام.

اذكـري – أيتهـا الأخـت – أن لـك أبـوين، ربيـاك علـى الفضـيلة والعفـاف والتقـوى، ووثقـا في عينيـك واسـتقامتك، واذنا لـك أن تـدخلي في الجامعـة، فتعيشـي بعيـدة عـن أنظارهمـا، يريـدان لـك العلم والرفعة، فلا يليق بك أن تخونيهما، وتلوثي شرفهما.

أيتها الطالبة المسلمة:

إنـني إذ أتوسـم الخـير فيـك، أقـدر رجاحـة عقلـك، وارى للتفـاهم سـبيلاً إليـك، وللموعظـة محـلاً منـك، وأنـت علـى درجـة مـن الاسـتقامة والنزاهـة والعفـة والطهـارة، والخلـق والأدب، تلجـم أي لسـان يريـد أن ينـال منـك ولكنـني – أيتهـا الأخـت – اريـد لـك –كمـا أريـد لكـل أخ مسـلم – المثاليـة في كـل حركـة و سـكنة، فـأرجو أنا لا أثـير حفيظتـك، أو أجـرح شـعورك إن وجـدت في الخطاب شدة، وفي الموعظة قسوة.

أحـذرك – أيتهـا الأخـت – مـن الآن – وقبـل أن تسـقطي مـن الأعـين، وقبـل أن تقعـي في المعصية.

أحذرك – من الآن – قبل أن تندمي ولا ينفعك الندم.

أحذرك بشدة من مغبة السير في هذا الطريق.

((474))

أحذرك من عواقبه الوخيمة.

أحذرك من نتائجه السيئة.

إن الشباب الذي يبتسم لك يخادعك.. يريد افتراسك ليستمع بك، وليقضي شهوته منك، حتى إذا ما روي منك خلعك من صداقته وكأنه لا يعرفك، بعد أن تكوني قد فقدت أنوثتك، وفرطت في سمعتك، وعصيت خالقك، وخنت والديك، وعندئذ ستقضين حياة نكده، وتعيشين بعدئذ معذبة الضمير، كاسفة البال.

وثقي تماماً – أيتها الأخت – أن حياة الفقر والمرض، والبؤس والحرمان خير للمرء من حياة يحياها مهزوز الشعور معذب الضمير.

إن الشاب إذا أراد اللهو بحث عن الفتاة الساقطة الخليعة، أما إذا أراد الزواج والإحصان بحث عن الفتاة الشريفة الأصيلة، والعفيفة المستقيمة. فكوني – أيتها الأخت – مثال الفتاة اللمسلمة شرفاً وأصالة وعفة واستقامة.

إن السعادة التي تريدينها لا تتحقق لك – يا أختي – إلا كانت مدعومة برباط متين من الحب والمودة بينك وبين من تعاشرين، هذا الرباط هو رباط الزوجية فقط، وما عدا ذلك فهو الخداع والنفاق وشراء الشرف والعرض والمروءة والضمير والدين.

فمهما وجدت شاباً نافق بإظهار حبه ووده فهو كاذب مخادع مالم يتقدم لخطبتك واللزواج منك على الطريقة التي أقرها الدين، وتعارف عليها لترتبط العلاقات برباط مؤبد من الحب والمودة لا انفصام له، هو رباط الزوجية.

((475))

أنت الآن – أيتها الأخت – طالبة، وعليك دروس وواجبات، ولك في هذا شغل شاغل، فحذار أيتها الأخت من اللعب بالنار.

كذلك فأنت مسلمة ومن والدين مسلمين ربياك على الحياء والعفة والفضيلة، واستقيا من تعاليم الإسلام السامية والخالدة أصولاً ثابتة في الاستقامة والنزاهة والخلق والأدب فلقناك إياها، لا أرتاب أنهما عندما اذنا لك أن تدخلي الجامعة قد وضعا فيك ثقة عالية، فمثلك – أيتها الأخت – لتدخل الجامعة ولا خوف عليها، فلاضمير حي، والفطرة سليمة، والوازع الديني قوي، ورقابة الله تعفعل في القلب، ويتولى الله حفظك ورعايتك، ويصرف عنك السوء والفحشاء.

ثم لا عليك – أيتها الأخت – أن تجدي في الجامعة – بكثرة – فتاة من عائلة مستهترة، ولا عرض مصونفتغار عليه، ولا شرف أصيل فتنبري للذب عنه، ولا تربية تردع، فمثل هذه العائلة لا عليها أن تقذف بابنتها في الجامعة، فلتدخل الجامعة على الصورةالتي يزينها الشيطان لها، فالضمير ملتاث، والفطرة مشوبة، وتسربل الشيطان أعماها عن الفضيلة والهدى، وأصمها عن أن تصيخ إلى الحق أو تفيء إلى الرشاد، وستجد بغيتها كل يوم في شاب يتودد إليها، ثم يخلعها من صداقته رخيصة مزهوداً فيها.

وقبل أن أختم مقالي أريد أن أشير إلى أن هناك أخوات عرفهن المسجد لسنوات كثيرة، وقد تخرجن أو اقترب أن يتخرجن، أعطين صورة مشرفة

((476))

للفتاة المسلمة في الجامعة، في الاستقامة والعفة مع حجاب يساير العصر ويقره الشرع والدين.

فاتقي الله – أيتها الأخت – في أفعالك، واتقي الله في نفسك، وفي والديك اللذين وثقا بك، وحافظي على شموخك وكبريائك وعفتك وطهارتك، وأجمل ما تتحلى به الفتاة من جمال هو الحياء والحشمة، فالبسي – أيتها الأخت – رداءها، وحافظي على تأدية الصلاة في وقتها، وكوني قدوة لبنات جنسك في الجامعة في المحافظة على الصلاة وفي الأدب والحياء والحشمة والاستقامة والنزاهة والعفة والطهارة.

وبقليل من الصبر يهيء الله لك بالحلال،ما يمنعك من الوقوع في الحرام، فلا تستعجلي – يا أختاه – الأمور، ولا تستسلمي للتيار.

أسأل الله لك – أيتها الأخت – التوفيق والنجاح والسداد والاستقامة، وأدعوه أن يحفظك حتى تتخرجي في الجامعة بسلام.

وسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

رسالة العلم

أختي المسلمة:

قال الله تعالى في كتابه الكريم

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)[1] وقال أيضاً:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[2].

إليك – أيتها الأخت المسلمة – إذا كنت قد دخلت الجامعة طلباً للعلم وتحصيلاً للثقافة.

فالعلم – يا أختاه – دواء دائنا وشفاء أسقامنا، وما رأيت للإسلام عدواً كالجهل، يزري ويحط من كرامة النساء، يهدم الدين والدنيا معاً، وأقصد بالعلم – أيتها الأخت – العلم الذي يفتق الأذهان، ويوسع أفق المعرفة. العلم الذي يعود بالخير والنفع على الأمة وعلى الإنسانية.

العلم الذي به معرفة الحق تبارك وتعالى واكتشاف آياته التي أودعها في هذا الكون الرحيب.

لا العلم الذي يعري الفضيلة، ويفسد العقول.

لا العلم الذي يؤدي بالشباب إلى الكفر والإلحاد، وبالفتيات إلى الميوعة والانحلال.

فإذا كان علماً لا يزيد صاحبه إلا كبراً وعناداً، ومروقاً وانسلاخاً، من الدين، أو كان علماً لا يزيد صاحبه إلا كبراً وغروراً، وتهتكاً وسفوراً، أو كان علماً هدفه وأد الأخلاق، وسحق الفضيلة، ومحاربة العفاف والتقوى.. فقبحه الله إذن من علم مذموم أضحى داء وباء، وحينئذ ينبغي أخذ اللقاح الواقي للإحتراز منه.

أيتها الأخت المسلمة:

أنت بدخولك الجامعة تدحضين تهمة طالما حاولوا لصقها بالإسلام يوم كذبوا عليه فأوهموا الناس أن الإسلام يمحو إنسانية المرأة، ويخدش اعتبارها، ويمنع تعلمها.

---

[1] – سورة الزمر الآية: 9.

[2] – سورة المجادلة الآية: 11.

وهنا يحق لك أن تفخري وأن تعتزي ليس في أن الإسلام أطلق الحرية للمرأة في أن تأخذ حظها من العلم، وتركه أمراً مباحاً لها فحسب، بل في أن الإسلام جعله ضرورة بشرية، ضرورة لازمة لكل فرد، فكان أول نظام في التاريخ نظر إلى المرأة على أنها كائن بشري لا يستكمل مقومات بشريته حتى يتعلم، شأنها شأن الرجل سواء بسواء، فجعل العلم فريضة عليها كما هو فريضة على الرجل، في حديث مشهور مروي عن الرسول ﷺ: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم))[1]، وهو حديث

((479))

عام – كأكثر الآيات والأحاديث – يشمل الجنسين معًا الرجال والنساء، وعلى ذلك اتفقت كلمة العلماء.

ومما يدعو إلى الإعجاب أن المرأة في الإسلام لم تقتصر على تعلم العلم في مبادئه الأولية فحسب، بل زحفت إلى مركز الأستاذية في عصور كان يغشاها الجل والظلام، وجلس أمامها أشياخ كبار يلتمسون الاستماع إليها، والقراءة عليها، وأخذ الإجازة منها.

وتذكر المصادر التاريخية أن زينب بنت عثمان الدمشقية كانت أعلم أهل زمانها بالحديث، وأنه كان يحضر حلقة درسها ما لا يقل عن خمسين طاباً؛ ومن تلاميذها العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني – وهو من هو في عالم التدريس والفتيا، وصاحب المؤلفات القيمة في التاريخ – وقد حصل على إجازة منها، ويقال مثل ذلك عن كثيرات شغل تحصيل العلم بعضهن، فانقطعن للعلم ولم يتزوجن طوال حياتهن.

والذي يستعرض كتب التراجم والطبقات يلاحظ كثرة المتعلمات المسلمات في عصور الإسلام الزاهرة، وميلهن إلى إتقان الخط، وحفظ القرآن والحديث والفقه والتأليف.

فهذا الحافظ ابن عساكر – إمام عصره في الحدث – قد أخذ بعض علمه من نساء زمانه، وبلغ عدد أساتيذه من النساء أكثر من ثمانين شيخة، وبإلقاء نظرة سريعة إلى الجزء الذي ترجم فيه الإمام السخاوي لشهيرات النساء في القرن التاسع من كتابه ((الضوء اللامع)) يتجلى منها

((480))

[1] – رواه ابن ماجه.

للبحاث ازدحام الكتب بأخبار ربات العلم، ويعجب أن أشياخ الإمام السخاوي من النساء قد زدن على الخمسين، أجازة منهن قرابة خمس وعشرين.

ولقد بلغت المرأة المسلمة درجة اجتماعية دونها مراتب النساء جميعاً في أنحاء العالم المعروف آنذاك، ولم ير علماء المسلمين في عصر صدر الإسلام أي حرج في السعي نحو امرأة ما، لعلمهم أنها تروي حديثاً نبوياً بذاته، على أنه من الصعب هنا أن نحصي من اشتهرن برواية الحديث عن النبي ﷺ أو عن أحد من الصحابة أو التابعين، فهن كثيرات ازدحمت بأخبارهن كتب الحديث، وأفاضت في ذكرهن كتب التراجم والطبقات[1].

ولا أريد أن أحدثك عن الأساتذة الفقيهة، والأديبة الطبيبة، راوية الشعر والحديث، حافظة القرآن، عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

فما يدعو إلى الفخر أن يقول أحد الباحثين الأوربيين: ((إن النساء المسلمات قد أخرجن في الدهر الغابر من المشهورات العالمات بقدر ما تخرج مدارس الإناث في الغرب اليوم[2])).

كل ذلك كان في إطار العفة والنزاهة، والعزة والكرامة، أضفاها الإسلام على منزلة المرأة.

فإذا كنت – أيتها الأخت – قد دخلت الجامعة تريدين العلم والثقافة والمعرفة، لتكوني عضو بناء وتشييد لا أداة إفساد وإثارة، وتكوني ركن تربية وإصلاح، لا وسيلة دعاوة وغواية، فعليك أن تعرفي قدر العلم وقداسته، فتطلبيه مقروناً بالعفة والطهارة، والنزاهة والاستقامة لتكون الجامعة منهل العلم والأدب، والثقافة والمعرفة، تدخلها الفتاة وتتخرج فيها، محتفظة بشهامتها وكرامتها، وعزتها ومروءتها.

ألا ترين – أيتها الأخت – أن كثيراً من الآباء ذوي الغيرة والحمية قد حرموا بناتهم من تحصيل دراستهن العالية صوناً للعرض من أن ينتهك، وحفاظاً على الشرف من الوقيعة فيه.

فإن كنت – أيتها الأخت – طالبة فأنت تنشدين هدفاً سامياً، وتبغين مطلباً شريفاً نبيلاً، فيجب أن تحققي هدفك مصوناً من الحطة والتهتك، بعيداً عن الميوعة والانحلال،

---

[1] – من مقال بقلم أحمد محمد عيسى ص (163) في كتاب ((دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام)). المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (1966). القاهرة.

[2] – الإسلام والحضارة العربية محمد كرد علي.

فتظهري عفتك واستقامتك، وتثبتي جدارتك وكفاءتك على أنك عضو فعال في بناء المجتمع، لك دور حيوي لا تستغني عنه أمة تنشد التطور والتقدم.

وفقك الله – أيتها الأخت – لطلب العلم النزيه، مقروناً بالحياء والأدب، والعفاف والتقوى، وأدعوه أن يحفظ حتى تتخرجي في الجامعة بسلام، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

رسالة الحجاب

أختي المسلمة.

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)[1].

وقال أيضاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ)[2].

وقال أيضاً:

(وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)[3].

إليك أيتها الأخت المسلمة:

إذا كنت آمنت بالله ربًّا، وبمحمد ﷺ نبياً، وبالإسلام ديناً.

إذ كنت قد رضيت بالقرآن دستوراً وشريعة ومنهاجاً.

إذا كنت قد جعلت الرسول ﷺ قدوة لك وإماماً.

وأقصد بالإيمان – أيتها الأخت المسلمة – الإيمان الحق بصدق وإخلاص، لا إيمان المجاملة والمسايرة، إيمان الرأي المستحسن،

والهوى المتبع، لا إيمان النية الحسنة، والعمل المخالف للآيات المحكمة والنصوص القاطعة.

فالإيمان كما حدده رسول الإسلام ﷺ ليس بالتمني، إنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

أفرأيت هذا الإيمان الذي يملأ قلبك إن كنت مؤمنة حقاً، لقد شارك في نقله إليك نساء خالدات عرفن حقيقة الإيمان، فالتزمن بأمر الإله عن رضى وطواعية، ثم آلين على أنفسهن أن

---

[1] – سورة الحديد الآية: 16.

[2] – سورة الأحزاب الآية: 59.

[3] – سورة النور الآية: 31.

يؤدين لهذا الدين ما له عليهن من حق في نشره وتبليغه قولاً وعملاً، سلوكاً ومنهاجاً، فكان منهن المقاتلة، وكان منهن المجاهدة، وكان منهن العالمة، وكان منهن المربية، وكان منهن العابدة، ومنهن من حملن السيف وقاتلن، ومنهن من حفظن القرآن، ودرسن السنة، فتصدرن مجالس العلم فعلَّمن وحدَّثن، وتتلمذ على أيديهن أشياخ كبار.

ومنهن من قدّمن أبناءهن إلى معارك الشرف والبطولة، والجهاد والتضحية، فقرَّتْ باستشهادهم أعينهن.

كذلك كان منهن الصوّامات القوّامات اللائي خرّجن الأبطال والفاتحين.

وإذا كان تاريخنا حافلاً بأخبار الأبطال والشهداء والفاتحين، فإن تاريخنا يذكر بفضل الأمهات اللائي ربين هؤلاء الرجال.

((484))

وما من عصر من العصور امتحن فيه الإسلام، وكان هدف الكثير من الحاقدين الناقمين إلا نبغ فيه مسلمات عاقلات راشدات، أدَّين دورًا فعالاً في الذب عن هذا الدين ورد كيد الحاقدين والناقمين.

والآن أيتها الأخت المسلمة

يتعرض الإسلام لتيارات تريد أن تستأصل شأفته، وتستبيح حرمته، تيارات تتماوج في الدعوة إلى الكفر والإلحاد، والإباحية والانحلال.

ألا ترين في وسط هذه التيارات التي تعيشينها، أن مسؤولية كبيرة ملقاة على عاتقك لا تقل عن مسؤولية الرجل، في ميادين أهليتك وقدراتك.

أظنك- أيتها الأخت- تقفين عدم المبالاة، وكأن ما يحدث ويجري، ويحاك ويدبر أمر لا يعنيك.

فإذا كان الأمر بالنسبة لك كذلك، فتوقفي- يا أخت- عن القراءة ولا تتابعي، فالخطاب لم يعد موجهًا إليك ما دامت لم ترتفعي بعقلك وتفكيرك لأن تعي مسؤوليتك وتدركي واجبك، إنما هو خطاب موجه إلى أخت مسلمة مؤمنة نريدها عالية الهمة، قوية الإرادة.

فإذا كنت- أيتها الأخت- مسلمة مؤمنة، عاقلة رشيدة، واعية متبصرة تعين مسؤوليتك، وتدركين واجبك، وتحرصين على طاعة خالقك، فإن الإسلام يطلب منك شيئاً واحداً أنت قادرة على تنفيذه فوراً، ولا يُحَمّلك الإسلام ما لا تطيقين.

((485))

فأنت بجسمك الطري الغض لا تستطيعين تشاركي أخاك المسلم في جميع الميادين للوقوف وجهًا لوجه أمام قوى الشر والإفساد، وطواغيت الكفر والإلحاد، وشياطين الإباحية والانحلال.

إن الإسلام يطلب منك أن تلتزمي به قولاً ومفعلاً، سلوكاً ومنهاجاً في غدوك ورواحك وفي جميع تصرفاتك، بأن ترتدي جلباب الحياء والفضيلة والحشمة والستر، لباساً سابغاً ساتراً، فإنك إن فعلت ذلك أديت للإسلام دوراً تستحقين عليه كل شكر وثناء.

وما الذي يمنعك- أيتها الأخت- من ارتدائه؟ وفيه شموخك وكبرياؤك وعنوان استقامتك ونزاهتك.

إن لم يكن فيه إلا ما يميز المسلمات عن الفاجرات لكفى.

إن لم يكن فيه سوى أنه يغيظ دعاة الكفر والإلحاد، أنصار الإباحية والانحلال لكان فيه كفاية.

فكيف- أيتها الأخت- وفيه رضاء الرب، وسلامة العرض والشرف أعيدي النظر- أيتها الأخت- فوراً.

فالإسلام إذ قيد حركتك بقيود، وحدَّ نشاطك بحدود، أعفاك من مسؤوليات جسام، فقد ضمن لك الإسلام الجنة التي هي أمل كل مسلم، بل يطمح إليها كل مخلوق على وجه ألأرض، عندما تحق الحقيقة وتصدق المصدوقة، ويأتي أمر الله، ويساق الناس إلى الجنة وإلى النار، ضمن لك الجنة إذا أنت أديت فرضك، وعففت، وأطعت، والنصوص الواردة في هذا معروفة مشهورة.

((486))

وما أراد الإسلام- بهذه الحدود والقيود- إلا صونك من الأعين النهمة والأجساد الشهوانية، وعن النفوس الدنيئة التي رأت فيك جمالاً نظرت إليه نظرة عبث والتهام وافتراس، لا نظرة إجلال وإكبار، وأسمعتك فاحش الكلام وبذيئه.

وفي هذا يقول فون هومر:

(الحجاب في نظر الإسلام، وتحريم اختلاط النساء بالأجنبي عنهن، ليس معناه انتزاع الثقة بهن، وإنما هو وسيلة إلى الاحتفاظ بما يجب لهن من الإكبار وعدم التبذل، فالحق أن مكانة المرأة في الإسلام قمينة بأن تغبط عليها[1]).

وأرادك الإسلام- بهذه القيود- أن تكوني جميلة تسترين جمالك ومفاتنك إلا عن راغب شريف، جاء يطلبك على الطريقة التي اقرها الدين الحنيف، وتعارف عليها المسلمون، لا جميلة جمالاً معروضاً في كل طريق وشارع، وفي كل ناد وسوق، يدعو ويشير كل رائح وغاد. وليس الجمال- أيتها الأخت- في أن تظهري أمام الغريب والبعيد، والأجنبي ما لا يحل لك أن تظهريه أمام أبيك وأخيك.

إن أحلى ما تتحلى به الفتاة من جمال هو حياؤها وأدبها، واستقامتها ونزاهتها، وعفتها وطهارتها.

((487))

يقول فيكتور هيجو:

إن أجمل فتاة هي التي لا تدري بجمالها[2].

أتدرين- أيتها الأخت- ماذا أراد هذا الأديب بقوله؟

أراد أن يقول: إن أقبح فتاة هي المغرورة بجمالها، المخدوعة بمفاتنها، ولكنه كان شاعر فرنسة وأديبها الأكبر صاغ عبارته صياغة أدبية فقال: إنأجمل فتاة هي التي لا تدري بجمالها.

فلا تكوني- أيتها الأخت- مخدوعة ولا تكوني مغرورة.

أيتها الأخت المسلمة:

إن الإسلام إذ أراد صونك بهذا الحجاب الذي فرضه عليك، كذلك أراد وقاية المجتمع وحفظ أفراده وشبابه، فلقد قرر زعماء العالم الإصلاحيون والأخلاقيون أن تهتك المرأة وتبذلها وسفورها، يهوي بالمجتمعات ويودي بالأمم، وهذا ما أودي بحضارة اليونان والرومان والفرس والفراعنة، وما مأساة انهيار الوجود الإسلامي في الأندلس منا ببعيدة.

---

[1] - التبرج: ص (4) لحرم العليم مُحَمَّد رضا، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي بدمشق المطبعة التعاونية 1958. الفقرة من مقدمةالكتاب، لأحمد مظهر العظمة.

[2] - التبرج: ص (32).

(لما زار غليوم- إمبراطور ألمانيا- تركية جاء لاستقبالة ضمن من حضر لاستقباله عشرات الآنسات المتعلمات وقد أسدلن شعورهن، وكشف عن سواعدهن، وقيل له: إنهن أكبر التلميذات المتعلمات تعليماً عصرياً، ولما استعرض غليوم جماعة الوزراء، وقدم على شيخ الإسلام

((488))

التفت غليوم إليه وقال له: اعلم يا حضرة الأستاذ- الفاضل – أن هذا المقام يسمى مقام الخلافة وأن تعليمك البنات والشباب على النسق الأوربي لا يتفق مع المبادئ الإسلامية التي هي من مفاخر دينكم، وإننا نحن في أوربة نئن من هذه التربية على أن ما يجوز للأوربيين إباحته لا يجوز للمسلمين)[1].

فيَا أيتها الأخت المسلمة:

إلى متى تغلّبين عاطفتك على رجاحة عقلك؟ حتى متى تحتكمين إلى العادات والتقاليد الدخيلة على ديننا وبلادنا، ولا ترضين بحكم الإله ورسوله ﷺ؟.

أظنك تسيرين في طريق هو بداية لانحراف قد لا تسلم نهايته. ووالله لن تعرف السعادة طريقاً إليك- إن كانت السعادة في ظنك التحرر من قيود الشرع، والتعري من لباس الفضيلة والتقوى- مهما خدع جمالك شباباً، واستهوى قلوباً، فقد قضت سنة الله فيخلقه أنه من أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكاً. أم أنك تريدين أن تُوفقي بين الواقع الجاهلي، والدين الحنيف ألأصيل لتجعلي من هذا الدين الأصيل ديناً هجيناً؟.

أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟؟

فإذا كنت- يا أختاه- مؤمنة حقاً، فليس بعد الحق إلا الضلال. إنه أمر رباني كان عليك- إذ أقررت بالإيمان- ألا تترددي مطلقاً في قبول كل ما جاء من عند الله.

((489))

فهذه السيدة عائشة ﵂ تروي موقف المؤمنات في زمانها يوم نزلت آية الحجاب، عن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة، فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة: إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، ولا أشد تصديقاً لكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل، ولما نزلت سورة النور: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) انقلب

[1] – التبرج: ص(4) الفقرة من مقدمة الكتاب، بقلم أحمد مظهر العظمة.

رجالهن إليهن، يتلون عليهن ما أنزل الله منها، يتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرجل فغطت رأسها به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتاب[1].

أرأيت- أيتها الأخت- إنه الإيمان المحض، لا إكراه ولا إجبار. أفمالك- أيتها الأخت- قدوة حسنة بهؤلاء النساء الفاضلات، الطاهرات الصالحات؟ فإذا كنت مقتنعة بالحجاب، بصفته ضرورة أخلاقية، وضرورة اجتماعية وأمراً ربانيًّا، فماذا تنتظرين- يا أختاه-؟؟

تنتظرين حتى ترتديه المرأة الأمريكية، والمرأة الأوربية، والمرأة الروسية، أليس كذلك؟؟ عندئذ ستفكرين في ارتدائه، وعندئذ سيكون حجابك بالتبعية، لا بالطواعية والاختيار، وبالتقليد الأعمى لا بالتفكير الحر، وعندئذ سنحكم عليك بأنك إمعة، كما جاء في حديث حذيفة ﷺ ((إن يضل الناس تضلي، وإن يهتدوا تهتدي))[2].

((490))

ولن تكون لك عندئذ أفضيلة السبق، ولن تكوني عند الله بمنزلة التي لبسته أيام الفتنة وأيام المحنة ثابتة صامدة.

(لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا)[3].

ولا أقول: وكلاًّ وعد الله الحسنى، في حالتك هذه سواء كنت سافرة أو محتجبة، معاذ الله فالإنفاق- يا أخت- قبل وبعد- وعد الله عليه بالحسنى، أما التعري والسفور فعاقبته أبداً- الخزي والعار والخذلان.

إننا- أيتها الأخت- أمة لها شخصيتها التي ينبغي أن تكون متميزة، لذلك فأملنا كبير أن تلتحقي بصف الأخوات المتحجبات لإعطاء صورة مشرفة للإسلام في الجامعة- في الاستقامة، وحسن الإلتزام، ولك عندئذ من الأجر العظيم ما لايضيع عند رب العالمين.

(وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً)[1].

---

[1] - رواه أبو داود.

[2] - رواه الترمذي عن حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا)). وهو حديث حسن.

[3] - سورة الحديد الآية: 10.

كما سبق أنك يسبقك إلى الحجاب في الجامعة، والتزيي بزي الإسلام، لك إذا شاركت في تطبيق هذا الأمر الرباني فيها من الأجر مثل أجور من سيقتدي بك إلى يوم القيامة:

((من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجورمن تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا))[2].

((4910))

فيا ايتها الأخت المسلمة:

أعيدي النظر فوراً واذكري أن هذا الجسم الذي جعلته فتنة للشباب عن دينهم سيدس في يوم من الأيام في حفرة موحشة مظلمة من التراب- موشحاً بحجاب سابغ من الكفن- ليكون فتنة لملكين شديدين غليظين، تنشق لهما الأرض شقاً، وتبرق عيونهما بالشرر برقاً ولا أظن- أبداً- أن النية الحسنة ستشفع لك عند ربٍ أمر ونهي، وأضحك وأبكي وأمات وأحيا.

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ)[3].

أعيدي النظر – أيتها الأخت – فوراً:

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)[4].

أيتها الأخت المسلمة:

قد تقولين: إن لك ظروفاً خاصة، وأسباباً قاهرة، مانعة لك من وضع الحجاب وإني لا أظنها إلا تزيين النفس، وتسويل الشيطان، واتباع الهوى والتقليد الأعمى، فما كان ينبغي للظروف أن تعمل عندما يأتي أمر إلهي فيه نهي وزجر، وفيه وعد ووعيد، وفي جميع الأحوال لا تنقطعي- يا أخت- عن المسجد فما زِلنا نتوسم فيك خيراً عظيماً.

((491))

وثقي تماماً- أيتها الأخت- بأن سفورك يسترف منا جهداً ووقتاً كان ينبغي أن يصرفا في ميدان آخر، كما أنك لست عندنا في عداد المسلمات المؤمنات ممن يؤملن فيهن المشاركة في نصرة هذا الدين، وتثبيت دعائمه بسلوكهن وحسن التزامهن، ما دمت للحجاب رافضة، إنما

---

[1] – سورة الأحزاب الآية:31.

[2] – رواه مسلم والترمذي وأبو داود.

[3] – سورة الشورى الآية: 16.

[4] – سورة الذريات الآية:23.

نداريك لما نرى عندك من قصور في التفكير واضطراب في الإلتزام، على أنك عضو مريض- في مجتمعنا المسلم- تحتاجين إلى رعاية ومداراة، عسى أن تنهاك صلاتك في يوم من الأيام فتنزعي إلى أمر الله مقتنعة راضية.

وأخيراً إنني أدعو الله لك- أيتها الأخت- أن يلهمك رشدك، وينور بصيرتك، ويسدد خطاك، أرجو إن رأيت في الخطاب شدة أن تقبليه، ولا تأخذك العزة بالإثم فهو لك نصيحة أخوية في الله، لأن الأمر على درجة من الخطورة لم تتصوريها بعد. وما دفعني إلى كتابة هذا المقال إلا قول القائلة منكن: (إنما الأعمال بالنيات) وقد هتكت الستر، وخرقت الشرع، وخالفت الرب.

أرجو لك- أيتها الأخت- فيئة إلى الحق قريباً، وعودة إلى الرشد سريعاً، ولم نيأس من تأثير النصح فيك، فمحافظتك على الصلاة دليل قاطع على رجاحة عقلك، وسلامة تفكيرك.

وفقك الله- أيتها الأخت- للإلتزام بأحكام الشرع، والامتثال لأمر الله، ولا زلت أدعوه أن يحفظك حتى تتخرجي في الجامعة بسلام، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

رسالة الزواج

أختي المسلمة:

قال الله تعالى في كتابه الكريم

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)[1].

إليك – أيتها الأخت المسلمة- إذا كنت قد دخلت الجامعة تريدين العلم مقروناً بالعفة والاستقامة، فلا تنخدعين ولا تفتنين.

فالجامعة قد خلطت بين الجنسين، لم ترع في هذا الاختلاط حرمة لدين أو قداسة لعلم، فأرضي هذا الاختلاط ذوي النفوس الشهوانية- من طلاب وطالبات- جعلوا من الجامعة مسرحاً للمجون والخلاعة في مجاهرة علنية فاضحة في المطارحة وتبادل أحاديث الحب والغرام.

وقد أفاد من هذا الاختلاط- الذي فرض في جامعات بلادنا تقليداً للغرب بانحلاله وإباحيته- ذوو النوايا الشريفة من طلاب من طلاب وطالبات، إذا جمعهم القدر فوفق بين طالب وطالبة على أساس من رضاء الله وكان الزواج الذي فيه الإحصان وغض البصر، وإلا فالنظرات إذا جاءت عفوية كانت أخوية بريئة، والاختلاط إذا كان لابد منه في قاعة الدرس وفي المختبر كان اختلاط الزمالة الدراسية حتى تنتهي الدراسة الجامعية.

وأنت- أيتها الأخت المسلمة- بحكم تمسكك بكليات هذا الدين وجزئياته بعيدة كل البعد عن اختلاط يعر المروءة ويشين الديانة، قام على غير رضاء الله إذا كانت بدايته ستجر لى الوقوع في الفاحشة وفي المعصية وفي الحرام. كذلك فأنت بحكم تمسكك بآداب الإسلام وأخلاقه الفاضلة، لا تجيزين لنفسك اختلاطاً يلصق بك الريبة، ويسوغ فيك الغيبة، مهما كان بريئاً، وكانت النية فيه حسنة، والقصد فيه شريفاً، وقد ينتهي بالزواج، فنيتك الحسنة وقصدك الشريف لا يدفعان عنك ألسنة لا ضابط لها، تعرض سمعتك، وتطعن في استقامتك، وتثلم من دينك، فمن وقع في الشبهات وقع في الحرام.

---

[1] – سورة الروم الآية: 21.

والإسلام دين الفطرة والواقعية- لا كبت فيه ولا رهبانية- إذ نظر إلى الزواج على أنه سنن الله الكونية، جاء تلبية لغريزة فطر الله البشر عليها لاستمرار الحياة على وجه الأرض، فأمر الشباب له حثهم عليه، بتراً للرذيلة ودفعاً للمخادنة، ووقاية من الوقوع في الفاحشة، لا يمنعك أن تختاري خطيبك بنفسك، فتبدي رأيك فيه بالرفض أو الموافقة، إلا أن هذا ينبغي أن لا يخرج عن قواعد الإسلام الأساسية التي أرساها لصون المجتمع من أن يجد أصحاب الأهواء تسويغاً لما يكن في صدورهم من رغبة في هتك الأعراض، وانتهاك الحرمات، يريدون- أحياناً- أن يصبغوها بصبغة الدين، ويطبعوها بطابع الحلّ والشرعية. فالزواج- بالنسبة لك، وبالنسبة لكل مسلم- إما أن يتم على أساس سليم من الحل والشرعية فذاك، وإلا فلا أتمَّه الله ولا أنجحه.

((495))

أنت الآن- أيتها الأخت- طالبة، فينبغي أن يكون القصد من دخولك الجامعة تحصيل العلم والثقافة، فتظهرين عفيفة مستقيمة، وكأن الزواج أمر لا تحفلين به، ما دام الشاب الذي يصلح لك لم يسقه الله – بعد إليك. كذلك لا تتكلفي- أيتها الأخت- الجمال ولا تصطنعيه، فالجمال المصطنع، والزينة المتكلفة، والرائحة العطرة ترزي بالفتاة، وتصرف عنها من لا يخدعه الجمال المصطنع الكاذب، والعرض المثير للفتنة والغرائز، ولعمري إن هذا وحده قادح فادح، صارف عازف. فإذا هيأ الله لك الشاب الذي ترضين خلقه ودينه، ولا يصلح لك- بوصفك مسلمة- إلا من يتحقق فيه حسن الخلق، والإلتزام بالدين، فيرعى عهدك، ويحفظ حقك، وعندئذ عليك أن تفكري جادة في الزواج، فسعادتك مع زوجك وليس مع أهلك وذويك، وليس في إتمام دراستك- ولو كان الزواج لا يمنع من إتمام الدراسة- وقد لاحظت أن بعض الفتيات في الجامعة يرفضن أي عرض للزواج ما دمن يتابعن دراستهن، إني أرى هذا الرفض لا يدل على كمال عقل أو حسن تدبير أو بعد نظر. أو تظنين- أيتها الأخت- أنه في كل يوم يأتيك خاطب، وعندما ترين أن فرصة الزواج أصبحت مواتية اخترت الذي تريدين؟ ألا ترين أن هذه الدراسة التي بدأتها قد أفنت زهرة شبابك فلا تنتهي حتى تميل فترة الشباب.. مما يقلل الرغبة فيك.

أيتها الأخت المسلمة..

فإذا كنت قد استهجنت الاختلاط في الجامعة وما نتج عنه من رذيلة

((496))

وفجور، فاحذري أن تستدرجي فتقيمي علاقات مع شاب لا يؤمن غدره، كما لا تؤمن خيانته، يمنيك، وربما أعجبتك فيه ناحية اعمت بصرك عن كل نقيصة فيه، قد تكون واحدة منها تجعله لا يصلح لك.

أتريدين بذلك اكتشاف إمكانية التفاهم بينك وبينه من أجل مستقبل الحياة المشتركة؟ فكيف إذا كانت تحدثه نفسه أن يقيم معك علاقات آثمة لفترة زمنية؟ وكيف ستستطيعين الإفلات منه إذا اكتشفت- بعد حين- خداعه، وتبينت استحالة الزواج منه. إنها مغامرة بمستقبل حياتك- الشريفة العفيفة الرصينة- وسعادتك، لا تستطيعين- يا أختي- درء أخطارها، وتحمل نتائجها، أنت الخاسرة فيها- أبداً- إذا انقلب وقد قطعت صلتك به، يذكرك لا يخاف مأثماً، ولا يرتقب لائماً، وصار يعترضك لتجربة ثانية وثالثة، كل ساقط وهابط، لما ألفوه عندك من رغبة في المخادنة، وسهولة في الاستدراج، وضعف في الإرادة. إن لم يكن في ذلك حكم عليك بقلة التربية والمروءة، وقدح في الأصل والشرف، ومروق من آداب الإسلام وأخلاقه الفاضلة، وتعاليمه السامية، وعندئذ سيضرب على اسمك- إلى الأبد- عند كل شاب شريف مستقيم.

فإذا تم التفاهم على الزواج في خطوطه العريضة، وهذا ممكن في لقاء واحد لا خلوة فيه، اتركي الأمر- عندئذ يا أخت- لمن يكبرك سناً، ويفوقك خبرة، من أهلك وذويك، يدرسون الأمر بتروّ، ويتعرفون على الخاطب عن كثب، فهناك اعتبارات أساسية يشترط الأهل- من أجل

سعادتك- توفرها في الخاطب، لا تجهلين أكثرها، فكونك على درجة عالية من الثقافة لا يعني أنك قادرة على الكفء الذي يصلح لك، دون رأي الوالدين، ومشورة الأهل وألأقارب. فدورك في فترة الخطوبة ينبغي ألا يزيد على إبداء موافقتك، ثم تحيلين الأمر إلى والديك، فتكشفين بذلك- أولاً- رغبة الخاطب وصدق نيته وتحصلين- ثانياً- على صورة صحيحة واضحة عن الخاطب، لا دخل فيها للعاطفة أو التسرع، ثم هو الأدب والتقدير منك- ثالثاً- الوالدين يؤثران سعادتك وراحتك على نفسيهما. أما إذا سلكت طريقة المصاحبة الممهدة للخطوبة، لتضعي أسرتك تحت الأمر الواقع، رضوا بذلك أم لم يرضوا- فستدفعين الثمن غالياً، وستتجرعين غصص هذه الجرأة والرعونة، مرارة وندماً.. إما أن يتخلى هذا الخاطب عنك، مع ما أضرت معرفتك به بعواطفك ونفسيتك، وما أثارت مصاحبة لك من ريب في عفتك واستقامتك. وإما أن يمسك بزمامك ليفرض شروطه عليك، بعد أن كنتن حرة عفيفة، عزيزة

قادرة على أن تفرضي شروطك عليه، ليقوم عقد لزواج بينك وبينه على أساس من الود والتفاهم بلا قهر ولا إذلال. وإما أن يتخلى عنك والدك، ويحملاك مسؤولية اختيار زوج ما استشيروا فيه، ولا استنصحوا- وعندئذ- لن يطيلا التفكير في هذا الزوج- يصلح لك في أقرب وقت وحين، حفاظاً على الشرف والسمعة أن يلحق بهما السوء والأذى، وسترين- بعدئذ- منهما الوجه الجاف، والصدر الضيق، إن لم يكن الرفض والإعراض عن قبول أية شكوى منك ترفعينها إليهما لى هذا

((498))

الزوج الذي انتزعك من حضانتهما ورعايتهما بلا رغبة منهما ولا موافقة، فأخذك رخيصة يتيمة.

فكوني- أيتها الأخت- واعية متبصرة، وكوني عاقلة حكيمة.

أيتها الأخت المسلمة:

فما دمت طالبة في الجامعة فأنت على شفا جرف هار لا تستطيعين أن تشقي طريقك لتتابعي دراستك- في هذا الوسط المستعر بنار الفتنة- بثبات وأمن وسلامة، ما لم تكوني على بينة وبصيرة وهدى.

فإذا كان بعض أدعياء العلم، والمتطاولين على التربية وعلم النفس والمجتمع يقولون بالتعارف السابق للزواج، وبالمصاحبة والمرافقة والمعاشرة، اعتداء على التربية والفضيلة، فهذا التعارف الذي يعنونه لن يزيل نقائض تكرهينها في خاطبك تكشفينها فيه، وكذلك بالمقابل لن يستطيع هذا الخاطب تقويمك في عيوب يجدها فيك، وسيكشف كل واحد في الآخر- بعد الزواج- عيوباً ونقائض كانت خافية عنهفي لقاءات تعارف ومصاحبة ممهدة- مهما طالت- ما كانت لتتم إلا عن استعداد مسبق وتهيؤ.

ولا يزال زواج الشباب- في مجتمعاتنا المحافظة- على الطريقة التي قررناها يتم، فينعم الجديدان على بعضهما بالسعادة، ويجدان الهناء، برغم تعنت المدعي، ومكابرة المعاند.

ولا تنتظري- أبداً- لكونك طالبة في الجامعة، أن يكون خاطبك يوسف عليه السلام، أو بشراً يجمع صفات الجمال والكمال والقوام،

((499))

فقد رأيت كثيراً من الشباب العاقل يزهد في طالبات الجامعة وبثقافتهن وجمالهن لما يلمسون عندهن من عجب وغرور، إن لم يكن الصارف عنهن- أبداً- خلط الدين بالجاهلية، والعلم بالإباحية.

فإذا جاءك- أيتها الأخت- من ترضين خلقه ودينه- ولن تحظي بمن تلك صفته إلا إذا نقل لهذا الخاطب عنك ما يرضيه في خلقك ودينك- فأسلمي الأمر- عندئذ يا أخت- لمن قال في محكم تنزيله: (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)[1].

فالذي واءم بينك وبين خاطبك في الرتكيب الجسماني، يحقق الوفاق والانسجام بينكما في التفكيرالعقلاني، والتقارب الروحاني.

فهذا الرباط الذي يشد الأزواج بعلاقة قائمة على الألفة والمودة والرحمة، تحكمه قوانين إلهية جعلها الله آية دالة على وجوده وقدرته فقال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)[2].

أسأل الله أن يهيء لك- أيتها الأخت- الزوج الكفء الذي يصلح لك، ممن ترضين خلقه ودينه، فتسعدين معه، وحتى يتحقق ذلك، أدعوه أن يحفظك حتى تتخرجي في الجامعة بسلام، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

---

[1] - سورة الروم (21).

[2] - سورة الروم الآية: 21.

((500))

رسالة التقوى

أختي المسلمة:

قال الله تعالى في كتابه الكريم

(وَاتَّقِينَ اللَّهَ)[1]

إليك- أيتها الأخت المسلمة- إذا كنت قد استشعرت عظمة الخالق، فملأت تقواه قلبك، وفاضت على جوارحك.

فبقدر ما في قلبك من رقابة وتقوى، يظهر ذلك عليك.. في سلوك حسن مستقيم، والتزام ثابت بالأحكام الشرعية، والأوامر الربانية.

لعل شعوراً- أيتها الأخت- يخالجك بأن الإلتزام بالإسلام سيفرض عليك عزلة وانطواء وقيوداً..- عزلة عن الشر، وإنطواء عن الفجور وقيوداً حتى لا يكون في التحلل منها اعتداء على حرية الآخرين.

إذا وقف في فناء الجامعة- في غير ما ضرورة لاحظنا عليك وقوفك هذا، فإنكان وقوفاً فيه الشبهة والتهمة- لا يليق بك- وجهنا إليك على أثره اللوم والعتاب.

إذا رافقت في الطريق إلى الجامعة، أو جالست في قاعة الدرس، أو في المكتبة زميلاً في الدراسة، أخذنا عليك تصرفك وسجلناه عليك، فلا ندعه يمّر إلا لنشير إليه فنحذرك منه بشدة، وننهاك عنه.

((501))

إذا خرجت من المسجد، وقد خلعت عند عتبة جلباب الحياء والفضيلة، ولباس الحشمة والستر، نظرنا إليك شزرًا، ثم غضضنا الطرف احتساباً وحياءً وخجلاً، أو أوقفناك منكرين ناصحين، شفقة عليك من جهة، وقياماً بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة أخرى.

وأنت بين أن تكوني مسلمة مقيدة بقيود الشرع، وبين أن تكوني فتاة طليقة- طلاقة هذا العصر- في اضطراب وتأرجح، يجعلك طوراً تقبلين ما جاء في الشرع- ويوافق الأخلاق

---

[1] - سورة الأحزاب الآية: 55.

والتربيـة والفضـيلة- وطـوراً تسـتثقلين قيـوداً سـتحرمك المناقشـة والمنـاظرة، وتمنعـك مـن المصـاحبة والتعطر والتبرج والزينة.

ويحـق لـك- يا عزيـزتي- أن تقبلـي أو ترفضـي إذا كـان مـا نطالبـك بـه فرضـيات تحتـاج إلى إقامـة الـدليل والبرهـان علـى صـحتها، أو نظـريات تحتمـل الأخـذ والـرد.. ولكـن مـاذا إذا كـان أمـراً ربانياً، أمر به الإله رسوله ﷺ أن يأمرك فقال:

(يَا أَيُّهَـا النَّـبِيُّ قُـلْ لِأَزْوَاجِـكَ وَبَنَاتِـكَ وَنِسَـاءِ الْمُـؤْمِنِينَ يُـدْنِينَ عَلَـيْهِنَّ مِـنْ جَلابِيـبِهِنَّ ذَلِـكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ)[1].

((502))

وماذا إذا قال:

(وَقَـرْنَ فِي بُيُـوتِكُنَّ وَلا تَبَـرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الْجَاهِلِيَّـةِ الْأُولَى وَأَقِمْـنَ الصَّـلاةَ وَآتِـينَ الزَّكَـاةَ وَأَطِعْـنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)[2].

أتـرين- أيتهـا الأخـت- أن للاختيـار هنـا محـلاً، فتأخـذين مـا يوافـق المـزاج والهـوى، وترفضـين مـا لم يرق لك، ولم تألفيه.

لا يا أخت- فهذا قادح في أصل الإيمان.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)[3].

ومـا كنـا لنعـترض أو نسـتوقفك أو نوجـه إليـك الخطـاب تلـو الخطـاب، تارة منكـرين وأخـرى ناصـحين، إلا لاعتقـادنا الإيمـان فيـك، نريـد أن تتركـي فيـك حـرارة الإيمـان- هـذه- الـتي خبـت، وأنت تعيشين في عصر يردي في الحيرة والضلال، وفي الجامعة حيث أبواق الكفر والإلحاد.

وإن هـذا الـدين الـرباني الحنيـف الأصـيل ليُحْـرِجُ مـن حظيرتـه مـن يحـاول تمييـع أحكامـه، فيأخـذ ويترك، ويقبل ويرفض، ويقر وينكر، أو من يؤمن ببعض منه ويكفر ببعض.

فـإذا كنـت- أيتهـا الأخـت- مسـلمة مـلأ الإيمـان قلبـك، فـلا حاجـة بـك بعـد اليـوم أن تصـغي إلى هذه الثرثرة والمشاغبة، في صراع الأفكار والعقائد.

---

[1] - سورة الأحزاب الآية: 59.

[2] - سورة الأحزاب الآية: 33.

[3] - سورة الأحزاب الآية: 36.

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)[1].

ولا تعيري اهتمامك، من ينقل من الشرق والغرب أقوال الأساتيذ والجهابذة، وتقريرات أئمة العلم وشيوخ التربية، فيجعل من ذلك ذريعة للإعتراض على من قال بالحق ودان بالصواب.

وقد استُدرجنا فقفونا أثرهم، مرة قال (فكتور) ومرة قال (غليوم) وأخرى قال (هومر)- اللهم معذرة- لأ ن هذا ينزل برداً وسلاماً على قلوب ضعاف الإيمان، ومرضى العقيدة، فيطمئنون إليه أكثر من طمأنينتهم لكلام رب العالمين وحديث رسوله المعصوم ﷺ.

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)[2].

أما من اعتقد وجود الخالق العظيم وآمن به، فيقف عند شرع الله وحكمه لا يجادل ولا يماري.

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)[3].

وفقك الله- أيتها الأخت- للإلتزام بأحكام الشرع والإذعان لأوامر الله، وملأ الله قلبك بالإيمان والتقوى، وسلام الله عليك ورحمته وبركاته.

---

[1] - سورة الأنعام الآية: 112.

[2] - سورة الزمر الآية: 45.

[3] - سورة النور الآية: 51.

-10-

التبرج والحجاب على ضوء الكتاب والسنة وقول السلف الصالح

للأخت السعودية زهرة الألمعي

((507))

تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

تنطوي النفس البشرية على كثير من الغرائز والميول، ولئن كانت الفطرة البشرية قائمة على توحيد الله وطاعته فإن الغرائز الجامعة والميول الشاردة تجنح بصاحبها إلى مجافاة الحق وتحمله على الإنحراف والزيغ، وقد تناولت الشريعة الإسلامية غرائز الإنسان وعالجتها علاجاً حكيماً في الإستجابة المشروعة التي تحقق مطالبها في عفة وطهر، وتحفظ لها توازنها بالمتعة الحلال، وفي مقدمة هذه الغرائز غريزة الجنس، حيث شرع الإسلام ما يلجم نزواتها، ويهذب دوافعها، ويوجهها توجيهاً رشيداً يصون كرامتها؛ ويبقي على النوع الإنساني في ظل أدب الإسلام وسمو شريعته.

تنشأ نابتة الأمة الإسلامية في كنف البيت المسلم الذي تسوده روح المودة والرحمة: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)[1]، تتكافأ فيه الحقوق والواجبات الزوجية بما فيه حق العشرة، وحنان

((508))

الأبوة والأمومة، وتبتسم في أحضانه الطفولة الطاهرة ابتسامتها للحياة الفاضلة الكريمة، وتجد الفطرة السليمة في رحابه غذاءها الذي ينتمي فيها عواطف الخير ويربيها على البر والتقوى.

وقد ورثت الإنسانية في عصور التاريخ المتتابعة شرف العرض وحرصت على صيانته، وذادت عن حياضه، وجاء الإسلام بشريعته الغراء، فأكد فيما أكده ضرورة الحفاظ على هذا الشرف، وشرع لذلك الحمى الذي يصونه، في آداب الاستئذان، ومشروعية الحجاب، حتى يكون النسل البشري نظيفاً طاهراً.

وحافظ المجتمع الإسلامي على هذا الحمى، حفاظه على الدين الذي ينتمي إليه، وظل متميزاً بالعفاف والطهر حتى عدت عليه العوادي من مذاهب الغرب الوافدة، وأفكاره المسمومة، واتخذ أعداء الإسلام من الغربيين والمستغربين قضية المرأة مدخلاً لهم يلجون منه إلى حسن الإسلام المنيع، وأشاعوا قالة السوء، في ألفاظ لها بريقها، تحمل شعار: حق المرأة في

---

[1] – سورة الروم الآية: 21.

الحياة، أو حقها في الحرية، يهدفون بذلك إلى بث روح الإباحية والتحلل، وانتهاك حرمات الفضيلة، والاستهانة بشرف العرض وكرامته، وإثارة غريزة الجنس، وإشاعة الفاحشة، وإنهيار كيان المجتمع الإسلامي بإنهيار أخلاقه، وتطاير شرر شهواته.

وقد قيض الله لهذا الغزو ونظائره من كشف عن خبيئته السيئة، وندد بأباطيله وادعاءاته الكاذبة، ورد مفترياته على الإسلام وأهله، وأقام من شواهد الحال وواقع المجتمعات الغربية نفسها ما يدفع تلك المزاعم، ويقيم عليها الحجة.

وهذا البحث الذي بين يدي القارئ أنموذج تقدمه إحدى فتياتنا الأخت (زهرة الألمعي) تناولت فيه حجاب المرأة المسلمة ودعمت قولها بالدليل من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وأقوال سلف هذه الأمة وعلمائهاالموثوقين، باعث من غيرتها الإسلامية، وإدراكها للشرك الذي نصب لأمتنا المجيدة، ووقعت في حبائله معظم ديارها، وهو كلمة حق تزكيها روح فتاة مسلمة، حفاظاً على بلدنا الحبيب، حتى لا يقع فيما وقع فيه الآخرون. وأسأل الله أن ينفع به، وأن يجد قلوباً واعية من رجالنا ونسائنا وفتياننا وفتياتنا، إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مناع القطان

((510))

مقدمة

الحمد لله الذي مَنَّ على من شاء بالحماية والصيانة، وقضى على من شاء بالسقوط والخذلان.

أحمده أن جعل الغيرة في قلوب أهل الإيمان، فقاموا على نسائهم أحسن قيام، وحنبوهن أسباب الإفتتان، وجعل المهانة في أراذل الإنسان، فأهملوا أمر نسائهم وأطلقوا لهن العنان، وتركوهن يمرحن ويسرحن حيث شئن.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي يملي لأهل الظلم والعدوان، ثم ينتقم ممن بارزه بالعصيان، فويل للكاسيات العاريات من عقاب الملك الديان، وويل لأوليائهن الراضين لهن بالهوان.

وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله الذي بيَّن للناس غاية البيان، وحذَّروهم من حبائل الشيطان، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان وسلَّم تسلمياً كثيراً.

((511))

وبعد، فإن الدين الإسلامي يلزم أتباعه باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وليس لهم الخيرة في أي شيء منها، قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً)[1].

وبناء على ذلك، فكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وأقوال السلف الصالح تدعو إلى ما فيه عزتهم وكرامتهم وصلاحهم، وصيانة أنفسهم ومجتمعهم.

والإسلام يأمر النساء بالاحتجاب عن الرجال الأجانب ذلك لأن فيهم البار والفاجر، وفيهم الطاهر والعاهر، والحجاب أساس العفة والصيانة، والشرف والأمانة، وعليه بني حياء المرأة، وغيرة الرجل، ويحفظ النساء من تعرض الفساق لهن بالأذى، والكلام القبيح، والنظر السيء وغير ذلك من المساوئ والمفاسد.

لذا حرّم الإسلام التبرج، وأمر بالحجاب، وحرّم النظر إلى المرأة الأجنبية، والخلوة بها والإختلاط.

---

[1] – سورة الأحزاب الآية: 36.

وسأتناول هذه الأمور على ضوء الكتاب والسنة وقول السلف الصالح فيها، مستعينة بما تحت يدي أيضاً من الكتب الحديثة تلبية لرغبة النادي الأدبي في ((أبها)) في كتابة المحاضرة التي ألقيت

((512))

مساء يوم الاثنين الموافق 20-10-1402هـ بمدينة أبها بعنوان: ((التبرج والحجاب على ضوء الكتاب والسنة وقول السلف الصالح)) حتى تخرج بشكل كتاب يقرأ على نطاق واسع.

وهناك سؤال يردده الأغلبية من الناس: هل المرأة السعودية متحجبة أم لا؟ هذا السؤال يتبادر إلى ذهني كلما رأيت إمرأة تلف عباءتها الشفافة القصيرة حول جسمها وقد حسرتها عن ذراعيها وعجيزتها لتظهر زينتها ومفاتن وحجم جسمها، وسدلت على وجهها نقاباً يظهر زينة وجهها وتركت مسافة بين العباءة والنقاب ليبدو جمال شعرها ونحرها بما فيه من زينة، إلى جانب ما قد سكبته من العطر الذي يُشم من مسافة بعيدة.

بالإضافة إلى ذلك فإن تبرج المرأة أمام الأقارب غير المحارم وغيرهم منتشر ومتساهل فيه إلى درجة أنه ليس هناك فرق بين الأقارب غير المحارم وغيرهم والمحارم، ولا أدري هل هذا جهل أم تجاهل؟.

فلذلك كله اخترت موضوع ((التبرج والحجاب)) عسى أن يلتمس قلباً مؤمناً فيزيده إيماناً، أو يصادف نفساً أمارة فيكون عليها سلطاناً، أو حائرة فيكون لها هادياً.

((513))

وقد بحثت فيه بما قدرني الله تعالى عليه من جمع المعلومات، ولست مبتدعة فيما كتبت وسطرت، وإنما نقلت ووضحت وشرحت مستعينة بما وقع تحت يدي من الكتب، وربطته بالواقع الملموس في هذا العصر الذي يدس فيه أعداؤنا السم. فمنهم من ينادي بالسماح للمرأة بالعمل إلى جانب الرجل أو السماح لها بقيادة السيارة، أو ممارسة الفن والتمثيل إلى غير ذلك مما يدعو إلى التبرج والسفور. نسأل الله العافية.

زهرة أحمد الألمعي

((514))

الباب الأول:

تعريف التبرج وحكمه

لغة: الظهور والارتفاع. يقال ((بَرَجَ بُرُوجاً: ارتفع وظهر)) و ((تبرجت المرأة: أظهرت زينتها ومحاسنها لغير زوجها))[1].

أما تعريفه في الشرع فلا يخرج عن معناه في اللغة وهو: ((أن تظهر المرأة للرجال الأجانب- غير محارمها- ما يوجب عليها الشرع أن تستره من زينتها ومحاسنها وبدنها))[2].

والرجال الأجانب تشمل الأقارب غير المحارم مثل: ابن العم وابن الخال وأبنائهما، والأرحام كزوج الأُخت وأبيه وأخيه وعمه.. وكأب زوجة الأخ وأخيها وعمها وخالها وأبنائها.. والحمو كأخ وعمه وابن عمه..

ومن الرجال الأجانب غير الأقارب بصفة عامة هؤلاء الذين نتعامل مثل: السائق، الخادم، الطبيب، الخياط، الطباخ.. بصفة خاصة.

((515))

وقيل في تفسير التبرج هو أن تستعمل المرأة الطلاء والمساحيق والأصبغة وما يعرف بوسائل الزينة لإقناع الذين يرونها بأنها جميلة دونما نظر لهؤلاء الذين يرونها إن كانوا محارم أو غير ذلك.. وهو محرم، والأمر بالحجاب يعتبر نهياً عن التبرج[3].

حكمة:

التبرج من الذنوب الكبيرة ولا يشك في تحريمه أي مسلم عرف شيئاً من الإسلام لقوله تعالى مخاطباً نساء النبي ﷺ: (وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)[4].

---

[1] – المعجم الوسيط، الطبعة الثانية جـ1، ص46، مادة برج، انظر معه القاموس المحيط للفيروز أبادي جـ1، ص178 فصل الباء، باب الجيم.

[2] – خطر التبرج والاختلاط، لعبد الباقي رمضون، الطبعة الأولى، ص61.

[3] – نفس المرجع السابق.

[4] – سورة الأحزاب الآية: 33.

فقد نهى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة نساء النبي ﷺ عن التبرج وهن أمهات المؤمنين التائبات العابدات.. بصفة خاصة والمسلمات بصفة عامة؛ والنهي يفيد التحريم كما جاء في كتب أصول الفقه.

ولقد بالغ الإسلام في التحذير من التبرج وشدد فييه إلى درجة أنه قرنه بالشرك، والزنا والسرقة وغيرها من المحرمات التي تعد من الكبائر، وذلك حين بايع النبي ﷺ النساء على أن لا يفعلن ذلك قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ((جاءت أميمة بنت رقيقة إلى

((516))

رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال: ((أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحي، ولا تتبرجي تبرج الجاهلية الأولى))[1] رواه أحمد بسند حسن، وقال الهيثمي في المجمع (6-37): رواه الطبراني ورجاله ثقات[2].

---

[1] – مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المكتب الإسلامي، ودار صادر للطباعة والنشر، جـ2، ص196.

[2] – حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة، مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، الطبعة الخامسة، ص55.

((517))

الباب الثاني:

غض البصر عمَّا حرم الله النظر إليه

حفظاً للمجتمع من ضرر التبرج، وصيانة لجسم المرأة من التهتك، ولحيائها وعفافها من الفساد، وإبعاداً لنفوس الرجال من الإغراء فالتدهور، نهي الله العلي الحكيم النساء عن التبرج الذي هو سبب إغواء الرجال وإفتتانهم، وهو سبحانه الخبير بضعف الإنسان وطيش الشباب[1] فرسم لهم طريق الوقاية من الوقوع في المعصية فقال الله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)[2].

إن أول ما أمر الله به الرجال والنساء في هذه الآيات الكريمة هو غض البصر، أي: خفضه أو صرفه يمنه أو يسره عما حرم الله النظر إليه، وهو النظر إلى النساء الأجنبيات أو الرجال الأجانب، لأن التلذذ برؤية جمال الأجنبيات وزينتهن هو مبعث الفتنة للرجال، كما أن الطموح بالبصر إلى الأجانب غير المحارم من الرجال مصدر

((518))

الفتنة للنساء. ومن هنا يصدر الفساد، لذلك سُدَّ بابه بالأمر بغض البصر[3] فقال الله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ....) إلخ- الآية.

((أي قل يا مُحَمَّد لأتباعك المؤمنين يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات من غير المحارم، فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة، ورب شهوة أورثت حزناً طويلاً.

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر))[4] (وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) أي يصونوا فروجهم عن الزنى وعن الإبداء والكشف. (ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ) أي ذلك الغض والخفض أطهر للقلوب، وأتقى للدين، وأحفظ من الوقوع في الفجور، (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

---

[1] – التبرج، لنعمت صدقي حرم الدكتور مُحَمَّد رضا، دار الاعتصام، ص19.

[2] – سورة النور الآيتان: 30-31.

[3] – الحجاب، لأبي الأعلى المودودي رحمه الله، مؤسسة الرسالة، ص282 بتصرف.

[4] – صفوة التفاسير، القسم العاشر، تأليف مُحَمَّد علي الصابوني الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة، جـ10، ص16، دار اللقرآن الكريم – بيروت.

يَصْنَعُونَ) أي هو الله تعالى رقيب عليهم، مطلع على أعمالهم، لاتخفى عليه خافية من أحوالهم، فعليهم أن يتقوا الله في السر والعلن، قال الفخر في التفسير الكبير[1]:

((519))

فإن قيل: لِمَ قدم غض الأبصار على حفظ الفروج؟ قلنا: لأن النظر يريد الزنى، ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يحترس منه. (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) أي قل أيضاً للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، ويحفظن فروجهم عن الزنى وعن كشف العورات[2].

قال أبو الأعلى المودودي:

((على أنه ظاهر أنه ما دام الإنسان فاتحاً عينيه في هذه الدنيا، فلابد أن يقع بصره على كل ما حوله من الأشياء والأشخاص، وليس في الإمكان أن لا يرى الرجل امرأة أبداً، ولا ترى المرأة رجلاً بحال، فقول الشارع عليه الصلاة والسلام في مثل هذا النظر: أنه إن وقع فجأة، فلا إثم فيه، وإنما المحظور أن يعيد المرء نظره حيث يستأنس الزينة والجمال ويجعله مرمى عينيه))[3].

أي أنه يستأنس بما حرم الله النظر إليه، لذلك شدد الله الوعيد فيه وحذر من خائنة الأعين وإن أبدت أمانة، ونهى الرسول ﷺ عن إدامة النظر وتكراره.

((520))

جاء في تفسير ابن كثير في قوله تعالى: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)[4]. يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء

---

[1] – تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، للإ مام مُحَمَّد الرازي فخر الدين، المجلد 12، جـ23 ص206، طبعة دار الفكر.

[2] – صفوة التفاسير، جـ10، ص16.

[3] – الحجاب، لأبي الأعلى المودودي رحمه الله، ص283.

[4] – سورة غافر الآية: 19.

أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ودَّ أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم. أما قوله تعالى: (وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)، فقال ابن عباس رضي الله عنهما فيها أيضاً: أي يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا[1].

ومن الأحاديث التي تنهى عن إدامة النظر وتكراره إلى ما حرم الله

((521))

النظر إليه ما روي عن جرير ﷺ قال: ((سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: اصرف بصرك))[2]، اللفظ لأبي داود، وفي رواية أخرى، أمرني بصرف بصري.

قال النووي[3]: الفجأة هي: البغتة، ومعنى نظر الفجأة، أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرف في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم ، فإنه ﷺ أمره بأن يصرف بصره مع قوله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ..)[4].

وما روي عن بريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: ((ياعلي لا تُتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة))[5].

وعن النبي ﷺ قال: ((من نظر إلى محاسن امرأة أجنبية عن شهوة صب في عينيه الآنك يوم القيامة))[6] والآنك الرصاص المذاب في النار.

((522))

---

[1] – تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفي سنة 774هـ، جـ4، ص75، طبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

[2] – صحيح مسلم بشرح النووي جـ4 ص861، سنن أبي داود جـ2 ص246، سنن الترمذي جـ4 ص191 الطبعة الثالثة، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

[3] – محي اللدين أبو زكريا يحي بن شرف النووي، اللمرجع بهامش صحيح مسلم بشرح النووي جـ4 ص861.

[4] – سورة النور الآية: 30.

[5] – مسند الإمام أحمد، جـ5 ص353، 357- سنن الترمذي جـ4 ص191 الطبعة الثالثة طبعة دار الفكر وقال: هذا حديث حسن غريب – سنن أبي داود جـ2 ص2436.

[6] – الحجاب لأبي الأعلى المودودي ص283.

قال الشيخ حمود بن عبد الله التويجري: وقد تضاءلت خائنة الأعين في زماننا، ولم تبق عند الذين تستتر نساؤهم من المسلمين، أما الذين فتنوا بتقليد طوائف الإفرنج والتزيي بزيهم، فقد عدمت فيهم خائنة الأعين وحل محلها تسريح النظر في محاسن النساء الأجنبيات، والتمتع بالنظر إليهن، وهؤلاء قد نبذوا أمر الله تعالى وأمر الرسول ﷺ بغض الأبصار وراء ظهورهم، واستحلوا زنا العينين والأذنين واللسان طاعة للشيطان واتباعاً لخطواته[1].

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمم مما قال أبوهريرة ﷺ عن النبي ﷺ أن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه[2]، اللفظ للبخاري وقد روي بروايات أخرى.

((523))

وكثيراً ما يحسَّن الشيطان بعض النساء للناظر إليهن ويفتنه بهن ويتحين الفرص لإضلاله وإيقاعه في الفواحش والمنكرات والمعاصي، وقد يكون المنظور إليهن في الحقيقة غير حسان.

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)[3].

وقد روي عن مجاهد أنه قال: ((إذا أقبلت المرأة جلس إبليس على رأسها، فزينها لمن ينظر، وإذا أدبرت جلس على عجيزتها فزينها لمن ينظر))[4] أي من حيث الفتنة والإغراء.

وفي رواية عن ابن مسعود ﷺ منها قول النبي ﷺ: ((إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها[5] الشيطان..))[6].

---

[1] – الصارم المشهور على أهل التبرج والسفور، وفيه الرد على كتاب الحجاب للألباني، تأليف الشيخ حمود بن عبد الله التويجري، الطبعة الثانية ص21، 22.

[2] – صحيح البخاري بشرح الكرماني، كتاب الاستئذان باب زنى الجوارح دون الفرج جـ22 ص84، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي– بيروت. صحيح مسلم بشرح النووي جـ5 ص511، باب قدر على بني آدم حظه من الزنى وغيره. سنن أبي داود جـ2 ص246، 247.

[3] – سورة النور الآية: 21.

[4] – أنظر الصارم المشهور على أهل التبرج والسفور، ص46-47.

[5] – أي فضلها وزينها في نفسها فتتباهى بجمالها فتفتن به من ينظر إليها.

[6] – سنن الترمذي جـ2 ص319، طبعة دار الفكر.

فلذا ينبغي للرجل أن لا ينظر إليها، ولا إلى ثيابها حفظاً لخاطره وقلبه من وسوسة الشيطان وتزيينه إياها له.

وأبلغ من هذا قول النبي ﷺ من حديث رواه جابر ﷺ: ((إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر

((524))

أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه))[1] اللفظ لمسلم.

ومن هنا نرى أن الآيات والأحاديث قد تضافرت على تحذير المؤمنين والمؤمنات مما يثير شهوتهم وشهواتهن فلم تشدد في التحذير من الزنى فحسب، بل مما يدعو إلى الزنى ويقرب إليه فقال الله تعالى: (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)[2].

يريد سبحانه وتعالى ذلك أن اجتناب عمل الفاحشة ليس هو كل ماا يجب على المؤمن والمؤمنة، بل ينبغي أن يبتعد كل منهما عما يقوده إلى الزنى من متعة العين ولذة البصر أو الأذن أو أي حاسة من الحواس الأخرى.

وإنه والله لأمر حكيم، لأن من يقترب من التيار الجارف لابد غارق فيه.

وإذا اتفقنا على أن الزنى فاحشة لم تختلف في منع ما يؤدي إليه من تقاليد التبرج والانطلاق.

قال رسول الله ﷺ: ((العين تزنى وزناها النظر)) وقد سبق تخريجه.

((525))

وفي المسند عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة ثم يغض بصره إلا يحدث الله له عبادة يجد حلاوتها))[3].

نفهم من ذلك أن تمتع النظر ضرب من الزنى، وجزء عظيم من تمتع الرجل بالمرأة، ولذة النظر متعة عظيمة للإنسان، فكم أنفق الناس من النفقات الباهظة لتتمتع أنظارهم، فزينوا

---

[1] – صحيح مسلم بشرح النووي جـ3 ص 550 طبعة الشعب – سنن أبي داود كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر جـ2 ص246، وقد روي برواية مطولة– سنن الترمذي، باب ما جاء في الرجل يرى المرأة تعجبه جـ2 ص313، 314، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وقد رواه برواية مطولة.

[2] – سورة الاسراء الآية: 32.

[3] – مسند الإمام أحمد جـ5 ص264.

البيوت، وأثثوا ديارهم بأفخر الأثاث، وأنشؤوا الحدائق ونسقوها بالأشجار والأزهار مما يسر العين ويمتع البصر، فلذة العين تشترك في كل لذة، فإذا كانت العين تلذذ بمنظر المأكل والمشرب والفاكهة الشهية أكثر مما يتلذذ الفم بطعمها، فكيف يتلذذها في التهام الجمال، وذوات الحسن والدلال، ينبغي للمسلم التقي أن يلجم عينيه بلجام الحياء والعفاف حتى ينجو من الزلل، والمرأة المتبرجة شرر الزناد، قال ﷺ من حديث أسامة بن زيد ﷺ: ((ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء))[1] اللفظ لمسلم، لأن كثيراً ممن يرونها في سنن الطيش ورعونة الشباب، فيتهافتون عليها تهافت الذباب ، فالويل لها من شيطان رجيم يأخذ الرجال إلى نار

((526))

الجحيم. قال ﷺ من حديث أبي سعيد ﷺ: ((ما من صباح إلا وملكان يناديان: ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال))[2].

وعن أبي سعيد الخدري عن ا لنبي ﷺ قال: ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء))[3] اللفظ لمسلم.

فلو احتشمت المرأة واجتنبت التبرج والخلاعة في كلامها ومشيتها لما كانت وسيلة لانحراف الرجال وبذلك انتشار الفساد، ومن المحال أن تصان الأعراض وكرامة الأسر إلا بالاحتشام، والغض من البصر، فكم من نظرة جرت الخراب والشقاء، وفرقت بين الأزواج، وأشقت الأبناء، وأصل البلاء كله نظرة كما قال الشاعر أحمد شوقي:

نظـــــرة فابتسامـــــة فســـــلام فكـــــلام فموعـــــد فلقـــــاء

وخلاصة مبحث النظر إلى المرأة الأجنبية والرجل الأجنبي قال النووي رحمة الله كما ذكره الشيخ حمود بن عبد الله

((527))

---

[1] – صحيح مسلم كتاب الرّقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء،جـ5 ص582 – سنن ابن ماجه، كتاب الفتنة، باب فتنة النساء جـ2 ص1325.

[2] – سنن ابن ماجه جـ2 ص1325، وقال في الزوائد: في إسناده خارجة بن مصعب وهو ضعيف.

[3] – صحيح مسلم جـ2 ص582، 583 – سنن ابن ماجه جـ2 ص1325.

التـويجري في كتابـه (الصـارم المشـهور عـل أهـل التـبرج والسـفور): ((أمـا نظـر الرجـل إلى المـرأة فحـرام في كـل شـيء مـن بـدنها، فكـذلك يحـرم عليهـا النظـر إلى كـل شـيء مـن بدنـه، سـواء أكـان نظره أو نظرها بشهوة أم بغيرها))[1].

وقـال أيضـاً قـال شـيخ الإسـلام أبـو العبـاس ابـن تيميـة رحمـه الله: ((ويحـرم النظـر بشـهوة إلى النساء والمردان ومن استحله كفر إجماعاً))[2].

[1] - (1،2) الصارم المشهور على أهل التبرج والسفور، ص35، ص41.

((528))

الباب الثالث:

شروط الحجاب

أعزائي القراء: بالتأمل إلى آيات غض البصر الفرج، والأحاديث التي سبق أن سقتها عن تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية، نجد أن الرجال قد أمروا بأن يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا من الفواحش أخلاقهم. ولكن النساء قد أمرن- كالرجال- بهذين الأمرين، وأوصين بعد ذلك بأمور مزيدة كما وردت في آيات غض البصر وهي: النهي عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها عندما قال الله تعالى: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)[1]. ثم الأمر بستر الزينة، قال الله تعالى: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)[2] ثم بيَّن الذين تظهر عليهم زينتها فقال الله تعالى: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ..)[3]- الآية.

ثم النهي عن لفت النظر بأي حركة عندما قال: (وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)[4] ثم طلب التوبة من الرجال والنساء جميعاً فقال الله تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً)[5]

((529))

وغير ذلك من الأمور التي سنستعرضها بعد قليل. ولنرجع في هذا المقام أيضاً إلى أحاديث النبي ﷺ وصحابته لننظر كيف نفذوا هذه الأحكام في المجتمع الإسلامي.

وهذا مما يدل صريحة على انه لا يكفي لصيانة أخلاقهن العناية بغض البصر، وحفظ الفرج بل لابد من هذه الأمور.

من هذا نجد أن الأدلة من الكتاب والسُّنَّة وأقوال السلف الصالح قد تضافرت على تحريم التبرج وأثبتت مشروعية الحجاب أي التستر للنساء في جميع أبدانهن إذا كن يحضره غير المحارم من الرجال، مبينة الشروط الواجب توافرها في الحجاب الإسلامي.

وهي كما ذكرها العلماءُ في كتب الفقه، وذكرها الألباني في كتاب حجاب المرأة المسلمة كما يأتي:

1 - استيعاب جميع البدن.

2 - أن يكون صفيقاً لا يشف.

(1، 2، 3، 4، 5) سورة النور الآية: 31.

3 - أن يكون زينة في نفسه.

4 - أن يكون فضفاضاً غير ضيق.

5 - أن لا يكون مبخراً مطيباً.

((530))

6- أن لا يشبه لباس الرجل.

7- أن لا يشبه لباس الكافرات.

8- أن لا يكون لباس شهرة.

وسأتناول هذه الشروط بما صح من الأقوال والمتفق عليه، والمأخوذ به عند علمائنا في هذا العصر الذي كثرت فيه الفتن، وذلك لخروج المرأة سافرة ومتبرجة، وأسأل الله التوفيق. وسأقتصر في الكتابة على الشروط الستة الأول فقط وهي كما يأتي:

أولاً: استيعاب جميع البدن:

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج أمرهن أيضاً بعدم إبداء الزينة على غير المحارم فقال الله تعالى: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا). قال أبوالأعلى المودودي: وكلمة الزينة تطلق على أشياء ثلاثة:

1 - الملابس الجميلة

2 - الحُلِيّ

3 - ما تتزين به النساء عامة في رؤوسهن ووجوهن وغيرها من أعضاء أجسامهن، مما يعبر في هذا الزمان بكلمة التجميل.

((531))

فهذه الأشياء الثلاثة هي الزينة التي أمر النساء بعدم إبدائها للرجال إلا لمن استثنى الله منهم[1].

أما قوله تعالى: (إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) فقد اختلف علماء التفسير فيها وأرجحه والله أعلم ما قاله لالشيخ ابن باز في رسالة تبحث في مسائل الحجاب والسفور[1] قال: قال ابن مسعود

---

[1] - كتاب تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي ص157.

ﷺ: ((ماظهر منها)) يعني بذلك ما ظهر من اللباس فإن ذلك معفو ومراده بذلك رضي الله عنه الملابس التي ليس فيهاتبرج وفتنة. وأما ما يروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر ((ما ظهر منها)) بالوجه والكفين فهو محمول على حالة النساء قبل نزول آية الحجاب، وأما بعد ذلك فقد أوجب الله عليهن ستر الجميع، وهذا ما سيأتي في الحديث عن آية سورة الأحزاب.

ومعنى الآية: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) أي لا يظهرن محاسن ملابسهن، وحليهن، ووجوههن وأيديهن، وسائر أعضاء أجسادهن على غير المحارم واستثني من هذا الحكم العام ماكان ظاهراً لا يمكن إخفاؤه، أو ظهر من غير قصد منهن، فلا يؤاخذن عليه إذا بادرن إلى ستره، قال ابن كثير في تفسيره: ((أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه؛ قال ابن مسعود: كالرداء والثياب يعني ماكان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه))[2].

وبعد أن نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنات عن إبداء الزينة وإظهارها أمام غير المحارم، أمر بالغطاء وبسترها وإخفائها من الرجال غير اللمحارم فقال الله تعالى: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)[3].

فالمراد بضرب النساء بخمرهن على جيوبهن أن يغطين رؤوسهن وأعناقهن ونحورهن بكل ما فيها من زينة وحلي، على خلاف ماكانت عليه حالة النساء في الجاهلية.

يقول العلامة ابن كثير في تفسيره هذه الآية: ((لقدكانت المرأة منهن- أي نساء الجاهلية- تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيءٌ، وربما أظهرت عنقها، وذوائب شعرها وأقرطة

آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن))[1].

---

[1] – رسالة تبحث في مسائل الحجاب والسفور للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ص9، 10.

[2] – تفسير ابن كثير جـ3 ص283.

[3] – وليضربن: عبر القرآن بكلمة وليضربن، لأن الضرب أبلغ في التستر، بخمرهن: جمع خمار: وهو القناع- الشيله- الكثيف الذي يغطي به رأس المرأة ليواري ما تحته من الزينة والبشرة والشعر. جيوبهن: جمع جيب: وهو الصدر؛ انظر تفسير ابن كثير السابق، وصفوة التفاسير، جـ10، ص17.

ويقول العلامة الزمخشري في تفسيره عن نساء الجاهلية: ((كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن أن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها))[2].

ومن هنا نرى كما ذكر الشيخ التويجري أن المرأة مأمورة بستر ما عليهن من الحلي عن نظر الرجال غير المحارم من الأقرباء وغيرهم من الأجانب، ومأمورة أيضاً بستر وجهها الذي هو مجمع محاسنها وسبب الافتتان بها، ولهذا عقب الله تبارك وتعالى نهي النساء عن إبداء زينتهن بالأمر لهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ليسترن وجوههن ورقابهن وصدورهن، فجمعت الآية الكريمة بين ستر الزينتين كلتيهما، ففي الجملة الأولى من الآية ستر الزينة المجلوبة- أي المكتسبة من الحلي وغيرها- وفي الجملة الثانية ستر الزينة الخلقية- الوجه والصدر، والنحر والشعر..الخ- والله أعلم[3].

((534))

وبعد نزول هذه الآيات في عصر الرسول ﷺ راج لبس الخمار بين النساء المؤمنات وما كان الغرض منه أن يجعل كحلقة في العنق، بل كان المقصود منه أن يلبس ويغطي الرأس والصدر والنحر[4].

تقول السيدة عائشة ﵂، كما جاء في تفسير ابن كثير: ((إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)، انقلب رجالهن إليهن يتلون ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إللى مرطها المرحل[5] فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات[6] كأن على رؤوسهن الغربان))[1] أي من شدة السواد.

---

[1] – تفسير ابن كثير، جـ3 ص284.

[2] – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ((467-538))، جـ3 ص62، دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت؛ لبنان.

[3] – الصارم المشهور على أهل التبرج والسفور، ص58، بتصرف.

[4] – تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي، ص159.

[5] – المرط: هو كساء من الصوف ونحوه من الأشياء الكثيفة. المرحَّل: هو الذي نقش فيه تصاوير الرحال. والرحال جمع رحل وهو ما يوضع على ظهر البعير عند الركوب عليه. انظر الصارم المشهور على أهل التبرج والسفور ص60.

[6] – معتجرات، الاعتجار: هو لفُّ الخمار على الرأس مع تغطية الوجه.

((535))

وعن عائشة ﵂ أيضاً قالت: ((يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ((وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) شققن مروطهن فاختمرن بها))[2].

وفي رواية أخرى: ((أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي واختمرن بها))[3].

وفي رواية عن أبي داود: ((شققن أكثف، قال ابن صالح: أكثف مروطهن فاختمرن بها))[4].

ومن الحاديث الدالة على وجوب التستر وتغطية الوجه، ما روته السيدة عائشة ﵂ قالت: ((كان الركبان يمرون ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات، فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزنا كشفناه))[5] – اللفظ لأبي داود.

هكذا بادرت الصحابيات الجليلات العفيفات بالتحجب عن الرجال الأجاانب حتى من صفوة الخلق سيدنا مُحَمَّد عليه أفضل

((536))

والسلام، أصبحن خلفه معتجرات بخمرهن، امتثالاً لأمر الله ورسوله، فمن الأولى تحجب نساء اليوم صيانة لهن وحفظاًلكرامتهن وعفافهن، من رجال هذا العصر الذي عمت فيه البلوى، وانتشرت الفتن، وابتعد الناس عن تطبيق أوامر الله ورسوله، وماتت الغيرة فيهم على محارم الله فلم يعد فيهم من ينكر المنكر- إلا من هدى الله- أو ينصح أهله ويرشدهم بل يسهل لهن سبل التبرج والسفور.

أين هؤلاء من الصحابة الذين يسارعون بتلاوة كتاب الله على نسائهم وأقربائهن من أجل تطبيق أوامر القرآن، وكانوا يحفظون الأوامر، والنواهي، والزواجر ليطبقوها قبل حفظ الآيات والأحاديث.

---

[1] – تفسير ابن كثير جـ3 ص284.

[2] – صحيح البخاري بشرح الكرماني جـ18 ص 26-27. كتاب التفسير سورة النور، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ، تأليف الشيخ منصور على ناصف، الطبعة الثالثة جـ3 ص168.

[3] – المرجع السابق.

[4] – سنن أبي داود داود جـ4 ص61.

[5] – مسند الإمام أحمد جـ6 ص30، سنن أبي داود جـ2 ص167-، سنن ابن ماجه جـ2 ص979، بنفس المعنى ولكن برواية أخرى.

قال الشيخ ابن باز: ((فاتقوا أيها المسلمون وخذوا على أيدي نسائكم، وامنعوهن مما حرم الله عليهن من السفور والتبرج، وإظهار المحاسن، والتشبه بأعداء الله من اليهود والنصارى وسائر الكفرة، ومن تشبه بهم، واعلموا أن السكوت عنهن مشاركة لهن في الإثم، وتعرض لغضب الله وعموم عافانا الله وإياكم))[1].

((537))

تبدي لهم زينتها، فقال الله تعالى: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ)[2].

ثم جاءت السنة تبين أن الأقارب الذين يحرم عليهم نكاح المرأة حكمهم حكم الأقارب المحارم الذين ذكرتهم الآية، كالعم، والخال، وزوج البنت، والأقارب من الرضاعة. فإذا أمنت الفتنة منهم فلها إظهار الزينة ومواطنها كالرأس والأطراف. أما ما بين السرة والركبة فيحرم إ ظهارها أمامهم جميعاً كما ذكر في كتب الفقه جميعها.

أما الأقارب المحارم الذين سكت عنهم القرآن وبينتهم السُنَّة فما روي عن السيدة عائشة ﵂: (أن أفلح أخا أبي القعيس جاء يستأذن عليها وهو عمها من الرضاعة بعد أن أنزل الحجاب، قالت: فأبيت أن آذن له، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته بالذي صنعت فأمرني أن آذان له عليَّ))[3]- اللفظ لمسلم.

((538))

ويستفاد من هذا الحديث أن النبي ﷺ ما أذن لعائشة ﵂ أن تحتجب من عمها من الرضاعة، فمن الأولى عمها وكذلك خالها من النسب.

والمحارم الذين ذكرتهم الآية الكريمة والأحاديث الشريفة هم:

---

[1] - حكم السفور والحجاب، ونكاح الشغار للشيخ عبد العزيز بن باز الطبعة الرابعة ص22.

[2] - سورة النور الآية: 31.

[3] - صحيح البخاري بشرح الكرماني جـ19 ص170، برواية أخرى بنفس المعنى، صحييح مسلم بشرح النووي جـ2 ص622، سنن أبي داود جـ2 ص222، سنن الترمذي جـ2 ص208، سنن ابن ماجة كتاب النكاح، باب لبن الفحل جـ1 ص627.

1 -الآباء: ويشمل الآباء، وآباء الآباء، وآباء الأمهات وإن علون، ووالد زوجها وجد زوجها.

2 -الأبناء: وتشمل الأبناء، وأبناء الأبناء، وأبناء البنات وليس هناك فرق بين أبناء المرأة من بطنها أو أبناء زوجها من زوجة أخرى لقوله تعالى: (أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ).

3 -الإخوان: ويشمل الإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات سواء أكانوا من أم وأب واحد، أو من أب فقط أو من أم فقط، ويشمل الأحفاد: أبناء الأبناء، والأسباط[1].

4 -العم والخال: سواء أكان العم والخالل لأب وأم، أو لأب فقط أو لأم فقط.

5 -الأقارب من الرضاعة: عن عائشة ﵂ قالت:

((539))

((حرّموا من الرضاع ما يحرم من النسب))[2]- اللفظ للبخاري.

6 -النساءُ: بعد ذكر الأقرباء في الآية الكريمة السابقة قال الله تعالى: (أَوْ نِسَائِهِنَّ) فلم يقل الله تعالى: ((أو النساء)) ولو أنه سبحانه وتعالى قال كذلك، لحل للمرأة المسلمة أن تكشف عورتها وتظهر زينتها لكل نوع من النساء من المسلمات والكافرات والصالحات والفاسقات؛ ولكنه سبحانه وتعالى جاء بكلمة ((نسائهن)) فمعنى هذا أنه حدَّ حرية المرأة المسلمة في إظهار زينها إلى دائرة خاصة[3]، ومن هنا نشأ الخلاف بين العلماء في قوله تعالى: (أَوْ نِسَائِهِنَّ) إلى ثلاثة آراء

الرأي الأول:

جاء في تفسير ابن كثير أن المرأة المسلمة تظهر زينتها للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع.

((540))

---

[1] - تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي ص 161.

[2] - صحيح البخاري بشرح الكرماني جـ19 ص86، كتاب النكاح، صحيح مسلم بشرح النووي جـ3 ص623، وقد روي أيضا بألفاظ أخرى، طبعة الشعب، سنن الترمذي جـ3 ص443، وقال: حديث حسن صحيح، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، سنن أبي داود جـ2 ص221، طبعة دار الفكر.

[3] - تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي ص164-165.

أما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه[1]، لقول الرسول ﷺ: ((لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها))[2].

الرأي الثاني:

جاء في تفسير الفخر الرازي أن المراد بنسائهن جميع النساء أي المسلمات والكافرات-، وهو المذهب، وقول السلف محمول على الاستحباب والأولى[3].

الرأي الثالث:

وهو يجمع بين الرأيين السابقين، وهو الرأي الراجح كما ذكر أبو الأعلى المودودي، فقال: وقولهم هو المعقول والأقرب إلى ألفاظ القرآن عندنا- أن المراد بنسائهن، النساء المختصات بهن بالصحبة والخدمة والتعارف سواء أكنَّ مسلمات أو غير مسلمات، وأن الغرض من الآية أن تخرج من دائرة النساء الأجنبيات اللاتي لا يعرف شيءٌ عن أخلاقهن وآدابهن وعاداتهن أو تكون أحوالهن الظاهرة مشتبهة لا يوثق بها، يقولون: إن ليست العبرة في هذا

((541))

الشأن بالاختلاف الديني، بل هي بالاختلاف الخلقي، فللنساء المسلمات أن يظهرن زينتهن بدون حجاب ولا تحرج للنساء الكريمات المنتميات إلى البيوت المعروفة الجديرة بالاعتماد على أخلاق أهلها، سواء أكنَّ مسلمات أو غير مسلمات، وأما الفاسقات اللاتي لا حياء عندهن ولا يُعتمد على أخلاقهن وآدابهن، فيجب أن تحتجب عنهن كل امرأة مؤمنة صالحة ولو كنَّ مسلمات، لأن صحبتهن لا تقل عن صحبة الرجال ضرراً على أخلاقها.

ثم قال: أما النساءُ الأجنبيات اللاتي لا يُعرف شيءٌ عن أحوالهن فإن على المرأة المؤمنة أن لا تكشف لهن من جسدها وزينتها أكثر من وجهها ويديها[4]، والله أعلم.

7 -ما ملكت أيمانهن، وهم العبيد والإماء، ويدخل في ذلك الإماء المسلماء والكتابيات.

أما العبيد: ففيهم ثلاثة أقوال:

---

[1] - تفسير ابن كثير جـ3 ص284، وانظر معه كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي جـ3 ص65، طبعة مصطفى مُحَمَّد.

[2] - مسند الإمام أحمد جـ1 ص380، صحيح البخاري بشرح الكرماني جـ19 ص171.

[3] - تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير المجلد 12 جـ23 ص208.

[4] - تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي من ص 164 إلى 166 باختصار.

- القول الأول: منع رؤيتهم لسيدتهم وهو قول الإمام الشافعي.
- القول الثاني: الجواز وهو قول ابن عباس وعائشة.

((542))

* القول الثالث: الجواز بشرط أن يكون العبد وغداً[1] وهو مذهب الإمام مالك وإنما أخذ جوازه من قوله تعالى: (أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ)[2]. والحمد لله الذي مَنَّ على الناس بالحرية فلم يعد هذا الخلاف في هذا العصر محل دراسة أو نقاش.

8- أن يكون التابع من غير أولي الإربة لذلك قال الله تعالى: (أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ) وهم الأتباع الذين ليسوا بأكفاء ولاهمة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن، مثل المغفل الذي لا شهوة له بالنساء والأبله[3].

9- الأطفال: وهم الذين لا يدرون ما عورة النساء، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس من دخوله على النساء، اما إن كان مراهقاً أو قريباً منه، بحيث يعرف ذلك ويدربه ويفرق بين الشوهاء والحسناء فلا يمكَّن من الدخول على النساء. وقد ثبت في الصحيحين- كما سيأتي تخريجه- عن رسول الله ﷺ أنه قال:

((543))

((وإياكم والدخول على النساء)) قيل: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: ((الحمو الموت))[4]. ومن الآيات والأحاديث الدالة على ستر القدمين وما بهما من الزينة من الرجال الأجانب والأقارب غير المحارم وعدم لفت أنظارهم إليهما بأي حركة قوله تعالى: (وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)[5]

هذه الآية تدل على أن النساء يجب عليهن أن يسترن أرجلهن أيضاً، وإلا لاستطاعت إحداهن أن تبدي ما تخفي من الزينة — وهي الخلاخيل- ولاستغنت بذلك عن الضرب بالرجل، ولكنها كانت لا تستطيع ذلك- أي كشف قدمها- لأنه مخالفة للشرع. ومثل هذه

---

[1] – الوغد: قيل خادم القوم بطعام بطنه، وقيل الأحمق الدنيء والرَّذل، انظر المعجم الوسيط: جـ2 ص1045 احرف الواو، الطبعة الثانية.

[2] – تفسير ابن جزي جـ3 ص65

[3] – انظر تفسير ابن كثير جـ3 ص285، وتفسير ابن جزي جـ3 ص65.

[4] – انظر تفسير ابن كثير جـ3 ص285، وتفسير ابن جزي، جـ3 ص65.

[5] – سورة النور الآية: 31.

المخالفة- وهي كشف القدمين- لم تكن معهودة في عصر الرسالة، ولذلك كانت إحداهن تحتال بالضرب لتعلم الرجال ما تخفي من الزينة، فنهاهن الله عن ذلك[1].

وبناءً على ذلك قال الزمخشري في الكشاف: ((إذا نهين عن إظهار صوت الحلي بعد ما نهين عن إظهار الحلي عُلم بذلك أن النهي عن

((543))

إظهار مواضع أبلغ وأبلغ))[2]، فهذا دليل على أن القدمين عورة.

وقال ابن حزم في المحلى 3-216: ((هذا نص على أن الرجلين والساقين مما يخفى ولا يحل إبداؤه))[3].

ويشهد لهذا من السُّنة حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة)). فقالت أم سلمة: ((فكيف يصنع النساءُ بذيولهن؟)) قال: ((يرخين شبراً))، فقالت: ((إذن تنكشف أقدامهن))، قال: ((فيرخينه ذراعاً لا يزيدن عليه))[4]- اللفظ للترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الترمذي: ((في هذا الحديث رخصة للنساء في جر الإزار لأنه يكون أستر لهن))[5].

وفي هذا الحديث قد أقر النبي ﷺ النساء على جعل القدمين من

((545))

العورة، فإذا كان الأمر هكذا في القدمين فكيف بما فوقها من سائر أجزاء البدن؟ ويشهد لذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((المرأة عورة))[6].

---

[1] - حجاب المرأة المسلمة لمحمد ناصر الدين الألباني ص36. المكتب الإسلامي: بيروت.

[2] - الكشاف للزمخشري جـ3 ص63 طبعة دار المعرفة.

[3] - حجاب المرأة المسلمة للألباني ص3.

[4] - سنن الترمذي جـ3 ص137، سنن ابن ماجه، كتاب اللباس باب ذيل المرأة لم يكون؟ جـ2 ص1185، وقد روي بألفاظ مختلفة بنفس المعنى، سنن أبي داود كتاب اللباس باب في قدر الذيل جـ2 ص65، التاج الجامع للأصول كتاب اللباس جـ3 ص169.

[5] - سنن الترمذي جـ2 ص319.

[6] - سنن الترمذي جـ3 ص137.

وقال الشيخ حمود التويجري في كتابه [الصارم المشهور على أهل التبرج والسفور]: إن أبا طالب نقل عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: ((ظفر المرأة عورة، فإذا خرجت من بيتها فلا تبين منها شيئاً ولا خفها، فإن الخف يصف القدم، وأحب إلي أن تجعل لِكُمَّها زِرّاً عند يدها، حتى لا يبين منها شيءٌ))[1]، وقال أبو بكر ابن هشام في المغني[2]: ((المرأة عورة حتى ظفرها)).

فهذه الأدلة تدل على أن المرأة كلها عورة أي في جميع أجزاء بدنها في حق الرجال غير المحارم من الأقارب وغيرهم. كما تدل على أن النساء المؤمنات في زمن النبي ﷺ كنَّ يُبالغن في التستر عن الأجانب. فلتتأمل الكاسيات العاريات المائلات المميلات هذه الآيات والأحاديث وأقوال السلف الصالح وليتأملها رجالهن وليعلم

الجميع أنهم موقوفون بين يدي الله تبارك وتعالى ومسؤولون عن أعمالهن السيئة فليعدوا للسؤال جواباً[3].

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة من سورة النور ما يجب على المرأةمن خفض البصر، وحفظ الفرج وإخفاء الزينة من الرجال غير المحارم، ومن يجوز أن تظهرها أمامهن، وبين لها نوعية الحجاب الذي يجب أن تخمر به من الرجال الأجانب، وبين لها نوعية الحجاب الذي يجب أن تختمر به من الرجال الأجانب، وكيفيته كما وضحته السنة النبوية وأفعال السلف الصالح، أمرها الله سبحانه وتعالى في آية أخرى من سورة الأحزاب إذا خرجت من دارها أن تلتحف وفوق ثيابها وتغطي وجهها بالجلباب لأنه أستر لها وأشرف ليسترها، فقال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)[4].

روي عن ابن عباس ﷺ في هذه الاية قال: ((أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن أن يغطين وجوههن

---

[1] – الصارم المشهور على أهل التبرج والسفور ص96.

[2] – المغني ويليه الشرح الكبير للإمامين موفق الدين بن قدامة، وشمس الدين بن قدامة المقدسي جـ1 ص637، طبعة دار الكتاب العربي. وانظر معه المبدع شرح المقنع لابن مفلح جـ1 ص362 طبعة: المكتب الإسلامي.

[3] – انظر الصارم المشهور على أهل التبرج والسفور، ص 99 بتصرف.

[4] – سورة الأحزاب الآية: 59.

((547))

من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة))[1]، وذلك من أجل رؤية الطريق.

وفي الحديث عن أم سلمة ﵂ قالت: ((لما نزلت (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ) خرج نساءُ الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان[2] من الأكسية))[3].

والجلباب يستعمل دائماً إذا خرجت المرأة من دارها، كما روي في الحديث عن أم عطية ﵂ قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهن في الفطر والأضحى: العواتق، والحيض، وذوات الخدور[4]، فأما الحيض فيعتزلهن الصلاة، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين. قلت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: ((لتلبسها أختها من جلبابها))[5].

((548))

فهذا الحديث يدل على أن الجلباب مطلوب عند الخروج وأن المرأة لا تخرج إن لم يكن لها جلباب، وهو رداءٌ ساتر من القرن إلى القدم، ويلبس فوق الخمار والثياب ليكون أبلغ في التستر عند الخروج، وذلك حتى لا يعرفن من قبل الشباب والعزاب، ومن قبل الذين لا يراعون حرمات الله فيؤذين بالكلام الذي لا يليق بهن من الألفاظ البذيئة وغيرها. قال الله تعالى: (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ) بالعفة والتستر والصيانة فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد.

فقال الله تعالى: (وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) أي: إنه تعالى غفور لما سلف منهن من تفريط وإهمال بعدم التستر من غير المحارم وذلك إذا تبين توبة نصوحاً على ما بدر منهن من مخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى، والله رحيم بعباده حيث راعى مصالحهم وشؤونهم فشرع لهم ما يصونهم ويحميهم ويحفظ عليهم عزتهم وكرامتهم.

أعزائي القراء: كل ما ورد في هذا الشرط وهو وجوب استيعاب البدن بالتستر من الآيات والأحاديث وقول السلف الصالح، التي أثبتت مشروعية الحجاب وبينت أحكامه هو للمرأة

---

[1] – تفسير ابن كثير جـ3 ص518.

[2] – الغربان: جمع غراب شبُهت الأكسية في سوادها بالغربان.

[3] – سنن أبي داود جـ4 ص61.

[4] – العواتق: جمع عاتق وهي: المرأة الشابة أول ما تدرك، وقيل: هي التي تقارب البلوغ، الحيَّض: جمع حائض.

[5] – صحيح البخاري بشرح الكرماني كتاب العيدين إذا لم يكن جلباب في العيد جـ5 ص82، برواية أخرى، سنن الترمذي، باب خروج النساء في اللعيدين جـ2 ص25، 26 وقال: حديث أم عطية حسن صحيح، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة باب ما جاء في خروج النساء في العيدين جـ1 ص411، 415.

الشابة، فتنفذ هذه الأحكام في ستر العورة منذ تقارب المرأة البلوغ، وتبقى نافذة عليها ما دامت فيها جاذبية جنسية، فإذا تجاوزت المرأة ذلك العمر وتقدمت في السن، فإنها لا ريب يخفف عنها، ففي القرآن

((549))

الكريم قال الله تعالى: (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1].

قال ابن جزي في تفسيره: القواعد جمع قاعد وهي العجوز، فقيل: هي التي قعدت عن الولد، وقيل: التي قعدت عن التصرف، وقيل: التي إذا رأيتها استقذرتها[2].

وفي الآية تصريح بعلة التخفيف، والمراد بعدم الرجاء في النكاح، أي: لا يطمعن في الزواج ولا يرغبن فيه لانعدام دوافع الشهوة فيهن[3].

أما إذا كان في نفس المرأة إثارة من الشهوة الجنسية فلا يجوز لها أن تخلع حجابها، وإنما التخفييف للعجائز اللاتي يجعلهن تقدم السن في غني عن العناية بلباسهن، واللاتي لا يكاد ينظر إليهن أحد إلا بنظرة الإجلال والاحترام، وأمثال هؤلاء كما جاء في بعض التفاسير لا حرج ولا إثم عليهن في أن يضعن بعضض ثيابهن كالرداء

((500))

والجلباب، ويظهرن أما الرجال بملابسهن المعتادة التي لا تلفت انتباهاً، ولا تثير شهوة[4].

وإنما أباح الله لهن وضع بشرط ألا يقصد إظهار زينة[5] فإذا قصدن ذلك فليس لها أن تضع حجابها عن وجهها ويديها وغير ذلك من زينتها وأن عليها جناحاً في ذلك، لأن التبرج يفضي إلى الفتنة بالمتبرجة ولو كانت عجوزاً، فكيف يكون الحال بالشابة والجميلة إذا تبرجت؟ لا شك أن إثمها أعظم والجناح عليها أشد والفتنة بها أكبر[6].

---

[1] – سورة النور الآية:60.

[2] – تفسير ابن جزي. التسهيل في علوم التنزيل جـ3 ص72، طبعة مصطفى مُحَمَّد.

[3] – صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابونيي جـ10 ص30.

[4] – صفوة التفاسر لمحمد علي الصابوني جـ10 ص30.

[5] – كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي جـ3 ص72.

[6] – رسالة تبحث في مسائل الحجاب والسفور للشيخ عبد العزيز بن باز ص7 بتصرف.

ثم بين الله سبحانه وتعالى الأفضل لهن في قوله تعالى: (وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، أي: أن يستترن بارتداء الجلباب عند الخروج فوق الخمار والثياب، كما تلبسه الشابات من النساء مبالغة في التستر والتعفف، خير لهن وأكرم وأزكى عند الله وأطهر. والله يعلم بخفايا النفوس ويجازي كل إنسان بعمله[1].

((551))

بعد هذا ننتقل إلى بقية الشروط التي في مضمونها الوعيد بالنار والحرمان من الجنة والطرد من رحمة الله لمن عصاه واستمر على عصيانه، كما أشارت إليها الأحاديث الصحيحة، ومن هذه الأحاديث أحاديث ليست بالغريبة علينا لأنها مما تدرس في المدارس وتذكر في خطب الجمعة وتنقل إلى كل بيت عن طريق وسائل الإعلام. ولنضع نصب عيوننا ماذا حققت المدرسات من الأهداف الدينية والتربوية المستقاة من هذه الأحاديث، وماذا استفدن وأفدن طالباتهن منها، ولنطبقها على ما نراه أثناء خروجنا وفي تجماعتنا وسهراتنا ثم نحاسب أنفسنا على ما أهملناه وقصرنا فيه قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم.

ومن هذه الشروط أيضاً:

ثانياً: أن يكون صفيقاً لا يشف – أي سميكاً كثيفاً

والأدلة على ذلك من السنة كثيرة، منها: عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: ((صنفان من أهل النار لم أرهما[2]: قوم معهم سياط[3] كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء

((552))

كاسيات عاريات[4]، مائلات مميلات[5] رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة الجنة ولا يجدن ريحها ليوجد في مسيرة كذا وكذا[1]))- واللفظ لمسلم[2].

---

[1] – صفوة التفاسير جـ10 ص30.

[2] – لعدم وجودهما في عهد الرسول ﷺ وهذا من معجزات الرسول ﷺ بأن الله قد أطلعه على الغيب.

[3] – جمع سوط وهو آله الضرب.

[4] – كاسيات عاريات: كاسيات في الظاهر لكنهن عاريات في الواقع للبسهن القصير والرقيق، وكشفهن عن الصدور والأعناق والأيدي والوجوه وهذه زينتهن التي أمرن بسترها.

[5] – مميلات: مميلات لغيرهن ممن يقتدين بهن أي يعلمن غيرهن فعلهن المذموم، أو مميلات للقلوب الفاسدة، بتكسرهن في المشي بلبس الكعوب العالية في الأسواق وغيرها ليميلوا إليهن قلوب الرجال الأجانب، أو بتكسرهن بالقول اللين فيطمع فيهن الذي في قلبه مرض، وقيل: مائلات يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن، وقيل يمشطن

وفي رواية أخرى: ((سيكون في آخر أمتي نساء كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العنوهن فإنهن ملعونات))، أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، ص232، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وبسند صحيح[3].

((553))

هذا إخبار بغيب قد وقع، أي: إن الله سبحانه وتعالى قد أطلع نبيه مُحَمَّداً ﷺ على ما قد يحصل في زماننا هذا، فإن هذا كله موجود الآن بكثير نسأل الله السلامة.

قال الشيخ ابن باز تعليقاً على هذا الحديث: ((وهذا تحذير شديد من التبرج والسفور، ولبس الرقيق والقصير من الثياب والميل عن الحق والعفة، وإمالة الناس إلى الباطل، وتحذير شديد من ظلم الناس والتعدي عليهم، ووعيد لمن فعل ذلك بحرمان دخول الجنة، نسأل الله العافية))[4].

ومن الأدلة الدالة على اشتراط أن يكون الحجاب كثيفاً صفيقاً لا يشف لأن التستر لا يتحقق إلا به ما ورد عن أم علقمة بنت بي علقمة قالت: ((رأيت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر دخلت على عائشة وعليها خمار رقيق يشف عن جبينها، فشقته عائشة عليها وقالت: أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور؟ ثم دعت بخمار فكستها))[5].

قال مُحَمَّد ناصر الألباني: وفي قول عائشة رضي الله عنها: ((أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور؟)) أشارت إلى من يهمه أن من

((554))

تسترت بثوب شفاف أنها لم تستر ولم تأتمر بقول الله تعالى: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) وهذا بين لا يخفى[6].

المشطة الميلاء، وهي مشطة البغايا، ويمشطن غيرهن تلك المشطة. انظر هامش صحيح مسلم بشرح النووي جـ5 ص840، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول جـ3 ص179، رياض الصالحين ص581، 582.

[1] – كذا وكذا: قيل أربعين عاماً.

[2] – صحيح مسلم بشرح النووي كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات.

[3] – حجاب المرأة المسلمة، لمحمد ناصر الألباني ص56.

[4] – رسالة تبحث في مسائل الحجاب والسفور ص12.

[5] – الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد، كتاب الواقدي جـ8 ص19 – جـ5 طبعة دار الفكر.

[6] – حجاب المرأة اسلمة ص57 بالهامش.

ثالثـاً: أن لا يكـون – أي الحجـاب سـواء أكـان الخمـار أو الجلبـاب أي العبـاءة- زينـة في نفسه وأن لا يشف ويظهر الزينة من الحلي وغيرها:

قـال الله تعـالى: (وَلا يُبْـدِينَ زِينَـتَهُنَّ)[1]. فـإن النهـي بعمومـه يشـمل الثيـاب الظـاهرة إذا كانـت مزينـة تلفـت أنظـار الرجـال غـير المحـارم إليهـا[2] ويشـهد لـذلك قولـه تعـالى في سـورة الأحـزاب: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)[3].

وقـول الرسـول ﷺ: ((ثلاثـة لا تسـأل عـنهم، رجـل فـارق الجماعـة وعصـى إمامـه ومـات عاصياً، وأمـة أو عبـد أبـق فمـات، وامـرأة غـاب عنهـا زوجهـا قـد كفاهـا مؤنـة الـدنيا فتبرجـت بعـده فلا تسأل عنهم))[4].

يعني لأنهم من الهالكين. قال مُحَمَّد ناصر الألباني وهو حديث سنده صحيح[5].

((555))

والمقصـود مـن الأمـر بالخمـار أو الجلبـاب سـتر الزينـة ومحاسـن المـرأة، فـلا يعقـل أن يكـون الخمـار أو الجلبـاب نفسـه زينـة أو يشـف الزينـة مثـل العبـاءة الحريـر القصـيرة الـتي تصـف مـا تحتهـا أو مثـل الخمـار المعـروف بالطرحـة الحريـر المزينـة بالقصـب أو شـبلة بورسـعيد أو الكـدلك وغـير ذلـك مـن المسـميات المشـهورة الـتي تشـف الشـعر وتظهـر بعـض الخصـال منـه، وهـذا مـا عمـت بـه البلـوى في عصـرنا هـذا حيـث إن المـرأة تطبـق مـا تنـادي بـه ((الموضـة)) بغـض النظـر عـن الحـلال والحـرام، فـإذا أمـرت ((الموضـة)) بشـيء قالـت المـرأة: سمعـاً وطاعـة، ومـا أمـر الله بـه فـلا سمـع ولا طاعـة، فالويـل لهـا إنهـا ملعونـة، أي مطـرودة مـن رحمـة الله كمـا ورد في كتـاب الكبـائر: ((مـن الأفعـال الـتي تلعـن عليهـا المـرأة إظهـار الزينـة، والـذهب واللؤلـؤ تحـت النقـاب، وتطيبهـا بالمسـك والعنـبر والطيـب إذا خرجـت ولبسـها الصـباغات والأزر الحريريـة، والأقبيـة القصـار مـع تطويـل الثـوب، وتوسـعة الأكمـام وتطويلهـا، كـل ذلـك مـن التـبرج يمقـت عليـه، ويمقـت فاعلـه في الـدنيا

---

[1] – سورة النور الآية: 31.

[2] – حجاب المرأة المسلمة للألباني ص51.

[3] – سورة الأحزاب الآية: 33.

[4] – مسند الإمام أحمد جـ6 ص19، برواية مطولة.

[5] – حجاب المرأة المسلمة ص51، بالهامش.

والآخرة،وبهذه الأفعال التي قد غلبت على أكثر النساء قال عنهن النبي ﷺ: ((اطلعت على النار أكثر أهلها من النساء))[1]

((556))

وفي رواية أخرى عن أبي رجاء عن عمران عن النبي ﷺ قال: ((اطلعت في الجنة فرايت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء))[2]- اللفظ للبخاري.

ومما يؤيد تحريم إظهار الزينة من الحلي أمام غير المحارم من الأقارب وغيرهم ما أخرجه ابن سعد في الطبقات من طريق سفيان عن منصور عن ربعي بن خراش عن امرأة عن حذيفة[3]، وكان له أخوات قد أدركن النبي ﷺ، قالت: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: ((يا معشر النساء أليس لكن في الفضة ما تحلين؟ إنه ليس منكن امرأة تحلي ذهباً تظهره إلا عذبت به))، قال منصور فذكرت ذلك لمجاهد، فقال ((قد أدركتهن وإن إحداهن لتتخذ لكمها زرًّا يواري خاتمها))[4].

وما هذا التستر إلا دليل على ما وصل إليه الصحابيات الجليلات من الورع والتقى، وقد اتضح في مبالغتهن في التستر، وما ذلك

((557))

إلا لعلمهن علم اليقين أن في تطبيق أوامر الله ورسوله عزتهن وكرامتهن وصيانتهن، فبالغن في التستر إلى درجة أن تجعل إحداهن لكمها زرًّا يواري خاتمها حتى لا يظهر منها شيء أمام الرجال الأجانب فتقع في الإثم والذنب.

فيتأمل هذا نساء اليوم اللاتي يخرجن إلى الأسواق والشوارع وقد حسرن العباءة عن أذرعتهن وارتدين ما يشف زينتهن من الحلي وغيرها مما حرم الله إظهارها أمام الرجال الأجانب، وليتقين الله في أنفسهن.

---

[1] - كتاب الكبا ئر للإمام شمس الدين أبي عبد الله الذهبي ص115.

[2] - صحيح البخاري بشرح الكرماني، كتاب النكاح، باب كفران العشير جـ19 ص 118، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الرقاق جـ5 ص580.

[3] - قال الألباني في كتابه حجاب المرأة المسلمة ص 42، عندما استشهد بهذه الرواية: ((وليس استشهادي في هذه الرواية بالحديث المرفوع وإن كان صريحاً في ذلك، لأن في إسناده المرأة التي لم تسم، وإنما هو بقول مجاهد.. تواري خاتمها، فهو نص صريح فيما ذكرت والحمد لله على توفيقه)).

[4] - الطبقات الكبرى لابن سعد جـ8 ص238- طبعة دار الفكر.

وليتأملن أيضاً فيما ورد من الأدلة على تحريم إظهار الشعر أمام الرجال الأجانب وما ورد فيه من الوعيد الشديد مما جعل الرسول ﷺ يبكي بكاءً شديداً لما رأى من شدة عذاب نساء هذا العصر بسبب غفلتهن وتماديهن في التبرج والسفور المحرم فلعل في هذا ما يوقظهن من غفلتهن وهو ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، عندما أسري به إلى السماء السابعة.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: دخلت على النبي ﷺ أنا وفاطمة ﷺ، ووجدناه يبكي بكاءً شديداً فقلت له: فداك أبي وأمي يا رسول الله ما الذي أبكاء؟ قال: يا علي ليلة أسري بي إلى السماء رأيت نساءً من أمتي يعذبن أنواع العذاب، فبكيت لما

((558))

رأيت من شدة عذابهن. رأيت امرأة معلقة بشعرها يغلي دماغها.. إلى أن قال: فقامت فاطمة ﷺ وقالت: حبي وقُرّة عيني ما كان أعمال هؤلاء حتى وضع عليهن العذاب، فقال ﷺ: (يا بنية؛ أما المعلقة بشعرها فإنها كانت لا تغطي شعرها من الرجال..)[1].

رابعاً: أن يكون فضفاضاً غير ضيق فلا يصف شيئاً من جسمها: لأن الغرض من الثوب إنما هو رفع الفتنة ولا يحصل ذلك إلا بالفضفاض الواسع، وأما الضيق فإنه وإن ستر لون البشرة، فإنه يصف حجم جسمها أو بعضه، ويصوره في أعين الرجال، وفي ذلك من الفساد والدعوة إليه ما لا يخفي، فوجب أن يكون لباس المرأة واسعاً فضفاضاً ويشهد لذلك ما قاله أسامه بن زيد رضي الله عنهما: كساني رسول الله ﷺ قبطية[2] كثيفة كانت مما أهدى له دحية الكلبي فقال رسول الله ﷺ وآله وسلم: ما لك لا تلبس القبطية؟ فقلت: يا رسول الله كسوتها امرأتي، فقال: ((مُرْها أن تجعل تحتها غلالة[3]، فإني أخاف أن يصف حجم عظامها))[4]؛ اللفظ من نيل الأوطار للشوكاني.

((559))

---

[1] – كتاب الكبائر للذهبي ص193، 191.

[2] – القبطية: ثياب فيها رقة ورهافة كانت تصنع في مصر وتنسب إلى القبط سكان مصر.

[3] – غلالة: شعار يلبس تحت الثوب.

[4] – مسند الإمام أحمد جـ5 ص205.

نيل الأوطار للشوكاني، كتاب اللباس، باب نهي المرأة أن تلبس ما يحكي بدنها جـ2 ص115، سنن أبي داود، كتاب اللباس باب في لبس القباطي للنساء جـ4 ص64، 65 وقد روي برواية أخرى بنفس المعنى.

قال الشوكاني في شرح هذا الحديث: ((الحديث يدل على أنه يجب على المرأة أن تستر بدنها بثوب لا يصفه، وهذا شرط ستر العورة، وإنما أمر بالثوب تحته لأن القباطي ثياب رقاق لا تستر البشرة عن رؤية الناظر بل تصفها))[1].

وفي هذا الحديث تنبيه على أنه ينبغي للمرأة أن تعتني بستر حجم عجيزتها- أي مؤخرتها- عن نظر الرجال غير المحارم، لأنها إذا كانت مأمورة بستر حجم عظامها عنهم فستر حجم عجيزتها أولى لأنها قد تكون موضع شهوة وفتنة للرجال، فمنهم من يحب السمينة ويرغبها، ومنهم من يرغب النحيفة ويفتتن بها، فأذواق الرجال مختلفة، ومنهم من هو صاحب شهوة فقط لا يفرق بين جميلة وقبيحة.

فليتأمل في هذا مسلمات هذا العصر اللاتي يلبسن من هذه الثياب الضيقة التي تصف نهودهن وخصورهن والياتهن وسوقهن وغير ذلك من أعضائهن. ثم ليستغفرن الله تعالى وليتبين إليه وليتذكرن قول النبي ﷺ: ((الحياءُ والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر))[2].

((560))

خامساً: أن لا يكون مبخراً مطيباً:

وذلك لما فيه من لفت أنظار الرجال الأجانب مما قد يوقعهم في الإثم والفاحشة، وقد حذر منه الرسول ﷺ أشد التحذير عندما وصف المرأة بالزنا وارتكاب الفاحشة، وذلك للتنفير منه لما يجلبه من الفتنة، وقد ورد فيه أحاديث صحيحة كثيرة كلها تحذر المرأة من التطيب عند خروجها إلى المسجد أو أي مكان آخر من باب الأولى.

فعندما قال الله تعالى: (وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)[3].

وهذا الحكم ما حده النبي ﷺ عند صوت الحلي فقط، بل أخذ منه قاعدة كلية هي: أن كل فعل من أفعال المرأة إذا كان يثير حواس الرجال ومشاعرهم- لا بصرهم وسمعهم فقط- ينافي الغاية التي من أجلها نهي النساء عن إظهار زينتهن؛ ومن ثم فقد نهى النبي ﷺ النساء أن يخرجن من بيوتهن متطيبات، متعطرات[4]، متبخترات.

---

[1] - نيل الأوطار برواية للشوكاني جـ2 ص115.

[2] - حجاب المرأة المسلمة، لمحمد ناصر الألباني ص63.

[3] - سورة النور الآية: 31.

[4] - تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي ص170.

((561))

فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن يخرجن وهنَّ تفلات))[1] أي: غير متطيبات.

وعن أبي هريرة ﷺ أنه لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب، ولذيلها إعصار فقال: يا أمة الجبار جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال لها: تطيبت؟ قالت: نعم، قال: إني سمعت حبِّي أبا القاسم ﷺ يقول: ((لا تقبل صلاة لامرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة))[2]- اللفظ لأبي داود، وقال: الإعصار، الغبار.

وعن زينب امرأة عبد الله قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: ((إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً))[3].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أيُّما

((562))

امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة))[4]- اللفظ لمسلم.

وعن يحي بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن أنها سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساءُ لمنعهن المسجد كما مُنعت نساءُ بني إسرائيل، قال: فقلت لعمرة: ((أنساءُ بني إسرائيل منعن المسجد؟ قالت: نعم))[5]- اللفظ لمسلم.

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم، قولها: لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساءُ لمنعهن المسجد، يعني: من الزينة والطيب وحسن الثياب[6].

---

[1] - مسند الإمام أحمد جـ2 ص438، 475، 528، برواية وليخرجن تفلات، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد جـ1 ص155، سنن الدرامي جـ1 ص293.

[2] - مسند الإمام أحمد جـ2 ص246، سنن أبي داود كتاب الترجل، باب ما جاء في المرأة تتطيب للخروج جـ4 ص79، سنن ابن ماجه كتاب الفتن، باب فتنة النساء جـ2 ص1326.

[3] - صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المسجد، جـ2، ص84، 86.

[4] - صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصلاة باب خروج النساء إلى المسجد، جـ2، ص85، سنن أبي داود كتاب الترجل باب باب في المرأة تتطيب للخروج جـ4 ص79.

[5] - صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصلاة خروج النساء إلى المساجد، جـ2 ص85، سنن أبي داود كتاب الصلاة، باب التشديد في خروج النساء إلى المسجد جـ1 ص155، ص85.

[6] - هامش صحيح مسلم جـ2 ص85.

وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهي كذا وكذا، قال قولاً شديداً[1])) أي فهي زانية فهي زانية.

((563))

وإذا علمت أن هذه الأحاديث دلت على أن المتطيبة ليس لها الخروج إلى المسجد، لأنها تحرك شهوة الرجال بريح طيبها.

فاعلم أن أهل العلم ألحقوا بالطيب ما في معناه كالزينة الظاهرة؛ وصوت الخلخال والثياب الفاخرة، والاختلاط بالرجال، ونحو ذلك بجامع أن الجميع سبب الفتنة بتحريك شهوة الرجال، ووجهه ظاهر كما ترى، وألحق الشافعية بذلك الشابة مطلقاً، لأن الشباب مظنته الفتنة وخصصوا بالخروج إلى ا لمساجد بالعجائز. والأظهر أن الشابة إذا خرجت مستترة غير متطيبة، ولا متلبسة بشيء آخر من أسباب الفتنة أن لها الخروج إلى المسجد[2].

وقد ورد في الأحاديث السابقة ما يدل على ذلك والله أعلم.

أخواتي المسلمات، إذا كان ذلك حراماً على مريدة المسجد وهو مكان العبادة والتوجه إلى الله، فماذا يكون الحكم على مريدة السوق، والأزقة والشوارع وأثناء اختلاطها بالأقارب غير المحارم وغيرهم من سائق وخادم وخياط والذين يحبون السهرات من الرجال، وهؤلاء قد يكون فيهم البر والفاجر والعاقل والفاسق وهي تخرج إليهم بكامل زينتها ومحاسنها وطيبها، إنه أشد حرمة وأكبر إثماً، نسأل الله أن يجملنا بالتقوى والذكر الحسن.

((564))

سادساً: أن لا يشبه لباس الرجل:

لقد وردت أحاديث صحيحة وكثيرة تلعن المرأة المتشبهة بالرجل في اللباس وغيره والعكس. ومنها:

---

[1] – سنن أبي داود كتاب الترجل باب ما جاء في المرأة تتطيب للخروج جـ4 ص79، سنن الترمذي أبواب الاستئذان والآداب جـ4 ص194، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

[2] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن مُحَمَّد المختار الشنقيطي جـ6 ص237، 238.

1 -ما روي عن ابن عباس ﷺ قال: ((لعن النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال))[1]- اللفظ للبخاري.

2 -وعنه أيضاً قال: ((لعن النبي ﷺ المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء وقال: أخرجوهم من بيوتكم، فأخرج النبي ﷺ فلاناً وأخرج عمر فلاناً))[2].

3 -عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((لعن النبي ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل))[3] أي هيئة اللبس . ووجه الاستدلال من هذه الأحاديث أن المرأة إذا لبست زي الرجال فقد شابهت الرجال في لبسهم فتلحقها لعنة الله ورسوله ﷺ ولوليها إذا مكنها من ذلك ورضي به ولم ينههما لأنه مأمور بتقويمها على طاعة الله ونهيها عن المعصية[4] لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)[5].

---

[1] - صحيح البخاري بشرح الكرماني كتاب اللباس باب المتشبهون بالنساء والمتشبهات بالرجال جـ21 ص108، سنن أبي داود كتاب اللباس باب لباس النساء. جـ4 ص60، سنن الترمذي جـ4 ص194، وقال: هذا حديث حسن صحيح. التاج الجامع للأصول جـ3 ص178، 179.

[2] - صحيح البخاري جـ21 ص108، سنن الترمذي جـ4 ص191، وقال: هذا حديث حسن صحيح، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول جـ3 ص179، رياض الصالحين ص581 تعليق رضوان محمد رضوان.

المخنث: بفتح أو كسر النون من الانخناث وهو: التثني والتكسير لأنه يثني في أحواله، ويتشبه في زيهن ومشيتهن، أو كلامهن عمداً، أما من طبعه ذلك فلا شيء عليه، ولكن يمرن نفسه على ترك هذا.

المترجلات: الرجلة من النساء التي تشبه بالرجال.

[3] - سنن أبي داود كتاب اللباس باب لباس النساء، جـ4 ص60، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول جـ3 ص179، رياض الصالحين ص581.

[4] - حجاب المرأة المسلمة للألباني ص69.

[5] - سورة التحريم الآية: 6.

الباب الرابع:

تحريم الاختلاط والخلوة بالمرأة الأجنبية

ننتقل بعد ذلك إلى موضوع أشدُّ خطورة، وقد انتشر في البلاد الإسلامية بشكل أنذر بالويل والهلاك، ولسنا بالسعودية عنهم ببعيد، لأن بوادره بدأت تنتشر عندما تهاونا بتطبيق أحكام الله تعالى وسُنَّة رسول الله ﷺ وهو:

الاختلاط والخلوة بالمرأة الأجنبية

إن من أكبر الكبائر في الإسلام أن يخلو الرجل بامرأة ليست بذات محرم، ولقد أخذ الإسلام السبيل على الجنسين في هذا الاختلاط أخذاً قوياً محكماً.

إن الخلوة بالمرأة غير ذات محرم، والاختلاط بين الرجال والنساء من الأقارب غير المحارم، والأصدقاء الأجانب حرام في دين الله، وهما من عوامل الهدم لأخلاق أمتنا الاجتماعية والأسرية، ومدعاة غضب الله وعذابه.

لقد حرم الإسلام الاختلاط تحريماً قاطعاً- بغض النظر عن المستوى الخلقي والديني والسن- فالخلوة حرام ولو كانت بين

((567))

أصلح الناس وأتقاهم، كما حرم الاختلاط الذي تظهر فيه المرأة متبرجة بكامل زينتها. حرمه رعاية منه لمصالح الناس الدنيوية والأخروية، لأنه بذلك يصونهم عن الوقوع في الحرام.

فليتق الله أولياء الأمور في زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم وكل من هن تحت رعايتهم، وليعلموا أنهم مسؤولون عنهن بين يدي الله الذي ائتمنهم عليهن.

وهنا سأذكر بعض الأمثلة على هذه الخلوة المحرمة والاختلاط وهي:

1 - الخدم:

مما شاع وانتشر في هذا العصر بين الأغنياء والموسرين استخدام الخدم الرجال في البيوت، وقيامهم بشؤون البيت الداخلية ومخالطتهم للنساء.

يخرج الرجل من بيته إلى عمله أو إلى أي شأن من شؤونه وقد ترك زوجته مع الخادم الشاب الذي يتفجر حيوية ونشاطاً وقوة، وربما لا يكون معها أحد من الناس، وهي لا

تتحجب ولا تستتر منه، وقد رفعت الكلفة بينهما، فهي تناديه وتأمره وتنهاه، فهي تناديه وتأمره وتنهاه، وهو بحكم عمله يستجيب، ((والشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم))[1]،

((ولا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما[2])) يحببه إليها ويحببها إليه حتى تقع الجريمة[3]، وأكبر مثال لذلك ما حدث هنا في السعودية وقد شوهد العرض التلفزيوني لها، ولكن هل من مجيب؟.

2- استقبال الزوجة لقريب غير محرم أو صديق الزوج:

وكذلك ما شاع لدى فئة من أتباع الغرب ممن لا يخافون الله، ولا يرعون حرماته، وقد ماتت الغيرة فيهم من استقبال المرأة لقريب غير محرم، أو صديق أجنبي في حال غياب الزوج عن البيت، والسماح له بالدخول إلى بيتها.

إن هذه خلوة محظورة ممنوعة شرعاً ومحرمة ولا يجوز التساهل بها بحجة الثقة بالصديق والقريب والزوجة وليست تحمد عواقبها، ولا يمكن أن يرضى بها إلا إنسان مريض القلب، فاقد الغيرة، والمروءة، ضعيف الإيمان.

3- الطبيب:

ومثله وأشد منه خطورة أن تذهب المرأة إلى الطبيب وحدها، وتتحقق خلوة محظورة.

4- السائق:

وقريب من ذلك ما يفعله بعض الناس من ترك زوجته أو ابنته أو أخته مع السائق، يذهب بها أين شاءت، ولا يدري أحد عن طبيعة الحديث الذي يدور بينهما داخل السيارة إلا الله.

5- الجلسات العائلية:

وكذلك الجلسات العائلية- كما يدعونها- التي يختلط فيها الرجال بالنساء، وهن في أتم زينتهن، وقد ألقين الحجاب وأظهرن المفاتن، بحجة أنهم اقارب وأرحام وأصدقاء، وقد يكون في هذه الجلسات الرقص والغناء، وقد يكون فيها تبادل الحديث المبتذل، والمزاج والنكتة الهابطة واللاذعة، والتعريض بأمور خاصة كما في بعض المجتمعات المنحلة.

---

[1] - صحيح مسلم بشرح النووي كتاب السلام باب دفع ظن السوء جـ5 ص18، سنن الترمذي جـ2 ص319.

[2] - سنن الترمذي باب ما جاء في كراهية الدخلو على المغيبات جـ2 ص319.

[3] - تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية والاختلاط المستهتر، للدكتور مُحَمَّد لطفي الصباغ، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الملك سعو (الرياض سابقاً) من ص1 إلى 5 بتصرف.

إن كل ذلك مما لا يجيزه دين الله، وإن الإسلام منه براءٌ، وهو قد يعرض كيان الأسرة إلى الإنهيار، ويبدل الود بين الزوجين إلى تنافر.

ولقد تقوضت علاقات التراحم، والانسجام العائلي في عدد من الأُسر بسبب الاختلاط المستهتر.

عباد الله: إن الإسلام لم يفرض على المرأة، ويأمرها بالتستر وعدم إبداء زينتها على غير المحارم ليصونها عن الابتذال والتهتك، وليحفظ عفافها من الدنس، وطهرها من الرجس، وشرفها من الامتهان.

فكيف يجوز لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخالف أمر الله، وترفع الحجاب أمام رجل أجنبي عنها بحجة أنه خادم، أو سائق أو خياط أو طبيب أو قريب غير محرم من ابن عم أو خال.. أو حمو أو غير ذلك.

كيف يرضى امرؤ يتقي الله ويخشاه، ويطيع أوامره ويجتنب نواهيه بأن تخلو امرأته مع رجل أجنبي عنها؟.

إن الإسلام حظر الجريمة ومنع أسبابها المؤدية إليها: لأن من فرط في الأسباب وقع في الجريمة، ومن حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه[1].

إن الإسلام عالج هذا الموضوع بصورة جذرية، كل ذلك إنما يراد به أن يسلم الرجل من فتنة المرأة وهي أحب الفتن على نفسه، وأن تسلم المرأة من فتنة الرجل وهو أقرب الفتن إلى قلبها،

((571))

والآيات الكريمة المتقدم ذكرها وهي آيات غض البصر، وآيات الحجاب، والأحاديث المطهرة كذلك تنطق بذلك.

ومن الأحاديث التي جاءت بتحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ما يأتي:

1 -ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يخلونَّ أحدكم بامرأة إلا ذو محرم))[2]- اللفظ للبخاري.

---

[1] - المرجع السابق من ص5 إلى 9 بتصرف.

[2] - صحيح البخاري بشرح الكرماني كتاب باب لا يخلون رجل بامرأته إلا ذو محرم جـ19، ص167، صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإسلام باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها جـ5 ص16، نفس المعنى برواية أخرى، رياض الصالحين ص580.

2 -عن عقبة بن عامر ﷺ أنه رسول الله ﷺ قال: ((إياكم والدخول على النساء))، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال ﷺ :((الحمو الموت))[1].

قال النووي: ((وأما قوله ﷺ: ((الحمو الموت)) فمعناه الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه، بخلاف الأجنبي؛

((572))

والمراد هنا بالحمو أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته، تجوز لهم الخلوة بها، ولا يوصفون بالموت، وإنما المراد وابن الأخ، والعم وابنه ونحوهم ممن ليس بمحرم، وعادة الناس فيه، ويخلو بامرأة أخيه فهذا هو الموت وهو أولى بالمنع من الأجنبي))[2].

3 -عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم))[3]- اللفظ لمسلم.

4 -عن معقل بن يسار ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لأنه يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له))[4]، رواه الطبراني والبيهقي ورجال الطبراني ثقات من رجال الصحيح، هكذا قاله الحافظ المنذري في الترغيب 2-66[2].

---

[1] - صحيح البخاري جـ19 ص167، صحيح مسلم جـ5 ص16، نفس المراجع السابقة، سنن الترمذي أبواب الرضاع، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات جـ2 ص318، رياض الصالحين ص580 الحمو الموت: أي فليمت ولا يفعلن ذلك.

[2] - بهامش صحيح مسلم جـ5 ص16.

[3] - صحيح مسلم بشرح النووي جـ3 ص487، سنن الترمذي جـ5 ص317-318، وقد رواه بألفاظ مختلفة بنفس المعنى وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن ابن ماجه كتاب المناسك باب المرأة تحج بغير ولي جـ2 ص968، وقد روي بألفاظ مختلفة بنفس المعنى.

[4] - سلسلة الأحاديث الصحيحة، تأليف ناصر الدين الألباني، المجلد الأول ص52. وانظر معه: حجاب المرأة المسلمة، لحسن البنا ص 21-25.

((573))

الباب الخامس:

كلمة موجهة إلى الرَّجال

الرجولة غيرة على محارم الله

قبل أن تكون شارباً ولحية

إن واجب الحق والنصح أن توجه كلمة إلى الرجال- لعل فيها تذكرة للمؤمنين، وموعظة للمتقين، وبياناً للعاقلين، وتنبيهاً للغافلين المخدوعين بمظاهر الجاهلية الحاضرة- إذ ليس النساء وحدهن مسؤولات عما وصلن إليه من التبرج والتبذل بل كان الحق والأولى أن يوجه كله إلى الرجال، لأن السبب في انتشار التبرج يرجع إلى إهمال الرجل في القيام بواجبه نحو ا لمرأة، وهذا الإهمال عن جهله أو تجاهله أنه مسؤول عنها نفسياً وعقلاً وجسماً، وأنه قيم عليها مكلف برعايتها أباً كان أو زوجاً أو أخاً، قال رسول الله ﷺ: ((كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول، والرجل راعٍ على أهله وهو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، والعبد راعٍ على مال سيده

((574))

وهو مسؤول، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول))[1]- اللفظ للبخاري وقد روي بعبارة أخرى.

فكم من امرأة بائسة نكبت بولي ضعيف الإرادة استعبده هواه، يزعم الإيمان بالله وكتابه، ويصلي ويصوم ويقرأ القرآن، لكنه لا يعرف معروفاً ولا يستنكر منكراً، إذ يعشق التبرج أمام غير المحارم، ويمقت الاحتشام، ويعتبره أصفاداً ثقيلة يحرم موليته حريتها ومتعتها بجمالها الفتان، وشبابها الغض، فيغريها بالتبرج ويدفعها إلى العصيان، بلا رحمة ولا شفقة، ولا يبالي بغضب الله وهو يكرر قراءة أمره تعالى في القرآن: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)[2].

---

[1] - - صحيح البخاري بشرح الكرماني كتاب النكاح باب ((قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)) جـ19 ص131، 149، صحيح مسلم بشرح النووي جـ4 ص491-492، سنن أبي داود جـ3 ص130.

[2] - سورة النور الآية: 31.

ولا يبالي بنهيه في قوله تعالى: (وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)[1]. فاعجب عليها من غضب المنتقم الجبار.

والأمرّ من ذلك عندما يسافرون إلى الخارج فكم من وزج أو أب يزعم أنه مسلم، وأنه رجل، يرافق زوجته وبناته إلى النوادي

((575))

والملاهي وغيرها، وهن كاسيات عاريات، مائلات مميلات، يمشين مشية خليعة، تهز الصدور والأرداف، وترسل الشعور تداعب الأعناق والأكتاف، ولا يحمر خجلاً، بل يفرح أنه تزوج وأنجب جمالاً جذاباً يبهر الأبصار، ولا يبالي بعين ترمقها، ونظرة تتفحصها، فيا للداهية الدهياء، ماذا فقد الرجال من رجولتهم حتى أصبحوا أشباه رجال ولا رجال؟ فإن الرجولة شخصية وروح ونخوة وغيرة على محارم الله، قبل أن تكون خشونة صوت أو شارباً ولحية، أهذه الرجولة يا مدعي الرجولة؟[2].

والأدهى من ذلك والأمر ما يحدث في أرض حملة الرسالة من بعض أولئك الذين التهوا بالدنيا وأقبلوا عليها ناسين أو متناسين أوامر الله ونواهيه، التي يتلونها في كتابه العزيز، ويقرؤونها في سُنَّة نبيه الكريم ﷺ، ثم لا يبالون بما ورد فيها من العقوبة الآجلة أو العاجلة لمن عصاه واستمر علىعصيانه، هؤلاء الذين يحضرون مجموعة من الرجال- يسمون بالمزلفين- لإحياء سهرة بالدفوف للنساء أهل البيت والمدعوات من النساء.

فبالله يا مدعي الرجولة، ويا مدعي الإيمان بالله وكتابه ونبيّه،

((576))

ألا تعلم أنك قد أقمت في بيتك المصان ما يغضب الله ورسوله، كما تقدم وأن أوضحته لنا الآيات والأحاديث.

كيف تسمح للعيون الدنيئة أن تجسر فتنظر إلى جسم بناتك وأخواتك ونسائك، والنساء المدعوات فتنعم بمحاسنهن ومفاتنهن وأطيابهن وزينتهن التي حرّم الله إظهارها على غير المحارم وكأن هذا الحسن وليمة قد قمت بالدعوة إليها!!!

---

[1] - سورة الأحزاب الآية: 33.

[2] - الكلمة الموجهة إلى الرجال منقولة بتصرف من كتاب التبرج لنعمت صدقي، من ص61-65.

فويل ثم ويل لأولئك الذين لا يعرفون كرامتهم، ولا يحفظون رعيتهم، ولا يحسنون القيام على ما استرعاهم الله عليه من الزوجات والبنات كما أمرهم الله، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)[1].

أي: أدبوهم، وعلموهم، ومروهم بطاعة الله ورسوله، وأنهوهم عن معصية الله كما يجب ذلك عليكم حق أنفسكم[2].

ولقول الرسول ﷺ كما سبق ذكره: ((كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته...))الخ.

فليعلم الجميع وليتحققوا أن السعادة الحقة لا تكون إلا في ظل شريعة الإسلام وتحت راية القرآن، ونسأل الله الهداية إلى سواء السبيل.

---

[1] – سورة التحريم الآية: 6.

[2] – كتاب الكبائر، لأبي عبد الله الذهبي ص145.

((577))

الباب السادس:

مخاطبة للعقول لتستيقظ وللقلوب لتتوب

بعد إثبات مشروعية الحجاب وتحريم التبرج فلنطبقه على نساء من يدعون الإسلام الآن، فبالله ماذا سترن من زينتهن التي أمرن بسترها إذا كن هكذا أمام الرجال غير المحارم، عاريات الأذرع والصدور، بارزات النهود والخصور، عاريات الأرداف، مصبوغات الوجوه والعيون والثغور، حاسرات الرؤوس، مسترسلات الشعور، ماذا تركت الشريفة لغيرها من فنون التبرج، ماذا أبقت لنفسها من ضروب الاحتشام.

قد يكون هذا التبرج صادراً عن سيدة جاهلة طائشة، ولكن أعجب العجب أن يصدر هذا عن مثقفة حاملة للشهادات العلمية، فتتغافل عن أمر الله، وتتبرأ من التستر والاختمار، وتبيح لنفسها ما حرم ربها، مستهترة بغضبه مُتعمدة مُصرة على اتباع هواها، قال الله تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[1].

((578))

فويل لهذه المتعلمة وغيرها المتجاهلة التي لا تستطيع أن تعصي هواها، وتستهين بأن تعصي خالقها ومولاها، وتسمع آيات الله وتفسهم أمره المؤكد بالاحتشام والاختمار ثم تصر على تبرجها، مستكبرة كأنها لم تسمعها، قال الله تعالى: (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[2].

أتظن هذه المتغافلة التي لم تستفد من علمها أن الله جعل إليها الاختيار في شرائعه بما تهوي إلييها نفسها، فتختار منها ما تشاء وتعصي ما تشاء، إذ تطيع بعض أوامر الكتاب وتعصى بعضها الآخر، ألم تسمع وعيد الله لها ولأمثالها في قوله تعالى: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[3].

---

[1] – سورة القصص الآية: 50.

[2] – سورة الجاثية الآية: 7- 8.

[3] – سورة البقرة الآية: 85.

إنه سبحانه لم يجعل لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يختار برأيه وهواه، وإلا كان ضالا ضلالاً مبيناً إذ قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً)[1].

((579))

ألا فاعلمي يا أختي المسلمة أن كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو من الكبائر خصوصاً هذا التبرج الذي شدد الله فيه الوعيد، والتحذير، وشدد فيه الرسول ﷺ كما سبق ذكره.

ألا فتيقني أن التبرج هادم لكل الحسنات إذا أنت أصررت عليه، وهو إثم من أكبر الآثام، ففكري أيتها السيدة كم مرة أتيت هذا الأمر الكبير- التبرج- وكم أظهرت من عورة، وكمهتكت من حرمة، وكم أيقظت من فتنة، وكم من أعين شرهة التهمت لحمك، وتمتعت بجمالك، وكم من نفس مجرمة تشوقت إلى وصالك.

اجمعي يا سيدتي هذه الآثام في كل خروجك ونزهاتك طوال حياتك، ستجدين وزراً ثقيلاً تنوئين تحته، ولا تستطيعين حمله يوم الحشر: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)[2].

إنك تستصغرين كبير الإثم، وإن في تصغير الذنب تصغيراً

((580))

لأمر الله سبحانه وتعالى، وفي تعظيم الذنب تعظيماً لأمره سبحانه وتعالى، وفي الحديث: ((المؤمن يرى ذنبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يرى ذنبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا، قال أبو شهاب بيده فوق أنفه))[3].

يا أختي المسلمة، إنك تعلمين أن الله يراك وأنه معك أينما حللت، ففكري هل هو راض عنك؟ وتصوري كيف يكون انتقامه منك، فكيف تخدعين نفسك، أو تتجاهلين وأنت على يقين من أن الله غاضب عليك، والرسول برئ منك، ولن تدخلي الجنة، ولن تشمي ريحها كما قال الرسول ﷺ في الحديث إلى أن قال: ((نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها..إلخ)).

---

[1] - سورة الأحزاب الآية:36.

[2] - سورة عبس الآية: 34-37.

[3] - صحيح البخاري بشرح الكرماني كتاب الدعوات باب التوبة جـ22 ص125.

يا أختي المسلمة، إن جمالك قد يكون اختباراً لك من الله سبحانه وتعالى ليرى هل تصونينه بما أمرك الله به، فيرضى عنك، أم تتبرجين وتتباهين من الملعونات.

فما أسعد المرأة التي تشعر بأن جمالها برئ لم يغترف إثماً، ولم يؤذ أحداً، ولم يسبب حسرة، ولم يثر شهوة، ولم تلتهمه الأنظار.

((581))

أختي المسلمة: الخمار شعار التقوى والإسلام، الخمار برهان الحياء والاحتشام، الخمار يا سيدتي المسلمة أشرف إكليل لجمالك وأعظم دليل على أدبك وكمالك.

إن المؤمنة التقية يجب أن يدل مظهرها على مخبرها، وأن يبدو إيمانها وتقواها في ملبسها، كما يبدو في أقوالها وأفعالها، يجب أن يسطع نور الإيمان في كل تصرفاتها وأحوالها فتعرف أنها من أهل القرآن بتنفيذها أوامره، فيحترمها المؤمنون، ولا يؤذيها الفاسقون.

أخواتي المسلمات..

إن في كل ما سبق لذكرى لمن كان له قلب يعي، فيا أيتُّها الغافلة؛ انتبهي واسمعي، وأنصتي لآيات الله بقلبك، واخشعي واقنتي لربك، واسجدي واركعي، ولا تتبرجي تبرج الجاهلية الأولى، أقلعي ولا تتبعي من يسعى لحتفه وهلاكه.

أختي المسلمة:

بادري إلى التوبة قبل فوات الأوان، أسرعي، نعم أسرعي قبل أن يجيء وقت لا تنفع فيه توبة منن التبرج، إذ لا توبة من هذه المعصية إلا من قريب، لا في سن لا جناح على النساء فيها أن يضعن

((582))

ثيابهن، فلا يكون ترك المعصية إلا عن عجز لا عن توبة صادقة، فلا توبة من التبرج إلا لمن تستطيع التبرج فتمنع نفسها طاعة لله وللرسول ﷺ، ولا قيمة لتوبة إلا عند المقدرة، أما إذا فات الشباب فلا توبة منه و لا مغفرة[1] إلا أن يشاء الله.

---

[1] – الباب السادس منقول بتصرف من كتاب: التبرج لنعمت صدقي حرم الدكتور: مُحَمَّد رضا، انظر من ص 20 إلى 61، طبعة دار الاعتصام.

((583))

الباب السابع:

التوبة

لما أمر الله سبحانه عباده بأوامر وألزمهم بها وحذرهم عن أشياء يجب عليهم اجتنابها، وكان التقصير في امتثال تلك الأوامر قد يحصل، عليهم خلقه ما يتداركون به ما وقع منهم من تقصير في امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وبين أن ذلك لا يكون إلا بالتوبة[1]، وفي الحديث الشريف: ((كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))[2].

والتوبة واجبة من كل ذنب ومن أركان الإسلام، وأول مقامات سالكي طريق الآخرة[3]، ولكن لا تقبل التوبة إلا بشروط: فإذا كانت المعصية بين العبد وربه، فإن شروطها ثلاثة:

1 - أن يقلع عن الذنب.

2 - أن يندم على فعلها.

3 - أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً[4].

((584))

فإن فقد أحد الشروط الثلاثة لم تصح توبته.

أما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة، الشروط الثلاثة السابقة الذكر وأن يبرأ من حق صاحبها- هو الشرط الرابع- فإن كان مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها، ويجيب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي[5].

---

[1] - أضواء البيان للشنقيطي جـ6 ص203 بتصرف.

[2] - سنن ابن ماجه جـ2

[3] - المرجع السابق بالهامش ص150.

[4] - رياض الصالحين طبعة دار الكتاب العربي لبنان – بيروت ص10 -11 انظر معه المرجع السابق.

[5] - رياض الصالحين طبعة دار الكتاب العربي لبنان – بيروت ص10 -11 انظر معه المرجع السابق.

قال النووي في شرح صحيح مسلم: ((والتوبة من كل معصية واجبة على الفور، وحتم لازم على كل عاصٍ، لا يجوز تأخيرها سواء أكانت كبيرة أم صغيرة))[1].

والتوبة مقبولة في كل وقت إلا في الأوقات التالية:

1 -الغرغرة وعلامات الموت، فإذا جاءت الغرغرة وبلغت الحلقوم ولم يكن عقله ثابتاً فلا تقبل توبة العاصي ولا إيمان الكافر[2]، قال الله تعالى: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)[3].

((585))

2 -إذا طلعت الشمس من مغربها كما جاء في الحديث المروي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون فيومئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً))[4]

وطلوع الشمس من مغربها من الآيات الكبرى آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ولقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة:

الأدلة من القرآن الكريم:

1 - قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...)[5]

((586))

2 -وقوله تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[6].

---

[1] - شرح النووي بهامش صحيح مسلم جـ5 ص587، 554.

[2] - شرح النووي بهامش صحيح مسلم ص587، 554

[3] - سورة النساء الآية:18.

[4] - صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب بيان الزمان الذي لا تقبل فيه التوبة جـ1 ص371 الجامع للأصول في أحاديث الرسول جـ5 ص152.

[5] - سورة التحريم الآية: 8.

[6] - سورة النور الآية: 31.

3 -وقوله تعالى: (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)[1].

ومن الأحاديث

1 -عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((والله إني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)) رواه البخاري[2].

2 -وعن الأغر بن يسار المزني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يا أيها الناس توبوا إلى الله، واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة)). رواه مسلم[3].

3 -و عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((الله أشدُ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، قم قال من شدة

((587))

الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح))[4] يريد أن يقول: أنا عبدك وأنت ربي.

ومن الأدلة على سعة رحمة الله بعباده ولطفه بهم ما روي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه وخبأ عنده ما ئة إلا واحد))[5].

نسأل الله واسع المغفرة، آمين والحمد لله رب العالمين.

وليكن هذا آخر ما يسره الله لي من جمعه وتسطيره في هذه الصفحات، سائلة الله أن يغفر لي تقصيري، راجية ممن يقع تحت يديه من المشايخ أن يتداركوا زلاتي الناتجة عن قلة علمي، آملة من الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها العباد، وأن يجعلنا ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وأسأله أن يرزقنا العلم النافع والفهم الصحيح والعمل الصالح، وأن يغفر

---

[1] - سورة هود الآية: 3.

[2] - رياض الصالحين- طبعة دار الكتاب العربي ص11.

[3] - رياض الصالحين- طبعة دار الكتاب العربي ص11.

[4] - صحيح مسلم بشرح النووي كتاب التوبة جـ5 ص591، الجامع للأصول في أحاديث الرسول كتاب التوبة باب التوبة وفضلها جـ5 ص150، 151، وقال: رواه الشيخان والترمذي.

[5] - صحيح مسلم بشرح النووي كتاب التوبة باب سعة رحمة الله تعالى جـ5 ص596.

لي ولوالـــدي ولمـــن أحســـن إليَّ إنـــه نعـــم المـــولى ونعـــم النصـــير. وآخـــر دعـــوانا أن الحمـــد لله رب العالمين.